A Y M A N   A L - O T O O M

أيمن العتوم

نفرٌ من الجنّ



الإهداء:

إلى محمّد بن عبد الله . .

الرّسول الخاتَم ؛

والمُبشّر بالنّهايات الكُبرَى ؛

والمُخلّص الأعظم ؛

حينَ انصرفتْ عنكَ قلوبُ الإنسِ صرفَ الله إليكَ قلوبَ الجنّ حتّى وَددتُ لو أنّ لي قلبَ جنّيّ ؛ لأحظى بفرصة الاستِماع إلى الحروف السّاحرة يتلوها فَمُكَ المُطهّر .

أيمن . .

القِسم الأوّل

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا . يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ .

سورة الجنّ (١ - ٢)

**

﴿قُلْ إنَّ الأوَّلِينَ والآخِرين . لَمجموعونَ إلى ميقاتِ يومٍ معلوم﴾ .

سورة الواقعة (٤٩ - ٥٠)

**

«إنّ الإبل خُلقت من الشّياطين ، وإنّ وراء كلّ بعيرٍ شيطانًا»

صحيح الجامع ٢/ ٥٢

(١)
في هدوء الليل وامتداد الصحراء

«ليس هو»!! جاء هاتفٌ من السماء . هيئته تغيّرتْ ؛ الوَجهُ لم يَعُد الوجه ، والعينان لم تَعُد العينَين . وهذا الّذي كانه لم يَعُده ، قد تكون شعلته أضاءتْ قبل أن تنطفئ ؛ ربّما . قد يكون الله ألقى على كرسيّه جسدًا ؛ ربّما . قد تكون سحابةٌ عابرة سقتْهُ قطرةً قبل أن يَيبس ؛ ربما . الروح له؟! مُمكن . أمّا الجسد؟! فبالتّأكيد : لا!!

لم يدرِ كم من الوقتِ كان قد مرّ عليه هنا وهو يُصارع الموت بما تبقّى في أمله من روح . فتح عينَيه بصعوبة ، كان الرّمل قد غطّى جفنَيه ، نفضَ رأسه ليتخلّص ممّا تراكم فوقهما ، فأحسّ بألم شديد كاد يُفقد عينيه نورهما فتغرقان في الظّلام من جديد . تماثَل للصّحو . ورويدًا رويدًا انكشفتْ له الحُجُب المُضبّبة ، فبدتْ بعضُ النّجوم الكسلى تلوحُ في الأفق ، تحسّس رأسه فغاصت يده في لزوجة لم يعهدْها ، مدّ يده ورفعها أمام ناظرَيه المُتعبَين ، فلم يتبيّن في الظّلام [illegible] . بدت النّجوم من جديد تتسلّل من بين فروج أصابعه . قرّب باطن كفّه إلى أنفه ، فشمّ رائحة الدّماء ، أراد أن يتأكّد ؛ لعقها ، فأحسّ بالسّكّر يتغلغل فيما لم يتخثّر منه بعد ، طاب له الطّعم فراح يلعق يده بنهم شديد ، تحسّس الرّمل فغاصت يده فيه ، حاولَ معه اللعبة ذاتها ،

شمّه هذه المرّة بخبرة قصّاص أثر عاش في مهنته أكثر من ربع قرن، عاود الكرّة ليتأكّد؛ هتف في داخله: هذا رمل (الدّهماء)!! صحا عقله دفعةً واحدة، صرخ دون صوت: غير معقول، من المستحيل أن يكون هو. حاول أن يتذكّر ما حدث له، لكنّ الألم الّذي استيقظ في مؤخّرة رأسه منعه من ذلك. جرّب مرّات عديدة: أرسل نظرةً بعيدة في اللّيل البهيم فازداد اللّيل بُهمة، تلفّت حوله يستطلع ارتفاع الكُثبان وعمقها فراحتْ تتلاعب؛ تغور وتنبسط فازداد ذهولاً، جمع النّجوم في السّماء لعلّها تقول شيئًا أو تُشير إلى اتّجاه ما فظلّتْ صامتة، مبعثرة في قبّة السّماء كاملةً...!!

مدّ جذعه لينهض، فغاصت رُكبته في الرّمال، شدّ عليها فتلوّى من الألم، صرخ صرخةً حادّة لكنّها ضاعتْ في هدوء اللّيل وامتداد الصّحراء. نادى على الّذين يعرفهم فلم يُجبه غير الصّمت الذّبيح؛ حتّى الرّيح تخلّت عن حركتها فلم تُسمع لها نأمة. تمنّى للحظة لو أنّه لم يستيقظ؛ هتف في نفسه: نستيقظ من الموت لنواجه فظائع الحياة!!

زحفَ بضعة أمتار وهو يجرّ رجليه خلفَه، كان الألم لا يُحتمل؛ لكنّه لم يكن يملك خيارًا، كافحَ من أجل أن يقطع التّلّة الرّمليّة حبوًا. نجح بعد اجترار آلام لا تُوصَف، ظلّ بطنهُ ملاصقًا للتّراب حتّى إذا وصل أعلى التّلّة عنّ بباله أن يقف على قدميه ليكافئ نفسه بالوصول إلى القمّة، لكنّ رِجليه خانتاه من جديد، تشوّف برأسه، مدّ عنقه بما يستطيع وأرسله نظره في البعيد، شهقَ شهقةً كاد يذهب بعدها في غيبوبة. لم يحتمل الفرحة. صرخ. تردّد صدى الصّرخة في المدى لكنّ أحدًا لم يُجبه. صرخ من جديد. فعاد الصّدى كما تخيّله يتّسع في دوائر تصعد باتّجاه القبّة الكُحليّة. نكّس رأسه خائبًا. التقط

أنفاسه اللاهثة . مدّ عنقه من جديد . ضيّق عينيه . هتف في نفسه : إذا كان حلمًا فليأخذني الله . وإذا كان حقيقةً فليهدني . نهض بجذعه ليستوي جالسًا في الأعلى ، ملأ كفّه من الرّمل ، شمّه أخرى . وراح ينثره على رأسه . تخلّل ثيابه . ملأ عينيه . وسقط في بئر الغيبوبة من جديد .

(٢)
العَفاريتُ تعيشُ عمراً أطول

- هل ما زال حيّاً؟!
- أشكّ في ذلك ، يبدو أنّه فارقَ الحياةَ منذُ يومين .
- كيفَ وصل إلى هنا .
- الله وحده يعلم ذلك!!
- ليس بمقدور البشر أن يسيروا مسافة يومين دون بعيرٍ وماء .
- مسكين . . .!!
- إذا كان قد مات قبل يومين كما تقول ، فلماذا لم يتعفّن؟!
- الله وحده يعلم ذلك!!

لم يستطع أن يقول حرفًا واحدًا . كانت آثار الحروق الّتي تركتْها الشّمسُ على وجهه مؤلمةً إلى الحدّ الّذي لم يتمكّن فيه من الكلام . تراءى له النّاس الواقفون فوق رأسه كأشباح . كانوا ثلاثة ؛ أحدهم كان يضع عمامة فوق رأسه ، والثّاني بدا طويلاً أسودَ البشرة ، والثالث كان قصيرًا يقف في مواجهة الشّمس فيحجب بعضَها ، واضطرّه بعضُها الآخر إلى اتّقائه بنصف إغماضة . أراد أن يُشير إلى فمه ؛ لم ينجح . كلّ شيء في جسمه كان قد تعطّل باستثناء غَبَش النّور في عينَيه .

وصدى الأصوات تتردّد في حجرات أُذنيه . دنا أحدهم منه ، نظر في إحدى عينيه مُباشرة ، رأى هالةً سوداء تُحيطُ بها فزمّ شفتيه ، أمال رأسه باتّجاه الأخرى ونظر فيها ثمّ هزّ رأسه بأسف : «أظنّ أنّه ميّت» . رفع القربةَ إلى فمه يشرب منها فاهتاج جسده توقًا إلى الماء ، هل يفعلها هذا الرّجل ذو البشرة السّوداء الّذي يُحدّق في عينيه فيقطُر في فمه بعض هذه القطرات فتعيدُ إليه الحياة؟! كيفَ وهو يُوقن أنّه أمام جثّة!! دنا منه الرّجل أكثر ، وضع القربة جانبًا ، أحسّ أنّ الحياة كانت متّجهة إليه ثمّ انعطفتْ جانبًا . مدّ الغريب يده إلى الجفن الأيمن ورفعه عاليًا ثمّ تركه ، عاد إلى الجفن الأيسر وفعل الشّيء ذاته . التفتَ إلى صاحبيه الواقفَين خلفه ، وقال بثقة :

- قلتُ لكم لا فائدة .

- ماذا نفعل؟!

- كرامة الميّت في دفنه .

شبّ الرّعب في خلاياه ، انتفضتْ روحه وبقي جسده على حاله لا يُحرّك ساكنًا .

- لنرفعه على ظهر الجمل ، وندفنه بعيدًا عن الطّريق . (قال أحدهم) .

ذهب ليُحضر الجمل . قرّبه .

- صار جاهزًا . ارفعا معي .

رفعاه على الجمل ، وساروا به .

- هُنا . في ظلّ هذه الشّجرة .

- في ظلّ هذه الشّجرة؟!

- نعم . الأرواح تحتاج إلى ظِلال .

تبعهما رفيقهما الثّالث ومن بعيد طلب منهما أن يتوقّفا . فتحرّكت الحياة الهامدة فيه من جديد ، قال بصوتٍ مرتفع وغاضب كأنّما انتبه لشيء ما :

- ولكنْ ، إذاً كان لم يتعفّن جسمُه ، وأنتَ تقول مات قبل يومين ، ألا يُمكن أن يكون قد سكنتْهُ أرواحُ العفاريت؟!

دبّ الهلع في أوصال الآخرَين :

- وما عسانا نفعل إذاً؟!

- نسير به إلى المضارب ، ونعرضه على أهل العلم .

- وماذا سيفعلون بجثّة؟!

- جثّة؟! ومن أدرانا أنّه بشريّ!!

- سنتحوّل إلى أضحوكة إذا رآنا القوم ونحن نُقدِم عليهم بهذه الجيفة . الأفضل أن ندفنه هنا كأنّ شيئًا لم يحدث . نحن أيضًا كدنا نُصبح مثلها لولا . . .

- وإذا كان عفريتًا؟! (قاطعه ذو العمامة)

- سينقذ نفسه ؛ العفاريت تعيش عمرًا أطول .

- تقصد ؛ لا تموت!!

تابع الغرباء الثلاثة سيرهم ، مشى أكبرهم أمام الجمل الّذي تقوّس فوقه جسد الرّابع . وركب الآخران . كانت الشّمس تختبئ تدريجيًا خلف التّلال البعيدة . على امتداد الرّمال الحمراء بدت اللّوحة أكثر بساطةً وجَمالاً . سلب المنظر الّذي رأوه مئات المرّات عقولهم كأنّهم يرونه لأوّل مرّة . «المعالم تتغيّر مهما اعتدْنا عليها» (هتف ذو البشرة السّوداء) . حدا الماشي بصوتٍ شجيّ من تحتِ رقبة الجمل الّذي يقوده فاهتزّ الجمل بمَن فوقه . سقطتْ الشّمس في الأفق ، وهبط اللّيل

بسرعة . توقّف الرّكبُ فجأةً كأنّ الصّحراء قد ابتلعتْ خُطاهم . رغت الجمال بصوت أجشّ . حثّها الثّلاثة فما تزحزحتْ شبرًا واحدًا . أدار بعضُهم النّظر في وجوه بعض . طفحتْ وجوهم بالاستغراب . «ستحدثُ الطّامّة من جديد» (قال ذو القامة القصيرة) . تجمّدتْ أنفاسهم للحظة ، ثمّ ابتلعوا هواء الصّحراء دُفعةً واحدة ، تراءت لهم على غَبَش الظّلام نعامةٌ هائلة الحجم يركبها رجلٌ ولّى ظهره لهم فبدا عاريًا ، كانت رجلاه تتذبذبان على ظهر النّعامة فتقفز قفزات بعيدة . ارتجفت أوصالهم . شدّوا خُطُم الإبل كأنّهم واثقون من أنّها ستُتابع السّير . ولكنّها رغتْ من جديد بصوت أعلى ولم تبرح أمكنتها . حدا ذو الصّوت الشّجيّ آملاً أن تستجيب لغنائه ؛ لكنّ شيئًا لم يتغيّر ، وحدها النّاقة الّتي تحمل الجسد الرّابع اضطربتْ اضطرابةً عنيفةً به فسقط . صمت الحدّاء وهُرِع إلى الجسد . كانت السّقطة عنيفة . وذو النّعامة قد غاب عن مدى الرّؤية في مجاهل الصّحراء . سكن كلّ شيء حول الرّكب . تناثرتْ بقيّة الرّوح في جسد الرّابع . سقوطه على صُدغه حزّ فمه ، ندّتْ منه آهةٌ مسموعة . «إنّه عفريت . . . إنّه عفريت» (صرخ ذو العمامة) كانت هذه الآهةُ في الليل المُرتجف سببًا كافيًا ليولّي الثّلاثة الأدبار على جِمالهم تاركين الجسد مُسجّىً في البرزخ . مرّتْ هنيهةٌ بطيئة من زمنٍ ما ، عادَ ذو النّعامة في طرفة عين . أردف الجسد خلفه وغاب في الظّلام من جديد!!

(٣)
الكَلْب لا يُنجِب إلاّ كلباً

ركضَ وراء الصّبية حافيًا ، يكاد جسده النّحيل يغوص في ثوبه الأبيض المُمزّق الّذي استحوذ عليه السّوادُ فحال لونُه ، وحينَ اكتمل عددهم اثني عشر صبيًا في السّاحة الصّغيرة ، ظلّ نظره مُثبّتًا على قطعة الحلوى الّتي يسيل من أطرافها العسل في يد ابن الشّيخ ، كانت أضلاعه قد اختلجتْ في صدره ؛ منذ ثلاثة أيّام لم يأكل شيئًا ، كانت آخر مرّة حين نادتْه (أمّ سليم) ، أطلّتْ من بيتها الطّينيّ وأشارتْ له بيدها من بعيد ، عرف أنّها تعنيه ، تبعها إلى الدّاخل ، كانت قد غمستْ بعض الخبز اليابس في إناء صغير من الفخّار حتّى صار طريًا ، لم يكنْ الخبز كافيًا ليملأ الوعاء حتّى ولو كان صغيرًا ، صفّتْهُ من الماء ، واستبقت الخبز المُبلّل ، وقدّمتْه لـ (رضى) كما كانت تناديه . مدّ يده المرتجفة وهو لا يكاد يُصدّق عينيه ، أضاءتْ صفحةُ وجهه . لمعتْ عيناه . فغرَ فاه فتشقّقت زوايا شدقيه لطول عهدهما بالماء . أطبقهما ثانيةً . ذبلتْ عيناه ، وارتختْ يداه . قرّبتْ (أمّ سليم) الإناء منه ، أطالت النّظر نحوه بحنوّ ، كانت دمعةٌ تحاول عبثًا أن تحتفظ بترقرقها في الجفنين لكنّها سقطتْ على الخدّ حارّة . اطمأنّ الولد . مال بجذعه إلى الأمام وغاص وجهه النّحيل في الإناء وراح يأكل منه كقطّة أليفة ،

بعد أن أتى على ما فيه ، رفعه إلى شدقيه وشرب ما تبقّى فيه من ماء ، ومدّه بكلتا يديه إلى (أمّ سليم) وعيناه تنطقان بكلّ شيء .

وقفوا في صفٍّ واحد يفصل بين صبيٍّ وآخر مسافةُ جريدةٍ من النّخل ، أتمّ ابنُ الشّيخ ازدراد ما تبقّى بين يديه من (اللزّاقيّة) ، ومصّ أصابعه من أثر العسل ، وأخذ مكانه في منتصف الصّفّ ، في حين وقف (سرحان) على أوّله ووجهه إلى الصّبيان ، رفع بيده اليُمنى عصًا صغيرةً يابسة ، وباليُسرى رقعةً مدبوغةً من جلد الماعز ثُبّتتْ على جويف جذع مقطوع ، وصفّق ما في اليُمنى باليُسرى إشارةً للبدء . تراكض الصّبية وهم يتصايحون ، كانوا عفاريت تقفز بسيقان نحيلة بانت من تحت جلابيبهم وهم يُهرعون إلى (الغيضة) ليلتفّوا حولها ويعودون إلى نقطة البدء . ثار الغُبار ، وعلت الأصوات . كان (سرحان) حريصًا على أن يراقب المُتسابقين ويُطبّق شروط اللّعبة : الالتفاف حول (الغيضة) من جهة الشّرق ، والانحناء لأخذ عُشبة من الأرض أسفلها . فعلوا ذلك جميعًا باستثناء ابن الشّيخ الّذي لم يُكمل دورته حول (الغيضة) ، وعاد فارغ اليدين . حينَ وصلوا إلى (سرحان) كان الأخير يمدّ يده بموازاة كتفه ليلمسها الفائز ؛ ولسوء الحظّ كان (رضى) أوّلَ الواصلين إلى يده الممدودة ، احتفل بالفوز على عادته ؛ تمايل بجذعه يمنةً ويسرة ، ووضع إبهام يده اليُمنى على رأسه وانحنى إلى الأمام قليلاً بعد أن ألقى يُسراه على ظهره وراح يدور حول نفسه وهو يصيح مُغتبطًا ؛ لم يكد يُكمل دورةً واحدة حتّى هوى ابن الشّيخ بجُمع يده على وجهه فترنّح . لم يُمهله كثيرًا ؛ عاجله ابن الشّيخ بضربة ثانية فسقط على الأرض والدّم يسيل من زاوية فمه ، تعفّر وجهه بالتّراب . انقطع صياح الأولاد فجأة . وقفوا يُشاهدون وهم مرعوبون . ركضتْ (أم

سليم) باتّجاههم وهي تولول ، هرب ابن الشّيخ ، التقطت المسكين من الأرض وهُرعت به إلى الدّار .

مسحت الدّم عن وجهه ، ثمّ في وعاءٍ معدنيٍّ مُفلطح سكبت الماء حتّى امتلأ نصفه ، أجلسَتْهُ في حجرها وراحتْ تغسل وجهه وهي تبكي تارة ، وتلعن ابن الشّيخ تارة أخرى : «الكلب لا يُنجب إلاّ كلبًا مثله»!! أمّا هو فراحت شفتاه تبرطمان والماء ينسكب فوقهما . تابعتْ وهي تُرغي من جديد : «لو كانتْ أمّك حيّة لوجدتَ مَنْ يحنو عليك ؛ حرام والله حرام . وقع الجمل وكَثُر ذبّاحوه» . أوقفتْه مرّة أخرى على قدميه في الوعاء وخلعتْ ثوبه المُمزّق ورمتْه بعيدًا ، ثمّ راحتْ تسكب الماء على جسده من جديد . ارتجف الولد كجناح ذُبابة ، وراحتْ أسنانه تصطكّ . شبّكَ بين يديه ورفعهما إلى صدره التماسًا للدفء ، فخانه . فاستمرّ في الارتجاف . قرفصَ فصار مثل كرة ، دفن رأسه بين ساقيه ليهدّئ رَجَفانَه المتتابع فلم يُفلح . أتمّتْ سكب الكوز الأخير على أضلاعه الّتي بانت من تحت جلده الرّقيق ، حملت الكُرة وضمّتْها إلى صدرها ، ثمّ أجلستْهُ في حضنها ، وبثوبها الأسود راحتْ تُجفّف جسده ، وتُهدّئ من رَوعه . أدخلته إلى البُسُط وغطّتْهُ بأحدها . تناولت ثوبه . ألقتْه في الماء نفسه وراحتْ - جاهدةً - تُزيل آثار الدّم والغُبار والأوساخ عنه . نشرتْهُ أمام البيت ، وعادت لتتفقّد (رضى) . انتظامُ أنفاسه دلّها على أنّه غرق في نوم عميق قبل أن تكشف عنه البساط الّذي احتجب تحته . هزّتْ رأسها بأسى ، بكتْ هذه المرّة بصوت مسموع ، ولعنت الشّيخ وابنه : « لوكان أبوك بيننا لما جرؤ أحدٌ أنْ يقترب منك . ولو كان هُنا لمرّغتَ أنفَ ابن الشّيخ الكاذب في التّراب» .

(٤)
دابّةُ تأكل المِنسأة

جلس (سـرحـان) إلى جـوار (رِضى) . الأزرق الّذي يُحيط زاوية فمه في طريقه إلى التّلاشي .

- «التّعافي يحتاج إلى وقت» همس سرحان في أذنه .
- «كلّ شيء يحتاج إلى وقت» ردّ رِضى .
- «مَن يقدر على ابن الشّيخ»!! تابع سرحان
- «شروف . سوف أجعلها تلتهم رأسه يومًا» . أجاب رضى بثقة .

«اصمتا أيّها الصّبيّان» نهرهما المُقرئ (علاّم) من بعيد . أشار لرضى :

- أنتَ . . . تعال .

وضع (رضى) رقيمه جانِبًا ونهض بخفّة ، ووقف بين يدي (علاّم) بخشوع ، سأله الأخير :

- ما اسمك؟
- رِضى .
- لماذا تلبس هذا الثّوب الممُزّق؟
- ليس عندي سواه .
- ضَعْ غِطاءً على رأسك أو اغسله .

- لا أملك غطاءً وليس عندنا ماء .
- وأين أمّك؟!
- ذهبتْ إلى السّماء .
- من قال لك ذلك؟!
- أم سليم .
- وأبوك؟!
- لحق بأمّي .
- وأمّ سليم هذه ألم تشترِ لك نعلاً .
- أمّ سليم لا تملك شيئًا .
- قف هنا جانبًا واقرأ خلقي !

لَها أيْطلا ظَبْيٍ وساقا نَعامَة
وَإرْخاءُ سَرْحانٍ وَتَقريبُ تَتْفُلِ

المُقرئ (علاّم) هبط القرية الطّينيّة فجأة . لم يكنْ أحدٌ هنا يعرفه . ولم يكن عند الصّبيان مُعلّم قبله ؛ ومَنْ يأتي بمعلّم لقرية طينيّة تغوص في ذاكرة الرّمل في مَهمهٍ لا مُتناه من صحراء شاسعة!! بعضهم قال : إنّ الشّيخ العظيم طلب من وزارة المعارف عبر بعض المتنفّذين أن يأتيهم مَنْ يعلّم أبناء القرية القراءة والكتابة . كان الشّيخ يريده لابنه ، ردّ عليه الوزير : أكلّف الدّولة كلّ هذا المال من أجل ابنك!! فَرْدٌ واحدٌ!! لا . . . لا . سأبعثه ليعلّم القرية بأكملها . الدّولة لا تستطيع أن تدفع له خمس (مسكوكات) لقاء أتعابه ، عليكم أن تفعلوا أنتم ذلك . في الحقيقة لم يكنْ أحدٌ في الصّحراء كلّها يملك (مسكوكة) واحدة ، اقترح الشّيخ أن يُعطيه راتبه ممّا تُنتجه دوابّه ،

رطلاً من السّمن ومثله من الأقط كلّ شهر .

كان الشّيخ (عايد) فيما مضى ذا مُلك عظيم وثراء فاحش ، تقلّب في النّعيم حتّى فقده ، وشرب من ماء الرّخاء حتّى جفّ ، وجحد فسُلب ، ولو شكرَ وعرف لزيدَ واغترف . وظلّ يعيشُ على مجده الفاني ، وما أبقاه له الزّمن من لُعاعات لا تملأ فمَ الجائع النّهم .

لم يكنْ بدويًا مثلنا؟! ألم يجدوا واحدًا رَطْنُه من رَطْننا يفهم علينا ونفهم عليه حتّى يبعثوا لنا بهذا المُقرئ الغريب الّذي يتكلّم مثل الجنّ ، ويصرخ مثلهم ، ويأكل على شاكلتهم؟!

اضطرّ الشّيخ إلى أن يبني للمُقرئ بيتًا مكوّنًا من غرفة طينيّة واحدة ، تمتدّ على سقفها الألواح الخشبيّة ، كان قد أمر نصفَ رجال القرية أن يذهبوا في عُرضِ الصّحراء ليأتوه بألواح من خشب (الغَشمة) . قال لهم الشّيخ :

- الصّحراء مليئة بالكنوز لكنّكم لا ترونها ؛ لم تكونوا أحياء في ذلك العهد الذّهبيّ الّذي عشته مع أخي . . . ابحثوا جيّدًا أيّها المعاتيه ، وعودوا بشيءٍ ممّا لم تطمره من كنوزها ؛ هذه الصّحراء اللّعينة . . .!!

بعد أسبوعَين من العمل المُضني صارتْ غرفة المُقرئ جاهزة ، بحمّامها الّذي يقع على بُعد بضعة أمتار من الغرفة مبنيٌّ من جريد النّخل . وحده الشّيخ والمُقرئ وبعض البيوت كانت تحظى بهذا المُلحَق الترفيهيّ . الأمر لا يحتاج إلى كثير من العناء للباقين ، خارج أسوار الغُرف كلّها صحراء شاسعة ممتدّة إلى الجهات كلّها ؛ افعل هناك براحتك ما يُريحك!!

جهد الشّيخ أن يضمن لابنه تعليمًا مُختلفًا عن أبناء القرية ، أمر

بعض رجاله أن يصنعوا له لوحًا من الخشب بدلاً من جلد الماعز، وحرص على أن يجلس أمام المُقرئ مباشرة ليتلقّى عنه العلم وجاهة، ولم يملّ من ترديد عبارته الممجوجة: «تذكّر أيّها المُقرئ العزيز أنّه لولا ابني لما تعلّم أحدٌ من هؤلاء الصّبيان المُغفّلين، ولولاه أيضًا لما كنتَ ستعيش بيننا كواحد منّا». كثيرًا ما كان المُقرئ يتجاهله.

- سَرمَد. (نادى المُقرئ).

تلفّت (سَرْمَد) حوله كطائر ينقر حبًّا بين يديه، ثمّ نظر بعين حادّة إلى المُقرئ، وتقدّم خُطوتين باتّجاهه:

- نعم يا مولانا.

- اتلُ الآيات العشر الأولى من الإصحاح الأوّل من سِفر التّكوين.

لم تنل عصا (المقرئ) من أحد كما نالتْ من قدمي (سَرمَد)؛ لم يكنْ يحفظُ آيةً واحدةً من كُتُب الله، ولا بيتًا ولو يتيمًا من الشّعر. شديد السُّمرة، بشعرٍ طويلٍ غطّى أذنيه، وأسنان بيضاء تلمع إنْ فتح فمه بكلام أو لم يفتحه، وعينين ضيّقتين تدوران في محجريهما على الدّوام، وتبرّقان كلّما ثبّتهما في وجه مُحدّثه وفاض بسموم كلماته. قضى أكثر صباه في اللّعب واللّهو. وحينَ عادَ ذات مرّة إلى أبيه واضعًا العقال على رأسه دون الغطاء وقد دخل نصف العقال في رقبته ولفّ النّصفُ الآخر قُمع رأسه، عرف أبوه أنّ هذا النّوع من العقاب لا يفعله بابنه إلاّ (المُقرئ):

- يا مولانا؛ إنّ ابني يحبّ أن يتعلّم.

- ابنُكَ دابّةٌ تأكل المِنسأة.

- يا مولانا ؛ لو أعطيتَه مزيدًا من الاهتمام .
- أنتَ من يجب أن يفعل .
- كيف؟
- خزائنك الّتي لا تأكلها النّيران ، تصدّق بشيءٍ منها على فقراء القرية حتّى تحلّ بركةُ الشّفاء على ابنك!!
- خزائني . .؟! أين هي خزائني . . . لقد دُفنتْ كغيرها تحت الرّمال . . تحسدني على بضعة دريهمات . . كيفَ أدعُ هؤلاء الحمقى ينهبون أموالي .
- فليكنْ . . . ابنِ لنا مدرسةً بدل أن تتركنا ها هنا في العراء نقاسي الحرّ والبرد .
- الجدران ستُضيّق على الصّبيان أنفاسهم . . . لا تنسَ أنّ ابني لا يحبّ الأماكنَ المُغلقة .
- ابنُك . . .!! إنّه ساقُ ذرة جوفاء لا يريد أن يتعلّم .
- يجب أن يتعلّم ؛ سيصبح الشّيخ من بعدي!!
- إذًا ستصبح قريتك قرية السّيقان الجوفاء ، وستضيع جرّاء غبائه وبُخلك .
- لا تقسُ عليه هكذا . ماذا أصابه؟!
- أنتَ تُرخي له الطِّوَل . وستُفسده وتُفسد أبناء القرية معه .
- لا . . . ليس هذا ما تقول . . . أعرف أنّ الحسد لا يترك امرءًا في شأنه . إنّها تعقد له العُقَد صباح مساء .
- يا شيخ ؛ دعك من هذه الخُزعبلات ، وطهّر ابنك من ابتذاله .

على طرف القرية من جهة الجنوب ، مدّتْ ثلاثُ نخلاتٍ

جذوعهنّ سابحات بالسّعف نحو السّماء. كنّ ينتشرنَ على شكل مثلّث، وبينهنّ غارت في عمق لا يعرف أحدٌ قراره بئرٌ لم تنضُب يومًا من الماء. يرمي المرء دلوه فيها ويضع أذنه على فوّهتها ولا يحظى بصوت ارتطام الدّلو إلاّ بعد وقتٍ طويل. وحينَ يسحبه يحتاج ربّما إلى من يعاونه كي يتقاسما عناء إخراجها من هناك... هناك حيثُ باطن الأرض الغامض. حيثُ السّرّ الّذي يجعل ماءها أعذب ماء عرفته الصّحراء كلّها. يشربُ صاحب الدّلو فيرتوي، ويبقى مرتويًا لأيّام قبل أن يعطش من جديد، لكأنّ من يشرب من تلك البئر يُخزّن الماء في جسده ولا يستنفده، لكأنّ من يشرب من تلك البئر يتحوّل جملاً يحتفظ بالماء لأيّام.

على حوافّ تلك البئر يقف عشرةٌ من العبيد الأشدّاء يحرسونها من أن تستولي عليها قبيلةٌ أخرى، أو يرمي أحد الحاسدين من القوافل العابرة شيئًا يجعل طعمها أجاجًا، أو ينفث فيها السّحر أو السّمّ.. والأهمّ أنّ ماءها يُنقل من هناك على حمّالات فوق ظهور مجموعة أخرى من العبيد إلى الشّيخ لكي ينعم وحده بمذاقها السّاحر. لم يكن أحدٌ من أهل القرية قادرًا على أن يحظى ولو برشفة واحدة من ذلك الماء... ظلّتْ الأحلام حبيسة العقول إلاّ لأولئك الّذين يُقدّمون قربانًا من أجل هذه الحُظوة؛ إمّا عنزةً أو تيسًا أو جملاً... من قدّم العنزة أو التّيس فيشرب مرّة واحدة، ومن قدّم الجمل فيشرب سبع مرّات...

وكان العبيد يخضعون لاختبار السّرقة. لم يكن الشّيخ يثق بهم ويردّد أمامهم وأمام العامّة: «العبيد أنجاس ومناكيد، وعليّ أن أشهر السّيف في وجوههم دائمًا». كان الاختبار يقضي بأن يُلقى العبد المُشتبه باختلاسه شربةً من تلك البئر في بئرٍ أخرى مهجورة. يبقى

هناك أربعة أيام دون طعام أو شراب . وفي اليوم الخامس يُخرجونه فإن مات فقد استحقّ جزاء لصوصيّته من الله العادل ، وإن بقي حيًا فتحلّ عليه لعنة الشّيخ ؛ كان يُساق عاريًا مربوطًا من يديه إلى ذيل جمل أورق ، ويُطاف به على أهل القرية ليروه في هذه الهيئة ، ويُغرى به صبيان القرية وسفهاؤها - وما أكثرهم - فيرمونه بالجذوع اليابسة والرّوث والنّعال البالية ، حتّى إذا سال الدّم وطاف ما طاف ، يُساق إلى نخلة في ساحة المذبح ، فيُصلبَ على جذعها حتّى يموت .

حدث ذلك مرّة واحدة كما تقول (أمّ سليم) . بعدها دبّ الرّعب في قلوب كلّ المخلوقات في القرية ، فحرّم العبيد الّذين يحرسون البئر من أن ينظروا حتّى إلى فوّهتها . وظلّ سرّها غائرًا فيها . وحده الشّيخ كان يعرفه إلى جانب أخيه .

**

ركزَ المُقرئ عمامته فوق رأسه ، وأصلح من شأن جلبابه على كتفيه ، انسدل الثّوب الفستقيّ مُزركش الأكمام على طوله ، أزراره السّود العشرة أخفتْ ما وراءها وهي تصكّ الثّوب على الجسد المشدود ، حرّك عصاه في الهواء مرّتين ، أشار في الثّالثة للصّبية الحُفاة إيذانًا بأن يأخذ كلّ واحد مكانه . جلسوا على الأرض ومعهم رُقُمُهم ، في المدى لم يكن هناك ما يحجب الرّؤية والنّظر في الرّمال الحمراء إلاّ الخوف من المُقرئ أن يُمسك أحدهم متلبّسًا بشرود الذّهن . وحده الأستاذ كان يتمتّع بالجلوس على جذع نخلة مقطوعة هُيّئت كمقعد ، وعليها فروة جمل فارقَ الحياة ذات يوم في أحد الأعياد . تنحنح (علاّم) إيذانًا ببدء الدّرس فاشرأبّتْ إليه الأعناق ، كان يُمسكُ بمخطوط القرآن بين يديه ؛ قلّب أوراق الجلد حتى وصل إلى مُراده ، خفض رأسه بهدوء ، وتلا

بصوتٍ رخيم : «وَإِذْ صَرَفْنا إِليكَ نفرًا مِنَ الجنّ يَستمِعُون القُرآنَ ..» بدا الخشوعُ التّامّ على رؤوس الصِّبية ، أطرقوا برؤوسهم كما لو أنّها فقدتْ حرّيتها في الاعتدال ، وهمدتْ أرواحهم وهي تستكين داخل أجسادهم . جسدٌ واحدٌ فقط أخذتْه الرّجفة ، وهو يحاول أن يصرّ على أسنانه ليكتم صوته المحبوس داخل جوفه ، ازدادت رَجفته ، وراح يهتزّ كورقة في مهبّ ريح عاصف ، فتح فمه على اتّساعه ، وصرخ صرخةً انشقّ لها سكون الفضاء ، التفتَ المُقرئ نحوه مستطلِعًا وحانقًا ، صاح وهو مذعور :

- ما الّذي أصابك يا (سَرْمَد) . . . !!!

(٥)
الطّمع.. شيطانٌ بستّين قرنًا

اجتمع أهل القرية كلّهم ، حتّى أولئك الّذين عاشوا على أطرافها ، وأولئك الّذين ربطتْهم علاقات تجارية مع الشّيخ من قرىً أخرى ، ومضارب بعيدة جاؤوا ليشهدوا ذلك اليوم . النّساء خرجْن مثل الغربان ، وامتلأت بأفواجهنّ طرق القرية المُتربة ، في الطّريق راحت بعضُ النّسوة تُزغرد ، وبعضُ هذه الزّغاريد أيقظَ روحًا كامنة في (رضى) ، أمال رأسه من تحت غرفة (أمّ سليم) يلتقط الألحان القادمة من هناك ، فدخلتْ كأمواج من طيوف إلى جسد لا يستره إلاّ الرّضى . لا يعرف شيئًا عن أبيه وأمّه إلاّ ما كانت تحدّثه به من قالوا عنها إنّها خالته (أمّ سليم) ، كانت هذه الأخيرة أحدب عليه من الأمّ على فطيمها . قالوا إنّها طليقة الشّيخ ، دخل بها يومًا واحدًا واستيقظ في الهزيع الأخير من اللّيل مذعورًا وطردها من بيته الكبير دون أن يقول لماذا ، ودون أن يعرف أحدٌ ما الّذي دفعه إلى ذلك . وحدها (أمّ رضى) كان لديها طرفٌ من السّر ، لكنّ هذا الطّرف من هذا السّر الأثير مات بموتها .

جاءت من (يبرين) على أطراف هذه الصّحراء ، كان أبوها ملكًا على تلك الواحة الّتي جعلت القلوب الرّاجفة في الصّحراء تهفو إليها ،

وكما لو كانت الجنّة مهوى أفئدة المؤمنين بالله في العالَم الأخرويّ
كانت (يبرين) مهوى هذه الأفئدة نفسها في العالم الدنيويّ .

احتلّتْ واحة (يبرين) آلاف الكيلومترات المربّعة ، وحظيتْ بماء دائ
من بئر جوفيّ جعل من استقرار أهلها أمرًا واقعًا ، ونبتتْ في مناطقه
أشجار النّخيل والتّين والزّيتون وكلّ ما هو مُبارَك . وسرحتْ في مرابضه
الإبل والغنم والخيول حتى كاد لا يُعرَف أصحابُها لكثرتها ، وعلى
أطرافها توزّع عددٌ من (العوفيّين) يحرسون حماها ، ولم يمنع ملك
(يبرين) من جاء من خارجها ينشد الماء والكلأ . وقسمّ الماء بين إبا
وإبل رعيّته ، فيومٌ له ويومٌ لهم . ولم يُعاقِب أحدًا في أيّام مشيخته على
أنّه سقى إبله في غير يومه اللهمّ إلاّ (مطروف) . كان هذا الأخير أحد
قصّاصي الأثر الّذين جعلهم الملك على مشارف (يبرين) يحمونها ، وكا
داهيةً ، اعتمد عليه الملك في تتبّع اللّصوص الّذين يجرؤون على سرق
ممتلكات محميّته ، وتسوّل لهم أنفسهم النّيل من هيبة دولته . ونال حظ
كبيرة ، حتّى إنه كان يدخل على الشّيخ في كلّ حين ، ولم يحجبه ع
ليلٌ أو نهار . ولمّا زادت الأموال في يده ، ونمتْ إبله ، وكثُر عددها ،
الطّمع في قلبه كما ينمو الصّبّار في عُرض الصّحراء . كان عسيرًا عل
أن يتخلّص من ذلك ، وقد نشب في قلبه نشوب المِخرز في رَحل الدّابّة
فانفتح بطنه على كلّ نهمة . وصار - لموقعه وحُظوته - يأخذ من أولئا
القادمين من أطراف الصّحراء البعيدة ناقةً على كلّ عشرة من الإبل
على أن ترعى هذه العشرة وتشرب في الحمى حولاً كاملاً . ولم يتو
على أن يأخذ اللّبن والأقط والسّمن من أولئك الّذين يملكون أقلّ م
عشرة إبل ، ثمّ يبيع ما يأخذه منهم في السّوق ، يبدّلها بطعامٍ آخر ،
بعنزةٍ يُضيفها إلى حَلاله الّذي راح يتضخّم يومًا بعد آخر .

بلغ الأمر الملك فحنق . وجدّ في طَلَبه . وجاءه رَسول الملك فعرف أنّ أمره انكشف . فارتجفتْ ساقاه لما هو آت ، وأيقن بسوء عاقبته . وفكّر بأن يهربَ ويأخذ كلّ ما يملك من دوابّ ، ولكن إلى أين والصّحراء كلّها تطلبه إن طلبه الملك ، وكلّ ذرّة من رملها تُخبر عنه . فقرّر أن يأتي الملك ويطلب منه العفو ، ويُعيد إلى حماه كلّ ما لديه ممّا كان له أو كان ممّا جباه من سواه . دخل قصره المنيف مُطرق الرّأس ذليلاً ، جثا على رُكبتيه :

- لا أرغب إلاّ في عفوك مولاي .
- وما الّذي حَمّلك على ما فعلتَ؟!
- الطّمع . . إنّه شيطان بستّين قرنًا .
- الطّمع إذا دخل القلب لم يخرج .
- أُقسمُ أنّني أخرجتُه .
- والخيانة؟!
- غيابُ العقل عن إدراك الواجب .
- لم يغفرها أحدٌ من قبلي ولن أغفرها لك .

في الصّباح كان يوم الزّينة ، في السّاحة المحفوفة بأشجار النّخيل ، كان آلافٌ من رعايا المملكة يتحلّقون في دائرة حولها . وفي الوسط كانتْ يدا (مطروف) موثّقتين خلفه . حاسرَ الرّأس ، حافي القدمَين ، يدفنُ هامته بين رُكبتَيه . تقدّم نحوهُ السّيّاف بثقة ، وبحركة مدروسة تعوّد عليها طويلاً ، رفع سيفه عاليًا وهوى به فتحدرج الرّأسُ مثل كُرة نُحاسيّة ، وراح الدّم يتفجّر من حزّ رقبته كنافورة . وسقطَ الجسدُ الموثق على جانبه كحجر ثقيل!!

قوافل البخور والتّوابل والعطور لم تنقطع عن الواحة ، آلافُ القوافل

كانت تغدو وتروح ، بعضُها يأتي من الهند ، وبعضها من بلاد فارس ،
وأخرى من اليمن . انصبّ الخير في الواحة كما لو أنّ ديمةً ماطرةً لم
تغادر سماءها .

قال الملك في اليوم التّالي وهو يجلس إلى مُستشاريه : «بعض
العدل يستوجب السّيف . ومن هان على نفسه هان علينا . الله قد يغفر
الطّمع لمن يشاء لكنّه لا يغفر الكذب والخيانة . وَلَكُمْ في القِصاص
حَياةٌ» .

شدّتْ (أمّ سليم) رضى من يده ، وقالتْ له : تعالَ سنحضُرُ ولادة
(جويخة) . أسرِعْ . لا وقتَ لدينا . خرج حافِيًا يتبعها وهي تتهادَى
أمامه بثوبها الأسود الفضفاض . . . ومن بعيد سُمِعتْ أصوات الزّغاريد
تنطلق من جديد .

(٦)
العَطَشُ إلى الماء
جُوعُ البَشَريِّ إلى أصلِهِ

لفَّ ذراعيّه حول خصره ، فاستيقظ من جديد ، التهبتْ يداه من شدّة الحرارة . كان جسده حاسيًا ، تركَ خصره فهو لا يريد مزيدًا من الحروق . تطلّع حوله رأى الصحراء تُطوَى بلمحة البصر . والأشجار على الجانب الأيمن تتحرّك خلفهم كأنّها تركضُ في الهواء . والنّخلات في الجانب المُقابل تنحني كلّما مرّوا بواحدة ؛ حتّى أعذاقُها كادت أن تمسّ الأرضَ من شدّة الانحناء ؛ لكأنّها تحيّيهم . صُعِق ؛ لم يرَ في حياته نخلة تنحني . عرف كلّ النخل ، وتسلّقه ، ونام على جريده سنوات حياته ، وقضى ليالي الصّيف متعربشًا على ليفه ، متمسّحًا بخُوصه ، وقطف ثمره ، وحاكاه ، وحدّثه بمكنون صدره ، لكنّ نخلةً من النخلات الألف الّتي صادقها لم تنحنِ أمامه يومًا!!

كان ذو الظّهر العاري ما يزال يهمز بساقيه النّحيلتين بطنَ النّعامة ، فتطير كأنّها جبل سابحٌ في الفضاء ، التفتَ إلى الوراء فرأى فمًا مُبتسمًا . هزّ رأسه بلطف : «العطش إلى الماء جوع البشريّ إلى أصله ، جميعنا نعطش ، ولكنّ ماءنا ليس واحدًا» . لم يفهم شيئًا . ظلّتْ عيناه شاخصتين على صاحب الوجه الجميل الّذي يُردفه على النّعامة خلفه وهما يستغيثانه الماء .

- أنا قُطرب . (قال ذو الظَّهر العاري) .
- وأنا . . . (جاهدَ أن يتذكّر اسمه فلم يُفلح) . أنا . . . أنا . . .
حكّ مؤخّرة رأسه بطرف إصبعه ، فعادت رائحة الدّم تنبعث
جديد ، قرّبه من أنفه . شمّه . أحسّ براحة غريبة . انفتح صدره . مص
إصبعه بتلذّذ . استلّ خيطًا من الذّاكرة . أسعفَه قليلاً :
- أنا رضـ . . . أنا . . . أنا رضْوان .
- لا داعي أن تتذكّر اسمك . أنا أعرفك جيّدًا .
- تعرفني؟!
- منذ ثلاثة عشر قرنًا!!
شهقَ من جديد . وصحتْ في خياله ذكريات الماضي . «
النعمتَين تسبق الأخرى : التّذكّرُ أم النّسيان» تساءل في سرّه .
تُعجبه العبارة : «نعمتان أم نقمتان!!» كرّر مُحدّثًا نفسه مرّة أخرى .
- ليسا نعمتَين ولا نقمتَين . (قال ذو الظّهر العاري) .
ارتجف في أعماقه :
- تقرأ أفكاري؟! (جاهدَ أن ينطق ، لكنْ خانتْهُ شفتاه)
- أنتَ تُفكر بصوت مسموع . ليس لديكم القدرة على غير ذلك
ارتجفَ أكثر هذه المرّة . هدأ بعد عاصفة الذّهول . شعر بودّ نحو
الظّهر العاري . انهدمتْ كثيرٌ من الجدران بينهما . ورُدمت الحُفَ
وامتدّت جسور بين جبلين شاهقَين . وصار يستمتع بالحدي
الصّامت .

صاح ذو الظّهر العاري بالنّعامة . توقّفت أسفل نخلة . لم يست
أن يرى نهايتها وهو يمدّ بصره إلى أعلاها . تقدّم (قُطرب) خطو
باتّجاه النّخلة وهو يشير بيده من خلف ظهره للنّعامة . استكان

النّعامة كأنّها حَملٌ وديع . انحنى على مقربة من الجذع المتين . الأرض البيضاء صُلبة . حفرها بثلاث أصابع . فانبجسَ الماء من بين أصابعه . راح يتدفّق كأنّه ينبوعٌ متفجّر . عاد إلى رفيقه ، مدّ يديه إليه وحمله بينهما كما يُحمَل الطّفل . رَشَقَ في وجهي الماء ، فعدتُ إلى الحياة . قطَرَ في فمي قطرات . ثمّ ألقاني إلى الأرض أعبُّ ما أشاء .

- اشرب يا (رضى) .

- اللّعين يعرف اسمي . (قال في سرّه وهو يتذكّر)

- الماء هو اليد الأولى الّتي شقّت الأرضَ عن السّماء . أعطى الأرضَ قطرةً ، وجعل المُحيطَ لعرشه . نحنُ - كلّ المخلوقات - بالقطرة نعيش . وهو ؛ المُحيطُ لا يُحيطُ بعرشه .

عُدنا إلى النّعامة . رَكبناها معًا . أحببتُه . صار صديقًا . هبط اللّيل ونحن ما زلنا نرتحل النّعامة . اختفت الصّحراء مع أوّل الغسق . بدا اللّيل فاتنةً تتجوّل في دمي . صار له سحرٌ في كِياني . كُنّا قد أشرفْنا على واد ارتحْنا على شفيره ليلةً كاملة . في النّوم جاءتْني بعضُ الأحلام الغريبة ، رأيتُ أنّني أمتطي ظهرَ نسر اسمه (داسِم) . حلّق بي النّسر فوق السّحب ، بدا العالَم الأبيض كلّه تحتي ، على فراش السُّحُب البيضاء شاهدتُ عبارةً لا أدري أينَ قرأتُها . بدا أنّني أحفظها ؛ ربّما ردّدتُها خلف المُقرئ (علاّم) ذات مرّة! كانت العبارة تتشكّل بلفائف الغيوم البيضاء وترشح من أطرافها لتقول : (ما زاغَ البَصَرُ وَمَا طَغَى) . اختفت العبارة بعد أن رشح كلّ الماء الّذي كان في لفائفها . حلّتْ محلّ اللّغة أجسادٌ بشريّة ؛ كانوا كلّ الّذين عرفْتُهُم في حياتي . كلّما حلّق بي النّسر فوق سحابة رأيتهم من جديد . مرّة كانوا يضحكون وثانيةً يبكون ، وثالثةً يتقاتلون ، ورابعةً يُخربون بيوتهم

بأيديهم . في المرّة الخامسة ظهر لي (قطرب) قال لي وهو يبتسم و
برأسه : لا تستعجل . انتظر ستعرف كلّ شيء . صاح بصوت غاضـ
داسم : اتركْهُ يا داسم . فجأةً استيقظْتُ وأنا أشهق . كان (قُطرب) ف
رأسي يبتسم كما رأيتُهُ في الحلم ، وهو يمدّ لي إناءً بدا أنّه من الفضّ
أوّل مرّة أراه ، سقاني ما فيه من شراب ، فهدأتْ نفسي .

- أمامنا المرحلة الأهمّ . (قال قطرب) .

- أنا معك . (رددتُ وما زال أثر الشّهقة يلوح في صوتي)

- عليكَ أن تتخلّى عن البشريّ فيك من أجل أن تعرف الحقيقة
(قال بصوت ناعم)

قفزْنا معًا على ظهر النّعامة من جديد ، وانطلقْنا . حلّقت النّعـ
في الأفق . هذه المرّة اتّجهنا شرقًا . عادتِ الصّحراء لتلفّنا من جدي
هبطت النّعامة على الرّمل الأصفر . دفنتْ رأسها في الرّمال . نزلْ
أخذ بيدي . ارتقينا الكثيب الرّملي العالي . وفي الأعلى بدا المشهد
يُصدّق . عالمًا من السّحر . وكونًا من الأساطير .

- هناك . (وأشار بيده إلى هناك . . .)

- لكنْ قبل كلّ شيء ؛ عليكَ أن تتخلّى عن . . .

من اليوم سأحدّثكم بقِصّتي ؛ فلا تُعيروا سمعَكم سواي ـ
أنا . . !!

(٧)
على أحَدنا أنْ يموتَ
مِن أجلِ أنْ يُولدَ الآخَر

قادتْني (أم سليم) مُمسكةً بيدي، وهي تشدّني: «أسرعْ وإلاّ فاتَنا المشهد». هرولتُ وأنا أبرطمُ بكلمات تدلّ على انزعاجي.

- (جويخة) ستلد وأنتَ تزحفُ كالضّب.

- وما علاقتي بجويخة. لماذا تأخذينني إلى هناك؟

- لأنّ المشهد لا يتكرّر. مَنْ يدري ربّما تحتاج القرية إلى عشرة أعوام أخرى من أجل أن تحلّ عليها مثل هذه البركة.

- وهل النّساء يلدْنَ كلّ عشرةِ أعوام!!

- اصمتْ وسترى.

مشينا في الأتربة. فاحتْ روائح الرّوث فزكمت الأنوف. شاهدتُ كلبًا ميّتًا رفع رجليه وقد انتفخ بطنُه. شيءٌ ما شدّني نحوه. لكنّ يد خالتي نهرتْني. ثغتْ بعض الشّياه من حظائر. من بعيد لمحتُ الرّاعي (احميّد) يسوق الغنم والإبل أمامه ماضيًا إلى المفاوز ليرعاها. تناهى إلى سمعي قرقعة الأجراس في أعناق التّيوس. لمحتُ اثنين يتقدّمان القطيع بأكمله. الرّعاع تتبع الصّوت. أحد التّيسَين توقّف ريثما عبرتْه معزةٌ بَلْقاء، حتّى إذا صارتْ بمحاذاته، قفز فوقها واهتزّ جسده وراح الجرس يَقرَع بسرعة، انحنى (احميّد) وتناول حصاةً صغيرة، ورمى بها

التّيس ، وهو يصيح به : هَرْرْرْعي . . . هَرْرْرْ . . لم يبدُ أنّ التّيس
بكلمات سيّده ، نزل بعد أن قضى حاجته ، تقدّم القطيع من جد
وحانَ دور الأُخريات .

- لماذا يركبُ التّيس العنزة يا خالتي؟! (تساءلتُ مندهشًا)

- لكي تستمرّ الحياة . (ردّتْ خالتي بأسى) .

- الحياة لا تستمرّ إلاّ إذا ركبَ واحدٌ الآخر!!!

نهرتْني يدُها من جديد . وتقدّمْنا . صرْنا وسطَ عدد من النّ
كلّهن يلبسْنَ العباءات السُّود ، ويلفُفْنَ الخُمُر بأيديهنّ على وجوهِ
بعضُ النّساء كُنّ يُمسكن باليد الأخرى يدَ طفل أو طفلة . قليا
اللّواتي لم تكنْ يدهنّ الخالية متّصلة بيد صغير . اعتلى ديكٌ ذو عُ
أحمر جدارًا طينيًا مررْنا بجانبه للتّوّ ، وانتقل إلى حوش آخر . ع
السّور إلى بابه ، حانت منّي التفاتةٌ عبر بابه المفتوح فوجدتُ الد
يركبُ دجاجةً ، هززتُ يدَ خالتي ، مُشيرًا إلى المشهد :

- وهذا الدّيك أيضًا يفعل هذا من أجل أن تستمرّ الحياة؟!

نهرتْني يدُها من جديد ، وتابعْنا السّير .

- ولكنّه ركب ظهر دجاجة الجيران يا خالتي!! (أرد
باستغراب)

- أوووف . . . أنتَ لا تتعبُ من الأسئلة!!

سلكْنا منعرجًا صاعدًا يُفضي في نهايته إلى ساحة واسعة . ال
الأحمر النّاعم صنعَ شعورًا بالمتعة وأنا أطؤه بقدميّ العاريتَين . ك
غاصتْ إحداهما في الرّمل ، تخيّلتُ شيئًا آخر يغوص . الحرّ لـ
شديدًا . الشّمس لم ترتفع كثيرًا إلى قُبّتها السّماويّة . ونسمات الص
ما زالت تحتفظ ببعض بَرْدِها المُنعش .

- ابنُ مَنْ (سَرْمَد) يا خالتي؟! (تساءلتُ من جديد)

- ابن الشّيخ . بالطّبع!! (أجابتْ كمن تستغرب من سؤال يعرف جوابه أهل القرية كلّهم)

- لا أسأل عن أبيه . أقصدُ أمّه ؛ مَنْ أمّه؟!

- وما أدراني . (قالت ذلك بغضب) ربّما ليس له أمّ مثلك .

- أكُلّ الصّغار بلا أمّهات يا خالتي .

- الأيتام في القرية كثيرون .

أصوات قرع الأجراس في أعناق التّيوس بدأتْ تبتعد . (احميّد) اختفى خلف الكُثبان البعيدة ، وكلابه كذلك . وصلْنا السّاحة . مئات النّسوة اللّواتي كُنّ يزغردنَ بشكل عشوائيّ تجمّعْنَ هناك . هالني العدد الكبير ولم أعرف السّبب . وقوفهنّ في دائرة واسعة بصفوف متراصّة حجب عنّي الرّؤية ، لم أرَ غير أقفيتهنّ السّوداء . بعضهنّ كنّ يتمايلْن . شقّت (أمّ سليم) الصّفّ الّذي واجهنا وتبعتُها إلى أن وقفتُ في أوّله بحيثُ بدا المشهدُ واضحًا .

كانت (جويخة) تُعاني لحظةَ وصولنا آلام مخاض شديدة ، انبطحتْ على أحد جانبيها ، وراحت تصيح من الألم . حرارة الألم حاولتْ أن تبرّدها وهي ترفسُ الأرضَ بأخفافها ، تناثرتْ ذرّات الرّمل من حولها ، واستمرّت بالصّياح . كانت تتألّم بالفعل ؛ أحسستُ بذلك ، لم أرَ أكثرَ تعبيرًا عن الألم من صوتها . اتسعتْ حدقتا عينيها كأنّما رأتْ منظرًا مُرعبًا واستمرّتْ بالرّفس ولم ينقطع صوتها . وقف (دحيّم) عند فَرجها ، رأيتُه من بعيد يُحاول أن يخفّف عنها فهممتُ أن ألحق به لأواسيها كما يفعل . يد خالتي أوقفتْني من جديد . كادتْ

عيناها تنفشَان وهي تكتم أنفاسها لتدفعَ وليدَها . نظرتُ إلى جه
فشعرتُ أنّ عينيها تناديانني ، نزعتُ يدي من يد خالتي وركضتُ إ
وسط السّاحة . رآني الشّيخ الّذي كان يجلس على مبسطة مزيّنة بالج
والأدم ووسائد منسوجة ، صاح بي لأرجع ، لكنّني لم ألتفتْ ورا
قطّ . تابعتُ المسير حتّى حاذيتُ (دحيّم) . رفع يده في وجهي وصرخ

- ابتعدْ .
- سأساعدك . (رددتُ)
- وهل تحسبها لعبة . هذه النّاقة ثمنها ملايين يا أبله .
- إنّها تعنيني .
- تعنيك!!!
- أنا ابنُ الشّيخ . (قلتُ بثقة وأنا أزمّ شفتيّ) .

استكان مثل أرنب . وقال : «هيّا . سنمسكُ بأخفافها ونُساعد
على أن تلد بشكل أسرع» . شددتُ أنا بما أستطيع ، وراح هو يقرأ ما
لقّنه المُقرئ : «وألقتْ ما فيها وتخلّتْ» كرّر ذلك أكثر من مئة مرّة حتّ
انتهت العمليّة بكاملها . كان رأسُ الحُوار قد هبط الأرض بعد خرو
الأخفاف الأماميّة بقليل . راح الرّأس يأكل ما يقع في فمه من تراب
وعشب يابس وروث . ازداد صياح النّاقة والمتجمهرين معًا . التق
عيناي بعينَي الحُوار النّازل للتوّ من بطن أمّه فأحسستُ بالفعل أ
يخصّني . «لا بدّ أنّه أخي» هتفتُ في سرّي . استغرق الأمر بض
دقائق . استمرّ الدّفع فخرجت الرّأس مع الأخفاف الأماميّة بالكامل
ها هو وسطهُ قد خرج كذلك ، ما أسهل المرحلة الأخيرة ، خرج الحُو
دُفعةً واحدة ، وخرجت معه دُفقة كبيرة من دم الرّحم وماء الجنين
تلوّت الأمّ على الأرض . علا صياحُها من جديد . ظلّت ترفسُ الأرض

إخفافها حتّى همدت همودًا تامًا ، وأسلمت الرّوح . حزن الشّيخ لموتها ، ولكنّ فرحه بولادة الحُوار أنساه كلّ شيء .

انحنيتُ على الحوار ، قبّلتُ رأسه . قلت لـ (دحيّم) : «هذا أخي منذ اليوم» ردّ بصوت ساخر : «تقصد أختك ؛ إنّها أنثى» . «أختي ، لا بأس . وسأسمّيها شَروف» . ضحك : «ما دمت ابن الشّيخ فتستطيع أن تسمّيها ما تشاء» . قرفصتُ على قفاي ، ورحتُ أزيل عن (شَروف) ما ظلّ عالقًا بها ممّا خرج من رحم أمّها المسكينة الّتي فارقت الحياة للتوّ . كان غشاءً أبيض سهل الإزالة . بدأتْ حبيبتي تتعافى . جاء العبيد بناقة قد وُلدت حديثًا ، أخفض (دحيّم) رأسها ومدّ يده إلى ضرعها ، وهرسه بين أصابعه فانسكب منه الحليب ، عاود الكرّة فزادت غزارة الحليب المُنسكب . تناول وعاءً معدنيًا صغيرًا ، وحلب النّاقة ثمّ سقى الصّغيرة . راقبتُ كلّ حركة قام بها وحفظتُها غيبًا . حدّثتْ نفسي : «في المرّة القادمة سأقوم أنا بذلك» .

اقترب الشّيخ منّا ، كانتْ إحدى يديه ملفوفةً بقُفّاز أسود . رمقني بنظرة ازدراء . مدّ يده الخالية من القُفّاز ووضعها على كتف (دحيّم) وشكره ، رأيتُه يدسّ يده السّليمة في جيبه ويُخرج صرّة صغيرة من النّقود المعدنيّة ويُعطيها له . انحنى (دحيّم) قبّل يد الشّيخ وغاب في الزّحام . رفع الشّيخ يديه إلى الأعلى وصاح بالنّساء مُبتهجًا : «نصيبكنّ جاهز» . تبِعْنه إلى حظيرة الإبل على مقربة من السّاحة وهُنّ يلهَجْنَ بالدّعاء له بطول العمر إلاّ (أمّ سليم) الّتي سمعتها تلعنه بصوت أقرب إلى الهمس . قفز فتى وفي يده خنجرٌ معقوف ، ركض خلف ناقة صغيرة لكنّها هربتْ منه ؛ تعرف ماذا يريد!! لحقها في الحظيرة ومَنْ خلفه ركضتْ أمّها الّتي حاولتْ أن تُساعد صغيرتها على

الإفلات . أفلتتْ أكثر من مرّة ، قفز الفتى هذه المرّة وأمسك بذيله
وساعده آخر بوقوفه في وجهها ، وإحاطتها بذراعيه . بَطَحاها ع
الأرض ، شدّا رقبتها إلى الوراء والأمّ يزداد صراخ استغاثتها . هجم
على الفتيَين وكادت تسحقهما لولا تدخّل بعض الرّجال . سح
الفتَيان النّاقة الصّغيرة إلى خارج الحظيرة المكشوفة ، ربطا قوائمها الأر
وشدّا رقبتها من جديد ونحراها فَرَغتْ محاولةً أن تستبقي حياةً هارب
شاهدت الأمُّ ذلك فعلا صوتها الحزين . تدلّتْ شفتُها السُّفلى . ق
قلبي أنينُها الفجيع . في خيالي رأيتُني أحيطُ رقبتَها بيديَّ محاولاً
أعزّيها . ظَللتُ أسمع حنين الأمّ تبكي على ابنتها عامًا كاملاً بعد تل
الحادثة .

تجمّعت النّساء حول الضحيّة كلّ واحدة تحمل بيدها وعاءً لتم
باللّحم . رفع الفتَيان - بمساعدة عدد من الرّجال - النّاقة على سق
ليُتِمّا سَلْخها ، أحدهم حزّ رقبتها بالكامل فسقط الرّأس من علوّه وتم
بالتّراب . كانت العينان مُغمضتَين قد استسلمتا للموت ، والجفـ
الغليظة تنسدل عليهما ممتلئةً بذرّات رمل مُتناثرة ، والأهداب الطّو
قد تحوّلتْ إلى اللّون الأبيض لكثرة ما علق بها من الرّمل . كانت ال
ما زالت تراقب المشهد ؛ رأيتُ دموعها تسيل من عينيها . انحفر
الصّورة في ذهني ولم أتخلّص منها طَوال حياتي . قفز قلبي
صدري ، انزويتُ جانبًا ورحتُ أبكي بحرارة!!

في طريق عودتنا ، كانت (أمّ سليم) تركزُ الوعاء المملوء بلح
الضحيّة على خصرها فيما تُمسك بيدها الأخرى بكفّي الصّغير
طرقتُ الوعاء بيدي ليتحرّك ما فيه ، هتفتُ في داخلي : «نأكلُ بعضن
هل نحن بشر لنفعل ذلك!!» أحسستُ باليُتم أكثر في ذلك المسا

ظلّت الدّموع تنهمر من عينيّ وتسيل على يد خالتي . وعبثًا حاولتْ تهدئتي . شيءٌ واحدٌ فحسب ألقى نقطةَ فرحٍ في قلبي الضّاجّ بالأسى : «صار لي أخت» .

– إذا كان الشّيخ قد فرح بميلاد ناقة جديدة له فلِمَ ذبح أخرى وترك الأمّ تموت؟! (سألتُها وأنا أشهق) .

– هكذا يا بنيّ الحياة ، تستجلب أحدنا وتطرد الآخر .

– ولكن لماذا ؛ ربح ناقةً وخسر اثنتَين؟!

– النّاقة الجديدة أغلى . فيما الّتي ذُبحت والّتي ماتت كانتا مجرّد ناقتَين ؛ مهمّتهما أن يُوصلا هذا الحُوار إلى الحياة فحسب .

– هل هذا عدل!!

– على أحدنا أن يموت من أجل أن يولدَ الآخر!!

توسّطت الشّمس القبّة السّماويّة ؛ إنّها الظّهيرة . دخلت النّساء بيوتهنّ . فاحتْ من تلك البيوت روائح الطّبخ فعمّتِ القرية . كلّ القرية احتفلتْ بالميلاد وبالموت معًا . أغرب احتفال أراه في حياتي . مدّتْ خالتي البِساط أمامي . أوّل مرّة أتذكّر أنّني أكلتُ فيها اللّحم كانت هذه المرّة . رفعتُ لقمةً من لحم الضّحيّة وقبل أن أضعها في فمي ، تساءلت :

– كيف ماتت أمّي يا خالتي؟!

(٨)
الطّيور الصّغيرة المُهاجِرة

وقفْنا في الحلقة الدّائريّة أسفل كثيبٍ من الرّمل في المكان الّذ
خُـصّص من أجل تلقّي الدّروس . نجلس على الأرض ومعنا الرُّقُ
تلك الّتي كُنّا نستخدمها للكتابة مرّتين في الأسبوع ، أغلب الدّرو
كانت مُشافهة ، نردّد خلف المُقرئ ما يقول .

وحده المُقرئ تمتّع بميزة الجلوس على جذع النّخلة المقطوع ، وعل
يمينه حجر أسود يرتفع عن الأرض بما يكفي ليضع عليه القرآن ، وكو
من المعدن يمتلئ مرّةً بالماء أو الحليب أو العسل أو . . . ممّا كان يبعث
الشّيخ له ويُدوّنه عبيده في سجلاّته ليُقتطع من نصيبه الشّهريّ
الحجر الأسود المكعّب الشّكل كان أملس من الجهة الّتي تظهر لنا وم
الأعلى والأسفل ، وخشنًا مليئًا بالثّقوب من الجهات الثّلاث المتبقّية
ليس في الصّحراء الّتي أعرفها حتّى اليوم مثل هذا الحجر ، لم أدرِ م
أين جاؤوا به!! ومع أنّني لم أسأل أحدًا عن مصدره إلاّ أنّ السّؤال ظ
بلحّ عليّ لسنواتٍ طويلة ، وربّمـا كـان يمنعني من النّوم في بعض
اللّيالي!!

علاقةٌ من نوعٍ مـا جَمَعتْ بيني وبينَ هذا الحجر ؛ إنّه نوعٌ م
الإحساس الّذي لا أجدُ لتفسيره سبيلاً . ذات يوم قدمْتُ إلى مصطف

الكتّاب قبل أن يأتي المُقرئ ، حينَ صرتُ على مقربة من الحجر أحسستُ أنّ يدًا خفيّةً تدفعني من الخلف باتّجاهه ؛ طُفتُ حوله دورةً كاملة ، ثمّ وقفتُ عندَ سطحه الأعلى . . حدّقتُ النّظرَ في ذلك السّطح الأملس . . ترنّحتُ قليلاً ثمّ تماسكتُ ، وعدتُ للتّحديق أكثر بدافع من قوة خفيّة فبدتْ أمامي ممالك مشيّدة ، وقصور مُوطّدة ، والنّاسُ في حوض يلعبون . . . وسرحتُ في عالَم آخر .

أيقظني من خيالاتي صوتُ المُقرئ وهو ينهرني بعصاه الّتي غمزَتْ كتفي ، شهقتُ حينَ خرجتُ من الحالة الغيبيّة الّتي عشتُها ، وانتظمتُ في مكاني بين الطّيور الصّغيرة المُهاجرة الّتي حطّتْ في تلك اللّحظات بين أتربة المصطبة .

طاف بنا (علّام) ليتأكّد من وقوفنا واضعين أيدينا خلف ظهرنا ، واكتين الرّقيم على يمين كلّ واحد منّا ، ومستعدّين بخفض الرّأس جهة الصّدر قليلاً لتلقّي الدّرس الجديد . أتمّ دورته وعاد إلى مكانه عند جذع النّخلة المقطوع ؛ الكتاب باليمين ، والعصا باليسار ، حدّق فيما بين يديه والعصا تتهدّل بين الأصابع ، تنحنح كعادته ، وقرأ : «يس» . ورددنا خلفه : «يس» فأتبع : «والقرآنِ الحَكيم» ، فأتبعنا : «والقُرآنِ الحكيم» . فرفع صوته أكثر : «إنّكَ لَمِنَ المُرسَلين» . حتّى أكمل الآيات العشر الأولى من السّورة . كان النّشيد الجماعيّ من أعذب ما دخل روحي . شعورٌ طاغ بالسّعادة والكلمات تنساب مثل نسمة لطيفة على جلدٍ مُجرّح فتشفيه . كنتُ أحفظُ ما أردّده خلف الشّيخ من أوّل مرّة .

في منتصف الألفة مع النّشيد ، تجرّأتُ برفع رأسي لأنظر في الوجوه . هواية النّظر في الوجوه وُلدت معي ، وأدمنتُها مع كلّ ما تقع عيناي عليه! كان (سرحان) يردّد مُنتشيًا ، بقيّة الصّبيان تقرأ . .

تتعثّر.. تُتمتِم... تُحاول من جديد. وحده (سَرْمَد) الّذي
بالكاد يحرّكُ شفتيه، وعيناه – كعادتهما – تدوران في محجريه
بسرعة وقلق، كأنّما يستعجل انتهاءنا من هذه القراءة!!

أشار (علاّم) إلى (سرحان) اقتربَ منه، قال:

– ردّدْنا الآيات العشر الأولى من سورة (يس) عشر مرّات حـ
الآن ألم تحفظْها؟!

– حفظتُها من أوّل مرّة. (قاطعْتهما)

– حقّا؟!

– اختبرني إن شئتَ. (أجبتُه بثقة).

قرأ السّورة كاملةً وأنا أردّد خلفه آيةً آيةً. ثمّ انتحى جانبًا ونظر إ
مُتحدّيًا ومتشوّقًا في الآن نفسه: «هه... والآن هل يُمكنك
تُعيدها كاملةً».

أخذتْهُ الحماسة فقال ما دأبَ على ترداد نقيضه من أوّل ما جا
«أولاد القرية أذكياء» هتفَ في سرّه، أشار إلى (سرحان) فسار حتّ
مَثُل بين يديه: «اقرأ الآيات العشر الأولى». قرأ. تلعثمَ قليلاً. نـ
توبيخًا بسيطًا. ثمّ التفتَ المُقرئ إلى (سَرْمَد): «دورُك». حكّ مؤخّـ
رأسه، فركَ يديه... ثمّ نطق: «يا... يا... يا...» لم يستطع أن يُكمل
هوى المُقرئ بالعصا على ظهره وجنبيه، فراح يقفز في مكانه مـ
الألم. رشقه المُقرئ فوق ذلك بكلمات حاميات: «إنتا واحـ
سيس... أبوك لم يترك شيئًا في القرية إلاّ احتازه، حتى إنّه لم يتورّ
عن احتياز طبل مثلك».

قبل أن تهاجمنا أشعّة الشّمس الحامية نكون قد فرغنا. تبد
الدروس لحظة الشّروق إلى ما قبيل الزّوال. يُعلن (علاّم): «الرُّقُم.

الرُّقم يا صبيان» يأتي أحد عبيد الشّيخ يلمّها منّا جميعًا ، يضعها في كيس كبير من الخيش ، ويُردفها على ظهره ، ويذهب بها إلى بيت الشّيخ ليحفظها في إحدى الغُرف . كان كلّ واحدٍ يعرف رقيمه في اليوم التّالي من الأرقام الّتي تعلّمْنا حفرها في الزّاوية اليُمنى . كنتُ أحمل الرّقم (٧) .

في المساء يهبطُ الشّيخ من عليائه ، يُفتّش عن رقيم ابنه بين الرُّقم ؛ يستخرج ذلك المحفور في زاويته اليُمنى : (١٣) ، ينظر إليه ويتنهّد ، ثمّ يُعيده إلى مكانه وهو يزفر . ينحني مرّة أخرى ، يستخرج الرّقيم (٧) ، ينظر إليه ، تبرق عيناه ، يزفر مرّة أخرى ، يُمسك نفسه من أن يُطلق صرخة الغضب ، يمدّ كمّه ، يمسح الحروف المكتوبة : (ن ، والقلم) . يرفع يده ؛ لكنّ شيئًا لم يُمسَح ، يعيد الكرّة مرّة بعد مرّة ، تبقى الحروف في مكانها . يستشيط غضبًا ، ينتفخ ، يرمي الرّقيم إلى الأرض ، ويصرخ :

- أعرفُ مَنْ تكون . . .!!

اقتربتُ من الحجر الأسود ، درتُ حوله دورةً كاملةً قبل أن أتوقّف من جديد . نظرتُ إليه مليًا مسحتُ على جانبه الأملس ففاحتْ رائحةٌ مألوفةٌ بالنّسبة لي فتحتْ نافذةً على مشاهد استدعاها خيالي بلحظةٍ خاطفة . رفعتُ يدي الملامسة لهذا الجانب فانغلقت النّافذة!! مددتُها إلى أحَد الجوانب الخَشِنة ،لم أشعر أنّها كذلك ؛ بدتْ ملساء هي الأخرى . تساءلت : هل غاص لحمُ يدي في ثقوبها فملأها ؛ أيُّ الحاسّتين أخطأ ؛ النّظر أم اللّمس!! انتبه إليّ المُقرئ فنهرني . أمسكَ بي من جيبِ قميصي المُهترئ ورفعني حتى وقفتُ على قدميّ ، أراد أن

يقول شيئًا لكنّه توقّف . حملني من تحتِ ذراعيّ ووضعني على جـ
النّخلة المقطوع . هو الآخر فتح نافذةً جـديدة ؛ اللّعنة هل ستتسـ
النّوافذ بالانفتاح . وقفتُ بكامل اعتِدالي ونظرتُ في عينيه مُباشـ
وسألتُه ، وأنا أشيرُ إلى يميني كمن يبحث عن جوابٍ مفقود :

- منَ أينَ جاء هذا الحجر؟!!

(٩)
مَنْ جَهِل جُذورَه عاش في شَقاءٍ

نبتتْ نخلاتٌ جديدةٌ في القرية . لا شيءَ يبقى على حاله . حتّى الخير والشرّ عوارض لا تدوم . السّعفات اللّواتي تمايلْنَ على إيقاع الهواء بعثْنَ شيئًا من الحياة هناك . الحياة إشارة . ومضة لا تتكرّر . وفي الرّمل غاصت الجذور . الجذور أساس البقاء والمعرفة . كان (علاّم) يقول لأولاد القرية : «مَنْ جَهِل جذورَه عاش في شَقاء» .

لا شيءَ في الشّتاء قاسيًا غيرُ برده . الخير كلّه فيه . يندر أن ينهلَّ المطر من السّماء بهذه الكثافة . لكنّه في تلك اللّيلة ظلّ يهطل كأنّ أبواب السّماء انفتحتْ فجأة لتُلقي بكلّ أثقالها إلى الأرض ؛ تجمّعت السّيول في المسارب الضّيّقة وجرفتْ كلّ ما في طريقها . بكى كثيرون وهم يرون بعض دوابّهم ينتهي بها الحال مع السّيل الجارف ، لكنّ هذا البكاء توقّف فجأةً وحلّ محلّه الرّعب حينَ أوشك السّيل أن يتسلّل إلى أساسات البيوت الطّينيّة فيهدمها على رؤوس أصحابها ، خرج المفجوعون من بيوتهم ، وتجمّع عددٌ كبيرٌ منهم وهم يتصايحون لتدبير طريقة لتصريف الماء كي لا تقع الكارثة . «هاتوا المعاول . . . كلّ من عنده معول فليأت به . . . واجرفوا» صاح أحد الحكماء . قضى رجال القرية ليلتهم تلك يجرفون خنادق جانبيّة تأخذ الماء بعيدًا عن البيوت .

نجحوا إلى حدّ كبير. وفي الصّباح كانت الخسائر قليلة؛ بعض البيوت نالَها الغضب فانهارتْ. لم يمُتْ أحدٌ. جدران كثيرة تهدّمت. تغيّرت المعالم في بعض الأماكن. وحده بيت الشّيخ ظلّ واقفًا بكبرياء لم يمسه سوء؛ لقد كان يأوي إلى جَبل يَعصمُه من الماء!

قرّر الشّيخ أن يأخذ نصيبًا من علف الدّواب أو طعام النّاس، ويبيعه في الواحات، ويشتري بثمنه مزيدًا من الطّين، ليبني ما انهدم. أخذ من كلّ خزين صاعًا أو صاعين إلاّ خزينه هو على امتلائه لم يأخذ منه حبّة تمر واحدة. بعد أسبوع من الحادثة عادت الحياة في القرية إلى طبيعتها، إلاّ أنّ بعض المعالم كانت قد تغيّرتْ.

بعضُ أشجار (الأرْضة) أزهرتْ من ماء تلك اللّيلة، جذورها الّتي امتدّت على مسافة عشرين مترًا يابسةً جافّة بدا وكأنّها تنتفض من جديد، عروقها الواقفة مثل رأس الشّيطان يلوح من كلّ جهة سرى فيها ماء الحياة فأورقتْ؛ على أحد هذه العروق رأيتُ بأمّ عيني زهرةً صفراء لها سبع بتلات بهيجات؛ نعم. زهرة واحدة لم يكنْ هناكَ سواها على الشّجرة المنبسطة أفقيًا؛ نالني العجب، لم يُخبرني أحدٌ أنّ هذه الشّجرة الميّتة يُمكن أن تُخرج من بطنها هذا الجمال. تلفّتُ حولي خشيةَ أعين الرُّقباء وقطفتُها. دسستُها في جيب قميصي فداعبتْ بعضَ شعرات صدري الّتي نبتتْ للتّوّ. عدتُ إلى البيت. مددتُ يدي إليها في اللّيل لأتأكّد أنّها ما زالتْ هناك. نمتُ على صدري لأشعر بالقرب منها أكثر. وفي الصّباح كانت قد اختفتْ. قالت لي خالتي: «لماذا تُتعب نفسك بالبحث عنها هكذا؛ لا بُدّ أنّك دعكْتَها بصدرك وأنتَ نائم فتمزّقتْ، وتبعثرتْ قطَعُها في الفراش، أنسيتَ أنّك لا تستقرّ على جنب في منامك!!». توقّفْتُ لبرهة وابتسمْتُ؛ نظرتُ إلى

صدري من جديد ؛ كنتُ متأكدًا أنها دخلتْ إلى قلبي واستقرّتْ هناك!!

تاقتْ نفسي إلى (شَروف) . شيءٌ ما في داخلي حرّكني باتجاهها . نداءٌ مجهول أمسكني من يدي في ليل بهيم وقادني نحوها . مشيتُ إلى حظائر الشّيخ حافيًا . كان اللّيل قد أطفأ كلّ عين . القمر مُحاق . والنّجوم تدثّرتْ بلحاف السّماء فغاصتْ فيه لتتّقي البرد القارس . مَنْ يدلّني عليكِ يا (شَروف) حيثُ لا نورَ إلاّ نور الواهب . كان النّداء أقوى . مشيتُ رغم كلّ شيء ، قدماي تسيران كأنّما تعرفان الطّريق وتُبصرانه .

على مَقرُبة لحتُ الحظائر وهي منتصبةٌ كالقَدر . الضّوء الخجول المنبعث من غرفة الحارس كشفَ لي سهولة الوصول الآن . الحظائر كثيرة ، ولها حظيرةٌ خاصّة ، فهي أثيرة الشّيخ ، وهي ابنة سلالة عريقة ، وكلّ ما في الحظائر لا يُساوي خُفًّا واحدًا من أخفافها!! تهتُ فوقفتُ . هل يُعرَف الخاصّ من شكله؟! ربّما . لكنْ أنّى لي أن أعرف حظيرتها إذا تشابهت الهيئات ؛ لم ينته السّؤال الّذي أشعلتُه في نفسي حتّى جاءني الجواب : «سرْ تَصلْ» . كان هذا الجواب من خارجي أم من داخلي؟! لا يهمّ . سرتُ كما قال الصّوت . نعم شعرتُ بالخيط الرّفيع الّذي يشدّني نحوها . تجاوزتُ حظائر لم يلتفتْ إليها قلبي . أدركتُ أنّه سيلتفتُ إليها حين تنتهي المسافات بيننا .

أطلّتْ برأسها من خلف باب خشبيٍّ قصير . «يا للرّوعة» هتفتُ في داخلي . شهقتُ . تلعثمْتُ ؛ إنّه اللّقاء السّرّيّ الأوّل بالحبيبة . خجلتْ فأدامت النّظر فيّ . يا إلهي ؛ طعمُ اللّقاء المُختلس عسلُ القلب . لففتُ يديّ حول رأسها . وأخذتُ نفسًا عميقًا لأمنع دمعةً من

الفرح كادت تفرّ من عينيّ . شممتُ رأسها فحرّكَتْهُ ليغوص أكثر بين يديّ وصدري . راحتْ تتمسّح بي . «أختي» هتفتُ بصوت مسموع فرَغَتْ . خُيّل لي أنّ الرّغاء قال : «أخي»!! أبعدتُ رأسها عن صدري وأنا لا أزال أمسكه بين يديّ ونظرتُ في عينيها فرأيتُهما تلمعان سألتُها : «يُطعمونك جيّدًا» فهزّتْ رأسها . تلفّتُ في الحظيرة لم يكنْ هناك سواها : «ماذا عن أمّنا ؛ أين ذهبوا بها» أطرقتْ برأسها حزينة «هل أبعدوكِ عنها»؟! زادَ إطراقُها . قلتُ : «لا تخافي . لن أتخلّى عنك مهما حدث فنحنُ من بطن واحد» . رغتْ من جديد كأنّها تشكرني .

حملتُ أقدامي العارية بحثًا عن وداع يليق بأخت ، لم أعطها ظهري ؛ صدري ظلّ مُشرَعًا على بهائها وظهري ظلّ منذورًا للسّراديب المُلتوية في محاولة للخروج . تعثّرت في رجوعي لأنّ عينيّ مثبّتتان نحوها . سقطتُ . قمتُ ونفضتُ الرّوث عن ثيابي . تابعتُ المسير . من النّوافذ المزروعة في بيت الشّيخ العالي هبطتْ صرخةٌ بشكل مُباغت على رأسي ففزعت . تأمّلتُ أن تكونَ صرخةً عابرة . لكنّها توالتْ ، وتحوّلتْ إلى استغاثات مجروحة . هذه المرّة شلّني الرّعب . هربتُ دون وعي . رأيتُ فراغًا يتمدّد فيه الضّوء الشّاحب . ركضتُ باتّجاهه فوجدتُني أمام الفضاء المفتوح في طرفة عين . تابعتُ هروبي المُخيف وظلّت الصّرخات النّازفة القادمة من النّوافذ في البيت العالي تنغرز في ظهري!!

(١٠)
النَّخلُ مثلُ الإنسانِ لَهُ رُوح

على حاله منذُ عشرات السّنين . والعجوز الّذي يقف في المقدّمة ظلّ يقف في تلك المُقدّسة ، دون أن تحدثَ داهيةٌ من نوع ما فتخلّص البشر من بلاهته ، وتأتي بآخر فيُصلحَ ما أفسدَ الأوّل .

في الجهة الغربيّة من القرية ترتفع بعضُ الجدران الطّينيّة لتشكّل ما كانوا يسمّونه هنا : «المسجد» . بُنيتْ جُدرانه الأربعة في شهر ، واحتاج إلى سنتين كي يتمّ بناء السّقف . المشكلة كلّ المشكلة في الصّحراء الّتي لا تعترف بالأشجار ، والسّقف الممتدّ أكثر من عشرة أمتار لا يُمكن أن يقوم بدون جذوع الأشجار الّتي تحمله فوقها . طاف قناصو الأثر والبنّاؤون بالمهامه من أجل أن يبحثوا عن (الأرْضة) فيأتوا بجذوعها إلى هنا . لم يقبل الشّيخ أن يقطعوا نخلةً واحدة ؛ قال لرجال القرية : «النخل مثل الإنسان له روح ، هل نعصي الله هناك من أجل أن نطيعه هنا!!» . بعد عام لم تكن جذوع (الإرضة) كافية لإتمام سقف المسجد ، صاروا يبحثون عن (السّدر) ؛ ربطوا جذوعه القصيرة بعضها إلى بعض وأتمّوا ما بدؤوه . صار المسجد جاهزًا للصّلاة .

في الجدران الشّرقيّة والغربيّة جهد البنّاؤون أن يَشُقّوا نوافذ عالية لكي تدخل الشّمس من الجهة الشّرقيّة في الصّباح ، ومن الجهة

الغربيّة في المساء . كان المكان مراحًا في الصّيف لمن أراد أن يأوي إليه من وَهج الحرّ في الظّهيرة . وكان سكّينًا على مذبح البرد في الشّتاء . احتالوا على البرد بالدّاخون . تربّع الدّاخون إلى جانب المحراب ، أكثر منه عمقًا ، وأسطوانته ترتفع خمسة أمتار حيثُ السّقف ، ومن هناك الفوهة الّتي تُخرج الأدخنة والسّناج المتشكّلين جرّاء احتراق الحطب في أسفله ؛ ولكنّ الحطب كان عزيز المنال حتّى عهد قريب ، فكان يحدث أن يخلو المسجد من زائريه لشهور طويلة ، وكان يحدث أن يمتلئ الدّاخون بالعناكب والعقارب والأفاعي!!

روّاد المسجد من العجائز ، من أولئك الّذين لم يعودوا قادرين على فعل شيء . لا على الرّعي في المفازات ولا على الرّعي في الفراش . فهربوا من آثامهم الّتي تركبُ ظهورهم وأووا إلى ربّ غفورٍ رحيم . غير أنّ الله طيّبٌ لا يقبلُ إلاّ طيّبًا!!

أعلن الشّيخ بعد عامَين من الجُهد المتواصل ومن الشّقاء أنّه سيفتتح المسجد ، وسيعيّن له إمامًا . تلهّف عددٌ غير قليل من أولئك العجزة على أن يتسنّموا هذا المنصب ، ليس حُبًّا في الطّاعة بالدّرجة الأولى وأداء حقّ الله ؛ بل رغبةً في رطل السّمن والأقط الّذي سيكون حاضرًا في نهاية كلّ شهر في بيت الإمام .

ظهر العبيد أوّل الأمر وهم يُمسكون بجريد النّخل يهشّون به على المُحتفين الّذين اصطفّوا في طوابير على جانبي الطّريق لكي يُفسحوا للشّيخ ، وحين وصل هذا الأخير إلى باب المسجد كان يركب جملاً أورق وإلى جانبه جملٌ آخر يحمل الإمام . نزل الشّيخ أوّلاً بعد أن أناخ الجمل ، وتقدّم من الجمل الآخر وأناخه بيده السّليمة ، مُخفيًا اليد ذات القُفّاز الأسود خلف ظهره ، علتْ صيحات الاستغراب من أفواه

المتجمهرين : «مَنْ صاحب المقام العالي الّذي راح الشّيخ بنفسه يُنيخ جمله ؛ لا بُدّ أنّه وليٌّ من أولياء الله الكرام!!» . في المسافة القصيرة الّتي مَشَيَاها ليقفا أمام النّاس على باب المسجد تبيّن أنّ الإمام أعمى ؛ استند على عصاه ليُبصر الطّريق!!

كان (مَذحج) عجوزًا في الغابرين ؛ من أولئك الّذين نجوا من الطّوفان في سفينة نوح . نيّف عمره على الألف عام ، كان القوس الّذي يصنعه ظهرُه واضحًا تمامًا . شابت أهدابُ عينيه ورموشه ، أمّا حاجباه فقد تهدّلا على جفنيه المُطفأين ، وطالتْ لحيته حتّى قسمت المسافة نصفَين بين انحناءته وبين الأرض . أمّا صوته فأجشّ ، وأمّا غضون وجهه فدلّ على أنّه احتفظ بذاكرة شجرة (الأرضة) حين استعار جفاف عروقها وتشعّبها . وأمّا عُكّازه فهديّة من أحد زعماء القبائل كان قد جلبه له من الهند ، وقال له : «الأفاعي المنقوشة على ساقه ستعيدُ لك الشّباب ، وستضمن لك عمرًا أطول» .

صفّق الأطفال . أما أنا فشعرتُ بالاشمئزاز . راحت النّسوة يحملن أطفالهنّ العُراة على رؤوسهنّ ويتقدّمنَ صوب الإمام ليمسح بكفّيه الطّاهرتَين على رأس كلّ صبيّ فتحلّ البركة فيه وفي نسله إلى يوم الدّين . بعضُ النّساء هوينَ على قدميه يُقبّلانهما التماسًا للبركة . أخريات مددْنَ أيديهنّ إلى جيوبهنّ وأخرجنَ بعضَ الأقط لتزداد كفّ الإمام مسحًا على ابنها فتزداد البركة . رأيتُ الإمام اللّعين يمسح بتلك اليد اللّعينة على رأس الصّبيّ وتهوي لتصل إلى صدر أمّه ناظرًا نحوها بعينين تبرقان شهوةً ؛ الأمّهات قلنَ : «يدُ ضلّت الطّريق ، لا بدّ أنّ مولانا لا يقصد»!! وبعضهنّ اعتبرْنَ ذلك مُضاعفةً في البركة!!

في صلاة الفجر الأولى صلّى خلفه ثلاثة أحدهم (علاّم) . قرأ

الفاتحة فلحنَ في كلّ آية . ثمّ بدأ بالقصار من بعد فلم يتمّ آيتين من سورة النّاس حتى أُرتجَ عليه . خرج (علاّم) من المسجد وهو يضرب كفّاً بكفّ ، لم يعهد مثل هذه الصّلاة ولا عند الجهلة من العيال . سار بعد أنْ أنهى يومه في الكُتّاب إلى الشّيخ :

- هذا ليسَ بإمام ، لو صلّى بنا (رضى) لأتقنَ الصّلاةَ أكثر منه!!

نهره الشّيخ كأنّه طَعَن في كبريائه :

- إنّه اختياري؟!

- يا سيّدي لو صلّينا خلف شيطان لربّما قَبِل الله صلاتنا أكثر من صلاتنا خلفَ هذا المَعتوه .

لم ينل مَن كان يصلّي في المسجد من العجزة الحُظوة لدى الإمام . ولا البركة عندَ هذا الأخرق فانفضّوا من حوله . كان يصلّي خلفه ثلاثة فأصبحوا اثنين ، ثمّ تقلّص المُصلّون إلى واحد اضطرَّ إلى أن يقف إلى جانبه لانعدام الصّفّ . كان يأتي المسجد ليسمعَ تخاريف الإمام!!

(مذحج) لعينٌ وساقطٌ ولديه حكايا كثيرة ، ولكنّني حفظتُ عنه عبارةً جميلة : « تأمّلْ تَرَ فالنّظر وحده ليس كافيًا» .

(١١)
الصُّراخُ لا يبدأ إلاّ في لحظةِ الوداع

في الجُمَع أفعل ذلك . وبعد أن أنهي يومي الدّراسيّ في كُتّاب القرية ؛ أخرج إلى المَهامه لكي أحظى بمتعة مشاهدة النّوق والجمال وهي ترعى في صحراء لا تُقدّم شيئًا إلاّ الرّضى ، ولا رِضى دون صَبْر . هُناك تُشرع الحرّية أبوابها على المُطلق ، على الفضاء السّابح ، وعلى النّشيد الإلهيّ ، وعلى السّحر والسّرّ .

من أيّ طينة عُجِنّا ، وما الّذي تشكّل فينا حتّى صار لنا هذا الوجه دون سواه؟! والحياة فرصةٌ لكي نلتقي بأنفسنا أم نضيع عنها؟! الصّحراء لا تُشبه أيّ شيء ؛ تُشبه نفسها فقط . وحيثُ كنتُ أتهجّى لم أجد أجمل من حروف الرّمل ، ولا كإيقاعها له هذا القدْر من السّحر والجلال .

سرتُ مسافةً طويلةً قبل أن يلوح لي مع حلاله من بعيد . فرحتُ المُوحة الّتي ارتسمتْ أمامي . قطيع النّوق تتشابك سيقانه وهي تصطفّ في جماعاتٍ متقاربة . وقطيع الدّواب وهي تتباعد ليشدّها صوتُ الأجراسِ من جديد .

جلستُ إلى جانب (احميّد) على تلّة رمليّة تُشرف على الحلال وتُبقيها تحت المُراقبة . هبّتْ الرّيح خفيفةً فصفر صوتها بنشيد الصّحراء

وراحتْ ذرّات الرمل تلتفّ في دوائر وتعلو فوق الأرض لتُشكّل في حركتها طيوفًا تتموّج من بعيد، تُخفي ما خلفها من النّوق ثم تعود وتُبديه، وما بين سُكونها وهبوبها من جديد ظلّتْ تُمارس لعبة التّخفّي والتّجلّي. ما أجمل الرّيح حين تعزف النّشيد وما أجمل الرّمل حينَ يُشكّل الطّيوف!!

تناول (احميّد) نايه من جيب ثوبه، نظر إليه نظرةَ عاشق قبل أن يُدنيه من شفتيه، وينفخ فيه فتصدح أعذب الألحان. لو أنّ الحياة مثل هذه لما تاقت نفس الإنسان إلى الجنّة!! عزفتْ أصابع (احميّد) لحنًا شجيًا جعل النّوق تتهادى قوائمها كأنّما ترقُص. «النّوق أجمل من النّساء» حدّثتُ نفسي. «لا بُدّ أنّ النّساء كنّ نوقًا فسخطهنّ الله!!» أردفتُ.

غنّى (احميّد): «صبّرْنا يا جبّار.. وامنحْ رمالْنا امْطارْ.. حنّا علينا انْدارْ.. نوكّل إليك الدّار..» مدّ الصّوت فمدّت الإبل أعناقها. ونفخ في النّاي فكأنّ الرّوح نُفخت في الجسد من جديد. الإبل تطرب للصّوت الشّجيّ أكثر من البشر. مَنْ يلهم القُساة قلبًا طروبًا!!

- شَروف... (قلتُ لاحميّد)

- مَنْ شَروف؟!

- النّاقة الّتي وُلِدت للشّيخ. لا بُدّ أنّها جائعة.

أشار إلى ناقة سمينة حمراء الوبر. فقمتُ إليها بإناء من الجلد، شخبتُ من حليبها ما ملأ الإناء. وطرتُ إلى (شَروف). تسلّلتُ إلى الحظائر خارج البيت العالي. صارت حظيرتها معروفةً. ابتسمتْ في وجهها من جديد وأنا أقفز. مددتُ الإناء وسقيتُها ما فيه، هتفتُ: «سامحيني تأخّرتُ عليك قليلاً» رأيتُها تبتسم كأنّها تقول: انتظرتُك بالفعل.

بقيتُ شهرين أملأ الإناء الجلديّ باللّبن، وأستصفي النّاقة

السّمينة المدرار وأعودُ إلى (شَروف) بحليبها . همستُ في أذنها ذات مرّة : لماذا لا تخرجين إلى المهمه ، ستختنقين هنا في هذه الجُدر السّوداء؟! حرّكتْ رأسها ، سمعتُها تقول : ليتني أستطيع .

أعرف مواضع (السّدر) و(الرّتم) ، أقطفُ من أوراقها ما كان أخضر ، وفي الإناء الجلديّ ذاته أعود إليها فأطعمها . لم تكنْ تأكل ما يضعه لها عبيد الشّيخ ؛ هو فاسد لأنّ صاحبه الّذي قدّمه إلى حبيبتي فاسد المزاج ، اللّقمة الهنيّة تحتاج إلى يد هنيّة ، وهؤلاء ما امتدّت يدهم إلى طعام إلاّ أفسدتْه . أنا أولى بها من هؤلاء الحمقى . على هذه الأوراق مرّتْ أصابع أخيها ، وفي قطرات الحليب شمّتْ رائحتي!!

في اللّيل أسمعها تناديني . «توءمان نحن ؛ حتّى يكون بيننا هذا النّداء الخفيّ الّذي نسمعه أنا وهي دون أن نقول شيئًا» فكّرتُ . صوتُها لا يُمكن أن أُخطئه من بين آلاف الأصوات . أغافل (أمّ سليم) ، انهضُ من فراشي وأتسلّل على أصابع قدميّ . تراني ، ترمقني ، وتبتسم . تسحبُ الغطاء إلى الأعلى تُغطّي رأسها وتعود إلى النّوم وهي تتنهّد تنهيدة الرّضى . ربّما هي مثلي لا تشكّ بأنّها أختي . أصلُ في منتصف اللّيل . القمر أجمل في حضرتها . الكون كلّه يُصغي لإيقاع أنفاسها ، وأنا . . .؟! مفتونٌ بها جدًّا!!

على باب الحظائر تعالى الصّوت من جديد ، صراخ . . . اااخ . .آآآخ آهات متقطّعة . . . ونزيفٌ من الرّعب مستمرّ ؛ أيّ شيطان هذا الّذي يصرخ ليوقظ الغافين ؛ المُستسلمين للموتة الصّغرى . . تتتابع الصّرخات ؛ فتتتابع خفقات قلبي . متى أنجو من الفزع . . . أستمرّ في الهرب . . صرتُ أخشى أن أغادر الحظيرة كلّما جئتُ في اللّيل . . . الصّراخ لا يبدأ إلاّ في لحظة الوداع!!

(١٢)
أنتَ جنّيَ.. غير معقول أن تكون بشراً

- سَرْمَد . . . سَرْماااادْ!! (صرخ المُقرئ غاضبًا)

تلفّت الولد حوله ، وانتفض مُرخيًا يديه في حركةٍ بلهاء ، وحدّق في المُقرئ كأنّ إحدى عينيه تتّخذ لها زاويةً مائلة :

- آآآ . . . آآآ . . .

- لا أريد أن أرى وجهكَ بعد اليوم حتّى تحفظَ مطلع المُعلّقة .

- آآآ . . . . آآآآ . . .

- اغرُب عن وجهي يا أحمق .

أعطى سَرْمَد ظهره للمُقرئ ، وراح يقفز هاربًا مثل أرنب .

حفظتُ المعلّقات كلّها . أقرأ خلف المُقرئ فأحفظُ بعد التّرديدة الأولى .

- مولانا . . . (هتفتُ بصوتٍ مُثخنٍ بالرّجاء)

- نعم . . قُل . .

- علّمني القراءة .

- سأفعل غدًا إن شاء الله .

- ما زال النّهار في أوّله . علّمني اليوم .

هذا حرف الألف . . الباء . . . لم ينتصف النّهار حتّى كنتُ أحفظُ

الحروف ، وأقرأ الجُمل . في اليوم التّالي :

- مولانا . . .

- نعم . ماذا تريدُ هذه المرّة!!

- أعرْني نُسختك من كتاب الرّب .

- وماذا ستفعل بها .

- أريد أن أحفظه .

بعد يومين ، صلّيتُ الفجر مع المُقرئ في المسجد ، لم نذهب إلى الكُتّاب ؛ تناهَى إلينا صوتُ الصِّبية يتضاغون من بعيد دون أن نبرحَ مكاننا ، قرأتُ عليه القرآن من أوّله إلى آخره ، قال لي وهو لا يكاد يُصدّق : «أنتَ جنّيّ . . غير معقول أن تكون بشرًا»!!!

لم أدرِ إذا كان يعنيها أم لا . صار ينظر إليّ بريبةٍ بعدها . عُشبة الخوف نبتتْ في صدره!!

استدعَى الشّيخُ المقرئ . ذهب إليه الأخير مُتذمّرًا .

- أنتَ تهتمّ بالرّعاع وتترك ابني .

- هل في قريتكم رعاع!! لم أكنْ أدري .

- وتغيبُ عن الكُتّاب!! هه . .!! من أجل مَنْ . . . من أجل ابن ساقطة . .

- احفظ لسانك أيّها الشّيخ .

- احفظ أنتَ واجبكَ أوّلاً . . . كيف تأكل مالاً حرامًا وتتظاهر بالعفّة أمام صبيانك . .

- أنا . . .!؟

- نعم . . . أُعطيكَ مُكافأتك من الأقط والتّمر والسّمن وأنتَ تحضر يومًا وتغيب آخر . .

- لن أبقى يومًا آخر في جحيمك هذا . . . الله الغنيّ . . .

خرج المُقرئ مثلومًا . في اللّيل تقلّب الشّيخ في فراشه : أعيدوه . لعنةُ الله على الأولاد . تعالت الصّرخات . فزع . لم يعد يحتمل الأمر صاح بعبيده : أريد (مذحج) . . . هاتوا لي . . .

وقبل أن يُتمّ جملته طار أربعةٌ منهم إلى الإمام ، وضعوه على بساطٍ من النّسيج ملفوفٍ على قوائم خشبيّة من الطّرفين ، وحملوه على أكتافهم إلى البيت العالي .

(١٣)
الشمسُ في المَغيبِ
تأخذ ما كانت قد وهبتهُ للرمال

في المرعى المُقفر إلاّ من الرّحمة ، تعوّدتُ أن أمتطي ظهر الإبل . أضربها على أفخاذها ممّا يلي ظهري فترمح . ألفُ بها الصّحراء لأحفظ قطعةً جديدةً من نشيدها . الرّمل صديقُ مَن يعرف . طول العشرة معه تمنعه من أن يخون . لكنّ الرّمل ليس متشابهًا كلّه . الخادعات هي عيون الرّمل . كم من ناقة غاصتْ قوائمها فيها فكان هلاكُها .

تشكّلتْ لديّ رغبةٌ جديدةٌ في أن أربطَ حبلاً إلى ذيول الإبل ، وأعقده على يديّ ، ثمّ أضربها على أقفيتها فتهتاج ، فتركض ، فأنبطح على بطني ، ويلتقي الحبيبان من جديد ؛ بطني والرّمل ، وأظلّ أنزلق عليه وأتمرّغُ حتّى يُخشخش الصّدر . متعةٌ جديدةٌ أكتشفها في هذا العالَم المستور!!

الشمسُ في المغيب تنسحبُ من المكان . تأخذ ما كانت قد وهبتْهُ للرّمال . إنّها السّاعة الأخيرة الّتي تسبق عودة (احميّد) إلى القرية بالقُطعان . وهي ذاتها السّاعة الأمتع لي في امتطاء النّوق . تعرّفْتُ حديثًا إلى (حائل) ؛ أسرع جملٍ في القطيع كلّه . هو أثيري الّذي اختم به نهاري ، قفزتُ بخفّة على ظهره ، وضربته على قفاه فرمَل . سرعته جيّدة لكنّها لا تبعث في نفسي المتعة الّتي أنشدُها . ضربتُه

أكثر فأسرع أكثر . ما زلتُ أريد المزيد ، ضربتُهُ حتّى ألهبتُ قفاه فطار مثلَ ثور هائج . . رحتُ أتقافزُ فوقه مأخوذًا بسحر الانجذاب إلى الجسدَين . غير أنّه عثر بجذع شجرة أرضة مخفيّ فسقط مع سرعته ، فسقطتُ معه ، وكادتْ عنقي تُدَقّ لولا خفّة وزني!!

مكثتُ في الفراش أسبوعًا لأتعافى . جسدي التهبِ لارتفاع حرارتي . ظلّتْ (أمّ سليم) تربط على جبهتي المشجوجة قطعةً من الخيش تُبلّلها بالماء بعد أن تقرأ عليه . ولم تترك شرابًا إلاّ سقتْنيه ، ولا ورقًا من أوراق الأشجار ذات المفعول السّحريّ في الشّفاء إلاّ نقعتْهُ بالماء وجرّعتْني نقيعه .

- اهدأ يا صغيري . لماذا كلّ هذه النّطنطة ؛ هل أنتَ جنّيّ؟!

عدتُ بعد أسبوع لأمارس هواياتي من جديد . جلستُ إلى جانب (سرحان) في الكُتّاب ، قال لي وهو ينظر إلى أثر الشّجّة :

- إنّها تُشبه حرف النّون!!

- تقصد بدون نقطة . من أين جئتَ بالنّقطة . حرف النون نعم لكنْ خاليًا منها . (رددتُ)

- لا . . . لا . . نون بنقطة ؛ أنا أراها جيّدًا!!

مدّ يده ، ووضعها على جبيني ، قاس عُرضَ الشّجّة :

- إنّها ثلاث أصابع . . هل ستكون أكثر من ذلك حينَ تكبُر؟!

(١٤)
نَقطعُ الصّحراءَ المُهلِكة
على أملِ الماء

في الطّريق ظلّ (مِذحج) المحمول على أكتاف العبيد يرطنُ بكلمات غير مفهومة . ليس من شأن العبيد أن يفهموا . صعدوا الدرجات المُفضيات إلى الباب العالي ، وأنزلوه بين يدي الشّيخ . واستمر (مذحج) يرطنُ بالكلمات ذاتها .

هبّ الشّيخ من سريره شبهَ عارٍ . شعره المنكوش تناثر على كتفيه مثل نبات شوكيّ . ولحيته امتلأت بالبُصاق . «هل كان الشّيخ يبصُقُ على نفسه؟!» ، وقف بين يدَي الأعمى وهو يبتلع ما يتناثر من البُصاق :

- أنتَ من سينقذُ الموقف . (قال للإمام) .

- أنا في خِدمة مولاي .

- سَرْمَد . . .!!

- فهمتُ . . فهمتُ (قاطعه الأعمى) ولكن علينا أن ننتظر لليلة أخرى . (أردف)

- لماذا . . لماذا . .؟!! (قال الشّيخ بهلع)

- يجب أن يحضر معي قُرَنائي .

- نحضرهم اللّيلة . . . الجُدران امتلأت بالدّماء لكثرة ما رطمَ رأسه هناك .

- وهل تستطيع أن تبعث في طلبهم؟!
- ولو كانوا في الزُّهرة . إنقاذهُ عندي أهمّ من كلّ شيء .

بَعثوا في طلب القُرناء ، انتظروا زمنًا لا أحد يستطيع تقديره حتّى جاؤوا . ربّما جاؤوا في لمحة البصر . إذْ لم يُكلّف الأمر سوى رغبة صادقة طافتْ في ذهن الإمام . وربّما احتاج حضورهم إلى قرون حتّى يعبروا العوالم كلّها ويَتخلّصوا من الشّهب والرُّجُوم . ولكنّ المهمّ أنّ الليلة عند الشّيخ ظلّتْ ذات اللّيلة ؛ يتوقّف الزّمن عند أناس ويمضي بلمحة البرق عند آخرين . الأزمان تختلف باختلاف أجناس الخَلق .

- ابدأ يا إمامنا (هتف الشّيخ بصوت يدلّ على نفاد صبره) .
- ليس هنا . . . ليس هنا . . . الأمر يحتاج إلى غرفة خاصّة . (قال الإمام بصوت أقرب إلى الفحيح)

دخل الشّيخ أوّلاً ، ثمّ الإمام ، ثمّ الولد ، ثمّ القُرناء . القرناء!!! غصّتِ الغرفة بهم . لم يكنْ أحدٌ من البشر ليُدرك عددهم ، أو يستطع أن يفعل . غير أنّ الغرفة هي الغرفة ، وحجمها محدود ، والّذين يحجزون الفراغ بها من المخلوقات يجب أن يكون عددهم محدودًا كذلك . . . ولكنْ لا أحدَ يدري . . . قد يكونون كثيرين في واحد ، وواحد يتكرّر في كثيرين . . . أجزاء من أجسادهم تداخلت في أجساد قرنائهم المُجاورين ، كانوا يلبسون جلابيب سوداء تُخفي أياديهم وأرجلهم ، ويتّصل بأعلى الجلابيب قلنسوة تُغطّي الرّأس والوجه مُدبّبة من الأعلى ، جزء بسيطٌ من ذلك الوجه كان يظهر ولا يظهر ، مكشوف لكنّه غير مرئيّ ؛ ساعدَ الظّلامُ في إخفائه . لم يكن من نورٍ في الغرفة إلاّ ما جاء من طاقة عُلويّة تسلّل من خلالها ضوء مصباح يخصّ

«طائر الشّيخ ، عيونهم مُطفأة . شكّ الشّيخ : «لهم عيون!! وعلى كثرة أسفاري لا يبدو أنّني رأيتهم أو رأيت مثلهم في حياتي ، ولا حتّى في أحلامي . ولكنْ ماذ نعرف نحن البشر!! نحن نعرف من المحيط قطرة ومن الجبل حصاة ، حتّى تلك الحصاة لا نعرف إلاّ ما ظهر منها لنا» .

استسلم الشّيخ لما يرى رغم الرّعب الّذي تشكّل في هيئة القُرناء الذين يملؤون كلّ شيء . أمله في الخلاص من الفزع المتواصل جعله يهيأ لتحمّل فَزَع عارض . حدّث نفسه ثانية : «نقطع الصّحراء المُهلكة على أمل الماء . نتجرّع السّمّ على أمل الشّفاء . نغرز الإبرة في اللّحم على أمل الالتئام» .

جاؤوا بالولد مُوثقًا تنسحب رجلاه خلفه ، يجرّه اثنان من العبيد الأشدّاء . أقيم على ساقيه . طأطأ الإمام برأسه ، طلب من العبدَين أن يخرجا . على الباب استوقف الشّيخ أحدهما واضعًا يده على صدره ، وموجّهًا كلامه للإمام : «إلاّ الطّبّاخ (مسعود) إنّه أقرب العبيد إليّ ، الوحيد الّذي أجده أمينًا وصادقًا . دَعْه يحضر معنا ؛ سأشعر بالطّمأنينة أكثر» . هزّ الإمام رأسه دلالة الموافقة . قرع بعصاه الأرض وهمهم بكلمات غير مفهومة . بزغ من الأرض جذعُ نخلة جرداء . همهم الإمام بكلمات غير مفهومة من جديد . تقدّم اثنان من القُرناء ، ربطاه إلى جذع النّخلة . رفع الولد رأسه . صوّب الشّيخ نحوه نظره وهو يعيد رأسه إلى الخلف بحذر ، حدجه بطرف عينه وابتلع المُفاجأة : «ليس هو» . صحّح العبارة : «لم يعد هو»!! صرخ صرخة يائس : «ابدأ يا إمامنا . . . ابدأ أرجوك» وجثا على ركبتيه كمن يتوسّل . لم ينتبه إليه الإمام ، خطا بعيون عصاه نحو المُوثَق على الجذع ، وبدأ طقوسه الغامضة!!

«هيزا أَمْرا هُوهْ . . . هيزا أَمْرا هُوهْ . . . هيزا أَمْرا هُوهْ . . .» راح

الأعمى يردّد ؛ بدأ ببطء ، ثمّ أسرع ، ثمّ صار يلفظها بشكل أسرع وأسرع وراح جسده يهتز ، وهو يقرع الأرضَ بالعصا . . بدأت صرخات الولد . . صاح . . . استنجد . . . استغاث . . . أبي . . . أبي . . . شبّكَ الشّيخ يديه على صدره ، ومال بجانب الأيمن ، وراح ينظر بطرف عينه المرعوبة وهو يرتجف من الهلع . . . استمرّ الولد بالصّياح . . . شقّت استغاثاته سقف الغرفة واتّسعت لتملأ الآفاق كلّها . . . أبي . . . أبي . . . علا صوتُ الإمام ، صار يقفز على قدميه : «لا أبوك . . . لا أبوك . . . لا أبوك . . . » احتشد القُرناء . . . تكثّفتْ أعدادهم ، مازالت القلنسوة تغطّي نصف الوجه ، والنّصف الآخر يستره الظّلام ، ويبخل الضّوء الشّحيح بإظهارشيء واضح منه . . .

من جديد ، هتف الإمام : «هيزا أَمْرا هُوهْ . . . هيزا أَمْرا هُوهْ . . . هيزا أَمْرا هُوهْ . . . » تتابعتْ طرقاته بالعصا على الأرض . . . تحرّكت النّقوش الموشومة عليها . . . نزلتِ الأفاعي من العصا . . . لم تكن واحدة أو اثنتين . . . ملأت الغرفة . . . راحت العشرات منها تتسلّق جسد الولد ، لم يلتفتْ الإمام والقرناء إلى صرخات استغاثاته المحمومة . . . تابعت الأفاعي زحفها على جسد الولد ؛ دخلتْ من منخر وخرجتْ من آخر . . . وانسابت من عين إلى أخرى . . . توهّج جسد الولد . . . اختلفتْ نداءات استغاثاته . . . صار يبدو أنّها قادمة من بئر عميقة تمتدّ إلى حمم الأرض الباطنيّة . . . ارتجف جسد الإمام وهو يهتف بشدّة : « هيزا أَمْرا هُوهْ . . . هيزا أَمْرا هُوهْ . . . هيزا أَمْرا هُوهْ . . . » سقط الشّيخ مغشيًّا عليه من شدّة الرّعب . . . واستمرّ الإمام يهمهم . . . تداعى عددٌ يفوق المئة لإيقاظ الشّيخ ، هزّوه بعنف فاستيقظ ، التفتَ إليه الإمام مُحدودبًا ، وصاح :

- ما اسمُها . . .؟!

- . . . . . .!!!!

- ما اسمُها . . . ما اسمُها . . .؟! (صرخ بصوتٍ تصدّعتْ له جُدران الغرفة)

- آسيار . . . (ردّ الشّيخ وهو يرتجف ونشيجه يتعالى، ولعابه ومُخاطه يملآن صدره)

- ما اسمُها . . . ما اسمها . . .؟! (صرخ الإمام من جديد، وهو يقبض على عنق الشّيخ)

- آسيار . . آسيار . . . قلتُ لك آسيار . . . يا مولاي . . . قلتُ لك . . . آسيار . . .

أفلته الإمام وهو يتوعّد، ثمّ هتف من جديد: «هيزا أمْرا هُوهْ . . . آسيار . هيزا أمْرا هُوهْ . . . آسيار» . اهتزّ جسد الولد كذبيحة تهتزّ قوائمها استنقاذًا للحياة المسفوحة . . . راح القيح يخرج من آذانه، وانسكب القطران من عيونه، وفاض من فمه . . . واستمرّ القيح والقطران يسيلان حتّى ملأ جسده وفاضا تحت قدميه . . . واستمرّ القرناء يطوفون حوله . رفع الإمام رأسه إلى سقف الغرفة، وصرخ: «آسيار . . . هيزا أمْرا هُوهْ . . .» وهو يشير إليه بعصاه . اختفى القُرناء في لمحة عين، وعادت الأفاعي لتستقر كنقوش على عصا الإمام . وتدلّت هامة الولد على صدره .

- لقد تخلّص من جزئه الجنّيّ . صار ولدًا صالحًا . (هتف الإمام بالشّيخ الجاثي على الأرض، ولعابه ومُخاطه مستمرّانِ بالنّزيف) . قلتُ لك صار ولدًا صالحًا الآن، هيّا انهضْ .

- حاضر يا مولانا . . . حاضر . . .

فكَّ (مسعود) وثاق الولد . وحمله على كتفيه وغاب به داخ
البيت العالي . بعد ثلاثة أيّام شاهدَ الصّبيةُ (سَرْمَد) مشنوقًا تتدلّ
رقبته من إحدى النّخلات الثّلاث عند البئر العَذْبة . قال الشّيخ : «قتل
أحدُ العبيد» . قالتْ أسيار : «قتله عايد» . قال مسعود : «قتلتْه الآلهة»
قالت الآلهة : «قتلتْهُ الرّغبةُ . . .»!!

دُفِنَ (سَرْمَد) في مكان مجهول . حمله (مسعود) على ظهر ناق
من نوق الشّيخ ، وعلى مسافة عشرة أيّام دفنه في مجاهل الصّحراء
قال وهو ينفضُ يديه من رمل اللّحد : «لن تحلَّ لعنتكَ بعد اليوم على
القرية . الشّرور لا يُمكن اتّقاؤها بالدّفن فحسب . يجب أن نختار لها
المكان كذلك» .

عاد (مسعود) من جديد إلى الباب العالي . قرّبه الشّيخ أكثر
وضع يده على كتفه وقال له : إذا كنتُ قد فقدتُ أقربَ النّاس إليّ ،
فلا أريد أن أفقد واحدًا مثلك ؛ من اليوم أنتَ ابني وصديقي» . انحنى
(مسعود) بالغَ في الانحناء حتّى مسّتْ جبهته الأرض ، ثمّ استقام
قليلاً ، وأحاط يُمنى الشّيخ بباطن كفّيه ووضعها على رأسه : «أنا في
خدمتك ولو كلّفني ذلك حياتي . . ستجدني طَوْعَ رغبتك» .

دُهِشَ (مسعود) في أوّل ليلة ينام فيها في مكانه الجديد بجانب
مقصورة شيخه حينَ سمع ذلك الصّوت : حرّك رأسه كمن أراد أن
يتأكّد من أنّه لا يحلم . عاوده الصّوت من جديد : «أصحيحٌ أنّ هذ
هي أصوات الولد وهو يستغيث . . . ما الّذي دفنتُه هناكَ إذًا؟!!»
(حدّث نفسه مُستغربًا) . «قد ندفن الأموات ولا ندفن الأصوات»
(قال ذلك مُحاولاً خديعة نفسه) . «مات الجسد ولم تمتْ نداءاته»
(صوتٌ آخر سمعه في أعماقه) .

(١٥)

المُعجزات مُعجزاتٌ لغيرنا، أمّا نحنُ فسنكونُ المُعجِزات

قبل مجيئه إلى هنا ، كان هذا المكان أشبه بالموت . ومن المُسلّم به أن يُقال : لا حياة في الصحراء . وحدها الصّحراءُ مَنْ تحيا في مسافات شاسعة من الموت لا تنتهي . كلّ من يدخل مجاهلها يموت ، وكلّ من فاز بمعرفته لها تاه . تحتفظ لنفسها بسرّ الحياة وتنزعه عن الآخرين .

- ذلك لأنّها تتمتّع بصفة لا يتمتّع بها البشر . (قال الشّيخ صالح)

- تقصدُ تعويذة الصّبر . (ردّ أخوه الأصغر) .

- ما من شيء قادرٌ على أن يقهر الصّبر ، وما من فوزٍ إلاّ وطريقه تمرّ عبر الصّبر . (تابع الشّيخ) .

- ليتني أتعلّم الحكمة منك!!

- أنتَ تفعل .

«هنا» قال الشّيخ صالح . «سنُقيم هنا» . أخذ حفنةً من الرّمل قرّبه من أنفه وشمّه ، نفضَ يديه منه . فحَصَ الأرض بعصًا عاجيّة في يده ، ثمّ خطَّ في الرّمل ، وكرّر : «نعم هنا» .

كانت الأرض تمتدّ بلا نهاية -حتّى يعانق رملُها الأفق . تبدو متعطّشة لكي تقضي على كلّ مَنْ سولّت له نفسُهُ أن يُفسدَ رِمالَها البكر ، فما الّذي أعجب الشّيخ حتّى يختارها دون سواها؟! نادى أخاه

الأصغر، مَثُل بين يديه فسأله وهو ينظر في عينيه:

- قُل لهؤلاء الرّجال. قل لأفراد القبيلة كلّها؛ لِمَ اخترتُ ه
البقعة من الصّحراء؟

- لأنّ رملها أحمر. (ردّ عايد بثقة). (نظر الشّيخ إلى الرّجا
وابتسم. هزّ رأسه ثمّ حرّك إصبع السّبّابة بحركة دائريّة يستحثّ في
أخاه ليُكمل)

- ولأنّها خاليةٌ من السّباخ.

- أنتَ أخي بالفعل.

- ولأنّ أطرافَها تحمل في جوفها الماء.

- سببٌ أخير وأذبح جزورًا فرحًا بذكائك الفائق.

- ولأنّك تريد أن تبني هنا مُلكًا لم يسمع البشرُ بمثله.

صاح الشّيخ (صالح) من الهول والفرحة، حمل شقيقه الصّغير
بين ذراعيه وراح يُطوّح به في الفضاء، وهو ينادي على بعض الخدم:

- انحروا عشرةً من الجُزُر. لا تكفي واحدة. لتسمع كلّ الصّحراء
بنا. لتعلم كلّ ذرّة في هذه الرّمال الّتي لا تنتهي أيّ جبّارين نحن!!

- كان هذا قبل أن يكون هنا بشر، وقبل أن تكون هنا أنفاسٌ حيّة
تستنشقُ الهواء الّذي لم يصل إلى أنوف من قبلُ حتّى ولو كانت أنوف
الجنّ أو أنوف الكلاب السّوداء. ركزَ الشّيخ راية الجدّ في الصّحراء،
وحَلُم بما لم يصل إليه حُلم أحد.

«لا يقف الزّمن إلاّ في وجوه العَجَزة، نحن نصنع بالزّمن لأجلنا
ما نشاء» عبارتُه الّتي لم يملّ من تكرارها كلّما واجهتْ رجالَه مُعضلةٌ
من نوعٍ ما. «لا أريد مضارب من شَعر أريد بيوتًا. أريد نوافذ تُطلّ على

ما نريد نحن . ليستْ (يبرين) أفضل منّا . لن تقف في وجهنا يبرين ولا عشرٌ مثلها . يملكون الرّجال والعدد؟! نملك الإرادة والعزيمة ، سنتزوّج بالنّساء ، بكلّ النّساء حتّى ولو كانت نساء الجنّ . ليتزوّج كلّ واحد منّا عشرًا . أريد من الذّراري أن تملأ الصّحراء بعدد حبّات الرّمل . ماذا يملك رجال (يبرين) أيضًا؟! يملكون النّوق والخيول ، نملك الجنّ والعفاريت ؛ سأجعل العفاريت تعمل من أجلنا . يملكون الحدود والحمى؟! نملكُ الحرّيّة والتّغيير . يملكون البُرّ والشّعير ، سأجعل الشّياطين تأتي بكنوز الأرض من ذهبٍ وفضّة» .

كان يصيح ويهذي في وجوه رجاله ، وهو يوقن بما يقول . اعتقاده الجازم بما هو مُقدِمٌ عليه حقّق له المُعجزات . «المُعجزات مُعجزاتٌ لغيرنا ، أمّا نحن فسنكون المُعجزات» (يصرخ في وجه الّذين فكّروا بالتّقاعس عن العمل ولو يومًا واحدًا)!!

بعد سنة ، جلس إلى أخيه (عايد) ، ومن حوله عددٌ من رجال القبيلة . اتكأ على بساطٍ منسوجٍ من وبر الجمال ، وجّه كلامه إلى أخيه وإلى الرّجال :

- حقّقنا أشياء جيّدة . لا بأس . لكنْ ليس هذا ما نريد . اللّعنة . العناد صفةٌ جيّدة ولكنّها مع الصّحراء قاتلة . الصّحراء لا أحد يستطيع أن يُعاندها طويلاً .

- وماذا ستفعل يا أخي؟!

- سنتودّد إلى الصّحراء . الرّيح الّتي تهبّ على السّنبلة تقصفها إن لم تنحنِ .

- بدأتَ . . .

- لا . . . لا . . . (قاطعه الشّيخ صالح) لا يذهب ذهنُكَ بعيدًا .

العناد الّذي في رأسي إمّا أن يفجّرني وإمّا أن أُفجّر به الصّحراء .

- لا يمشي الإنسانُ إلاّ على ساقين . (قال عايد)

- فهمْتَني يا خبيث . (ردّ الشّيخ)

- ابنتا الملك جميلتان . لكَ واحدة ولي الأخرى .

(١٦)
أفضلُ أن تكونَ ملَكًا كريمًا على أن تكونَ عفريتًا رجيمًا

وقفَ الحاجب بين يدي الملك ، انحنى بشكلٍ مدروس ، اعتدل ، ثم وضع يده اليمنى على صدره إيماءة استئذان بالحديث :

- تكلّمْ . . . ماذا وراءك . .؟! (أشار الملكُ بيده إيذانًا)

- الشّيخ صالح وبعضُ رجاله يريدون مُقابَلتك .

- ومن هو الشّيخ صالح هذا؟!

- يقول إنّه من (الدّهماء) .

- دَعْه يدخل .

دخل الشّيخ (صالح) يلبس هو وعشرة من رجاله ثياب الوشي المطرّزة . انحنوا إجلالاً لمقام الملك . ثمّ استأذنه في أن يُجالِسه لثلاثة أيام . رحّب الملك به وبرجاله دون أن يسألهم . وأمر حاشيته أن يفتحوا لهم المراتع والخزائن ؛ ينامون في أجمل الأمكنة وأكثرها راحةً ، ويأكلون أطيب الطّعام وأفضله .

في اليوم الثّالث ، وقف الشّيخ في حضرة الملك :

- سيّدي الملك . (خاطبه بصوتٍ فيه خشوع وثقة)

- ضيفنا العزيز . (ردّ الملك) .

- لي إليكم طلبٌ .

- أليس من الممكن أن أعرفه . (يُدرك الملك طمع بعض الشّيوخ)
- أنا لا أريد تلبيته إلاّ بعد أن أقنعك بأنني أستحقّه .
- كيف؟!
- إذا صرعتُ عشرةً من رجالك ؛ أقصد من أعتى رجالك ، فهل سيكون طلبي مُمكنًا .
- عشرة من أعتى رجالي . (قهقه الملك) لا شكّ أنّك تمزح .
- أعني ما أقول .
- وأختار أنا العشرة؟!
- اخترهم كما تشاء ممّن تشاء .
- قبلتُ .
- وأنا جاهزٌ الآن .

اختار الملك قائد الجيش ، وقائد الحرس ، وقادة الكتائب الثّماني ؛ أفضل عشرةٍ يُمكن أن يُوجَدوا على وجه الأرض يومها كما ظنّ .

حُدّد يوم الزّينة ، وفي السّاحة نفسها الّتي انفصل فيها رأسُ (مطروف) عن جسده أقيمت المُصارعة . دُقّت الطّبول ، وصدحت المزامير ، وتقاطر النّاس ليشهدوا المنظر الذّي لا تجود بمثله إلاّ الأقدار الغيبيّة ، وجيء بالملك على سرير من زبرجد مُتكآته من ريش النّعام يحمله ستّة رجال أشدّاء . ظلّوا واقفين به تحته ليشهد الفجيعة!

نضّ العشرة ثيابهم عن أنصافهم العُليا ، وتحلّقوا في دائرةٍ مُغلقة حول الشّيخ (صالح) فلم تعد رؤيته مُمكنة . تعالت الأصوات من الجماهير تريد مشاهدته وهو ينسحق تحت أيدي الرّجال الأشدّاء ، ويتوقون إلى سماع طقطقة عظامه . هجمَ العشرة كأنّهم ثيرانٌ هائجة على ضحيّة بائسة . قفز الشّيخ (صالح) كأنّه كائنٌ أسطوريّ وأفلتَ من

منافسيهم . رآه الجمهور في قفزته يعلو رؤوس مُصارعيه فضجّت السّاحة بالهياج . مشى الشّيخ على رؤوسهم واحدًا واحدًا كأنّه يمشي على درج من صخور طينيّة ، وتمايلت رؤوسهم من وَطْءِ أقدام الشّيخ في حركة بهلوانيّة . هذه المرّة ابتلع الجمهور صوته وكتم أنفاسه لهول ما يرى . استعادوا أنفاسهم ولو نطقتْ تلك الأنفاس لقالت : «أهذا بشرٌ؟! لا يُمكن أن يكون هذا بشرًا ؛ هو أحد ثلاثة إمّا إلهٌ عظيمٌ ، وإمّا مَلَكٌ كريمٌ ، وإمّا عفريت رجيم» . دُقّتْ أعناق العشرة في مُبارزة لم تستغرق أكثر من نصفِ نهار . عاد الفرسان المهزومون بخيباتهم ، لم يستطيعوا أن ينظروا في وجه أحد . أمر الملك برعايتهم ، وطأطأ رأسه خوفًا من طلب الشّيخ صالح الّذي استحقّه ، وهمهم بينه وبين نفسه : «هو الفَحْل لا يُقدع أنفُه» .

قبل أن تغرب الشّمس ، دخل الشّيخ ورجاله القاعة الملكيّة . لم ينحنِ هذه المرّة . ولم ينبس ببنت شفة . ظلّ واقفًا ينتظر . بعد لحظات قال الملك :

- سَلْ تُعطَ .

- لا تَخَفْ . لا أطمع في أن أجلس مكانك ، ولا أن آخذ نصف جيشك ، ولا أن أحمّل ألفَ ناقةٍ من مخازن حُبوبك ؛ كلّ ذلك لا يُساوي عندي شيئًا .

- وما الّذي يُساوي إذًا . (قال الملك مُستغرِبًا ومرتاحًا)

- شيء به يتحرّك الدّم . أريدُ دمًا نقيًا .

وقف الملك على قدميه وقد تسارعت نبضات قلبه ، أشار الشّيخ بيده مُطمئنًا :

- على رِسلك . . لا نسعى إلى القتال بل إلى السّلام .

- السّلام؟! ومن يرفضُ السّلام!!

- وللسّلام إشارتان تدلاّن على تحقّقه .

- وما هما . . .!!

- نتعاهد على ألاّ ندخل في حربٍ حتّى يوم القيامة .

- قبلتُ . والثّاني .

- عندكَ ابنتان ، الكُبرى تيماء والصُّغرى آسيا .

- نعم؟!

- هذا ما قصدْتُه بالدّم النّقيّ ؛ الكُبرى لي والصّغرى لأخي . أخي الشّيخ (عايد) وأشار إلى الفتى ذي الأربعة عشر عامًا الّذي يقف إلى جانبه .

وقف الملك مُحتجًا . ولكنّ الشّيخ رفع إصبعه في وجهه وقال بلهجة حازمة :

- سبقَ السّيفُ العَذْل .

ولّى الشّيخ ظهره للملك وسار بضع خُطوات . تنحنح الملك فتوقّف الشّيخ دون أن ينظر خلفه ، قال الملك برجاء :

- أُفضّل أن تكون مَلَكًا كريمًا على أن تكون عِفريتًا رجيمًا .

(١٧)
هل تُغيّر الصّحراءُ جِلدها؟!

لم ينتظر طلوع الصّباح حتّى يسير بالعَروسين وبالرَّكب . حمل الليل على ظهر جماله ودخل الصّحراء . ملأ رئتيه من هوائها لكي تدلّه على منازله رائحتُها . ساروا أكثر اللّيل ، وعندما توسّطت الزُّهرة القبّة الكُحليّة ، نزلتْ بالدّليل داهية . سقط عن ظهر الجمل ، ودُقّ عنقه فمات على الفور . حفروا له القبر وصلّوا عليه ثمّ لحدوه .

تابعوا السّير دون دليل .

- الصّحراء لا يُعاندُها أحدٌ يا أخي . (قال عايد) .

- وأنا لا يُعاندني أحدٌ كذلك . لن نتوقّف حتّى لو هلكتُ . المجدُ لا يقع في قلب المُرجفين .

- كيفَ نسيرُ بدون دليل!!

- الهواء الّذي ملأتُ به رئتيَّ هو الدّليل .

همزَ الشّيخُ الإبلَ من جديد . وطلب من الحادي أن يُحثّها هو الآخر بما تطرب له من نشيد . «أنتَ تعرف ما يُشجيها» قال الشّيخ للحادي . وسار الرّكبُ لا يتبع إلاّ الرّائحة الّتي استقرّتْ في ذلك الصدر . اشتدّ سوادُ اللّيل وعَطِش الرّحْل والرّواحل والمُرتحلون . فأناخوا قليلاً يطلبون بعض الرّاحة من سير طويل .

تقدّم الشّيخ (صالح) إلى هودجَي العروسَين . أناخ هودج عروسه ، وأعطى خِطام الهودج الآخر لأخيه . أدخل الشّيخ رأسه في الهودج ، لأوّل مرّة يرى عَروسه . وضع يده على فمه دهشةً ، جاهدَ ألاّ يسمعه أحدٌ : «أنتِ أجمل من بلقيس . لو كنتُ أعرف مدى هذا الجمال الطّاغي لطلبتُ من أبيك أن أقاتِلَ كلّ رجال القبيلة من أجل عينيك» ، خفضتْ رأسها حياءً فاتّسعتْ ابتسامته ، مدّ يده ومسح على جبينها ، فهدأتْ نفسُها ، ثمّ نزل فمسح بيده على خدّها فاختفى جزءٌ من الرّائحة القارّة في صدره ، ثمّ نزل أكثر إلى صدرها فاختفى جزءٌ آخر من تلك الرّائحة ؛ خاف أن تنمحي الرّائحة فكفّ يده . «المسألة مسألة وقت . كلّ شيءٍ وله أوانه» حدّث نفسه وهو يتمّ خروجه من الهودج .

أمّا (عايد) فقفز إلى جانب عَروسه ، لم ينظر إلى عينيها ، ولا حتّى إلى وجهها كلّه ، قرّبَ شفتَيه من شفتَيها وهي مُطرِقة وراح يعبُّ من خمر القبلة الأولى . سَكِر . لم تُروه كأسٌ بعد أخرى ، أمسكَ بهنّ جميعًا وحطّمهنّ دُفعةً واحدة . انكشفَ رأسُ الهودج ، صار كلّ شيءٍ مُباحًا .

شرب الرّكب من عَطش . وأوقد بعضُ الرّجال على طعام أنضجوه بسرعة . أكلوا . لم يُمهلهمُ الشّيخ كثيرًا ، صاح بهم مُستعجلاً : «هيّا . . الوقتُ يأكل أخفافَ الإبل» . ساروا على دربَين من هدىً وضلال ، وعلى صِراطَين من فضيلة وخطيئة . منذ الأزل كان في الإنسان هذا ، وهما في الأساس ليسا له ؛ بل هما مُستعاران ؛ الهدى من الملائكة والضّلال من الشّياطين . الفضيلة من النّور والخطيئة من النّار . والإنسان؟! ليس إلاّ جامعًا آنيًا لهما ، يزيدان وينقصان ، أحدهما يغلب

الآخر، أو الآخر يغلب ضِدّه؛ في سباق محموم منذ النّفخة الأولى حتّى النّفخة الأخيرة!!

هل تُغيِّر الصّحراء جلدها؟! هل تُبدّل الأمكنة وجوهها. لم يعد يعرف المسير ولا المصير. والرّائحة الّتي في صدره؟! تلاشتْ حتّى لم يبْقَ فيه منها شيءٌ... ساروا دون هداية فتاهوا أو تاهت عنهم الطّريق. أنكر الشّيخ كلّ ما مرّ به، ولم يتعرّف إلى أيّ مَعلم؟! خضع الشّيخ أخيرًا، قال كمن استسلم: «سننام اللّيلة هنا، لم نعد نتبيّن شيئًا، وفي الصّباح نواصل دربَنا». لم يكد يُكمل عبارته الّتي أدخلت الطّمأنينة إلى قلوب الجميع حتّى زمجرت الرّيح كأنّ أحدًا قد أيقظها بعدَ سكون. عصفتْ فكادت تقتلع الهوادج من على ظهور الإبل. وظلّت تصفُر كأنّها مرجلٌ يغلي، وتطايرتْ بعضُ الأحمال، وقرقعت بعضُ الأواني. وصاح الشّيخ: «الزموا مبارك الإبل. أمسكوا بها وبذيولها، فهي نجاتنا من هذه الرّيح العاصف. قيّد الجميع أيديهم إلى ذيول النّوق. أبرقت السّماء وراحتْ أصواتٌ غاضبةٌ تملأ الفضاء فوقهم، حانت التفاتة من الشّيخ فأصابه الفزع، رأى ما لا يُمكن تصديقه. هتف في سرّه وعيناه جاحظتان: «في أيّ جهنّم نحن؟!» لم يتأخّر عليه الجواب؛ كانت الرّيح تحمل ذئابًا وهي تطير بها كما لو كانت أوراقًا يابسة. وراحت الزوابع المتتابعة ترفع فوقهم كلّ شيء؛ رأوا أشجارًا تطير، وضباعًا ووحوشًا تسبح في الفضاء كما لو كانت زبدًا يعلو سيل ماء. رأى الشّيخ أحد الذّئاب يهوي باتّجاه الهودجين، علتْ صرخات الفتاتين، ركض باتّجاههما، كان الذّئب قد أنشبَ فكّه في كتف الصّغرى، عصفت الرّيح أكثر وطارت بالاثنين في فضاء لا تُعرف نهايته. تشبّثَ الرّكب بما بقي من الإبل. مرّت ثوانٍ كأنّها

دهور . وفجأة ودون مقدّمات هدأت الرّيح كأنّ شيئًا لم يكن . وكانت الخسارة فادحة ؛ أربعةٌ من الرّكب راحوا بين أنياب الوحوش ؛ ابنة الملك الصّغرى أحد هؤلاء الأربعة .

حينَ أفاقوا من الصّدمة ، لم يكنْ هناك من كلام ليُقال ، فالْمصيبة لا تحتاج إلاّ إلى صمت ثقيل . أيّ الكلمات يُمكنُ أن تُعزّي قلوب المفجوعين بفقدان الأحبّة!!

(١٨)
فكرةُ الموتِ ليستْ واردةً في ذهني أبداً

ضمّ الشّيخ أخاه الأصغر ، أحاطَ رأسه بذراعَيه وراح يُهدّئ من روعه ، فيما راح (عايد) يصرخ كطفلٍ سقط للتوّ من بطنِ أمّه .

- أنقذتَ (تيماء) وتركتَ الوحْش يأكل (أسيا) . (قال بصوتٍ مفجوع ورأسه ما زال يستقرّ على صدر أخيه) .

- لم يكنْ باليد حيلة . أعدكُ ؛ سأزوّجك أجمل منها .

- لن تجد أشْهى منها في الصّحراء كلّها!!

طلعت الشّمس كاسفة . تدفّق نورها الشّحيح على القافلة دون الأربعة . كانَ البؤس قد خيّم عليهم ، أشياء كثيرة من أمتعتهم فقدوها ليلة أمس المشؤومة . طعامٌ ولباس وأوانٍ وسلاح و . . . والأهمّ عشر قِرَبٍ من الماء طارتْ مع ما طار . لم يتبقَ من الماء إلاّ القليل . الدّليل مات . والعطش على الأبواب . . . ولكنْ . . . لم يكونوا يملكون إلاّ خياراً واحدًا : السّير في الصّحراء حتّى الموت أو النّجاة .

مفاوز قُطعتْ بعد أخرى . ليلٌ حلّ بعد آخر . عَطَشٌ لم يرحم . وجوع لوى جدران البطن فغارت . والخيار لم يتغيّر : السّير حتى الموت أو النّجاة .

- إنّها آخر قِربةِ ماء . إذا حلّ اللّيل فسيكون علينا الرّضى بالموت . (قال عايد لأخيه وهو يرتعد) .

- لن أموت هُنا . سأجتاز هذه المفازة وأنجو وتنجُون معي . فكرةُ الموت ليست واردة في ذهني أبدًا .

- ولكنّنا واردون في ذهن الموت .

- إذا كان الموت يُعانَد فسأكون أكبر مُعاند له . . سوف ننجو . . . وسأحكم هذه الصّحراء . . وسأتزوج (تيماء) وأُسمّي المملكة التّي تمتدّ امتداد الأفق باسمها ، وستنجب لي سلالةً مَلَكيّة نقيّة ، وسيأتي من ذرّيّتي اثنا عشر سبطًا يبنون اثنتي عشْرة مملكةً .

حينَ أرادتِ الشّمسُ أن ترتاح من رحلتها في ذلك اليوم . وقف . وأمسكَ بقربة الماء الأخيرة :

- قد تكون آبار الماء تحت أقدامنا . . مَنْ يدري؟! ولكنْ ريثما تتدفّق هذه الآبار من تحتنا لن يكون لدينا من سرّ الحياة هذا إلاّ هذه القربة . وبالتّالي فإنّ نصيب الواحد منّا رشفةٌ واحدةٌ . . . في الصّباح . . . أعِدُكم . . . أعِدُكم . . سوف تتفجّر الأنهار من تحت أقدامنا تفجُّرًا . . . وحينَها لن ينتهي الحلم . . . سنعود إلى ديارنا ملوكًا .

لفّ (عايد) رأسه بقطعة خيش ، واستلقى على ظهره كمن ينتظر الموت ، وهتف في نفسه : «لا بدّ أنّ أخي قد جُنّ . . . ومتى كان الجنون نافعًا» . ثمّ أردف : «ما يُعزّيني أنّ خمرة آسيا ما زالت عالقةً بشفتيّ ، إنّني أجد طعمها رغم الجفاف» . ثمّ همس : «سأموت مرتاحًا على الأقل . . .» .

ناست القافلة . كلّ مَنْ فيها أيقن أنّه لن تطلع عليه شمسُ اليوم

التّالي ؛ سيكون قد غادر إلى العالَم الآخر . ليس الموت سيئًا إلى هذا الحد (هتفوا في سِرّهم) . وحده الشّيخ (صالح) كان يحلم بالنّجاة وبالملك .

طلعت الشّمسُ عليهم ليّنة هادئة . استيقظوا كما لو كانوا في بيوتهم ينزلون عن أسرّتهم . ملأتْ قلوبَهم مشاعرُ الرّضى . شيءٌ ما هتف في أعماقهم : «لقد نجوتُم ؛ الموتُ عفا عنكم في هذه المرّة ، ولكنّه لا يعفو دائمًا» . وقف الشّيخ (صالح) وهو يضحك . والرّجال سلّموا على بعضهم كأنّهم يتبادلون التّهنئات في أحد الأعياد .

من بعيد لاح شبحٌ في غبشِ الصّباح في عين الشّمس اللّيّنة . «مَنْ يكون؟» تحرّكَ الشّبح باتّجاههم في تأنٍّ ، ثبّتت العيون نظرها باتّجاهه . «يبدو أنّها صبيّة» (قال الشّيخ صالح وهو يُحِدّ نظره باسطًا كفّه فوق عينيه ليتّقي بعضَ الشّمس) . أمّا الشّيخ (عايد) فوجد نفسه يتقدّم باتّجاه الشّبح خطوات ، ثمّ ما لبث أن قفز في مكانه وهو يصرخ :

- لقد عادتْ (آسيا) . . . لقد عادتْ (آسيا) . . .!!

ركض الشّيخ (صالح) باتّجاهه ، عاجل فمه بيده هو الآخر كي لا يصرخ ، ونظر في وجه أخيه :

- أمتأكّدٌ أنتَ؟!!

- إنّها هي بالتّأكيد يا أخي .

- هل أنت (آسيا) بنت الملك . (سألها الشّيخ صالح)

- نعم . أنا هي . (أجابت)

نزلتْ أختُها من الهودج واحتضنتْها : «يا إلهي كيفَ نجوتِ . .!!»

- ولكنْ . . . ولكنْ . . . (تلعثم الشّيخ)

- أعرف . . تقصد أنّني يجب أن أكون قد متُّ بين فكّي

الذّئب . . . لم أمتْ ؛ كان الذّئب أحد الشّياطين المتشكّلة في هيئته ، حينَ عرف أنّني ابنة الملك ، تركني وأعادني إليكم .

- بعضُ المُعجزات قد تحدث . (قال الشّيخ للرّكب) ، ثمّ خفض صوته : «لا يُمكن تصديق هذا النّوع من المُعجزات ؛ فالموتى لا يعودون» ثّم أردف : «ومن قال إنّ المُعجزات وُجدتْ لكي تُصَدّق» .

نهض الرّكب وسار . جلستْ (آسيا) في هودج أختها ومضوا . «أعرف الطّريق» قالتْ للشّيخ وهو يُحاول أن يستنهضَ ما تبقّى في صدره من رائحة!!

(١٩)
النّساءُ هنّ النّساء؛
الواحدةُ كالمئة، والمئةُ كالقبيلة!!

أيّ قدرة يُمكن أن تُغيّر الصّحراء إلى هذا الحدّ في مثل هذا الزّمن القصير. لا بُدّ أنّ هناك قوىً خفيّةً تُشارك في هذا السّحر؛ هل ساعدتْنا الجنّيّات، أم أنّها أساطير ملك (يبرين) وأساطيله!!

غابات من النّخيل امتدّتْ في (الدّهماء) حتّى حولّت الصّحراء إلى جنّات وبساتين. مئات الآبار حُفرت حتّى أوى إلى هنا خلقٌ كثير. لم يعد مُهمًّا أن نتزوّج نساءً كثيرات لينجبنَ لنا ذريّة بطول الصّحراء. البشر يتهافتون إلينا من كلّ حَدَبٍ وصوب، ومن كلّ هامّة ولامّة؛ هذا يكفي» قال الشّيخ (صالح) ذات مرّة.

زروعٌ من كلّ نوع، وأعنابٌ من كلّ صنف. ونخيلٌ ورُمّان. دنت القُطوف. وتدلّت الثّمار. وفاضت العيون. وجرّب الشّيخ كلّ لذّة، ولم يجد في بحبوحة العيش أوفى من زوجه (تيماء) فعدل بها كلّ شيء، ثمّ صاح مُستكشفًا: المرأة أفضل نعمة يُمكن أن يتحلّى بها الرّجل!!

ماذا تفعل امرأةٌ مثلها بقلب فارسٍ مثله؟! ما الّذي يدعوه إلى أن يقف أمامها كطفل وديع؛ وهو الّذي صرع عشرةً من الرّجال الأشدّاء ذاتَ نهار. ويخشع في حضرتها كأنّه تلميذٌ بين يدي أستاذه لا يفوه بكلمة، وهو الّذي أسمع الصّحراء كلّها صوته يوم انتصر على الموت وعاد ليُصبح

مَلكًا . وينظر إليها كأنّه ينظر إلى حوريّة فاتنـة ضلّتْ طريقها فسقطت عليه من السّماء السّابعة . وحينَ تكون إلى جانبـه ينسى كلّ آلامه ، ويضع يده على قلبه لكي لا يسقط مُضرّجا بين يديها .

أمّا أخوه (عايد) فطغت على قلبه التّخمةُ فأعمتْه ، لو كان يحبّ (آسيا) كما كان أخوه يحبّ (تيماء) لعرف نعمة الله عليه ، واستقرّت المملكة . ولكنّ العينَ الفارغة لا تشبع إلاّ من الدّود حينَ يأوي المرء إلى مثواه الأخير كما يقولون . وأيّ نعمة تلك التي تستجلب طائر النّقمة حتى يغوص فيها المرء فلا يعود يعرف نفسـه !!

مَنْ يهدم الآبار؟! ومن يحرق الزروع؟! ومن يقتل الضّمائر؟! لا أحدَ يفعل هذا أبشع من الإنسان . لا أحد يقدر على ذلك إلاّ مَنْ ساق الحتف بيديه إليه . ومَنْ صنع ثُقبًا في جدار بيته فلا يلومنّ الأفعى حينَ تحلّ ضيفةً عليه في زمن الغفلة!!

فَجَر (عايد) ، الشقيق المُدلّل . بَطِرَ معيشةً فكفر . جلبَ مئات النّساء الزّنجيّات من أفريقيا ، كان يطلب من رجاله أن يشتروا له في كلّ سفرة عشرًا منهنّ ، يوصيهم : «ناهدة الصّدر ، غليظة الشّفتين ، طويلة الجذع ، نافرة العَجُز ، واسعة العينين ، ناعمة البطن ، رشيقة القوام ، لا يزيدُ عمرها عن أربعة عشرَ عامًا ، وإذا سال الحليب على مفرق نهدَيها فلا يستقرّ إلاّ هناك» . شروطٌ تعجيزيّة كانت تستدعي رجاله أن يقضوا شهورًا طويلة ويدفعوا أموالاً طائلة ليحقّقوا له مُراده . وصار معروفًا بفجوره في أفريقيا كلّها .

وفي البيت العالي كانت صرخات الانفتاق تتعالى من الغُرَف ، لم يكنْ يتورّع عن أن يفعل معهنّ أيّ شيء ، مارسَ كلّ الرّذائل ، وتوزّعتْ محظيّاتُهُ على مئة وأربعين غرفة ، جعل لكلّ محظيّة غرفتَها ،

وسيّر لها خدَمها . وهذا الّذي ادّعى الفحولة في أوّل التّيه في تلك اللّيلة لم يعد يقرب ابنة الملك ، وأهملها كما لو كانت خادمًا . وكان يحدثُ أن تمرّ شهور وتتلوها شهور ولا تحظى بوجه زوجها الفاجر!!

والنّساءُ هنّ النّساء ؛ الواحدة كالمئة ، والمئة كالقبيلة . والوجوه الجميلة لا تكشفُ عما في القلب . وحينَ تُغلق المرأة باب قلبها على ما تريد ؛ فإنّ كلّ قوى الكون لا تستطيع أن تُعيد فتحه . وإذا طُعنتْ في كرامتها فإنّ ماء المُحيطات تسودّ لفكرةٍ واحدة يُمكن أن تنضج في عقلٍ يتّسع لكلّ شيء إلاّ للعفو .

عشرُ سنوات مع مئات النّساء لم يأت بشيء . كلّ الماء الّذي قذفه عبر تلك المدّة في أرحام المحظيّات لم يُخصب . لكأنّ ماءه كان يُعقم ما في الأرحام ويخنقُ ما في الأنسام!! سنوات بشهورها وأيّامها ولياليها ونهاراتها وصيفها وشتائها وهو يواصل صبّ الماء في الأرحام المحروثة على أمل أن تجد قطرةً واحدة أرضًا منتجةً ولكن دون جدوى ؛ لم تُثمر أيّ أرض!!

قال له الشّيخ صالح ذات مرّة : «الممالك تُبنى على الأسَل وعلى العَدْل ، وإذا استمررتَ في غواياتك فسينتهي كلّ هذا المجد . وتذكّرْ من أينَ جئنا وكيفَ صرنا . مَنْ يجهلْ جذوره يعشْ في شقاء» . كان يسمع أخاه ثمّ يُهمِل كلّ ما قاله بعد أن يُولّي ظهره ، وينصرف إلى لهوه ومجونه . وتشكّلتْ حوله طُفيليّات من الرّجال ذوي المصالح . كان يُغدق عليهم من الأموال والنّساء ما جذب إليه عددًا كبيرًا منهم . ولم يعد لأخيه الملك الصّالح سلطةٌ عليه . وكان أخوه بين خيارَين : النّصيحة أو السّيف . وكلاهما لم ينجحا . النّصيحة صارت مثل حصاةٍ تلقى في بئر لا قرار لها . والسّيف سيُهلك الأخوين معًا وستنتهي المملكة بأكملها!!

(٢٠)
أريدُ أنْ أنتهي مِن كلّ ما يتعلّقُ بها!!

قالت له (فُرات) وهي تتمطّى بثوبٍ خمريّ ينسدل على كتفيها حتّى ساقيها .

- مَلكي الحبيب .

- ألا تُجيدين الرّقصَ (ردّ عليها وهو يعُبُّ من الكأس دون أن ينظر إليها)

- بلى يا سيّدي .

- ارقُصي إذاً .

راح جسدها يتثنّى على ضوء الشّموع الخافتة كأنّها أفعى تستجيب لألحان سحريّة غامضة . هام الشّيخ بالجسد البضّ واللّون الفاتن والحركات الذّابحة . توقّفتْ فجأة . وخفضتْ رأسها .

- أكملي يا روحي . . . لِمَ توقّفْتِ؟! (قال باستغراب)

- لي طلبٌ . . . ألستُ روحَكَ!!

- بلى . . اطلبي أيّ شيءٍ (قال باستخفاف وهو يكرع آخر ما تبقّى في الكأس)

- أيّ شيء؟!

- أيّ شيءٍ ولو كان رأسَ أخي . (قهقهَ بفجور)

- لا . . . لا . . . أمعقول أن أطلب رأس أخيك . . . الأمر أسهل ممّا تفكّر فيه . . . فليتكفّل برأس أخيك غيري . . . أمّا أنا . . . (قالت الجملة الأخيرة بدلال فاضح)

- قولي . . . قولي . . .

- فأريد رأس (آسيا) .

انتفضَ الشّيخ في سريره ، وقف على قدميه ، ارتجف ، سرى الخوف في عروقه ، «لو طلبتْ رأس أخي لكان أسهل» حدّث نفسه . قطعتْ عليه الصّمت ، حين دارت حتّى صارتْ في وجهه ، التصقتْ به ، غاص جسدها الطّري فيه ، قالت وهي تحكّ رأسها بصدره :

- هه . . . ماذا قلت .

- ولكنْ . . . لماذا آسيا . .؟! (قال وهو يركز رأسه على هامتها ويلفّ خصرها بذراعيه)

- لأنّها سبب بلاء المملكة كلّها . إنّها ساحرة . . . إنّها جنّيّة . . . . لقد قالت العرّافة لي إنّها سبب عدم إنجابك .

- أمعقول؟! (قال ذلك بصوت عالٍ وهو يدفعها بعيدًا عنه)

- نعم . ألم تفكّر لـمَ لَمْ تنجبْ لكَ (فُرات) هذه الحسناء الفاتنة الّتي يفوق جمالها حوريّات الجنّة ابنًا حتّى الآن؟!

- اممم (حكّ رأسه وهمهم) معقول .

- ولكنْ لماذا تفعل (آسيا) ذلك .

- لأنّك أهملتَها . تركْتَها وحيدةً في غرفتها المظلمة فيما أنت تطوف بسواها .

- وهل هذا سببٌ كاف .

- الإهمال عند المرأة أكبر سبب . (ردّت بثقة)

- وما العمل؟! (قالها بِحيرة طفل)

- تقطع رأسها . (قالتْها بقوّة كأنّها تدرّبتْ على إلقائها عشرات المرّات)

- ولكنْ . . . (خرجت الحروف مضطربة)

- لا أدري ما الّذي يدعوك إلى الاحتفاظ بعجوزٍ شمطاء لا تلبّي رغبة فَحلٍ مثلك!!

- ولكنْ ما الضّير في أن تبقى!! (خرجت الحروف كأنّ يدًا قاسيةً كانت تلتفّ على عنقه)

- إذا أبقيتَ عليها ، سوفَ تبقى على عجزك . وسيقولون ملكٌ عاقر . تخلّصْ منها وستتداح ذرّيّتك لتملأ الصّحراء مثل النّمل .

- سأفعل . . . سأفعل . . . ولكنّ قطع الرّأس . . . هل هناك طريقة أخرى لفعل ذلك .

- ارمها في البئر وسُدّ عليها بابها . (قالتْ بسرعة كأنّها كانت جاهزة لاحتمال جديد)

- معقول . . . معقول . . . فكرةٌ معقولة . . فكرةٌ معقولة . . .

تراجعتْ (فُرات) إلى الوراء اتّسعتْ ابتسامتُها في وجه الشّيخ ، وضاقتْ في داخلها ، قالت هناك : «خطوةٌ أولى نحو . . هذا يليقُ بملكة» . ثمّ عاد جسدها المَشوق إلى التّلوّي ، ظلّتْ تتثنّى كأفعى حتّى الصّباح . وظلّت الخمر تدور في رأس الشّيخ الفاجر حتّى شاخ .

في ليلة أخرى . . . الثّانية . . . الثّالثة . . . العاشرة . . . لا أحد يدري إلاّ (فُرات) ، ساقَ اثنان من العبيد (آسيا) مُقيّدة اليدين ، مُغطّاة العينين إلى بئر مهجورة في الجهة الجنوبيّة تمتلئ بالأفاعي في قعرها ، رمقوا قاع البئر فارتدّوا مرعوبين ، تواطؤوا على رميها هناك بسرعة ،

وسدّوا فوّهة البئر بغطاء صخريّ ثقيل . ظلّتْ تستغيث بهم لكي يُنقذوها دون جدوى ، ولفّت صرخات الرّعب الّتي أطلقتْها الصّحراء بأكملها ، ولكنّ أحدًا لم يكن ليسمعها . التفّتْ في قعر البئر حولها الأفاعي ونهشتْها حتّى لم يعد لها منها شيء . بعد سبعة أيّام ، بعث الشّيخ برجاله ليستطلعوا الأمر ، أزاحوا الغطاء ونظروا في القاع فلم يروا شيئًا . حتى الأفاعي اختفت . عادوا إلى الشّيخ قالوا :

- إنّها قد ماتت ولم يتبقّ منها إلاّ كومةٌ من العظام . (قال ذلك مسعود وهو يحكّ طرف أنفه)

- ائتوني بعظامها إنْ كنتم صادقين . (رد بتشكُّك)

جهد (مسعود) وعددٌ آخر من العبيد أن يبحثوا عن جيفة ميّتة قد تُساعدهم للتّخلّص من الورطة الّتي وقعوا فيها . قبل أن تأذن الشّمس بالمغيب عادوا إليه يحملون كومةً من العظام لحُوارٍ ماتَ منذ أشهر . أمرَ العبيدَ :

- اجمعوا هذه الكومة . احرقوها حتّى تصبح رمادًا . اقسموا هذا الرّماد أربعة أقسام ، اذهبوا بكلّ قسم إلى جهةٍ من جهات الصّحراء الأربع . اذروه هناك مع الرّياح ليختلط مع ذرات الهواء أو حبّات الرّمل في الجهات المترامية . أريد أن أنتهي من كلّ ما يتعلّق بها!!

(٢١)
الحبُ يَغفِرُ أكبرَ الخطايا وأبشعَها

لم يهدأ (عايد) ليلةً واحدة بعد أن ألقاها في البئر ، ظلّتْ تأتيه في المنام . تُحكم أصابعها حول عنقه حتّى يكاد يختنق ، يصحو مذعورًا . يتحسّس مواضع رقبته بذُعر . ويأمر أن تأتيه (فُرات) :

- لم ترحل . إنّها ما زالتْ هنا . (يقول لها باكيًا مثل طفل)

- هذه أضغاثُ أحلام . سأرقصُ لك حتّى تنسى .

وترقصُ له الغانية حتّى ينسى بالفِعل ، ثمّ يستسلم للنوم . وهي . . . تعود مرّةً أخرى .

هذه المرّة جاءته (آسيا) على هيئتها أوّل ما رآها في ذلك الهودج ، قالت :

- أحَسبْتَ أنّ الجنّ يموتون . . .؟! أبله . مات الجسد ؛ الجسد قشرة . نحن نعيش آلافًا من السنين ، بعضُنا لا يموت إلى يوم الدّين!!

- وهل أنت جنّيّة؟!

- لم يعد مهمًا أن تعرفَ . المعرفة من أجل أن تفعل الشّيءَ بناءً على ما عرفتَ ، فإذا فعلتَ قبل أن تعرف فما فائدة المعرفة إذًا!!

- يا إلهي . . . كنتُ أعاشرُ جنّيّةً!!

- لم تكنْ كذلك من قبلُ . أنا قرينتُها .

- أنت . .؟!

- أنا (آسيار) . أمّا (آسيا) فقد غفرتْ لك وهي تلفظ آخر أنفاسها . كانت تُحبّك . الحبّ يغفر أكبر الخطايا وأبشعها .

- يا للمسكينة!!

- النّدم لا ينفع حتّى في أوانه ، فكيف بعد الفوات .

- ولكنْ ماذا أفعل حتّى تسامحني؟!

- قلتُ لكَ لقد سامحتْكَ بالفعل وهي تريدُ أن تحقّق لك أمنيتك؟!

- أمنيتي؟!

- في أن يكون لك ذرّيّة؟! ألا تُحبُّ أن يكون لك أولادٌ ليستمرّ كلّ هذا النّعيم في سُلالتك!!

- بلى . . . بلى . . .

- في اللّيلة القادمة ستري أنّ المحظيّات بانتظارك . كلّ واحدة قد عقدتْ على باب غرفتها رايةً حمراء . هذا دليلٌ على أنّها تُعدّ نفسها لك . ستجد أنّ عدد الرّايات مئة . ادخل الغرف ذوات الرّايات غرفةً غرفةً ، وعاشر الحسناء الّتي تتلوّى على سرير الشّوق فيها . وحاذرْ أن تدخل الغرف الّتي لم ترتفع على بابها راية . في الغرفة المئة ستكون (فرات) بانتظارك ، وستجد أمام بابها كأسًا بلوريّة يترقرقُ في قاعها شرابٌ أصفر . قدّمْه إليها لتشربه ؛ فهذا الشّراب ترياقٌ يجعلها تُنجب لك سبعة توائم .

- وكيفَ أعرف أنّك صادقة؟!

- الرّايات المئة ، والكأس هما الدّليل . إنْ أخطأتْكَ رايةٌ فقد تاه الدّليل .

- وأخي . .؟!

- ما شأنُكَ بأخيك . .؟!

- يسألني عن سبب رحيلك؟!

- قل إنّها ضلّتْ طريقها فسقطتْ في البئر البعيدة في الجهة الجنوبيّة دون أن ينتبه أحد لسقوطها أو يدري سبب اختفائها!!

صحا (عايد) من نومه مُنشرح الصّدر، طيّب الخاطر. حدّث نفسه : «هذا ليس كابوسًا» ؛ إنّها هديّة من السّماء . لا بدّ أنّ الله يُحبّني . ويعرف مدى مكابدتي للحصول على الولد . وقد سيّر لي هذا القرين ليدلّني على ما عجز العرّافون عن الوصول إليه . انتظر اللّيل بفارغ الصّبر . وأبقى على مساحة من الحذر كي لا يقع في المحذور .

قال لمسعود : إذا كان العشاء ، فانفُخ في البوق من فوق البيت العالي . صرّفه إلى بيت الخدم . واستلقى على سريره يُمنّي نفسه بليلة لم يعشْها إنسيٌّ قبله . استرخى وراح يحلم مفتوحَ العينين . أخذتْهُ ذكريات الأيّام العصيبة . تذكّر كيف أنقذتْ (آسيا) حياةَ القافلة . عاد إلى طعم القبلة الأولى ، غاص في تخيّلاته ، فجأةً تناهى إلى سمعه صوتُ البوق . نهض من سريره بخفّة ، ومشى إلى الغُرف المُشتهاة . «الشّهوةُ فخُّ الشّياطين» جاءه صوتُ أخيه . ردّ عليه دون أن ينبسَ بحرف : «تركتُ لك طُهرَ الملائكة . هل من الضّروريّ أن تكون متشابهَين!!» .

قفز قلبه في صدره كأرنب وهو يقف على أوّل الممرّ الّذي يُفضي إلى الغُرَف ، حدّث نفسه : «ماذا لو كانت تكذب؟!» «وليكُنْ هي لم تطلب شيئًا» (ردّ على نفسه) . تقدّم خطوة أخرى قبل أن تكون أبواب

الغرف المصفوفة على امتداد واحد في مواجهته فزادت قفزات الأرنب العين . الخوف والحذر أعاداه خُطوةً إلى الوراء ، ولكنّ الرّغبة والفضول دفعاه إلى الأمام ليستردّ الخُطوة المسروقة . ظلّ الخوفُ يسرق الخُطوة والفضول يستعيدها . حدث ذلك أكثر من عشرين مرّة وهو واقفٌ في محلّه لا يتزحزح . قضى الطّمع أخيرًا على كلّ هذه الخُطوات المتذبذبة ؛ الطّمع في أن يظلّ كلّ هذا المُلك في نسله إلى أن تقوم السّاعة .

أخذ نَفَسًا عميقًا ، أصلح من هندامه الخفيف ومشى . وقع نظره على أبواب الغُرف . ندّتْ منه صرخةٌ عالية في داخله لم يسمعها أحدٌ كادتْ أن تمزّق أحشاءه : «صدقتْ آسيار» . هذه الرّايات الحمراء كما قالتْ تتدلّى من فوق الأبواب وهي تقطر شهوةً . مشى الفحل واثق الخُطوة ، دخل الغرفة الأولى فوجد المحظيّة قد نضّتْ ملابسها وهي تدعوه إليها بشغف . ضاجع تسعًا وتسعين امرأة!! «من أينَ أتتْهُ تلك الفُحولة!!» (سأل نفسه) . «لآسيار أسرار» أجابها .

عند باب الغرفة المئة . وقف مليًا . لا بُدّ أنّ (فرات) تنتظره في الدّاخل . نظر عند عتبة الباب ، فرأى البلّورة يترقرق في قعرها الشّراب الأصفر تمامًا كما أخبرتْه (آسيار) . انحنى ملكًا ينحني لِمَلك . رفع الكأس فزاد ترقرُقُها ، لمعت على ضوء القنديل كأنّها كوكبٌ دُرّيّ . ارتجفتْ يده قليلاً حينما فكّر بأن يأخذ رشفةً من هذا الشّراب السّحريّ . لكنّ صوت (آسيار) أتاه في اللّحظة المُناسبة : «إيّاك أن تفعل ، إنّما هذا الشّراب لفرات كي يسقي ماؤكَ سبعة أرزعة» . انتهى عن الفعل فالصّوت جليّ . مدّ الكأس أمامه يتحاشى فِتنتها فراحت تترجرج مثل راقصة . هزّ رأسه لينظّفه من الوساوس الّتي عشّشتْ فيه

للتوّ. دفع الباب باليدِ الأخرى. ودخل... كانت هي... مثلَ عَروس جاءت من وراء البحار... أخذتْ من كلِّ فاتنةٍ فتنتَها، ومن كلِّ غانيةٍ جاذبيّتها، ومن كلِّ حوريّةٍ سِحرها... وجمعتْ كلَّ ذلك في جسدٍ واحد؛ هو جسدها!!

(٢١)

ما الخَطِيئةُ الّتي تَستوجِبُ كلَّ هذا المدّ المُتتابِع مِنَ اللَّعَنات!!

تغيّر الشّيخ بعد تلك اللّيلة . سواف قديمة ركضتْ في أعماقه . رياح سَموم زمجرتْ في أحشائه . جنّيّات لم يرَ مثلهنّ من قبل لعبْنَ في عقله . دماغه كادتْ أن تنفجر لازدحام العفاريت فيها . أشياء تظهر له وحده . وأشياء أخرى ظاهرة تختفي من أمامه . يسمعه الخدم والعبيد والمحظيّات يهذي بكلمات مفهومة وأخرى غير مفهومة . يأمر وينهى ، كأنّه يُحدّث أقوامًا أمامه . فينظرون فلا يجدون إلا الفراغ . نادى (مسعود) :

- لستُ مجنونًا . (أعرف أنكم تتهامَسون بهذا فيما بينكم)

- . . . . .!!

- أعرف ما الّذي أصابني . المهمّ أن تحتفظَ أنتَ بالسّرّ .

- أيّ سرّ يا مولاي؟!

- ليس هذا هو المهمّ . المهمّ حينَ أقابل النّاس لا أريد أن أظهر بصورتي الأخرى . أريد أن أتصرّف كبشر . الهلوسات الّتي تأتيني ما السّبيل إلى إخفات صوتها حين أقابل النّاس؟!

- هناكَ شرابٌ أصفر قد يُساعدك . (ردّ مسعود)

- صدقتَ . فلتعصروا منه ما يملأ البراميل كلّها ، ولتكنْ جاهزة

حينَ يريد النّاس مُقابلتي . وأنتَ (أشار إلى مسعود ليقترب منه)
- نعم مولاي . . (ردّ مسعود)
- إيّاكَ : السّرّ الّذي بيننا لا يطّلع عليه أحدٌ .

ساءتْ حال الشّيخ . صار يرتمي في الفراش كخيشة مُهملةً أيّامًا وليالي طويلة . احتجب عن النّاس ، وكان (مسعود) يقولُ : «لقد أوى إلى أحد الكهوف ليناجي السّماء وسيعود بعد أربعين يومًا» . وفي الكهوف المنة الّتي زارها في تلك اللّيلة عرفَ أنّ الموت يزحفُ إليه ببطء ، وأنّه ستحينُ لحظةٌ يتمنّى فيها أن يُجهزَ عليه هذا الكائن اللّطيف ولا يُحقّق له هذه الأمنية الغريبة .

أكلهُ الجربُ في البداية . فصار يحكّ جلده حتّى تفسّخ ، وسال الدّم منه ، صار يصيح في اللّيل مثل حيوان مذبوح . يُهرَع إليه (مسعود) . يضع القَطِران الأسود على جلده المتفسّخ فيهدأ قليلاً . ثمّ لا يلبث أن يعود إلى صياحه من جديد . امتدّ الجرب إلى رأسه ، ظلّ يحكّه في تلك اللّيلة حتّى سال الدّم على وجهه في خطوط متعرّجة . ركضَ (مسعود) إليه من جديد . صبّ القَطِران على رأسه فلم يهدأ . أشار الشّيخ إلى الوعاء في يد (مسعود) ، ناوله الأخير له ، حشر الشّيخ رأسه فيه . وهدأ بقيّة اللّيل .

بعد شهر من طلْي جسد الشّيخ بالقَطِران ، أصابتْهُ لوثةٌ جديدةٌ ؛ القيح . صار القيح يَنفر من جسده سيلاً سيلاً . يملأ أنفه وعينيه ، ويَنِزُّ من تحت قدميه ، ويفيض من تحتِ إبطيه . لا أحد يُمكن أن يحتمل هذا المنظر غير (مسعود) . كان يأتيه بالمذراة يضع في طرفها خيشةً مبللة ويكشطُ القيح ، وربّما كشط شيئًا من الجلد معه .

توالت النّكبات على البيت العالي. أصابه الصّرع. يأتيه مرّتين في الشّهر، حين يكون القمر مُحاقًا بهيئة كلب أسود مألوف المنظر. كان الشّيخ قد رآه يطير فيمن كان يطير في تلك اللّيلة الّتي عادوا فيها من (يبرين). كلبُ صيد سلوقيّ أسود. بطنُهُ ضامرة، وذيلُه منفوش الريش يلتفّ في دوائر مُتناسقة، وقوائم رفيعة وعالية، وأذنان صغيرتان حادّتان، وعينان لامعتان ترَيان ما خلف الحُجُب، وفكٌّ قويّ إذا نشب في الصّخر فتّته. كان الشّيخ إذا يراه يستكين ولا يستطيع أن يفعل شيئًا. يعرف أنّ المُقاومة لا فائدة منها. يصرخ الصّرخةَ المعهودة الّتي تخرج من كلّ شرفات البيت العالي ليسمعها خلقٌ كثيرٌ، ثمّ يجلس مُنتظرًا حفلة العذاب. يقضمُ الكلبُ إصبعًا من أصابع الشّيخ يلوكها ثمّ يقذف ما تبقّى منها في وجهه. يتلوّى الشّيخ من الألم، يُهرَع (مسعود) إليه؛ لقد تعوّد هو الآخر زيارة الكلب في مثل هذا الوقت. في المرّة الأولى استجاب فيها (مسعود) لنداء الشّيخ، بعد ذلك كان يتركه لكلبه لأنّ هذا الوقت وقتُه؛ الكلبُ يزور الشّيخ مرّتين؛ مرّة في منتصف الشّهر ومرّة في آخره.

ما الخطيئة الّتي تستوجب كلّ هذا المدّ المتتابع من اللّعنات!! تهتّك جلد الشّيخ. صار يتساقط عن عظمه كأنّه لحمٌ أُنضجَ. ذُعِر الشّيخ عندما رأى (عُضوه) قد أصابه ما أصاب جسده. ذهبتْ فحولته في لحظة غادرة. بكى. مسح دمعه، وقال: سأعيش بما تبقّى. هجرتْهُ النّساء. ولكنّ المحظيّات أبوابهنّ مُشرّعة؛ مَنْ يُغلق تلك الأبواب!!

حان موسمُ الضّفادع، قفزتْ ضفادع كثيرةٌ من كلّ زاوية. أغلق على نفسه الأبواب. تسلّلت الضّفادع من تحت الشّقوق. راح نقيقُها يهوي على رأس الشّيخ بمطارق مُحمّاة. طلبَ من العبيد أن يدوسوها.

فعلوا فخرج من بطن كلّ ضفدعة العشرات. سرحت الضّفادع في باحات البيت العالي وفي غُرَفه وممرّاته مثل الصّيصان. ماج البيت العالي ببحرٍ من الضّفادع سمعتِ السّماء السّابعة نقيقها المتواصل في اللّيالي المُعتمة!!

صرخ: «إنّها آسيار... إنّها آسيار... اللّعنة على أخي وعلى اليوم الّذي طلب فيه أن نتزوّج من ابنتي الملك». جاءته في المنام في تلك اللّيلة هتفتْ به وهي تبتسم ابتسامة المُنتصر: «ألم أقل لك إنّ العفاريت لا تموت!» «إذًا فلأمتْ أنا» ردّ عليها وهو يصرخ. أجابته بهدوء: «لم يحنِ الوقتُ بعدُ»؟! استيقظ فزعًا. ما فائدةُ الفزع؟!!!

جاءه (مسعود) بعد ستّة أشهر بشرابٍ قال إنّه سيُعيد إليه صحّته. رفع الكأسَ الّتي فيها شرابٌ أبيض أمام ناظريه فبدا (مسعود) من خلفها ضخمًا. قال: «ومن أين أتيتَ به؟» «نصحني به أحد الكهنة» ردّ (مسعود). «سنجرّب» قال الشّيخ. رفعه إلى فيه، وحين همّ بشربه تحوّل إلى دم. «رائحة الدّم أعرفها» صرخ الشّيخ. «اشرب يا سيّدي ليس دمًا». «أنا من يعرف الدّم يا أبله». رمى الكأس على الأرض فتحطّمتْ، انداح السّائل على الأرض ثمّ تحوّل إلى بُخار في لحظات. «هات لي كأسًا من الماء يا مسعود» صرخ الشّيخ وهو يبتلع ريقه الّذي جفّ. جاءه مسعود بالماء، قرّبه من فمه، ومن جديد تحوّل إلى دم!!

بعْد يومين من الامتناع عن الشّراب. ذَبُل فتيلُ الحياة في روحه، وتراقصتْ تلك الرّوح في مهبّ الانطفاء. ما أصعبَ الخيارات حين تكونُ بين الموت والموت!! طلبَ ماءً من جديد. رفع الكأس: «أشربُ الدّمَ ولا أموت» خاطبَ نفسه. ومن دون أن ينظر إليها أفرغها في جوفه

كاملةً . أعجبه الطّعم . صار يتلذّذ بطعم الدّماء . ملأ بالدّم فاه حتّى فاض على شدقيه ، مسحه بكمّ قميصه وتنهّد : إذا لم يكن من الدّم مفرّ فليكن إليه المفرّ!!

جاءته (آسيار) في المنام :

- ألمْ تُلاحظ أنّ بطن (فُرات) قد انتفخ .

- حقّاً؟! والأخريات اللّواتي طُفتُ عليهنّ في تلك اللّيلة؟!

- لقد ألقيتَ في أرحامهنّ صديدًا .

(٢٢)
شيخُ الدَم

في اللّيل تنتشر العفاريت . الأرضُ تمتلئ بالشّياطين أكثر ممّا تمتلئ بالبشر . في السّهل والوادي والجبل ، هناك خَلقٌ كثيرٌ منهم . ما من حجر في الأرض إلاّ وتحته عفريتٌ . البُلهاء من الآدميّين هم الّذين يُصدّقون أنّ الأرضَ لهم وحدهم . في الأساس لم يكنْ لهم منها شيءٌ ، الأرض كانت مِلْك الجنّ يسرحون فيها ويمرحون كما يشاؤون ، حينَ هبطَ الإنسيّون إلى الأرض دبّت الغيرة في القلوب!! ونحن الشّياطين لنا قلوب؟! بلى ؛ لنا قلوب نفقه بها أكثر مّا تفقه قلوب البشر . البشر طارئون . مساكين هم . ويومًا ما سيرحلون وسترحل معهم حماقاتهم . ويحهم!! لكأنّهم صدّقوا خرافةَ أنّهم يملكون ذرة تراب واحدة من هذه المعمورة؟! مُغَفّلون ؛ يُلقون بِنُطفهم في أرحام نسائهم ، وحينَ يَفِدون إلى هذا العالَم لا يمكثون فيه إلاّ كما تمكثُ الذّبابة في ذيل الدّابّة ؛ عند أوّل هَشّة يطيرون . أعمارهم مثل لمع شهابٍ سقط من مراصد السّماء ، يضيئون وسرعان ما ينطفئون . أعمارهُم كلّها لو جُمعتْ بعضُها فوق بعض ما بلغتْ عمر أبينا الأوّل . المشكلة ليستْ في التّخلّص منهم . المشكلةُ في التّخلّص من حماقتهم والأوهام الّتي تتعفّن في رؤوسهم . ماذا نفعل نحن الجنّ إزاء هذه الحماقات؟! الحكيم الأوّل قال : عليكم بالصّبر . نعم الصّبر . إنّما مَثَلُكم ومثلُهم

المرتحل مرَّ في غيضة من الشّجر فيها من كلّ صنف لا يُرى آخرها ، فما كانَ ينبغي له أن يأخذ إلاّ ثمرةً واحدة من هذا النّعيم ؛ فمدَّ يده إلى تُفّاحة فسقطتْ في يده ، ثمّ مضى إلى حتفه!! إنّما ابنُ آدمَ ذرّةٌ من الرّمل ونحن الرّمل . إنّما هو قطرةٌ من ماء البحر ونحن البحر . إنّما هو نجمةٌ غائرةٌ في السّماء ونحن السّماء .

**

طلبَ (عايد) من العبيد أن يسكبوا له مزيدًا من الماء في الكؤوس البلّوريّة . المائدة الّتي احتلّتْ نصف غرفته استقرّ فوقها أكثر من ثلاثين كأسًا كلّها تمتلئ بالماء . فإذا ما عَطِشَ مدّ يده فتناول كأسًا فكَرَعها فاستقرّتْ في جوفه ، فعاجله بأخرى حتّى تحمرّ عيناه . إنّه (شيخ الدّم) كما سمّاه (مسعود) فيما بعد ؛ «ومنظر الدّم يجلب الدّم» كما قال حكيم الدّهر .

عادتْ إليه (آسيار) في المنام . قالتْ له :

– الكلب السّلوقيّ الأسود سيزورك لمرّة أخيرة ، فكُن وَدودًا معه ، هبه ما تبقّى من أصابع يدك اليُمنى ، وأَعِدك أنّه سيختفي من حياتك إلى الأبد . والقُفّاز سيتكفّل بإخفاء آثار خطاياك .

لم تكذب (آسيار) هذه المرّة أيضًا ، «ومتى كذبتْ؟!» قال لنفسه . «أنا الّذي احترفتُ الكذب عند أوّل سؤال» أردفَ بصوت يرشح بالبؤس . لم يُمهله الكلب حتّى منتصف اللّيل . وقف على باب غرفته بشموخ عظيم من عُظماء الجنّ . تقدّم بساقيه العاليتين بثقة . انتظره الشّيخ باستسلام . قفز الكلب على السرير وانتظر حصّته المُتّفق عليها . مدّ الشّيخ يدًا اختلط فيها الرّجاء بالنّدم والذّعر بالجَزع . قضم الكلب إصبعه الخامسة . لاكَها في فمه . ثمّ بصقَها على وجه الشّيخ . واختفى!!

خيّمتْ على الأسوار العالية في منتصف اللّيل كآبةٌ كثيفة هبطتْ على النّوافذ غربانٌ سوداء كثيرة ، ثمّ توافدتْ غربان أخرى حتّى ملأت الشّرفات . ثمّ تكاثرت حتّى لم يعد لهنّ موضع على النّوافذ أو الشّرفات أو الأسقف . تجمّعت البقيّة منها فوق البيت العالي كأنّها سحبٌ مُلبّدة حجبت السّماء عن الأرض .

«إنّه يوم ميلاد ابنك الأوّل» سمع آسيار دون أن يراها . مشى وخلفه الخدم ، ووحدها مشتْ إلى جانبه ، يعرف أنّها هناك ؛ تظهر وتختفي ، تصمتُ حينًا وتُلقي في سمعه كلمةً مسمومةً حينًا آخر . «جئتُ لأشهدَ معكَ هذا اليوم العظيم . في النّهاية هو ابنُ زوجي ولا بُدّ أن أفرح لفرحه» أردفت . وشمّ هو رائحة الانتقام والغلّ تتسلّل من بين الكلمات إلى أنفه . ظلّ صامتًا ومشى إلى حيثُ العرّافة الّتي ستُشرف على (فُرات) لتضع ابنها .

كانت (فرات) مستلقيةً على السّرير ، شاحبةً يائسة ، زادها ألم المخاض سوادًا إلى سوادها . عندما رأتِ الشّيخ لمح في عينيها الذّعر . «اللعنة حتّى أنتِ ترينَ آسيار» قال لنفسه . جلسَ في زاوية الغرفة ، ومنع العبيد أن يدخلوا ، أمّا (آسيار) فلا أحد يستطيع أن يمنعها من الدّخول حتّى ولو كان ملك الجنّ نفسه .

يدأت صرخات الوضع تهزّ جدران الغرفة . وقفت العرّافة عند رجليها ، وحثّتها على أن تدفع بقوّة . حاولت ، لكنّ الأمر ليس بهذه السّهولة . مدّت العرّافة يديها لتسحب الجنين ، وقفزت (آسيار) عند رأس الأمّ . حينَ بدأت العرّافة تسحب رأس الجنين ، كانت (آسيار) في الوقت ذاته تسحب رأسَ الأمّ وصرخاتها ترجّ البيت العالي بأكمله ظنّت العرّافة أنّها صرخات آلام الوضع فاحتملتْها . نهضَ الشّيخ من

الرمية ليمنعها ، أشارتْ إليه بعينيها أن يجلس . جلس ذليلاً . تتابعت صرخات الأمّ ، قام ثانيةً فأجلسته بعينيها ، رجاها أن تتوقّف فلم تُعره انتباهًا . وحينَ خرج المولود بين يدي العرّافة ، كان رأس (فُرات) يتدلّى من طرف السّرير .

رفعت العرّافة المولود بين يديها . جَفلتْ ؛ حدّقتْ أكثر لتتأكّد من أنّ ما تراه حقيقةٌ ؛ لقد جاء مُشوّهًا غريبَ الخلقة ، قالت للشّيخ لتعزّيه من مولودٍ لم تتأكّدْ أنّه بشريٌّ :

- إنّه ذكر يا مولاي .
- لقد رُزقتُ بابنٍ . . . (صاح وهو يقفز من الفرح)
- ماذا ستسمّيه يا مولاي .
- سَرْمد . . . سأسمّيه سَرْمد . . . سَرْمد حتّى لا يموت . . .

في طريق عودته إلى مقصورته . سارتْ إلى جانبه (آسيار) وهي تشعر بنشوة الانتصار . لم يجرؤ أن ينظر في وجهها . صوّب نظرةً خاطفةً إلى يديها ، رأى أثر الدّماء تقطر من بين أصابعها . قال في نفسه ؛ «إنّها عدالة السّماء ؛ أفعى تقتلُ أفعى» .

مرّ زمنٌ لا يذكره النّاس . وتوالتْ دهورٌ لم يُقم لها أكثر مَنْ في الأرض وزنًا . وبعد مجيء (سرمد) توقّفت كلّ العذابات السّابقة ؛ لكأنّه المتاع قبل الوعد ، وحينَ يأتي الوعد لا يغني المتاع أبدًا . استعاد الشّيخ بعضَ عافيته . جاءته (آسيار) في المنام لتقول له : سأنثر لك رمال الذّهب في الدّهماء . وسأجعلك تنفردُ بحكم هذه المملكة . وحينَ تظنّ أنّك قادرٌ على كلّ شيء سيأتيكَ البأسُ من كلّ مكانٍ . ثم الآن ليلكَ الطّويل . وسيأتيكَ عذابُكَ الجديد . وهو عذابٌ لن ينتهي .

ولن تغفره لنفسك مهما حاولتَ أن تفعل!!

قال النّاس بعد توالى الخصب إنّ البئر الّتي لا يعرف أحدٌ مَنْ حفرها في الجهة الجنوبيّة قد نبتتْ حولها ثلاثُ نخلات بين عشيّة وضُحاها، وقد أحطْنَ بالبئر على هيئة مثلّث... وقالوا: إنّ ماءها عَذْب لا يُشبه أيّ ماء أخرى... وإذا شرب المرء منه فإنّه يبقى مُرتويًا ثلاثة أيّام دون أن يُصيبَه العطش.

(٢٣)
هذه ستَصْحَبُني إلى القَصْر

وفدتْ من جنوب الحبشة إلى الذهماء زمن الخير المتفجّر ، كانت تحاول العيش وتجري وراء لقمة الخبز مع ابنها الّذي لم يتجاوز الخامسة مثل الكثيرات . ضربَ القحط كلّ مرابع الحبشة فأحالها سوادًا إلى سواد ، ولم ينفعها تدفّق الأنهار في هضباتها الّتي كانت تعاني الموت كالبشر رغم أنّ سرّ الحياة يضرب مرتفعاتها ، ويجري من تحت منازلها ، حتّى نهر (جيحون) الّذي قالوا عنه إنّه نزل من الجنّة إلى الحبشة مباشرةً دون أن يمرّ بأيّ بلد سواها ؛ هذا النّهر لم يقدّم الكثير لأهل الحبشة ، فظلّ يجري ببطء متهاديًا كعجوز ولم يستطع أن يبثّ الحياة حتّى في الأراضي الّتي تربضُ على ضفافه .

لكأنّ هذه البلدة قد حرّم الله عليها كلّ شيء ، وبثّ فيها ريحَ السّموم . أو لكأنّ لعنةً من اللّعنات هبطتْ عليها فلم تُبقِ فيها من مظاهر الحياة أو ما يؤمّله الإنسان بها ، ولم تذر .

أمّا زوجها (غالب) فلسعتْهُ بعوضةٌ من المياه القذرة الآسنة الرّاكدة في بعض المستنقعات أثناء عمله فأصابته بمرض البرداء ؛ كان جسده يرتعش بلا سبب ، وجسمه يغلي بدون مقدّمات ، فقعد شهورًا في الفراش لا يستطيع الحراك ، وكان هذا مقدّمة لطرده من العمل أوّلاً ثمّ

للحَجْرِ عليه ثانيًا ، ثمّ انهال عليه الغَثيان والتشنّج ، ثمّ الإغماءات المتتالية ، ولم تُمهله هذه العوارض كثيرًا ، فقدّمته إلى الموت سريعًا .

لم تستطع (مجيدة) أن تشتري له كفنًا ليواري جسده في الثّرى ، ولم تجدْ من يحنو عليها فيكفيها مؤونة الانتهاء من الجثّة على الوجه الّذي يُرضي الإنسانيّة ، وحينَ جثتْ تقبّل يَدَي مخدوم زوجها لترجوه بأن يدفنه كالبشر ركلها بقدميه وأمرَ أحدَ عمّاله أن يلفّه في خيشة ويُلقي به في أحد المستنقعات قائلاً : «مِن هناك هجم عليه الموت وإلى هناك يعود» . بكى الابن ذو الخامسة وأبوه يُلقى أمامه في النهر كحيوانٍ نافق ، ولم يدرِ أحدٌ إن كان يبكي حزنًا أم هلعًا!! وشُوهِدَ يُلوّح بقبضته في الهواء وهو يرتجف ؛ لكنّ أحدًا لم يَدْرِ أيضًا إن كان يفعل ذلك توعّدًا بالانتقام أم يأسًا!!

هربتِ الأمّ بابنها (مسعود) تبحث عن حياة في وسط هذا الجحيم ، وقيلَ لها إنّ (الدّهماء) أصابت خيرًا كثيرًا ، وإنّ الجنان فيها تجري من تحتها الأنهار ، وإنّ كلّ المعذّبين في الأرض قد أووا إليها وانقلبوا نحوها .

لفّت ابنها في خرقة مِمّا استطاعت أن تحصّله ، وأردفته على ظهرها ، وأمسكتْ بعصا من القيقب ، واتّجهتْ حافيةً نحو الشّمال ، كان عليها أن تقطع كلّ هذه المسافات وحدها هي وطفلها في بيئةٍ من الغابات والأمراض والحرارة المرتفعة والوحوش والكوارث والفظائع .

(مجيدة) هذه الفتاة الشّابة ذات البشرة السّوداء والطّول الفارع والقوام المَمشوق ، والصّدر المَشدود استطاعت أن تصمد لأنّ حلمها بالعيش الرّغيد من أجل ابنها لا من أجلها جعلها تنسى كلّ الأهوال الّتي مرّتْ بها ؛ وحتّى مصيبتها في موت زوجها صارتْ في عِداد

النسيان ما دام حلمها حيًّا ، وما دام يتراءى أنّه ممكن التّحقيق في المستقبل القريب ؛ فلمَ النّظر إلى الماضي البغيض!!

بعد أشهر من المسير الجهنّمي ، ارتأتْ أن ترتاح حينما صارتْ على مبعدة أيّام من البحر الأحمر الّذي سينقلها إلى العالَم الجديد . نامتْ وإلى جانبها (مَسْعود) ، وفوق رأسيهما ببغاء ترقبهما من علٍ . لم يُمهلها التّعب شيئًا قبل أن تغرق في نوم عميق . في النّوم حلمتْ بأنّ زوجها خرج من المستنقع الّذي رُمِيَ فيه لابسًا أبهى الحُلل ، وابتسم في وجهها وأشار إلى ابنيهما قائلاً لها : «مباركةٌ هذه النّطفة ؛ إنّها تحمل البُشرى السّماويّة للأرض» . استيقظتْ من نومها هادئةً مرتاحةً ، لكنّ هذا الهدوء سرعان ما تلاشى حينما حانت منها التفاتةٌ إلى ابنها الّذي يرقد إلى جانبها فإذا بثعبان أسود يجلس في حجْره والطّفل يلاعبه كأنّه قطّة أليفة ، شبّ الرّعب في صدر الأمّ ، استخلصتْه في لحظات من بين التفافه المُخيف في حجْره ، وحضنتْه بين ذراعيها بقوّة قبل أن تطير به مبتعدةً عن المكان باتّجاه النّجاة والشّاطئ ، وخلفهما الببغاء وهي تصيح بكلمات غير مفهومة .

تغيّرت الجغرافيا وتبدّل الهواء على الميناء . ضجّ المكان بالنّاس وبالأحياء وبالكلمات . شعرتْ بكثير من الطّمأنينة . سألتْ عن المراكب الّتي تمخر باتّجاه (الدّهماء) ، أشاروا إليها . وقفتْ أمام أحدها ، كان يبدو أنّ ينتظر امتلاءه بالرّكّاب لكي يبدأ رحلته . نظر إليها صاحب المركب كانت تلمع تحت أشعّة الضّحى ، كلّ ما فيها كان مثيرًا إلاّ الجزء الّذي تحمل فيه ابنها على ظهرها . سألها عن التّذكرة ، أجابته بأنّها لا تملك شيئًا . قال لها بوقاحة : بل تملكين ؛ إن أعطيتني إيّاه أوصلتُك بلا مقابل ؛ أو كان هو المقابل لذلك . نظرتْ إليه باشمئزاز ؛

كانت تعرف أنّ الرّحمة قد نُزعتْ من قلوب البشر ؛ بل من فكرهم ، ولم يعد لها وجود في العالَم الّذي يلهث وراء إشباع الرّغبات بأيّ طريقة..

تراجعتْ إلى الوراء ، بصقتْ في وجهه ، وعادتْ أدراجها إلى المدينة . كان اللّيل قد استأذنَ بالقدوم آخرَ خيوط الشّمس ، نامت على الأرصفة ، وكوّرتْ جسدها على ابنها خوفًا من أفعى بشريّة جديدة قد تحاول نهشه في ليل الغفَلات . في الصّباح استيقظتْ متعبة كان الجوع قد أخذ منها ومن (مسعود) كلّ مأخذ . غير أنّ نداء الحياة الجديدة ما زال صداه يتردّد في الأعماق ، نهضتْ مستجيبةً لهذا النّداء ، وتوجّهتْ من جديد نحو منطقة المراكب . لم ترتفع الشّمس إلاّ قليلاً ، وهي تؤمّل أن تجدَ قلبًا نقيًا يحنو عليها وعلى ابنها ، ويوصلهما إلى المبتغى . وقف في وجهها صاحب المركب بجسده الضّخم ، كان يبدو من شاربيه وصوته أشدّ غلظةً من سابقه ، وقبل أن يسألها عن التّذكرة ، أشار إلى جسدها قائلاً بشيءٍ من الغنج : جسدكِ أفضل من تذكرةٍ في الدّرجة الأولى . هذه المرّة لم تتمالك نفسها صرختْ في وجهه : يا أنذال . . . يا سَفَلة . . ألا توجد عندكم إنسانيّة . .؟! غادرت المكان وما زالت قهقهات صاحب المركب تطعن ظهرها .

ليس الجوع نداءً يتيمًا يصيح مرّة واحدة ثمّ يُولّي إلى غير رجعة ، لو كان كذلك فما أسهل أن تتعامى عن ندائه هذا وتجعله يغادرك دون ضجيج ؛ لا . . . إنّه ينقر جدار معدتك في كلّ حين ، ويثقب جدار صبرك في كلّ لحظة . ولئن كان يُمكن لها أن تتصامّ عن نداءاته لها ، كيف يُمكنها أن تفعل ذلك وهو يتمثّل في بكاء مستمرّ من ابنها . هُرعتْ إلى مواضع رمي النّفايات تبحث عمّا يُمكن أن يسدّ قليلاً من

معها هي وطفلها . وجدتْ بعضَ المخلّفات التي تتأبّى الحيوانات أن تشرب منها ، لكنّ استبقاء الحياة بأيّ وسيلة أمرٌ لا مفرّ منه إذا كان الموت قابعًا في كلّ شيء .

أعادت الكرّة ثالثةً في صباح اليوم الثّالث ، استقبلها نذلٌ أرذلُ من زميليه ، قال لها : «أعرف أنّك ستضطرّين إلى فعل ما ستفعلين ، أنا أهبُك تذكرةً لك ولابنك وماءً وطعامًا وبعض النّقود من أجل أن تبدئي حياةً نظيفةً في الدّهماء . لا تحسبي الأمر بطريقة شخصيّة ، مرّ عليّ مثلُك الكثيرات ، ولم أهبهنّ غير الصّعود إلى مركبي ؛ أمّا أنتِ فتستحقّين بسبب هذا الجمال الصّارخ كلّ هذه الميزات» . ظلّتْ تسمع له وهي تلعن نفسَها في الدّاخل . أخيرًا صعدتْ!! لم تستغرب كثيرًا لِمَ فعلتْ ذلك؟! كان نداء الأمومة في داخلها أقوى من كلّ شيء!!

تركتْ ابنَها يأكل ما قذفه صاحب المركب في وجهيهما ، وصعدت إلى غرفته ، ومن هناك كان شيءٌ ما ينمو في أعماق الطّفل على صوت تأوّهات أمّه المكلومة وتأوّهات صاحب المركب المحمومة . كلّ لقمة غمّسها (مسعود) في تلك اللحظات بدم القهر والظلم والغموض ؛ لكنّه أيضًا أكلَها بشراهة!!

نزلتْ وابنُها في قطعة قماشه على ظهرها ، واستقلّتْ من هناك مركبةً بما تبقّى لها من نقود باتّجاه مزارع النّخيل في (الدّهماء) . قالوا إنّ أصحابها يدفعون للخدم فيها أكثر من غيرها من المزارع لأنّها تُدرّ خيرات كثيرةً وأرباحًا وفيرة . استقبلَها أحد المُلاّك في مكتبه ، ورحّب بها ، ونادى مسؤول العُمّال عنده وطلب منه أن يُدخلها في سلك العاملين في المزارع الأكثر جودةً التّابعة للشّيخ (عايد) ، على أن تتقاضى أجرها كبقيّة العاملات ، وتنام هي وابنها في السّكن الجماعيّ

الّذي تنام فيها الإناث العزباوات .

كادتْ تطير من الفرح ؛ ها هي الدّنيا تفتح ذراعيها على اتّساعهما لها ولابنها ، لم تكنْ تتخيّل أنّ حياة البؤس والشّقاء ستولّي إلى غير رجعة ، ولم تكنْ تعلم أنّ أيّام الحبشة ستُصبح ماضيًا منسيًّا مهما كان فيه من آلام .

كان عليها مثل البقيّة أن تتسلّق جذوع النّخل ، وتقطف من أعذاقه الثّمار في حجرها ، وتنزل بها إلى مزيد من العاملات اللّواتي يجمعْنه في صناديق خاصّة . كانت تتسلّق النخلة مثل قرد متمرّس ، وتهبط مثل بلهوان ، ولربّما تفعل ذلك (ومسعود) على ظهرها قردًا آخر .

بعد بضعة أشهر نما بطنُها . وتحرّك الجنينُ في أحشائها ، لم تدرِ هل تفرح أم تحزن أم تخاف؟! الفرح لأنّ أرضها أخصبتْ ؛ والحزن لأنّه ابنُ حرام ، والخوف من سيّدها كيف ستواجهه وماذا ستقول له . كلّ هذه المشاعر تقاسمتْها في آنٍ واحدٍ واختلطتْ في قلبها في اللّحظة ذاتها ؛ غير أنّ مشاعر الفرح كانت تتغلّب على أختيها من المشاعر ، وكان طيفُها يبدو راقصًا في جوانحها أكثر من سواه .

شاهدها أحد المسؤولين عن العمّال ، ولاحظ انتفاخ بطنها ، فسألها بغضب :

– منذ متى وأنت تعملين هنا؟!

– منذ سبعة أشهر . (أجابتْه وهي ترتجف) .

– إذًا كنتِ حاملاً وأخفيتِ ذلك عنّا . عليكِ أن تُسقطيه . (قال ذلك بحزم) .

– أرجوك يا سيّدي ، لقد صار حيًّا ، أحسّ به ، ها هي أقدامه تضرب جدار بطني . . أرجوك يا سيّدي . . أرجوك!!

- أنا قلتُ يجب أن تُسقطيه . . . فمعنى ذلك يجب أن تسقطيه . . . نحن لا ننفق على العاهرات ولا على أولادهنّ .

جرّها من شعرها مثل حيوانٍ قذر ، وربطها أمام (مَسْعود) ذي السادسة إلى جذع إحدى النّخلات . ومزّق عنها ثيابها . ركضَ ابنُها إليها وهو يصرخ واحتضنها ، غير أنّ سوط السّيّد كان قد عاجله فأرداه على الأرض يتلوّى من الألم . حمله أحد المُعاونين بعيدًا ، وعلى صرخات الأم المفجوعة الّتي ذهبتْ سُدىً كانت السّياط تنزل على البطن حيثُ الجنين . سال الدّم من وجه الأمّ وغطّى أثداءها المكشوفة ، وبطنها راح يتهاوى مَن فيه على إثر الضّربات ، وسقط الجنين من تحت الأمّ . اندفقتْ دُفعةٌ كبيرةٌ من الدّم مع الجنين ، وغطّته بالكامل ، ثمّ سالتْ عنه ، ندّتْ حركةٌ يتيمةٌ من الجنين ، ولم يدرِ مَنْ شاهدَ الموقف أكان حيًّا أم أنّه تحرّك بفعل السّقوط .

تدلّى رأسُ الأمّ على جسدها من الألم والصّراخ ، وارتختْ يداها المُوثقتان بإحكام إلى جذع النّخلة . قال أحد العمّال : لقد فقدت الوعي يا سيّدي . أشار إلى آخر فجاء بدلوٍ من الماء وسكبه عليها ، ثمّ أمرهم أن يحملوها إلى سكن العاملات . حدثَ كلّ هذا أمام مسعود ؛ ولم يكنْ من أحدٍ إلاّ الله يتنبّأ بما يضجّ في أعماق هذا الصّبيّ من تناقضات وما يهيج فيه من مشاعر متضاربة ، وما يعتمل في صدره من طعَنات مفهومة أو غير مفهومة حسب عمره .

في السّكن حاولت الخادمات أن يعالجن ما حدث لَمجيدة بما يملكْنَ من أدوات بسيطة . غسلْنَ مواضعَ السّياط والجرح ، ودلّكْنَ بالزّيت بعضَ القروح ، ولَفَفْنَ ما اتّسع بشيء من القماش النّظيف . ورُحنْ يُعددْنَ بعضَ الطّعام لكي تستعيد قليلاً من عافيتها بعد هذه الوحشيّة المُفجعة .

استيقظتْ عيناها الواهنتان بعد عدّة ساعات، كانتا تنطقان بكلّ شيء؛ كان الحزن الّذي فيهما يكفي أن يجعل العالَم يضجّ بالنّواح لو وزّع على كلّ البشر القاطنين فيه. وكان الأسى يمتزج بالغضب والكراهية. لكنّ الغضب لم يكنْ لينجم عنه شيءٌ أمام قوّة الاستعباد الغاشمة الّتي تُمارَس على كلّ العاملات هنا. غير أنّ شيئًا ما استيقظ في أعماقها فجأةً فأنساها كلّ شيء، فزّت من فراشها كأنّها ملسوعة، وحينَ وقعتْ عيناها على ابنها جالسًا إلى جوار سريرها هدأتْ وعادتْ إلى استلقائها من جديد، لكنّ نهرًا من دموع القهر كان يتفجّر من عينيها في تلك اللّحظة.

جرى الأمر خلف نداء الحياة من جديد، وعادت الأمّ مع مسعود إلى مزارع النّخل، وظلّتْ تعمل بدأبٍ كما لو أنّ قدرة الإنسان على النّسيان هي النّعمة الوحيدة الّتي تجعله يُكمل الحياةَ برغم ما فيها من مصائب وأهوال!!

بعد ثلاث سنين رآها الشّيخ (عايد) في إحدى جولاته على المزارع، فخطفتْ قلبَه. كان في تلك الأيّام مغرمًا حدّ الهوس والجنون بالحبشيّات، كان مستعدًا لأنْ يركع أمام جسدٍ يلمع سوادُه على ضوء غرفة خافتة تُمارَس فيها كلّ الرّذائل.

قال لسيّد العُمّال، هذه ستصحبني إلى القصر؛ إلى البيت العالي، ستعيش مع المحظيّات، وستحظى بحياة رغيدة. ركع سيّد العمّال أمام الشّيخ. قالت الأم: «وابني يا سيّدي؟!». «ما شأنه؟!». «لن أتركه هنا» أجابتْه. «وابنُكِ معكِ يا أميرتي». ردّ عليها وعيناه تقطُران بالشّهوة.

(٢٤)
أعزَّ عندكَ الماءُ
وهانَ عليكَ أخوك...؟!

جُنّ جنون الشّيخ (عايد)، ظنّ نفسه الملك الأوحد. وصمّم على أن ينفردَ بالملك دون أخيه. قال: أخي المعتوه علّق قلبه بامرأة واحدة في حين أنّه يستطيع أن يجعل كلّ نساء الأرض يَجثُون تحتَ قدَمَيه. ما قيمة الرّجل إذا لم يُحطْ نفسه بجيشٍ من النسّاء للرّاحة، وجيش من الرّجال للحماية. ماذا يدور في ذهن أخي: أيظنّ أنّ الحياةَ القصيرةَ تُعاشُ بالزّهد والعفّة والإخلاص لامرأة واحدة، ما الدّنيا إذا لم تكن كأسًا وغانية، بل كؤوسًا وغواني!! هتفَ بهذه الكلمات فوقَ إحدى شرفات البيت العالي ذات ليلة من ليالي الأنس، وفي يُسراه كأس، وفي يُمناه قُفاز وحوله مائدةٌ من النّساء، وفي قلبه الأسود... (آسيار)!!

لم تنقطع (آسيار) عن مناماته، ظلّتْ تتنزّل عليه كلّما همّ بفعل خطيئة جديدة، إنّها منارته الّتي لا تُخطئ حينَ تريد أن تغويه أو تهديه إلى الضّلال. هي تقول لنفسها: «انتقامٌ واحدٌ لا يكفي، سأظلّ أنتقم ما بقيتْ شعلة الغلّ في روحي متّقدة». وهو يقول: «الانتقام عندَ أحدنا قد يكون هدفًا عند الآخر، فإذا ما تمنّيتُه ولم أستطع تحقيقه، فلأبحث عمّنْ يستطيع تحقيقه لي. وآسيار دائمًا تتكفّل بكلّ شيء».

- سأعقدُ معكَ اتّفاقًا . لم يحدث بين المخلوقات منذ أن برأ الله السّماوات والأرض . (قالت أسيار للشّيخ عايد)

- ولا بين الجنّ أنفسهم .

- ولا بين الجنّ وسليمان . (ردّتْ بثقة)

- أهذه صداقةٌ بعد عداوة . بالأمس كنتِ تسلّطين عليّ الكلاب والجرب والصّرع والضّفادع .

- لا تستعجل الأمور . الحياةُ أطوار . ولا تكنْ حقودًا . يا رجل أتملك ذاكرة جملٍ . انسَ ما كان ، واغفر ما مضى . مَنْ غفر الإساءة أنار قلبُه .

- لنرَ . . . ما شروطكِ . . . أعرف أنّك تُقدّمين القبول بالشّروط على بنود الاتّفاق .

- صدقتَ . . ولكنّ عهد الشّروط ولّى . . سأعرض أنا عليكَ الصّفقة فإن أعجبتْك نفّذتَ الشّروط .

- هاتي إذًا . . . (قال ولُعابُ طمعه يسيل من جديد)

- أترى هذه الممالك المبنيّة من طين . . . أترى مملكة (يبرين) كلّ ما فيها من بناء ليس شيئًا . . . أنا سأهبُكَ مملكةً تُبنى على الصّخر ، وتُدَقّ أوتادها في الأرض ، وترتفع شامخةً حتّى تُطاول السّماء!!

- لا بُدّ أنّك تمزحين . .!!

- لم أكذب في كلمةٍ قلتُها مذ جئتك .

- نحن في الصّحراء والرّمال النّاعمة تحيطُ بها من جهاتها الأربع . . أينَ الصّخر الّذي تتحدّثين عنه!!!

- سيخرج من باطن الأرض . ماذا تعلمون أنتم أيّها البشر من الأرض إلاّ سطحها . . ماذا ترون منها غيرَ قشرتها الرّقيقة . . الأرض

في أعماقها تعجّ بالكنوز والعجائب والغرائب!!

- فظيع . . فظيع . . . (صرخ بدهشة ولهفة وشَرَه) ستبنين لي مملكةً من الحجر . .

- بلى . وسأجعلها آيةً يتحدّث عنها الآدميّون إلى يوم يُبعثون .

- كلّ هذا من أجلي أنا . .؟! (قال بجشع وحذر)

- لا تنسَ أنّكَ زوجي . . . وخطيئاتكَ الّتي لا تنتهي أنا الّتي أسوّلها لك وأنا الّتي أغفرها إن شئت . (ردّتْ بخبث)

- والثّمن . . .!!

- أن تعقر (شَروف) .

- شَروف . . . شَروف . . . (ضربَ كفًّا بآخر وقهقه حتّى دمعتْ عيناه) . . . ما أبسطَ ما طلبْتِ . . .!!

- نطلبُ أشياء زهيدة مقابل أثمان باهظة!!

- ولكنْ لماذا شَروف ؛ ما قيمتُها أمام ما تُعطين!!

- إنّها أخت رضى يا معتوه!!

- أختُ رضى!! إذًا فليُعنّا الشّيطان على ذبحهما معًا .

- بدأتَ تُعجبني .

- اتّفقْنا . . .؟!

- لا تستعجل . هناك شيءٌ آخر . . . (مرّتْ لحظة صمتٍ كأنّه دهر) ثمّ أردفتْ : وصالح . .

- أخي . . . الشّيخ (صالح) ما باله . . .؟!! (ردّ وهو يبتلع ريقه من الخوف ممّا سيأتي)

- تُلقي به في البئر الّتي ألقيتني فيه عندما كنتُ آسيا . . .!!

- ولكنّها الآن مليئةٌ بالماء العَذْب ، ولا أستطيع أن أغامر بمائها

العذب في سبيل إلقاء جثة فيه .

– أعزّ عندكَ الماء وهانَ عليكَ أخوك . . .؟! جُثّة . . .!! أأعماكَ الطّمع إلى هذا الطّمع . . . أتقول عن أخيكَ جُثّة . . .!!

– أيّتها الصّحراء . . . انظري مَنْ ينصحني بالتّقوى!! (صاح بذلك وهو يفتحه ذراعيه على اتّساعهما)

– أَلْقِهِ في تلك البئر ؛ على كلّ حال لقد أصبحتْ منذ اللّحظة جافّة .

– أفعلْتِها . .!!

– أفعلُ ما أشاء . إذا ألقيتَ أخاكَ في تلك البئر ستُشرقُ الشّمس على عشر آبار مثلها عَذْبات ، اثنتين في كلّ جهة ، واثنتين أمام قصركَ .

– وستفعلين . .؟!

– هذا رهنٌ باستجابتك!!

– أرميه في البئر!! ألا يوجد طريقةٌ أخرى لأتخلّص منه؟!!

– فكّرْ أنتَ بالطّريقة الّتي تراها مُناسبة . ما يشغلني أن يُقتَل في النّهاية . إذا كنتَ قد ألجأته إلى أن يمضي إلى حتفه فلا يهمّني حينئذ أيّ طريقٍ سلك!!

(٢٥)
لَوْ خَلا البَشَرُ مِن غرائزهم
لمَا هَبَطُوا مِن عَليائهم!!

هو يومٌ لم تستطعْ فيه الشّمسُ أن ترسل أشعّتها فتصل بها إلى الأرض . . . حَجَبَ بينها وبين ذلك غلائلُ ملتفّة ، وسحائب منبثّة ؛ كأنّها ضباب أحاط بكلّ شيء فكسرَ عينَ الشّمس . . . تنزّلت الشّياطين من كلّ صوب . جاءت الملايين من كلّ مَسكنٍ . . . فُتّحت الأبواب المُوصَدة ، وحضر المَرَدة والعُتاة ، وسُمح لهم أن يسيلوا بعدد الرّمل فيملؤوا كلّ موضع . وتداعى العفاريت بعدد هائل إلى (الدّهماء) من كلّ حَدَبٍ وصوب . . . أيُّ مَلكٍ من ملوك الجنّ له هذه السّطوة فيُرغم كلّ هذه الملايين منهم أن تملأ هذه البقعة المَنسيّة في الصّحراء ، وأن تبدأ معها تاريخًا سيذكره التّاريخ والمكان والزّمان والإنسُ والجنّ!! أهي دَعوةُ (صالح) أم رُؤى (عايد) . أهي ابتداء تاريخ النِّعَم أم ابتداءُ انتهائها!!!

هيمنَ صوتُ (آسيار) في الفضاء : هنا سينسى البشر (الدّهماء) ، وسأبدّل اسمها إلى (الشّيصار) ، (الشّيصار) هو مطلع الفجر ؛ الفجر الجديد على الأرض الّتي عمّها الظّلام . كلُّ جنّيٍّ تناسلَ منذُ مطلع الخلق فليُشارك في بناء مملكة الرّبّ ، وليكتب اسمه في سجلّ الخلود . نزلتْ إلى الرّمل . وبأيديها قسّمت الأدوار : الشّياطين تغوص إلى باطن

الأرض لتأتي بالحمم السّائلة وتُبرّدها لتصبح حجارةً ضخمةً صالحة للعمل . العفاريت تشقّ الأنهار وتسقي الأرضَ البوار . الجانّ يبني الأسوار ، والمَرَدة تبني القلاع . والبقيّة تزرع النّخل والزّيتون والرّمان والعنب والموز والتّين . أريد أن أرى أعظم مملكةٍ تُبنى خلال ستّة أيّام لا يصل إليها أوسع خيالٍ لعقلٍ بشريّ .

نصفُ المخزون من الحجارة السّائلة في باطن الأرض أُصعِد من جوفها إلى سطحها ، عشراتُ الآلاف من المُتخصّصين في الهندسة صقلوا الأحجار ، وقصّوا زوائدها ، فاصطفّتْ أعمدةٌ لا يعرف عددَها أحدٌ إلاّ الله ، كلّ عمود بارتفاع (١٢) نخلة وبقُطر ثلاث . وقفت الأعمدة تنتظر البنّائين من المَرَدة . الأنهار تفجّرتْ خلال الرّمل ، وقام مهندسو الزّراعة من العفاريت ببناء أقنية خاصّة حولّت بعض هذا الماء إلى الرّمل فأعشب في يومين ، في اليوم الثّالث كان ثلاثة أرباع الصّحراء يكتسي بالخُضرة . وعلى ضفاف الأنهار بنى العفاريت حدائق ذات بهجة ، تخصّصتْ كلّ حديقة بصنف معيّن ، وأخذت حدائق النّخل الحظّ الأوفر من الزّراعة ، غير أنّه لم يكُن من الصّعب أن تُشاهدَ حدائق من أعناب ، تدلّتْ قطوفُها حتّى قبّلتْ عُشب الأرض ، أو حدائق من رمّان تناثرت حبّاتها فملأت البساطَ باللّؤلؤ . ولم يكن من العسير أن تُشاهد حدائق تمتدّ امتداد البصر تضجّ بأشجار عرفها البشر وأشجارٍ لم يعرفوها . وكلّها تُدخل الأنس إلى النّفس ، وتملأ الأفواه بأطيب ثمرٍ وأحلاه . ولم ينسَ عفاريتُ الزّراعة أن يختطّوا بين كلّ حديقة مثمرة وأخرى حديقةً للتّرويح عن النّفس ، فيها من أصناف الورود والأزهار ما يشرح الفؤاد ويُسكّن الخاطر ، وجرتْ في هذه الحدائق الغنّاء ينابيع خاصّة لكي تُبقي على نضارة كلّ وردة فيها . وكثرت في

(الشّيصار) الحدائق المُعلّقة ، فقد استعان العفاريت بالجانّ ليخطّوا لهم جسورًا تجري من تحتها الأنهار ، وتتدلّى من تلك الجسور الأغصان اليانعة فتفيضُ بالنّسمات على الجالسين ، كانت على هيئة أقواس تمتدّ على ضفّتي كلّ نهر . وربّما لامسَ بعضُ هذه الأغصانُ ما جرى تحت تلك الجُسور من ماء فترقرق ذلك الماء وتموّج ، وعزف أعذب الألحان .

ثمّ حدثَ البناء الأعظم . وأشرفت عليه (آسيار) بنفسها . عقدت اجتماعًا لأكثر مهندسي البناء خبرةً ، واشترطتْ أن يكون كلّ مهندس من هؤلاء قد بنى مئةَ قلعة أو يزيد ، وأن يكون له في التّصميم والتّنفيذ في هذا المجال ألفُ عام أو يزيد . فتقدّم عشرون ألفًا تنطبق عليهم هذه الشّروط ، كلّ واحد منهم يأمُل أن يكون فيمن يتمّ اختيارُهُ للبناء العظيم . فلم تختر منْ هؤلاء إلاّ أحدَ عشر مُهندسًا بديعًا .

ثمّ طلبت منهم أن يعكفوا على رسم مُخطّطات هندسيّة يُبدعون فيها أكثر ممّا قد أبدعوا فيما مضى . وخرج كلّ مهندس بثلاثة تصميمات ، فاجتمع لدى (آسيار) ثلاثةٌ وثلاثون تصميمًا كلّ تصميم أبدع من الآخر ، واعتمدت بعد مشورة الحكماء ممّن عايشوا بدء الخلق أحدَ هذه التّصاميم الفريدة . «وقريبًا سوف تشهقُ البشريّة وهي تشهدُ أعظم بناء يرتفع فوق أضيع أرض!!»

حُدّد طول الأضلاع ، ومقياس الزّوايا ، وعدد اللّبنات ، ومقياس المحيط ، وطول القُطر ، والنّسبة الرّياضيّة (باي) ، وكمّيّات الحديد ، ومقدار الملاط الرّابط بين الحجر والحديد .

هي إذًا سرّ (الشّيصار) ؛ قلعةٌ ثُمانيّة الأضلاع ، بزوايا منفرجة مُتساوية ، كلّ ضلع تَمتدّ مترين عرضًا ، وستّين مترًا ارتفاعًا ، ويحمل الارتفاع في الأمتار العشرة الأخيرة أبراجًا دائريّة على زاوية كلّ ضلع

من الأضلاع الثّماني ، في المتر الأخير من كلّ برج يتبثّقُ جدارٌ أفقيّ يحيط به ، وترتكز عليه مناظير يُمكن أن ترى العدوّ منها على مسيرة ثلاثة أشهر ، يقف خلف كلّ منظار فارسٌ كان عفريتًا تعمل عيناه على تكسير الضّوء المنكسر حتّى لا يحجبه عن مدى الرّؤية شيء .

وعندما ينتهي البنّاؤون من كلّ قلعة ، يأتي (أصر) كبير مهندسي الجنّ ، فيغوص في زاوية مظلمة تحت الأرض في أحد الأضلاع المُثمّنة ويضع حجرًا أسود . لمْ يكنْ يعرف سرّ الحجر غير (أصر) هذا و(آسيار) . حجرٌ لا يدري أحدٌ من أين جاء ، ولا كيف تشكّل ، هل استُخرجَ من باطن الأرض حيثُ الحمم السّائلة ، أم هبطَ من السّماء حيثُ الشّهب اللامعة!! غير أنّ أحد جوانبه المصقولة كان يُمكنه إذا تعرّف على بصمة النّاظر إليه أن يكشفَ له أحوال الأوّلين الغابرين من الأمم السّابقة وهيئاتهم ؛ كيف عاشوا وكيف انتهوا ، كيفَ بنوا حضاراتهم وكيف سارت الدّنيا بأخبارهم وأخبار جيوشهم . أمّا الجوانب الثّلاثة المُتبقيّة فكانت مخطوفة اللوّن خشنة لا تكشف إلاّ عن صمت مريب . وكان هذا الحجر يضعه (أصر) في زاوية يقوم عليها بناء القلعة بحيثُ إذا أزيل من مكانه انتقضت حجارة القلعة حجرًا حجرًا!!

أمّا أبواب القلاع فكانت من الحديد الصّلب المُعالج بالنّار والقطْر كي لا يصدأ ، ويحتاج المصراع الواحد منه إلى عصبة من رجال الإنس ليفتحوه ، ولكنّه كان يُفتَح بالبصمة ، إذْ إنّ كلّ بوّابة تحمل في المصراع الأيمن موضعًا على شكل يدٍ من خمس أصابع . تتعرّف هذه اليد على سُكّان القلعة بمجرّد أن يضع الدّاخل إليها يده ، إنّها تقرأ البصمات والعروق الدّقيقة المتشكّلة في باطن الكفّ ؛ فإذا كان من أهلها انفرج المصراعان فدخل إلى مخدعه ثمّ أُغلِقت البوّابة من بعده . وإذا لم يكن

من سكّان تلك القلعة أصدرتْ له تلك اليد صوتًا تنبيهيًّا ، وانتصب أمامها مخيالٌ يُحدّد له موقع قلعته ورقمها وتاريخها!!

لم يكنْ من أحد ليعرف عدد القلاع المبنيّة من الحجارة الهائلة المنتشرة في (الشّيصار) ، ولا عدد الّذين تكاثروا وتناسلوا هناك . وأنسى النّعيم الثّرّ البشرَ عداواتهم وأحقادهم . غير أنّ الغرائز قد تنام لفترة ما لكنّها لا تموت . ومع كلّ الثّراء الفاحش الّذي حلّ بالنّاس إلاّ أنّ العداوات بدأت تنشب بعد فترة ليستْ بالطّويلة على بناء المملكة المُذهلة . وخطّ حكيم على باب إحدى القِلاع : «لو خلا البشر من غرائزهم لما هبطوا من عَليائهم»!!

(٢٦)
الّذي يتمنّى زوال مُلكي
لا يكون إلاّ عدوّي

«لا جيشَ يُمكن أن يهزمَ جيشي . ولا قوّة في الأرض يُمكن أن تزحزح مُلكي . ما الّذي يُمكن أن تفعله (آسيار) حتّى الآن ولم تفعله . أرى أنّها نسيتْ عداواتها القديمة وندمتْ على ما فعلتْه بي فأرادت أن تردّ لي بعض الجميل فوهبتْني مُلك الجبّارين . لقد عجزتْ عقول بني البشر أن تفكّر هذا التّفكير القاتل ، وأن ترتقي هذا المُرتقى الصّعب . أكانَ الجنّيّون قد اطّلعوا على شيء من عالَم الغيب فاحتازوه لأنفسهم ، فلمّا أتونا به أذهلوا العقل وأعجزوا الإدراك!!» صعدتْ هذه الكلمات النّاعمات الحالمات من قلب الشّيخ (عايد) إلى رأسه .

أهي الفردوس أم ظلّها؟! أهي الجنّة أم بَرْدُها؟! أهي النّعيم أم نَفَحاته؟! لم تعد هناك رملةٌ إلاّ ونبتتْ من قلبها القاحل بذرةٌ خضراء . ولا بقعةٌ جافّة إلاّ وانبجستْ من تحتها مياهٌ دفّاقة فأحالتْ مواتها إلى حياة .

هبطت الأرزاق على المملكة من الصّين والهند والشّام وأفريقيا ، ومن كلّ الجهات . صارت حاضرة التّجّار ؛ ما من تاجرٍ أراد أن يستثمر تجارته فيما يعود عليه بالرّبح العظيم إلاّ طار بتجارته إلى (الشّيصار) ، وتنوّعت البضائع بتنوّع الحضارات الّتي جاءت منها ، وتشكّلت مسالك

عديدة في فنون الصّناعة والطّبخ والبيع ، وعجّت المملكة بأسواق أُنشئت خصّيصًا للبخور والعطور والأعشاب والأخشاب والفواكه المُجفّفة بطريقة ذوق صانعيها . ورتعت الأرض كلّها في النّعيم ، وبطرت المملكة معيشتَها على نحوٍ غير مسبوق!!

جاءتْه (آسيار) في المنام بعد أن تمّ بناء كلّ شيءٍ ، سألتْه دون مقدّمات :

- لَمْ تقتل أخاكَ ، هل تختبر صبري؟!

- لا . حاشايَ . إنّما ما زال هناك شيءٌ يحوكُ في صدري وأتوق إليه .

- أعرفه . فعيناك تنضحان به .

أمرتِ الغوّاصين ممّن اعتادوا أن يعيشوا مئات السّنين في المياه الدّافئة ، وخبروا كنوزها وخفاياها أن يجمعوا أطنانًا من اللّؤلؤ والزّبرجد والماس والأحجار الكريمة . طافت الشّياطين بكلّ الماء الّذي سكبه الله في المُحيطات والخُلجان والبحار والأنهار ، ونقّبتْ عن كلّ ما يخلب الأبصار من الحليّ والزّينة ، وكلّ ما يقع في القلب فيُغرَم به من الذّهب والفضّة . واحتاج (عايد) إلى قلاع خاصّة ليخزن فيها هذه الكنوز الّتي لا تستطيع القلاع العاديّة احتمالَ الجبال الّتي تشكّلتْ منها بعد أن تجمّعتْ أمامه .

ونسلَ عددٌ لا يُحصَى من البشر سكن القلاع والحصون والمُدُن العالية . واتّخذت (آسيار) له منهم جيشًا عرمرمًا . تشكّل من عشرة آلاف كتيبة ، كلّ كتيبة فيها عشرة آلاف فارس ، تنقسم إلى عشرة

كراديس ، كلّ كردوس فيه ألف فارس يقودهم أحد أبطال الجنّ المشهورين بالقوّة والبأس والشدّة . وكان لكلّ كردوس قلعةٌ خاصّةٌ يأوي فرسانها إليها ، وفيها منامات الجند وطعامهم وثيابهم . وعلى باب كلّ قلعة عبارةٌ حُفرتْ في الحجر الّذي استقرّ فوقها ، منقوشةً بحروف بارزة تقول : «مَنْ أشدُّ منّا قوّةً»؟!!

لم يعد هناك مفرّ من الأسر . (آسيار) تنتظر أن يقضي على أخيه ، وها هو استنفد كلّ الأعذار ، وأُتي بكلّ ما طلب ، ولم يتبقّ إلاّ أن يُنفّذ ما وعدَ به . فطلب أن يلتقي أخاه في قلعة خالية من السكّان بعيدًا عن الأعين . وجاء الشّيخ (صالح) وقد بدا أنّ جبالاً من الهموم تحطّ على كتفيه ، وأنّ أحلامه اغتيلت . أمّا أخوه الشّيخ (عايد) فلبس كلّ ما يخطف الأبصار من الثّياب والزّينة ، وجاء منتفشًا مغرورًا . ووقفتْ بينهما قنطرة تشهد على صراع بين قلبين سيسجّله البشر في سجلاّت عظاتهم .

– أترى هذا المُلك العظيم ؛ ما أظنّ أن يبيدَ هذا أبدًا .

– كلّ كائن إلى زوال . وكلّ موجود عارضٌ مصيره للفناء .

– إلاّ مُلكي أنا ، فلقد وقفَ على قوائمَ من إرادة جبّارة ، ولقد بنيتُه بعزيمة لا تُقهر .

– لا تخدعْ نفسك ؛ لقد بنتْه لك الشّياطين . وبناء الشّياطين قائمٌ على الماء ، ما أسرع ما ينهدم إذا ما سال الماء من تحته!!

– تحسدُني!! لا شكّ أنّ قلبك يأكل بعضُه بعضًا كالنّار من الغِلّ . هذا يرفع راية العداوة بيننا . العاجزون يلجؤون إلى ستر عجزهم برمي قصور النّاجحين بالحجارة .

– الحياة أقصر من أن نقضيها في العداء . لسنا في سباق مع

الزّمن لكي ننال أكبر عدد من الشّرور. نحن مدفوعون بنداء أخلاقيّ داخليّ من أجل أن نحوز أكبر قدْرٍ من الرّضى عن النّفس؛ بالعمل الحسن!!

- وأنا قد فعلتُ... أتريد رضىً عن النّفس أكبر من أن يكون لديّ هذا الجيش المهيب الّذي لا يُهزَم، وهذه القلاع الّتي لا تُهدَم.

- أنتَ تعرف أنّ هذا الجيش أكثره من كفرة الجنّ، وأنّ هذه القلاع لم تبنها أنتَ لا بقوّة من عقلكِ أو ببأس من ساعدك. لقد خدعتْكَ بها (آسيار)، وقريبًا سوف تنهدم على رأسكَ وتقضي علينا جميعًا. المجدُ لا يُبنى على أكتاف الآخرين يا أخي..!!

- البشر أضعف من أن يبنوا مجدًا. انظر إلى نفسك. ما زلتَ تحلم بأن تبني مملكتك وأنتَ تجلس إلى جوار قبْرِ زوجتك ككلبٍ كسيح، وفي النّهاية ماذا صنعتَ؛ لا شيء غير الهُراء.

- كيفَ تضع أمركَ كلّه بين يدي عدوّك؛ لقد تأصّلت العداوة في قلب الشّياطين لنا قبلَ أن نُخلَق، وأنتَ اليوم تهبهم قلبَك؟! إنّ اضطرار المرء للعيش مع العدوّ لسببٍ أو لآخر لا يُلغي عداوته بأيّ حال من الأحوال. بئس ما تفعل. ألم تنظر إلى قلبكَ كم اكتسى بالسّواد لطول ما أسكنْتَه من الشّياطين!!

- أنا لا أرى غير هذه القلاع الّتي تقهر العاديات، وهذه الجيوش الّتي ستستحوذ على العالَم بأسره.

- خدعتْكَ الشّياطين يا مسكين، حين تهبّ الرّيح على كلّ هذا الّذي تُسمّيه مُلكًا لا يزول ماذا سيتبقّى منك أو لك؟! لن يبقى من المرء إلاّ الذّكر الطّيّب. أيّ ذِكرٍ ستواجه به نفسكَ بعد أن ينتهي كلّ هذا!!

- الّذي يتمنّى زوال مُلكي لا يكون إلاّ عدوّي ، وعدوّي لا مصير له إلاّ الموت . ومن أجل المُلك سيكون هيّنا عليّ أن أقتلك .

- تقتلني . . . أجننتَ؟!

- وأشربُ من دمك ، وأحرقُ جسدك ، وأذرّ رماده في الأحْقاف .

- لا بُدّ أنّ الشّياطين هي الّتي تتكلّم نيابةً عنكَ الآن .

- أنا شيطانُ نفسي ، وإنّي قاتلك . (صرخ بها في وجهه وولّى ظهره وغاب في أجمة الشّياطين)

(٢٧)

المُلكُ مثلُ غمدِ السَّيفِ لا يتَّسعُ لاثنَين

جاءه أخوه (صالح) هذه المرّة في المنام، أعاد له الحُلم مشهدًا من مشاهد ليلة العودة من (يبرين)، حين حَضَنَهُ (صالح) وراح يخفّف عنه بكاءه بعد أن فقد (آسيا). هذه المرّة بدا أخوه أكثر حُزنًا وحُنوًّا، قال له: «ربّيتُكَ لتكون عوني على الخير. وعلّمتُكَ ليشرق قلبك بالنّور حينَ رجعنا أنا وأنتَ من (يبرين) كنتُ أحلم أن يكون لنا مُلكٌ عظيم، يقوم على المحبّة الدّافئة، وعلى الطّهر الشّفيف، وعلى النقاء الخالص. لم أكنْ أريد لك وأنتَ شقيقي الأصغر أن تُسلم نفسكَ للشّياطين؛ إنّها كلّها شرّ مهما تظاهرتْ لك بالمودّة، ومهما سوّلتْ لك وقوفها إلى جانبك. أنتَ الآن تنام على سرير من ظلام، تسبح فوقه الأفاعي، وترتع من حوله الذّئاب، وتتنابحه الكلاب السّوداء، وتشبّ النّار في أطرافه، أعاقلٌ أنتَ حتّى ترضى بعيشٍ كهذا، أذو قلبٍ أنتَ حتّى تشعر بأمان في حال كهذه!!

استيقظ من نومه فزِعًا، جاءته (آسيار)، ألقتْ في رُوعه أمرًا من جُملة واحدة: «عَجّلْ بموت أخيك قبل أن تعجّل مناماتُكَ بموتك».

نادَى أخاه في اليوم التّالي:

– المُلكُ مثلُ غِمدِ السّيفِ لا يتّسع لاثنين.

- كنتُ أحلم بالمُلك . ولكنْ ليس على هذه الشّاكلة . لم أُخلَق لتُطعمني الجنّ .

- وماذا كانت ستصنع أحلامك لقد كادت أن ترمينا في مهامه الصّحراء جيَفًا نَتِنة .

- مَنْ مَدّ يده إلى الكلب العَقور فستستقرّ بين أنيابه .

- أنا المَلِك المُتوّج لكلّ هذه الأرض (قال ذلك بغضب وهو يُخفي يده اليُمنى خلف ظهره)

- طَهّرْ قلبكَ يا أخي . خلّص روحك من ظلامها . دَعْنا نبدأ حياتنا من جديد . (قال ذلك بنبرة يقطر منها ندى الحُبّ الصّادق)

- أقدارُنا مكتوبةٌ من قبل أن نولَد . وإنّي قاتلك لا محالة . ولكنّني سأخيّرك في الطّريقة . (قال عايد لصالح بحزم وسرعة)

- القَتل داعية الهلاك ، وأنا لا أريد لشعبٍ ليسَ طرفًا في هذا النّزاع أن يصيبه ذلك . فإذا كان لا بدّ ؛ فدعْني أرحل بابني الوليد ومن أراد من شعبي . (قالها بقوّةٍ ولكن بأسى خُيّل لمن سمعها أنّ الجبال قد خرّتْ له)

- كان يُمكن أن تفعل هذا قبل اليوم . أمّا اليوم فلا مَحيص عن القتل .

- وما خياراتي؟!

- الطّريقة الّتي تُحبّ أن تموت فيها .

- المُبارزة .

- وأنا قبلت .

(قفزتْ أسيار فور أن انتهى من كلمته الأخيرة ؛ تذكّرْ يومَ يبرين أمام الملك ، لم يستطع قادة الجيش من الفرسان الأشدّاء أن يهزموه ،

وإذا برزتَ له بقُفَّازكَ البائس فلن يستغرق معه الأمر بضع لحظات . ردّ عليها : أمجنونةٌ أنت؟! سأختار له عشرةً من مَرَدة الجنّ الّذين يرفعون الجبال الرّاسية بأيديهم ويخرقونها بأرجلهم . ابتسمتْ في وجهه ومضتْ)

صاح بصوت ملأ مشارق الأرض ومغاربها :

- لقد اخترْتَ الطّريقةَ وأنا سأختار المكان .

- أبارزُ عدوّي وأجتزّ رقبته في أيّ مكانٍ ولو كان على سطح القمر .

- ستبارزه في وادي عَبْقر ، على الطّرف الغربيّ من المملكة .

- وأنا قبلت .

شقّ الفجر سُدفةَ الظّلام ، واحتلّ له مكانًا كبيرًا من الوادي ليشهد الواقعة ، أمّا الظّلال فاحتمتْ ببعض الظّلام لتستر به شرورها في الوادي نفسه ، ولتشهد مثل الفجر هذه الحادثة الاستثنائيّة . لم يكنْ هناك من البشر غيرُ (صالح)!!

برزوا له سودًا مُلفّعين بالحقد على الجنس البشريّ ، تقطر أشداقهم بدم العداوة . هاله منظرهم أوّل الأمر ، لم تكنْ لديه مشكلةٌ في أن يُبارز عشرةً من الفرسان دُفعةً واحدةً ، أمّا أن يكونوا من الجنّ فهذا ما لم يتوقّعه . «خانني أخي من جديد» هتف في نفسه . «الخيانة لا تعقرُ إلاّ صاحبها» أردفَ مُطمئنًا نفسه ومُشجّعًا . سارَ نحوهم بقلبِ أسد وثباتِ طود . «للخير الجولةُ الأخيرة» قال في نفسه . إنْ كنتُ الخيرَ أو بعضه فإمّا أن أنتصر اليوم ، أو أمهّد الطّريق للأجيال الّتي ستأتي من بعدي لتنتصر غدًا . وسيرثُ ابني قلبي .

لم تشهد الشّمس منذُ أن أرسلتْ خيوطَها الذّهبيّة على هذه البسيطة مثلَ هذه المبارزة. كانت تندكّ لها الرّواسي، وتتزلزل لها الشّامخات. مرّ النّهار بأكمله ولم يقضِ أحد الفريقين على الآخر، أخذهم وادي عبقر في جوفه وهم في عِراكهم الّذي لم ينته، واختفوا في سُدُفات الوادي. أكملتِ الشّمس قوسها فوق الأرض وغابتْ خلفَ التّلال البعيدة، ولم يظهر أحدٌ منهم. انتظر الملك (عابد) عودة الجنّ برأس أخيه، لكنّهم لم يعودوا ولا رأسُ أخيه عاد. مرّت ليلةٌ ليلتان... ليالي طويلة ولم يعودوا. قال الملك: إنْ كان أخي بشريًا فلا بدّ أنّه هلكَ وصار عظامًا بالية. نظر نحو (آسيار) الجالسة إلى يمينه على كرسيّ المُلك: «ومَرَدةُ الجنّ العشرة لماذا لم يعودوا؟!» ابتسمتْ في وجهه بخبث ولم تُجبْه ثمّ أرسلتْ طرْفَها في المدى البعيد.

قيلَ إنّ روحًا بعد شهرٍ خرجتْ من ذلك الوادي وهي تُنشد كلمات على إيقاع حزين، ترثي بها ما آل إليه الحال في المملكة، وتستنهض الملك الغائب أنْ يعود، وتُنذر من عواقب الظّلم، ثمّ تهمدُ الطّير في الوادي، وتُرخي الأشجار غُصونها لتسمع، وتستطيل الحصى في الأرض، وتتوقّف المياه عن الجَرَيان، وتسكنُ الحركة في كلّ شيء، فتبدأ الرّوح بالنّشيد ثمّ ترفع صوتها حتّى يتوافدَ الجنّ فيجلسوا في صفوفٍ مُتراصّة على طرفَي الوادي، يُلقون بهاماتهم على صدورهم وهم يبكون لما يسمعون، وترتجّ أجسادهم من بالغ الأسى فتعلو أصواتهم بالنّحيب. وقيل إنّهم سمّوا ذلك النّشيد (شعرًا) لأنّه أشعرَ الجنّ حتّى بكوا. وقيل إنّهم سمّوا ذلك البكاء الفجائعيّ الّذي كانت تعزفه الجنّ (عزيفًا)!!

(٢٨)
الخائنون يقتلون أنفسهم

عاوده الهذيان (بآسيار)، جاءته هذه المرّة لابسةً الثوب الّذي لبسته (فُرات) من عهدٍ بعيد:

- فعلتُ كلّ شيءٍ يا حبيبي... بقي أن تعقر شروف. (قالتْ له وهي تتلوّى كأفعى)

- سأفعل. (ردّ بجفاء)

- الآن افعلْ. (ردّتْ بغضبٍ وقد بان نابان من أنيابها)

استيقظ من نومه وهو يصرخ. قُبَيل الفجر أمر رجلين شديدَي الأسر بالذّهاب لعقرها؛ «حظيرتها ذات الخِطام الأحمر إيّاكما أن تُخطئا، أو يشعر بكما أحدًا!» (قال لهما وهو يرتجف). سار الخادمان وفي يد أحدهما خنجرٌ معقوف. دخلا الحظائر بهدوء حتّى لا يستيقظ الحارس. مرّا على أكثر من حظيرة وهما يرتعدان من أن ينكشفا حتّى وصلا الحظيرة المقصودة. نظرَا فيها فلم يريا شيئًا؛ كان الظّلام سائدًا، رميا حصاةً من الأرض ليسمعا صوتًا فلم يتناهَ إلى سَمْعهم شيءٌ.

- هذه الحظيرة خالية. (قال أحدهم للآخر)

- تأكّدْ من الخطام. إنّه معقودٌ في خشبة الباب كما قال الملك.

- نعم . ها هو الخطامُ موجود .
- إذًا لا بُدّ أنّها هنا . دعْنا ندخل ؛ لعلّ الحظيرة واسعة ، وهي باركةٌ في إحدى الزّوايا .

دَخَلا ، فَشَعرا أنّ ناقةً قد دخلتْ من بعدهم ، التفتا خلفهما ، شاهدا عينيها تلمعان في مدى الضّوء الخافت المنداح من الفضاء عبر باب الحظيرة .

- لا بُدّ أنّها هي . (قال أحدهم)
- إذًا فلنعجّلْ بإنجاز المهمّة .

أراد أحدهم أن يُلجئها إلى الزّاوية ليتمكّنا من نحرها . لكنّها فعلتْ ذلك دون أن يبذل أيٌّ منهما أيّ مجهود ، هَمّا بأن يَربطا أخفافَها فأطاعتْهما دون أدنى مقاومة . شدّا الوثاق على تلك الأخفاف فلم تُحرّكْ ساكنًا . رفع أحدهما الخنجر المعقوف والمسموم في وجهها فظلّتْ ساكنة . طعنها به في رقبتها بأقسى ما يستطيع ، خارتْ بصوت أشبه بالزّعيق وأسلمتِ الرّوح لكنْ دون قطرةِ دم واحدة . تبادلا نظرات القلق والاستغراب وهَمّا بالخُروج . أحسّا أنّ النّاقة قد قامتْ من مكانها . قفز الرّعب في صدريهما . توقّفا للحظة ، فسمعا صوتَ صراخٍ فجائعيّ قادم من مقصورة الملك . أسلما ساقيهما للرّيح وهَرَبا لا يَلْويان على شيء .

الصّرخات المفجوعة الّتي صدرتْ من شرفة القلعة الملكيّة ، ظلّتْ تصدر من صاحبها حتّى صارتْ جزءًا من عبثيّة المكان . ولم تنته إلاّ بانتهاء صاحبها!!

لم تأته هذه المرّة (أسيار) في المنام كما كانت تفعل . بل سمع صوتها . صوتُها الّذي لا يُمكن أن يُخطئه من بين ملايين الأصوات

الصوت نشبت في أذنيه منذُ عهد الآثام :

- لقد فعلتَ كلّ الخطايا . . . واستجبْتَ لي . . . آنَ لي أن أتخلّى منك وأذيقك اللّوعة أضعاف أضعاف ما أذقتنيه . الآنَ زمن اللّوعة الكُبرى .

- لِمَن تتركينني!!

- لِقَدَرِك . الخائنون يقتلون أنفسهم . والخطيئة لا تُزيّن نفسها للخاطئ إلاّ بمقدار ما يُزيّن هو نفسَه لها . الخُطاة يفعلونها فيما هي تستغيث بهم : دعكَ منّي ؛ إنّما أنا حتفك وهو مُمسكٌ بخطامها يُقسم الاّ يُفارقَها حتّى ولو فارقتْه!!

- ولكنّكِ شريكةٌ لي في كلّ ما حدث .

- بل أنا أتبرأ منك ومن كلّ ما فعلتَ .

- إذًا ها أنذا في الجحيم وحدي .

- ألم تقل ذات مرّة : الجبناء وحدهم يفرّون من أقدارهم . حانت اللّحظة المُناسِبة لِتواجه هذه الأقدار!

(٢٩)
يُؤمِن الباطِن مهما أنكرَ الظَاهر

إنّه الشّتاء ، لكنْ دون مَطر . الشّتاء سيُعذّب المملكة بالانتظار . هل من سبيل لِرَشق الماء فوق الأرض المتعطّشة كي تتجنّب الجفاف هذا العام (قال الملك الشّيخ) . لم يكدْ يُتمّ جملته اليتيمة حتّى تناهتْ إلى سمعه زمجراتٌ مُخيفة . ثمّ عزف الرّعد أغنيته المُنتظرة حينئذ فرقص قلب الملك فرحًا واستبشارًا . غيرَ أنّ الغيبَ غيرُ المُشتَهى . ما تنتظره لِيُنقذكَ قد يُسرع إليكَ لِيُهلِكك . ما تظنّ فيه نجاتُك هو ذاته الّذي يستعجل موتَك!!

استيقظَت الأرواح ؛ كلّ الأرواح على عصف الرّيح . الرّيح الّتي لم يجهل أحدٌ لمَ ثارتْ ؛ يُؤمِن الباطن مهما أنكرَ الظّاهر ؛ يسمع كلّ أحد صوتَ الحقّ في داخله حتّى ولو هدر صوتُ الباطلِ فملأ الدّنيا ضجيجًا في خارجه . إنّها ريحٌ سوداء ركضتْ بأقدامها السّافية بسرعة لا يُمكن قياسها بالضّوء . زمجرتْ كأنّ غضبًا إلهيًا قد تلبّسها . هبّتْ من الجهة الجنوبيّة فكنستْ في طريقها كلّ ما واجهتْه ، القلاع تهدّمتْ وطارتْ حجارتها الضّخمة في الفضاء كأنّها مجرّد أوراقٍ يابسة ، الأنهار تخلّتْ عن مياهها لتذرّها الرّيح في كلّ مكان . القناطرُ انهارت كأنّها كِسرة خُبزٍ يابسة في يدِ طفلٍ . الأشجار اقتُلِعت من جذورها وسبحت في

الصراع ، أشجار النّخل بعشرات الألوف تقصّفتْ إلى قِطع عملاقة سحتْ هي الأخرى مع مَنْ سبح ؛ الإبل والبقر والغنم والخيول والأعلاف والطّعام والأسلحة والكنوز والذهب والفضّة واللّؤلؤ كلّ ذلك حملتْه الرّيح بملايين الأطنان كأنّها تحمل بعض القشّ ورفعتْه إلى السّحب . كان هذا كلّه يحدث في الجهة الجنوبيّة من المملكة ، شكّلت الأجسام الّتي تحملها الرّيح في تلك الجهّة كتلةً هائلة سوداء كثيفة تمتدّ على مسافات شاسعة . أهل الشّمال فرحوا بما يرون ؛ كادوا يقفزون من الفرحة ، قالوا إنّها سُحُبٌ سوداء قادمة من الجهة الجنوبيّة لمملكتنا العظيمة وستُمطر هنا في الشّمال . داخل هذه السّحابة كان هناك الملايين من البشر الّذين تُمزّق الرّيح أشلاءهم ، فلا يظفرون من أعضائهم بشيء حتّى إنّها اقتلعتْ عيونهم من رؤوسهم ، واجتثّتْ قلوبهم من صدورهم ، وفي أقلّ من طرفة عين كانت القلوب تتخابط بالدّم تحت نَقب الرّيح لها فتُخلّف أثرًا اختلط فيه الأحمر بالأسود ، وسال المزيج في بحر فضائيّ . . . غضبٌ إلهيٌّ لم ترَ المملكة مثله ، ولن يعيش منها أحدٌ ربّما ليُخبِرَ التّاريخ ما الّذي يحدث .

ثقلت الرّيح بمَن فيها وبما تحمله من كُتل هائلة فزادتْ من سرعتها ، فاشتدّ بَردها ، في لحظة فاصلة مع احتكاك الأجسام المحمولة بهواء الفضاء تولّدتْ حالةٌ فاصلةٌ بين البرد والنّار ، سرعان ما تحوّلت حرارة الرّيح إلى نار مشتعلة ، ومع ازدياد السّرعة وانتشار النّار بملامسته الهواء ، انتقلت النّار إلى طور جديد هو السّعير . النّار الّتي تحتاج إلى سبعمئة عام لتتحوّل إلى سعير ، تحوّلت إلى هذا السّعير في لحظات ، السّعير نفسه الّذي يحتاج إلى سبعمئة عام أخرى ليتحوّل إلى الجحيم تحوّل إلى هذا الجحيم بعد تلك اللّحظات بلحظات ، الجحيم هو الحدّ

الّذي تشتعل فيه الحجارة مثل اشتعال ورقة يابسة بجذوة نار خفيفة. الجحيم هو درجة انصهار الحجارة والحديد في رقّة عين!! لقد كان الجحيم بامتياز!!!

لم تتوقّف النّيران المُستعرة عن الاشتعال طوال الوقت في كلّ مكان، ذلك أنّ العاصفة لم تكلّ عن الزّمجرة أبدًا. بدأتْ مجاري الأنهار الضّحلة القذرة تتبخّر مياهُها قبل أن تصلها الرّيح بفراسخ لشدّة الحرارة، وانتشرت الحرائق في كلّ شيء فسارت الرّيح بالنّار، فصار الفضاء كلّه نارًا هائلةً تغطّي الآفاق وتتّجه من الجنوب إلى الشّمال. لم يدرِ أهل الشّمال ما الّذي حدث للسّحب المُمطرة حتّى يتحوّل سوادها إلى لَمعان هائل. ظنّوا في البداية أنّ ذلك إنّما هو البرق الّذي يُغطّي هذه السّحب؛ فزاد استبشارهم بالآتي ومنّوا أنفسهم بانهمار الخيرات. استمرّ البرق يخطف أبصارهم يومَين متتاليَين وهم يستجدون المطر حتّى ينهمر، لكن دون فائدة. في اليوم الثّالث بدأت الأهوال تصلهم. أوّل من رأى الهول رجلٌ كان على طرف المملكة راكبًا حصانه المُطهّم ابتلعتْهُ النّار في جوفها هو والحصان، وحوّلتْهما قبل أن تتعدّاهما إلى رماد هشّ بعضُه لم يصل إلى الأرض بفعل التّيارات الهوائيّة العنيفة. السّحب الّتي ظنّوها سُحُبًا مُمطرة لم تكن في الأصل إلاّ كتلة كثيفة من الأجساد والحجارة والأشجار وكلّ ما في جهة الجنوب من كائنات وموجودات، وفي اليوم الثّالث مارست الرّيح الشّيء ذاته الّذي مارستْه في الجنوب فلم تُبقِ ولم تذر. ودارت الرّيح بالنّار في الجهات المتبقّية سبع ليال، وحينَ طلع نهار اليوم الثّامن، كان كلّ شيء قد سُوّي بالأرض إلاّ بقايا من أعمدة تناثرتْ هنا وهناك ممّا مسّتْها الرّيح ولم تمسّها النّار. ومن بعيد بدا المكان ساحة حرب شاملة أهلكتْ كلّ ما

فوقها . . . وعلى مساحات منبسطة تصاعدت أعمدةٌ من الدّخان سوداء كثيفة ، وسالت الأرض بالمُنصهرات من كلّ جنسٍ ومادّة فتشكلتْ كُتلٌ جبليّة من الرّماد ارتفعتْ أعلى من ارتفاع القلاع الّتي كانت هنا آمنةً مطمئنةً قبل بضعة أيّام فحسب . لا أحدَ ممّن يدبّ على الأرض من القلّة القليلة النّاجية كانَ قادرًا حينها على أن يُحصي الخسائر من الأرواح البشريّة ؛ الملايين المُمْلْيَنة أُبيدتْ كأنّها يومًا لم تكنْ ، فما الفائدة في أن تعدّ الموتى إذا كان القدر قد تكفّل بدفنهم أو حرقهم أو التّخلّص منهم على نحو تامّ؟! الأرواح الّتي ودّعت الحياة أدركت في لحظة الفراق ، أنّ كلمةَ إيمانٍ واحدة كانت قادرةً على أن تخلّصهم من هذه النّقم ، وأنّ كلّ النّعيم الّذي كان ماثلاً هنا بكلّ ما فيه وبكلّ مستوياته لم يكنْ ليغنيَ عن تلك الكلمة .

في اليوم التّاسع هبّتْ رياح أخرى حملتْ رمال الصّحراء البعيدة ، عصفتْ كما لو أنّ محنةً جديدةً ستُحيق بالمكان ، غير أنّها كانت رمالاً وادعة ، أتت بها الرّيح من بعيد لتدفن كلّ شيءٍ تحتها في مقبرةٍ جماعيّة لم يشهد التّاريخ أكبرَ منها ولا في زمن الطّاعون الأسود . دُفنت آثار القوم وحضاراتهم وممالكهم وبقايا مُخترعاتهم وما تبقّى من عظامهم . ارتفعت الكُثبان الرّملية المتشكّلة على نشيد الرّيح أكثر من ثلاثمئة متر بشكلٍ مائلٍ كأنّه نصفُ هرم ، كانت هذه الأهرام النّصفيّة المائلة كافيةً لتُخفي الماضي كلّه تحتَها . الماضي يمضي إلى وادي الغياب ، لكنّه لا يظلّ هناك إلى الأبد ، يومًا ما ؛ مثل يوم الفزع الأكبر ، سيخرج هذا الماضي بأرواح أهليه ليستعدّ ليوم السّؤال الأكبر أيضًا!!!!!

في اليوم العاشر ، من الأطراف نبتتْ أجسادٌ جديدةٌ ، وأحيا الله من رميم العظام ما أحيا ، وبعثَ من الدّوارس بضع مئاتٍ من البشر .

وجاء بخلْق جديد علّمه بالفطرة كيفَ يصنع من الرّماد بيوته الطّينيّة، ويبدأ دورة الحياة من جديد!! كَتبَ أحدُ الّذين شهدوا الكارثة ممّن أنجاه الله لغاية فوق مدخل بيته: «الحياةُ كسرةُ خبز وكوز ماء وحصيرةٌ بالية».

في اليوم الحادي عشر. بعثَ الله شيطانًا هالكًا من جديد، ليقول للنّاس: «إنّ الخيرَ إنّما يُعرَف بي. مَنْ عصاني أصاب النّور ومن أطاعني أصابه الظّلام»!!

(٣٠)
مَنْ عَبَرُوا مِثلَ مَنْ سيأتُون

«ماتتْ أمّكِ يا رِضى وهي تُنجبكَ» قالت (أمّ سليم) . ثمّ أردفتْ : «لفظتْ آخر أنفاسها حينَ التقطتَ أوّل أنفاسكَ بمجيئك إلى عالمَنا . لم تبكِ ولم تصرخ كبقيّة المواليد الجُدُد . أتيتَ صامتًا . قال العرّافون يومها : هذا الولد مُباركٌ لم يمسّه شيطان ، يعتقدون أنّ الّذين يصرخون وهم ينزلون من بطون أمّهاتهم يكون الشّيطان قد مسّهم وجرى في دمائهم»!! .

- أمّي ماتت وهي تلدني!! لِمَ لَمْ تُمهَل لتعيش معنا اليوم أليس في الحياة مُتّسعٌ لكلينا . (سألتُها بصوتٍ خفيض حزين)

- ألا تتذكّر يومَ (شروف)؟

- بلى .

- لا أحدَ يعرفها بهذا الاسم غيرُك . ألهذا قلتَ إنّها أختي!!

- لا أدري .

- (شروف) الموجودة في حظائر الشّيخ اليوم سبقتْها (شروف) أخرى ؛ تلك الّتي نُحرت منذ زمن بعيد . وكان نحرُها سببًا في هَلاك مَمْلكتنا إلاّ من أبقاه الله منّا إلى اليوم لحكمة لا يعلمها إلاّ هو!!

كان أبوكَ مُغرمًا بأمّك، وكان يُحبّها حُبًا جنونيًا، وكنتُ خادمتَهما. وبعد حادثة ولادتك انطوى أبوك في عزلته، ولم يتكفّل فرحُهُ بمجيئك بإذهابِ حُزنه على فقد زوجته. وظلّ يذكرها ويذكر فضائلها حتّى غاب فيمن غاب بعد ذلك. وفي غمرة حُزنه توالتْ على رأسه المصائب، وتكالبتْ على صدره الهموم وهو يرى ما يفعل أخوه أمامه، وكيفَ استحوذتْ عليه الشّياطين، حتّى كاد أن يرحل ويترك كلّ شيء وراءه له.

هذه القرية ألا ترى بيوتها الّتي تشكّلتْ من طين أسود؛ إنّها مثال على غضبِ الرّبّ. لو عشتَ في زمن المجد لرأيتَ القُصور المبنيّة من حجارة مصقولة، شُرُفاتها عالية. حينَ فقدْنا إنسانيّتنا فقدْنا أنفسنا، عاقبنا الله بالهلاك.

– لا بُدّ أنّ أمّي استحقّتْ هذا الحُبّ من أبي!!

– أمّك ابنة ملك (يبرين) الكبرى. وجدّتك إحدى ملكات الجنّ.

– تعنين أنّ أخوالي من الجنّ.

– نعم.. من الجنّ المؤمنين.

– هل أبي حيٌّ أم ميّت.

– غابَ أبوكَ عن البيتِ فجأةً؛ النّاجي قال إنّ الشّيخ (عايد) قد طلب أن يلتقيه في مكانٍ بعيد، وخرج إلى لقائه ثمّ لم يَعُد منذ ذلك اليوم... مرّ على ذلك مئات السّنين... بقيتُ وحدي أنتظر أن يعود، غير أنّه لم يُسمع له خبرٌ بعد ذلك.. على الأرجح أنّه... (صمتتْ ولم تستطعْ إكمال الجملة)

- مَنْ عبروا مثل مَنْ سيأتون . . البشر هم هم ، فقط ينتفضون بشعلة الرّوح ؛ الرّوح الخبيثة أو الطّيّبة . . . أرجو أن تكون روحًا طيّبة تلك الّتي اشتعلتْ بجسدي حين جئتُ ذات زمنٍ مُهمَلٍ أو غير مهمّ . وله من البقاء بمقدار بقاء الشّعلة مُتّقدةً . تصعد أرواحنا مُخلّفةً وراءها أجسادًا تنتظر أن تتّقد فيها شعلةٌ ما لروحٍ ما من جديد!!

(٣١)
الصّحراءُ أفضلُ صديقٍ يُمكنُ أنْ تُناجِيهُ لِتتخفّفَ مِنَ الهُموم

خرجتُ إلى المرعى لأطردَ ذكريات كثيرةً ظلّتْ تتنزّل بأثقالها على رأسي . الصّحراء أفضل صديق يُمكن أن تناجيه لتتخفّف من الهموم . لقد استطاعت بتلقائيّتها أن تُغيّر نظرتي للكون والحياة . يا سيّدي الغائب أسمعكَ تقول : «مَنْ لا صحراءَ له لا حكمةَ له» . لكأنّنا حينَ نخلو في الصّحراء نتخلّص من كلّ رواسبنا وخَبَثِنا ؛ لكي نأنس بالله الموجود في كلّ مكانٍ فيها .

إلى جانبِ (احميّد) على تلّة رمليّة هَرَميّة ، أُخِذ نصفها بعيدًا لتلّة هرميّة مشقوقة أخرى جلستُ أراقب المدى . نهضتْ فيّ أرواحُ أجدادي ، أنا ابنُ هذه الأرض وكلّ مَنْ مرّوا مِنْ هنا من الإنس أو الجنّ يعنونني . لا الإنس خالين من الجنّ ، ولا الجنّ خالين من الإنس . ولا الخير فيهما كلّه ، ولا الشّرّ فيهما كلّه ، ولكنّهما أخذا من كلّ جانبٍ بنصيب . ولولا أنّ الشّرّ خُلق لما عَرَفا جمالَ الخير ، ولولا أنّ الخير وُجد لما عرفا قُبح الشّرّ . ولكنّ النّوازع في أحدهما إلى الشّرّ أكبر ، وفي أحدهما الآخر إلى الخير أكبر . وهما مثل الموت والحياة ، لو لم يُخلق الموت فأيّ عقلٍ يُمكن أن يفسّر معنى الحياة!!

الرياح لا تتوقف عن الهبوب ، لكأنّها روح الصحراء إن سكنتْ

فقدت الصحراء روحها . لكأنّها نشيدُها الخالد تقصّ على الباقين حكايا الرّاحلين . تحكي حكايا الّذين مرّوا من هنا حينَ ضمّهم زمنٌ ما ثمّ غيّبهم الزّمن نفسه ، وظلّ الزّمن على عادته يأتي بأناس ويذهب بآخرين ، وظلّت الأرض في لُهاثها خلف خيول الزّمن العاديات تحمل القادمين والذّاهبين ، والّذين سيقدمون ثمّ سيذهبون!!

هبّت الرّياح وتحرّكتْ لها ذرّات الرّمل ، راحت الذّرات تتماوج أمامي ، أحسستُ أنّها تُريد أن تُريني شيئًا ، حدّقت النّظر فيها ، استمرّت الرّياح في اللعب بذرّات الرّمل ، وازداد تماوجُها فحدّقتُ النّظر فرأيتُ خيالات تبدو وتختفي عبرها ، زادتْ دقّات قلبي ، وتحفّز عقلي لاستيعاب المشهد ، وضيّقتُ عينيّ أكثر لأرى ، بدأت الخيالات تتجسّد بهيئات الغابرين بشكل أوضح ، لكأنّه خُيّل إليّ أنّني رأيتهم وهم يتصايحون رافعين أيديهم يستغيثون بالصّانع أن يحميهم من الشّرّ المُستطير الّذي أيقنوا بوقوعه ؛ أعمدة ضخمة تُطاول عنان السّماء سقطتْ كأنّها سيقان عشب يابس تنقصف تحت وطأة مَشي أعمى . أقواس حجريّة ضخمة تفتّتتْ وتبخّرتْ في لحظات . بوّابات حديديّة مَهولة تذوب كالقَطران . . . نفضتُ رأسي فسقطتْ ذرّات الرّمل الّتي حملت صورهم ، ثمّ تمنّيتُ أن أرى أبي ، فَرُحتُ أُحدّ النّظر لعلّ أمنيةً عزيزةً مثل هذه تتحقّق ، فخُيّل إليّ أنّني بدأتُ أستحضره ، قدِمَ من فجٍّ عميق ، وها أنذا أراه ؛ كان يتصارع مع عشرة من مخلوقات جنّيّة كبيرة سوداء في فم واد سحيق تصدر منه أصواتُ صدىً مُختلط . تعجّبتُ من أن يكون في هذه الصّحراء الجرداء المُنبسطة وديانٌ . ثمّ تذكّرت أنّ ريح العذاب سوّتْ بالأرض كلّ ما كان قائمًا ، وردمتْ كلّ ما كان غائرًا ، وأنّ هذه الرّيح قد غيّرتْ معالم هذه البقعة من الأرض إلى يوم

الدّين . غامت صورة أبي في هذا المخيال ، فأردتُ أن أراه بوضوح ، فاقتربْتُ من الذّرات أكثر ، وكأنّه حاضرٌ أمامي بالفعل ، خطوتُ خطوتين أخريين ورُحت أستلهمه ، حانتْ منه التفاتةٌ في غمرة انشغاله بالقتال إليّ وابتسم ، في تلك اللحظة الغادرة غافَلَه أحد أعدائه فهوى على رأسه بصخرةٍ لا يحملها عشرةٌ من البشر ، اتّقى بعضها بالمسارعة في الابتعاد لكنّها هزّته وكادت تُسقطه على الأرض ، تماثل للوقوف ورأسه تشخبُ بالدّم ، وصرختُ أنا بأسىً صرخةً عالية ، هُرِعَ على إثرها (احميّد) إليّ وهو يلهثُ من هول الصّرخة :

– ما بك يا رضى . . . ما بك . . . ما الّذي أفزعكَ إلى هذا الحدّ؟!

– أبي . . أبي يا احميّد .

– لعنة الله على الشّيطان . عاد ليتمثّل في هيئة أبيك .

– لا . لقد رأيتُه بالفعل ، وأحسستُ أنّه يريدني أن أتبعه لأقف إلى جانبه في محنته .

– أبوك مات من سنوات سحيقة يا صديقي . ارضَ بقدر الله فالخلود له وحده .

– أبي لم يمتْ وأنا لم أمتْ . حيّان نحن ، وسأتبعه .

تركتُ صديقي ، وهُرعتُ إلى حظائر الشّيخ ، لم أخبر (أمّ سليم) بما سوف أفعله . توجّهتُ رأسًا إلى (شروف) ، «هي مَن ستدلّني على مكانه» (حدّثتُ نفسي) وأنا أغذّ السير باتّجاهها . أعرف حظيرتها ؛ فأنا أُطعمها وأسقيها منذ أن وُلدَت . لم تنتظرني حتّى أصل ؛ شمّتْ رائحتي فخرجتْ للقائي ؛ حبيبان يتبعان رائحة الحبّ ، وعاشقان تدلّ المودّة والرّحمة أحدهما على الآخر . ركضتْ باتّجاهي حتّى إذا صارت

بجانبي بركتْ وحدها تدعوني لأركبها ، صعدتُ ظهر الأحداث من جديد ، ومضيتُ باتّجاه أبي ؛ سمعتُها تقول لي وهي تقوم من مبركها : «إلى أين أيّها الغالي» إلى حيث والدنا يا صغيرتي . ألم تشتاقي إليه؟!» لم تُجبْني بالقول ، أجابتْ بطريقة أسرع ؛ فلقد أطلقتْ سيقانها للرّيح .

سبحت النّاقة وهي تطير بي في الصّحراء ولا أدري إلى أين ، يكفي أنّها تدري ، لم يكد يمرّ بعضُ الوقت حتّى غابت القرية ببيوتها الطّينيّة خلفنا ولم يعد يظهر منها شيء ، وتابعت (شروف) ذميلها ؛ تعرف طريقنا أكثر منّي . مرّ النّهار . . . وكادت الشّمس أن تغيب ، وأحسستُ أنّنا يجب أن نرتاح ، غير أنّها سمعتْ أمنيتي وردّتْ عليها بمتابعة المسير ، ورغم أنّني سمعتُ صوتَ تعبها إلاّ أنّها لم تستجبْ هي لصوت التّعب هذا ، وجدّت في المضيّ نحو الغاية أكثر حتّى غرَبت الشّمس .

لا أدري ما هي اللّحظة الفارقة الّتي جفلتْ فيها النّاقة من شيء ما ، ربّما رأتْ ما لا يُمكن لي أن أراه ، لو كان الوقتُ نهاراً لرأيتُ ما رأت ، غير أنّ الظّلمة كانت تحيطُ بكلّ الشّيء . المهمّ أنّها لم تكد ترى ذلك الشّيء الغامض حتّى فرّت كأنّ ألف مخرز قد نشب في بطنها ، فقفزتْ مثل جنّي وراحتْ تركض بسرعة لم أتخيّل أنّ ناقةً يُمكن أن تركض بها ، ورحتُ أحاول عبثًا أنّ أهدّئ من رَوْعها ، واستمرّتْ تنهب الأرضَ نهبًا وأنا فوقها أتراقص على ظهرها كما تتراقص فقاعة الماء على سطح قدْر تغلي ، حتّى إذا حان الحين في غمرة السُّعار من ركضها المحموم سقطتُ عن ظهرها ، وشعرتُ أنّ شيئًا ما غاصَ في مؤخّرة رأسي فثقبه ثمّ خرج منه شيءٌ أو أخرجه ، ودارتْ بي الأرض بي

كأنّها مغزلٌ يدور حول محوره . ولم أتمالك نفسي ، فغبتُ عن الوعي .

لا أدري ما الّذي حدث بعد ذلك ، في نور ما ؛ شمسًا كان أم غيرها لا أدري ، لمحتُ ثلاثةً يقفون فوق رأسي ؛ أحدهم يلبس عِمامةً ، والثّاني طويل القامة أسود البشرة ، والثالث قصيرٌ لم أتبيّن ملامحه ، لم تكنْ وجوههم غريبةً عليّ ؛ أعرفهم ولا أعرفهم . حاولوا أن يحملوني على دابّتهم ، غير أنّهم تخلّوا عنّي بعد ذلك بقليل ، ثمّ جاءتْني دابّة أخرى لم أر أضخم منها يمتطيها رجلٌ عاري الظّهر ، حملني خلفه وقال لي بصوت ودُود : «أهلاً بكَ في عالَمنا!

القِسم الثّاني

(٣١)
وفوقَ كُلِّ ذي علمٍ عليمٌ

لم أتبيَّنْ شيئًا في البداية ، تغبَّشت الرّؤية في المدى القريب ، شيءٌ ما منَعني من أن أبصر تمامًا ، اقتربَ منّي وجهٌ غائمٌ لم تظهرْ إلاّ ابتسامته ، مرّر يديه على عينيَّ ، فصدر صوتٌ كالحسيس بالقرب من أذني وبدأت الرّؤية تتّضح رويدًا رويدًا . حاولتُ النّهوض فلم أستطعْ ، كنتُ مستلقيًا على سريرٍ ليّن ، بدا سقف الغرفة ثلجيًا ، كان أبيض بدوائر متداخلة . أمّا الجُدران فكانت زُجاجيّة . أغمضتُ عينيّ وفتحتُهما فرأيتُ كلّ شيءٍ بوضوح . تنحّى ذو الابتسامة البيضاء والواقف عند رأسي إلى الوراء قليلاً ، ودلفَ من الباب أربعةٌ من الرّجال بثيابٍ فضفاضة بيضاء ، يتقدّمهم رجلٌ مَهيبٌ بعينَين تبرُقان ضياءً ، أردتُ أن أقول شيئًا فانحبس لساني في مكانه ، حرّكتُ جسدي لأقوم لهم ، ولكنّ صاحب العينَين اللاّمعتَين أشار إليّ بألاّ أتحرّك .

تحلّق الخمسة على أطراف السّرير وقد علتْ وجوههم ابتسامةٌ هادئة وراحوا يُعالجونني . تحسّس أحدهم مؤخّرة رأسي وابتسم من جديد ، وقال : «جرح سطحيٌّ بسيط ، لا كُسور ، ولا تهتّكات ، خلال نصف ساعة ستكون قد شُفيتَ تمامًا إن شاء الله» . ساعده اثنان في وضع بعض اللّواصق على مكان الجرح ، ثمّ خرجوا وتركوني بين يدي

اثنين ليخدماني . حرّكتُ لساني داخل فمي المتيبّس ، وبالكاد استطعتُ أن أبلع ريقي . نظر إليّ الواقف عند رأسي : تريدُ شرابًا؟! هززتُ رأسي . مدّ يده إلى أحد الجدران الزّجاجيّة وقال كلمةً لم أفهمها فسقطتْ في يده ؛ ناولني الكأس الّتي يترقرق السّائل داخلها ، قال لي : اشرب . شربتُها بعطشِ مَن لم يدخل الماء جوفَه منذُ عام . ناولته الكأس فمدّ يده بها إلى الجدار الزّجاجيّ فغابتْ داخله دون أن أدري كيفَ اختفت . ضغط الثّاني بإصبعه على الجدار المقابل ، فارتسمتْ لوحة رقميّة مُشعّة ، كانت الأرقام باللّون الأحمر ، حرّك الرّجل أصابعه بخفّة على اللّوحة ، تنقّلتْ إصبعه بين ستّة أرقام ، اختفت اللّوحة في الحال وظهر من الزّجاج ضوءٌ سقط في عيني مباشرة ، أزحتُ وجهي ورفعتُ يدي أتّقي الشّعاع الأزرق النّافذ إليهما ، انقطع الضّوء الّذي لم يستمرّ إلاّ للحظات لا تساوي نُطقي بكلمة . ابتسم الرّجل الثّاني ، ووجّه باطنَ كفّه إلى الجدار الزّجاجي الّذي يقع خلفه فسقطتْ في يديه ثلاث حبّاتٍ بيضاء ، أسندني بخفّة ، طلب منّي أن أتناولها . تناولتُها مع كأس بماءٍ عذب . ورحتُ في نوم عميق .

استيقظتُ بعد غيبوبة لم أدرِ كم استمرّت . قال لي أحد الرّجلين : لقد شُفيتَ تمامًا . قم معنا إلى الأستاذ . كنتُ أتبع ما يقولان كأنّني مسلوب الإرادة . ألبساني ثيابًا غريبة ، تخلّصتُ من جلبابي الممزّق ، وصار لي قطعتان ، بنطالاً وقميصًا . مشى أحدهم أمامي ، وتبعني الآخر . كانت خطواتي تسبقني بينهما ، لم تكنْ قدماي تمسّان الأرض ؛ كانتا تتحرّكان كماء منساب على سطح أملس . عبرنا بوّاباتٍ عالية ، وغرفًا زجاجيّة مُتداخلةً ، وخلقًا كثيرًا متشابهًا . لم يكنْ لي من خيارٍ في سيري ، كنتُ مأخوذًا باتّجاههما كأنّ قوّة جاذبةً تربطني

بهما . حتّى إذا صرنا خارج المبنى العجيب انفتح أمامنا الفضاء المُدهش . كان الوقتُ ليلاً ، وكانت النّجوم أمامنا وأسفلَ منّا . خُيّل إليّ أنّنا إمّا على جبلٍ شاهق ، أو على أرضٍ أعلى من الأرض الّتي عشتُ فيما مضى من عمري عليها . كانت نسمات الهواء لطيفةً تزيدُ القلبَ نشاطًا . قالا لي :

- لن تستطيع اختراق الفضاء بدون الصّحْفة .

- وما الصّحفة؟!

- اللّباس الّذي يحميك من الذّوبان .

- ولماذا أذوب؟!

- ما زال جزؤك البشريّ كامنًا فيك ، وسنطلق إلى الأستاذ بسرعة عالية ، وبدون الصّحفة سوف يتبخّر لحمُك وعظمك .

مررتُ بآلاف النّجوم أو الملايين ؛ وأنّى لي أن أدري وأنا أسبح في الفضاء المُذهل ، كُنّا نترك ظلالَنا خلفنا في كلّ مرحلة من هذا الطّيران العجيب ، حدث ذلك مرّات عديدة قبل أن نحطّ على بقعة جديدة كان يقف على بابها رجلٌ بدا لي عجوزًا ، أشيبَ كسا البياضُ شعره ولحيته وحاجبَ عينيه . هبطْنا مثل عصافير مُهاجرة أمامه ، أشار لهما بالمغادرة وبقيت وحدي في حضرته . لم أشعر بالخوف رغم الغربة الواسعة بيننا . كان الجبل الشّاهق المرتفع قد تراكمتْ حجارته الخضراء بعضُها فوق بعض ، وقفتْ صخوره أمامنا ونحن نهمّ بدخول بوّابته الحجريّة الّتي خُيّل إليّ أنّها أثريّة وأنّه مرّ عليها أكثر من خمسين ألف سنة .

إلى البهو . . . إلى البهو . . . قال لي الأستاذ وهو يمدّ يده اليُمنى مرحّبًا ، ويضع يده اليُسرى على كتفي بحنوّ . . . ما إن صرنا في

الدّاخل حتّى شهقتُ شهقةً عاليةً ونظرتُ إليه بدهشة ، وهو - على عادته - لم تُفارق البسمةُ وجهه السّحيق . كان البهو يمتدّ مسافات واسعةً جداً ، قاعة دائريّة حفّتْها الجدران الشّاهقة من كلّ جانب ، نظرتُ إلى الأعلى فلم أجدْ سقفًا ، كان هناك مئات النجوم تتدلّى من السّماء تضيء المكان المَهيب بمئات الألوان المتباينة ، سار أمامي بثوبه الفضفاض الّذي خفقتْ جوانبه مع حركته ، وبشعره المنسدل على كتفيه يغطّيهما ، ومضيتُ خلفه مثل تلميذ صغير . حتّى إذا صار في وسط القاعة وقف ، استدار نحوي ، وقال :

- هنا سأعلّمك .

- وماذا ستعلّمني؟!

- الأسماءَ كلّها .

- وعلامَ؟!

- تقصد في الأرض؟!

- وأينَ نحن الآن؟!

- في عالَم الجنّ .

ارتعدتْ فرائصي ، وبلعتُ ريقي قبل أن ينظر في وجهي ، وتُعيد نظرتُه الصّافية الهدوء إلى قلبي المرتجف من جديد ، وتابع :

- علم الأرض يختلف عن علم السّماء .

- وعلامَ؟! (أعدتُ السّؤال من جديد)

- لم يُعلّمْكَ شيئًا . كلّ ما تعلّمْتَه هناك لا يُساوي شيئًا ممّا ستتعلّمه منّي هنا .

- وأين التّلاميذ الآخرون؟!

- لا حاجةَ لنا بهم . إنْ عُدتَ إلى الأرض فستعلّم البشريّة كلّها .

دَخلني شيءٌ من الكِبْر ، قبل أن يرمقني بنظرةٍ حادّة أسقطتْ ما انتفخ به القلب من الزّهو قبل قليل ، وقال بصوتٍ حادّ :

- تذكّرْ . . .

- ماذا؟!

- الكِبْر عدوّ العِلم ؛ ومن تكبّرَ سقط .

- وهل سأصبح عالِمًا إنْ تخلّيتُ عن الكِبْر؟!

- صحيح . ولكنْ تذكّرْ أيضًا . . .

- ماذا؟! (سألْتُه من جديد)

- ليسَ ما تعلّمْتَه في الأرض شيئًا بالقياس إلى ما ستتعلّمه هنا .

- والّذي سأتعلّمه هنا سيكون كافيًا؟!

- ليس شيئًا قياسًا إلى علم الله ؛ ثمّ ردّدَ : «وفوقَ كلّ ذي علمٍ عليمٌ» .

- ولكنّ هذه الآية الّتي قرأتُها للتّوّ أُنزلتْ إلى البشر .

- وإلينا نحن . . . وإلى كلّ المخلوقات . . . حروف هذا النّور لكلّ مَنْ هو دونَ الله مِمّا ذرأ .

كان الذّهول ما يزال يُسطير عليّ من منظر القاعة الّذي سلب منّي عقلي . كانت الجدران تعجّ باللّوحات والتّماثيل والقناديل والنّقوش . . . القناديل وحدها جلبتْ طائر الرّهبة إلى صدري وهي تتدلّى مثل مشكاة تتلألأ بالنّور ، ثمّ لا تلبثُ أن تختفي داخل الجدران الشّاهقة ذاتها ؛ تغوص هناك وتنطفئ كأنّها لم تُشعّ بالضّياء منذ لحظات!! بعضُ التّماثيل سبحتْ مع الجدران إلى الأعلى ؛ تابعتُها بنظري ، امتدّتْ الجدران معها امتداد السّماء السّابعة ، مالتْ عنقي مع الارتفاع

الشّاهق ، ترنّحتُ وكدتُ أسقط لولا أنّ يدًا خفيّة امتدتْ إلى ظهري وأعادتْ إليّ توازني . أمّا اللّوحات المتناثرة هنا وهناك فقد خُيّل إليّ أنّ الرّسوم الّتي فيها تهمّ بأن تنتفض حيّةً وتغادر الأُطُرَ المحبوسةَ فيها . والنّقوش؟! شعرتُ أنّ الحروف الّتي تشكّلتْ منها ليستْ حروفًا ؛ وإنّما هي أرواح على هيئة خطوط لم أهتدِ إلى قراءتها!!!

ركز يديه على العصا الّتي معه ، وأحنى هامته على صدره ، وتلا بعضَ العبارات الّتي لم أفهمْ منها شيئًا ، ثمّ رفع رأسه ، وركز العصا تحت إبطه . مدّ كفّه اليُمنى باتّجاه الأرض حيثُ مركز القاعة فبرز ما يُشبه الرّقيم ، لكنّه كان من زجاج . . . رفع إصبعه إلى الأعلى دون أن يحرّك يده ، فوقف اللّوح الزّجاجيُّ في الفراغ . باعدَ بين يديه فاتّسع اللّوح ، مدّ ذراعيه على وسعهما فصار اللّوح بعرض القاعة الممتدّة ، ارتدّدْنا بضعَ خطوات إلى الخلف ، أشار إليّ أن أجلس ، جلستُ ، ووضع يده اليُمنى على قلبي ، وقال لي : (اقرأ) . فقرأتُ خلفه . قال في هذه الكلمة السّرُّ . مَنْ قرأ انكشف له السّرّ . لم أقرأ إلاّ ما قال . كلّ كلمة قالها تحوّلتْ حروفها إلى مادّتها ؛ لم أكنْ أعلم من قبلُ أنّ الحروف هي موادّ تتشكّل في هذا العالَم بمجرّد النّطق بها . كان الأمر مُرعبًا في البداية ، كاد يُغمَى عليّ وأنا أشاهد كلّ ما أنطق به يتحوّل إلى ذاته في لحظات . غطّني بعد الكلمة الأولى ، فاطمأنّتْ جوارحي وسكنتْ . وبدأتُ معه رحلة العلم الممتعة . في تلك اللّيلة تعلّمتُ كلّ شيء أراد منّي أن أتعلّمه . ملايين الكلمات مع مدلولاتها وَعَيْتُها في ليلة واحدة . ما أوسعَ علمَ الجنّ!! حقًّا إنّ البشر لفي جهلٍ عميم!!

– سيّدي الأستاذ علّمني اسمَك .

– اسمي هو ذاتي .

- لم أفهم .
- أنتَ لا تحتاج أن تنطقَ باسمي إلاّ إذا أردتني أن أكون بين يديك . إنْ نطقتَ اسمي مَثُل شخصي .
- علّمني إيّاه .
- لن تستطيع نُطقه في حضرتي ؛ لأنّه منطوق ما دمتُ موجوداً .
- وكيفَ وُجدت؟!
- لقد نطقَ أحدهم اسمي .
- ومن فعل ذلك؟!
- زَوْبعة .
- ومن هو زَوْبعة؟!!

(٣٢)
لا حرْمانَ إلاّ بَعْدَ استِعجال

تغيّر العالَم في عينيّ بعد ما تعلّمتُه . أصبح لكلّ شيءٍ روحٌ تدلّ عليه . الكلام من مخلوقات الله ، وكلّ ما خلق الله له روح . هذه الرّوح تستتر عن البشر في عالَمهم المحجوب ؛ نِصفي الجنّيّ ساعدني على أن أخترق هذ الحُجُب ، وأن أرى روح الكلمات!!!

الكلمات الّتي أقولها هنا لم أتعلّمها من قبل ، هذا العالَم هو الّذي علّمني إيّاها ، أعني أنّني أقولها كأنّني أعرفها ، وكأنّني نطقتُ بها في زمن ما سابق على زمني الحالي ربّما بعدد كبير من السّنوات لا يعلمها إلاّ مَنْ خلق كلّ هذا وعلّمه لنا . اندمجتُ سريعًا في العالَم ، وشعرتُ أنّه أكثرُ أمانًا واتّساعًا وإدهاشًا و . . . ، وتطوّرًا .

الرّجل هل هو للذّكر من الجنّ والإنس ، والمرأة هل هي للأنثى من الجنّ والإنس؟! أم أنّ بينهما اختلافًا . لا يهمّ ، أريدُ أن أصف هذا العالَم بناءً على هذا التّصنيف : رجل وامرأة جنًا كان أم إنسًا .

جاءني هاتفٌ من السّماء ، قال لي : انظر إلى اللّوح ، ستجد فيه اسم أستاذك . خُذْ من كلّ ذات ممّا يظهر في اللّوح الحرف الأوّل ، واجمع بعضها إلى بعض يتشكّل اسمه . حين تنطق به سيمثُل أمامك . لكنْ حَذارِ من أن تقرأ الحروف قراءةً خاطئة .

وقف الأستاذ أمامي من جديد، سألتُه برجاء:

- أريدُ أن أرى زَوْبعة.

- أتظنّ ذلك سهلاً. إنّه لا يحظى بلقائه غير الأولياء.

- أريدُ أن أكون منهم. كيف يُمكنني ذلك؟!

- إذا كَمُلَتْ لك جوانب العلوم كلّها ستكون قادرًا على أن تراه؟!

- ألم تكنْ ملايين المهارات والمعارف الّتي تعلّمتُها منكَ كافيةً لأكون أحدَ أحباره؟!

- لا. نحن محتاجون إلى أربعين ليلةً مثل تلك اللّيلة لنتعلّم العلم الكافي لمواجهته.

- علّمْني إذًا.

- تجرّدْ من كلّ إنسيّتك لتكون مؤهلاً لتلقّي المزيد.

تعلّمتُ مَنطق الإنس والجنّ والملائكة والحيوان والشّجر والحجر والأشياء. في اللّيلة الأخيرة قال لي الأستاذ، وهو يبتسم ابتسامة الرّضى:

- سيكون المَلِك مسرورًا بلقائك.

قَطَعْنا سبعَ مجرّات على ذيل نجوم النّفخة الأولى، لنصل إلى مُتّكئه. قال لي الأستاذ: «لا فوزَ دون صبر». ما زلتُ أشكّ أنّ شيئًا من إنسيّتك سيعود للظّهور فيك من جديد فيُفسدَ عليكَ فضيلة الصّبر. ثمّ قال وهو يشدّ على أسنانه: «لا حرمان إلاّ بعد استعجال». طَمْأنْتُه أنّني قادرٌ على الصّبر أكثرَ منه. دلفتُ بخطوات مُتسارعة إلى القُبّة الّتي انفتح نصفها المقابل لنا وهي تُصدر أزيزًا متواصلاً قبل أن يستقرّ ذلك النّصف خلف أخيه. ظهرتْ بعضُ الأضواء الجميلة، لكنّ

(زوبعة) لم يظهر ، ولا أيٌّ من حواريه ، ولا حتّى أيٌّ من مخلوقات الله . تابعتُ المشي بخطىً حثيثة ، والأستاذ يلهثُ خلفي ، وهو يرشقني بكلمات مُعاتبة : ألم أقل لك؟! تركتُه يتابع لهاثه خلفي وأنا أستمرّ في المضيّ يحدوني الشّوق لألقى (زوبعة) . قبل أمتارٍ بسيطة من القُبّة انتصبَ فجأةً أمامنا جدارٌ زجاجيّ ظلّ يرتفع إلى أعلى بسرعة الضّوء . اصطدمتُ به قبل أن أخفّف من سرعتي ، وكلمات الأستاذ ما زالتْ ترنّ في أذني : «لا حرمان إلاّ بعد استعجال» . شدّني من يدي ، ورجع بي بسرعة إلى الوراء حتّى إذا صرنا على بُعد مئة مترٍ شدّني مرّة أخرى من يدي وأجلسني على الأرض وجلس إلى جانبي . قال :

– إنْ فقدتَ الرؤية ، فلن تفقدَ الأثر .

– . . . .؟!

– بعد قليلٍ على هذا اللّوح سترى ما لم ترَ من قبلُ .

صهلتْ خيولٌ قادمةٌ من بعيد ، تراءتْ على اللّوح الزّجاجيّ كأنّها حقيقيّة لا مخيال . كانت خيولاً سوداءَ مُطهّمة تعدو على مساحات شاسعة من الثّلج ، نهرٌ منها امتدّ من أوّل اللّوح وظلّ ممتداً في البعيد دون أنْ تظهرَ نهايتُه . . . كانت الخيول يعتليها فُرسانٌ أشدّاء عظّامهم الحديد من أعلى رؤوسهم إلى أخامص أقدامهم . تقدّمهم فارسٌ بدا أنّه قائد الجيش ، هملجَ حصانُه قبل أن يستديرَ به نحوهم ؛ ويرفع يده ، في الأثناء كان الحصان يخفض إحدى رجليه ويركزَ الأخرى ثمّ يشدّ صدره إلى الأمام بأنَفَةٍ باذخة . توقّف الجيش لليد المرفوعة ، وتداعت الخيل في خطواتها الأخيرة وهي تجرّ الحديد قبل أن تقف تمامًا . قال القائد : لا شيء يُمكنه الصّمود أمامنا . نطقَ حصانه لكنّه لم يسمعه ؛

سمعتُهُ أنا حينَ قال : أنتَ لا تستطيع الصّمود أمام الموت . تابع القائد : ليس للهزيمة معنىً في عقولنا . ردّ عليه الحصان الّذي لم يفهم القائد لغته : ستهزمك بَعوضة . أردفَ القائد : ستصبح الأرض مُلكًا لي . أجاب الحصان : ليس لك منها إلاّ ما غطّى جسدكَ من الثرى . صاح القائد : باقون حتّى يشهدَ الحجر بعَظَمتنا . صهل الحصان وتحرّك من تحت قائده : لم ينجُ من الرّحيل أحدٌ .

في خضمّ المشهد الّذي صعدتْ فيه روحي إلى حنجرتي ظللتُ فاتحًا فمي في دون أن أُعير الأستاذ الجالس إلى جواري نظرةً واحدة . . . استدار القائد أمام الجيش ، ورفع يده من جديد وأشار بها إلى الفضاء الفسيح أمامه فتحرّك الجيشُ من خلفه ؛ فجأةً انبثقتْ من الأرض أكفٌّ شقّت التّراب مادّةً أصابعها بحركة أشعرتْني أنّها تستغيث ، ارتفعت الأيدي بدافع الأرجل الّتي كانت تظهر لي من تحت الطّين وهي تُدافعه لتصعد من الجزء المطمور إلى الجزء المكشوف للهواء ، ثمّ برزتْ أجسادٌ نخرَ الدّودُ لحمَها ، وقفتْ بصعوبةٍ على أقدامها ، كان الطّين الرّماديّ ما زال طريًّا يسيل بعضه فوق وجوههم وصدورهم ، أزاح بعضُهم ما تعالقَ منه فوق عيونهم ليُبصِروا ، وفوق أفواههم لينطقوا . نبتتْ أجساد هؤلاء الموتى فجأة على جانبي الجيش ، وحفّتاه وسارتْ معه وهي تردّد : «أنتم فانون . . . أنتم فانون» . بدأ الصوت ضعيفًا ، ثمّ راح يعلو شيئًا فشيئًا ، حتّى تناغم مع خطوات الخيل وحَمْحَماتها ، كانت الكلمات تشقّ الفضاء : «أنتم فانون . . . أنتم فانون» . وفيما رحتُ أهتزّ من الرّعب لوقع النّشيد الملحميّ : «أنتم فانون . . . أنتم فانون» . راح القائد يطرب على الإيقاع ظانًّا أنّ الخيول قد دَخَلها من الزّهو ما دخله فصهلتْ بصوتٍ جماعيّ رهيب . تمنّيتُ لو أنّ القائد أو أحدًا من الجيش يرى

الموتى أو يسمع كلماتهم ، ولكنْ هيهات . بدت الحقائق جليّة واضحة ولكنّ المشكلة في ذلك العمى الّذي يستحوذ على الجميع . غاب آخر الجيش في طرف اللّوح ، وعاد الموتى إلى الطّين . ضمّني الأستاذ ليهدّئ رجفات ضلوعي ، وهمس في أذنيّ : لم ترَ شيئًا بعد . تبعاتُ المعرفة ليستْ هيّنة ، عليكَ أن تتهيّأ للّوحة القادمة .

ومضَ اللّوح قبل أن ينطق بمشهد جديد . ظهرتْ ثلاثةُ أسرّة متجاورة تفصل بينها أمتارٌ قليلةٌ . قال الموت كلمتَه في الأجساد الثلاثة المُمدّدة على تلك الأسرّة . كان الجثمان الأوّل لطفل عرفتُ من الأستاذ أنّه ابنُ مَلك . وكان الجثمان الثّاني لرجل . والثالث لامرأة . حُملَ الجثمان الأوّل بين يدي خادمة إلى القصر . في باحة القصر جلس الملك باكيًا ، قال للوزير الّذي يجلس عن يمينه : لماذا للموت كلّ هذه القسوة؟! لم ينبس الوزير بكلمة ؛ هزّ رأسه وظلّ صامتًا . في حلقة دائريّة امتدّ قطرها عشرات الأمتار تحلّق عددٌ من الوزراء والأمراء والأميرات والوصيفات والخدم حول الجُثمان الّذي وُضع في المنتصف على سرير من الحديد مُحاط بالحطب اليابس . تقدّم أحد الخدم وصبّ الزّيت على الحطب ، وابتعد بضع خطوات إلى الوراء قبل أن يرمي بشعلة من النّار في الجُثمان . بدأ جسد الملك يرتجّ من البكاء الصّامت ، كان يَشرَق بدموعه ويجففها مُعاجلاً كتمان صوته كي لا يفضح وقاره كَملك . قال الحطب للنّار : كتب الله عليّ أن أطيعك . قالت النّار : كتب الله عليّ أن أُطيعَ يدَ الإنسان . قال الحطب والنّار : ولكنّنا يا ربّ نبرأ إليكَ ممّا يفعلون . بعد دقائق كان الجثمان قد تجمّع في أسفل السّرير الحديديّ حُطامًا ورمادًا . جُمعَ الرّماد في قارورة شفّافة ، وذُهبَ بها إلى الملك الّذي كان لا يزال ينشج ، تقبّلها من يد الخادم ، قلّبها ثمّ

قبلها ، قال لزوجته : إذا متّ فأحرقيني مثلما أحرقتُ ابني وأضيفي رمادي إلى رماده ثمّ ارمي الزّجاجة في الماء لتبرد روحي . قالت الزّوجة : لا يحرق بالنّار إلاّ الرّبّ . قال الملك : وأنا الرّبّ . فردّتْ : الرّبّ مَنْ يُصرّفُ الموت لا مَنْ يُصرّفه الموت!!

عتمت اللّوحة ، قبل أن تُعيد المشهد إلى السّرير الثّاني . بدا الرّجل طُوالاً . جاء أحدهم بمنشار فنشر عظام صدره ، وجاء آخر مفتول العضلات فأبعد طرفي الجزء المنشور وتراجع إلى الخلف لصالح ثالث نزع أحشاءه بالكامل ، ثمّ أودعها في فخّارة عالية قبل أن يسكب عليها بعض السّوائل المتطايرة . جاء رابعٌ بإزميل دقيق الطّرف كأنّه رُمح ركزه في أنف الجثّة وطرق عليها لينفتح الأنف ، ثمّ جاء بآلة سحبت الدّماغ من الرّأس وأُلقِي الدّماغ على الأرض . قال الدّماغ لصاحبه وهو يهوي : لو زيّنْتني بالإيمان لما احتجتَ أن تُلقيني بهذا الهوان . جاء خامسٌ بخيش وأربطة وحشا التّجاويف ؛ الصّدر والرأس والأنف والعينين . جاء سادسٌ وطلا الجسد . ثمّ جاءت سابعة وزيّنت الجثمان بالألوان والخطوط ؛ بدا الجُثمان كأنّه حيّ . وُضعَ في تابوت على عربة مُذهّبة ، وانطلقت العربة بدواليبها على الأرصفة إلى بناء حلزونيّ يرتفع آلاف الأمتار ، ظلّت العربة الّتي يجرّها حصانان قويّان تصعد الممرّ الحلزوني بسرعة حتّى وصلتْ إلى البرج ذي المنارة المعدنيّة الّتي ارتكزتْ في أعلاها نجمةٌ لامعة . بدت النجمة تُشبه أخواتها اللّواتي أحطْنَ بها من كلّ جانب . سُجّي الجُثمان في المنارة الّتي انكشفتْ عنه في الجزء المعروض فيه . اقترب المشهد أكثر من الجثمان ؛ بدا كأنّه حيّ يكاد يقوم من تابوته ، نطقتْ عظام الصّدر : الحياة كلمة الله ؛ ومن هذه الضّلوع نُزعتْ هذه الكلمة . ردّت العين المُطفأة : لولا كلمة الله لأصاب

العمى كلّ عين من كلّ جهة . قالت العين الأخرى : الحقيقة ليست فيما يبدو لك ، إنّها تلك المستترة خلف ما ترى . قالت الجمجمة تخاطب الجثمان المُسجّى : «جسدُكَ النّاجي دلّ على أنّك متّ لا على أنّك قد عشت» . لوى الحانوتيّ عنان الحصانَين ، ونزل الطّريق الحلزونيّة مسرعًا عائدًا من حيث أتى وراح يلتفت خلفه بذعر كأنّ شبحًا يُطارده . في منتصف الطّريق ، قال أحد الحصانَين للآخر : «الصّعود إلى الذّروة مؤقّت ، كلّنا منذورون للنّهاية بطريقة أو بأخرى» .

ومَضَ اللّوح من جديد قبل أن يستعيد المشهدُ السّريرَ الثّالث ؛ كانت امرأة فائقة الجمال . قال لي الأستاذ : إنّها زوجة أخآب . لم أُعره كثيرًا من الانتباه كنتُ أريد أن أستلهم الحِكمة من هذا الجثمان أكثر من أن أعرف مَنْ هي أو من هو زوجُها .

جاء ممرّضان ، دفعا السّرير خارج المستشفى ، في السّاحة كانت هناك طائرة مروحيّة تنتظر وهي تزأر بانتظار شارة الانطلاق ، في ساحة المستشفى المملوءة بالخُضرة الدّالّة على الحياة من كلّ جهة ، اندفع الموت الكامن في جسد المرأة باتّجاه باب الطّائرة ، على الباب تعاون اثنان آخران على حَمْل السّرير إلى الداخل ، في لحظات كانت الطّائرة تُقلع باتّجاه كاتدرائيّة حديثة بُنيتْ على أطراف مدينة قديمة ، لم يبقَ منها إلاّ معابد بحجارة أسطوانيّة ترتفع عشرات الأمتار مزيّنة بالتّيجان المُزخرفة . استقبلهم الكاهن على الباب وتلا بعض الصّلوات قبل أن يُشير إلى المذبح الّذي سيجري فيه تجميد الجثّة . كان المذبح مُجهّزًا بأحدث الآلات الطّبّيّة الرّقميّة ، في زاوية المذبح جلس على كرسيّ بلّوريّ الزّوج الملك الّذي أقسم على أن يحتفظ بجثّة زوجته حتّى يراها كلّ يوم ؛ لأنّه لم يحتمل فكرة أن تفارقه أو أن توضع في جوف العَفن .

احتمع حول الجثمان طاقمٌ من عشرة أطبّاء مَهَرة . جهّز الرّئيس مسبارًا ليفحص درجة حرارة الجسم ، قال لمساعديه : أين هي أنابيب النيتروجين المُسال . حينَ صارتْ جاهزة دفع الجثمان باتّجاه أحد الأنابيب ، كان مؤشّر درجة الحرارة الرّقمي المُلصَق على الأنبوب من الخارج يُشير إلى ١٢٠ درجة تحت الصّفر . انقبض جسد المرأة الجميلة قبل أن يضغط رئيس الأطبّاء على لوحة رقميّة أخرى أزالت من الجُثمان بعضَ تقبّضاته . طلب الرّئيس من أحد المساعدين أن يُجري مسحًا للدّماغ ، برزتْ على يمين المذبح شاشةٌ جديدة أظهرتْ مُخّ الملكة ، كان عبارةً عن شبكة كهروكيميائيّة مكوّنة من ١٠٠ مليار خليّة عصبيّة و ٦٠ تريليون تشابُك عصبيّ . قالتْ يد الجرّاح الّتي تُظهر الرّقم : «وحده الرّب صنع هذه الشّبكة ؛ أنتَ لا يُمكن أن تصنع إلاّ الهُراء» . نفض يده كأنّه يريد أن يتخلّص ممّا شعر أنّه سمعه ، تساقطتْ من يده بعضُ الكلمات ، التصق بعضُها ببعض وشكّلتْ عبارة نورانيّة كلّ مَنْ رآها قرأها : «كلّ مَنْ عليها فان» . قال أحد المساعدين الّذي بدا شيءٌ من التّذمّر على وجهه : «من المستحيل أن نُعيدَ إلى هذه الشّبكة المعقّدة المُعطّلة عملَها مهما كانت التّكنولوجيا المستخدمة» . نَهَره رئيس الأطباء بعينَيْن صارمتَين بدتا من فوق الكمامة الزّرقاء الّتي تُغطّي نصف وجهه : «ولماذا نحن هنا؟!!» . ردّ عليه المساعدُ بأسف : «من أجل أن نقرّ بأنّ الموت والحياة بيده وحده» . نهره الرّئيس من جديد قائلاً : «إنّ تكنولوجيّا قادمة سوف يكون بإمكانها إعادة الشّبكة إلى الحياة» . أدار وجهه سائلاً أحد مساعديه القارّين خلفه : «منذ متى ماتت؟!» . «منذ ٢٠ دقيقة» أجاب . هزّ الرّئيس رأسه بأسى : «إذا توقّف القلبُ عن الخَفَقان فسوف تستنفد

١٠٠ مليار خليّة عصبيّة في المخّ الأكسجين المتبقّي في غضون ٢٠ ثانية ، ولكنّنا لن نستسلم» . «وما العمل؟!» سأله أحد مساعديه «سنضخّ الأكسجين إلى الدّماغ على مدار السّاعة بوصلات كهربائيّة شُعيريّة ، وسنجمّد الجثة بانتظار تقنية ستقدر على حلّ المعضلة من جهة ، وسيكون الملك قادرًا على رؤية زوجته المُجمّدة في اللّوح الزّجاجي من جهة أخرى» .

بدت الملكة داخل تابوتها الزّجاجي كأنّها نائمة ، هتف الزّجاج كأنّما يُبعد عن نفسه تهمةً بدتْ ملتصقةً به حدّ التّماهي : «إنّها ليستْ نائمة ؛ إنّها ميّتةٌ ، أنا لا أخدعُ أحدًا ، عيونهم هي الّتي تخدعهم» . هتف الهواء الّذي نقل الصّورة من داخل التّابوت : «ولا أنا . . . ولا أنا . . .!!!» بكتْ روحٌ صغيرةٌ حلّقتْ في الفضاء الّذي يحبسه الزجاج فوق الجُثمان : «لولا صدقُكما لما انكشف خداعُ الجسد لي . . . أوّاه من سؤال لا يُمكن الهرب من صدق إجابته يومَ اللّقاء الحاشد!!» . ألصقَ الملك خدّه على التّابوت الزّجاجيّ وحضنه وهو يبكي ، قالتْ دمعةٌ سقطتْ على خدّه : «الحياة ليستْ هنا ، إنّها في مكان آخر» . لم يسمعها . أردفتْ أخرى سقطت للتّوّ : «نُحْ على نفسك ، لم ينجُ من هذه السّبيل أحدٌ» .

(٣٣)
الرّحلةُ إلى الله تبدأ مِن هنا

هيأ الأستاذ لي بيتًا في العالَم الجديد . خيّرني ؛ فاخترتُ بيتَ الشّرَ لأنّه أقدر على أن يُلهمني الحِكمة على بيت الذّهب الّذي كنتُ أدرك أنّه يحجبُها .

قال لي : «بيتُكَ هذا لستَ بحاجة دائمة إليه ، إذا أردتَ السّكينة فالجأ إلى بيتِك الدّاخليّ ؛ قلبك . وإذا أردتَ الهدوء والتّأمّل فالجأ إلى روحك . ما فائدة قيام هذا البيت على أربع إنْ كان بيتُكَ الدّاخليّ مُهدّمًا خَرِبًا . أقم بينان روحك تقم لك الدُّنيا كلها منصاعةً أمامك . واحسرتاه على أولئك الّذين يبنون أجسادهم ويُخربون أرواحهم!! وفي النّهاية لن يبقى لكَ إلاّ مابنيتَ هناك . . . هناك في داخلك أيّها الفتى» .

تحرّك الشّوق من النّصف الإنسيّ في أعماقي ؛ تذكّرتُ أمّ سليم وسرحان وعلاّم والشّيخ الفاجر (عايد) وسرمد المسكين ومسعود . . . والآخرين . قال لي الأستاذ : عليكَ أن تتعلّم أكثر . سألتُه : ومتى سأرى زوبعة؟! قال : مَنْ أكثر السّؤال لم يأمن أن يُحرم الجواب ؛ أجبتُه ببيتٍ حفظتُه عن علاّم :

أَخْلِقْ بِذي الصّبر أن يحظى بحاجته
ومُدمِن القرع للأبــواب أن يَلِجا

على رأسِ تلّة مشرفة على تلال أخرى معزولة عن الخلق ذوي الأرواح يقع بيتي . أشبه ما يكون بصومعة ، كلّ النّجوم الّتي يُمكن للبشر أن يُخاطبوها تقع في مدى النّظر القريب لهذا البيت . ليس هنا من قبلة لأتّجه نحوها بصلاتي ما دام الله موجودًا في كلّ مكان ، ويتجلّى في كلّ ناحية .

قام على جذوع خشب من أشجار الخلد الهابطة مع الأب الأقدم من الجنّة ، أربعة أعمدة خشبيّة يبلغ طول كلٍّ منها ٨ أمتار وقُطر الواحد منها نصف متر ، على العمود الأوّل نُقشَ القرآن بحروف لا يُمكن أن تُمحى مهما تقادم الزّمن ، ومهما تغيّرتْ ظروف الطّبيعة وأحوالها ، وعلى الثّاني نُقشت التّوارة كما في الألواح ، وعلى الثّالث نُقش الإنجيل كما في التّعاليم ، وعلى الرّابع نُقشَ الزّبور كما في المزامير ؛ هل الكتب السّماويّة كانت موجودة قبل وجود أنبيائها!! كان البيت مكوّنًا من طابقين ؛ في كلّ أربعة أمتار طابقٌ ، يُصعد إلى الثّاني منه بدرج داخليّ حلزونيّ مصنوع من أعذاق نخلٍ متينة ، جُهّز الطّابق السُّفليّ منه لقضاء الشّتاء والعُلويّ لقضاء الصّيف . أمام البيت ساحةٌ ممتدّة ، على يمين الدّاخل من بابها ترتفع دكّة متحرّكة بنصف متر وبطول مترين أجلس عليها بعد الصّلوات وأحيانا أنام فوقها . وأحيانًا أخرى أدفعها أمام الباب إذا ما أردتُ أن أتعرّض للحكمة . في الطّابق العلويّ عشّش طائر من فصيلة الزّرزور الأبيض كان يوقظني لصلاة اللّيل ؛ عاش معي هنا أكثر من مئة عام لم يملّ في كلّ لياليها من أن يؤدّي مهمّته المُقدّسة . كان صوته لطيفًا ينادني باسمي فأستيقظ بسهولة ، في اللّيالي الّتي كان يصعب فيها عليّ الاستيقاظ كان ينزل من عُشّه في الأعالي ليصرخ باسمي في أذني مباشرة ، وأحيانًا يحكّ منقاره

طرف أنفي فأستيقظ بسرعة .

لا أدري كم كبرتُ هنا؟! بعض السّنوات يمرّ كلمح البصر أو هو أقرب ، وبعضُها يمرّ مرّ السّحاب . الأعمار ليس ما مرّ من زمن مقدور لكلّ مخلوق ؛ بل هي ما استبقيتَ من عمل صالح ليوم الفزَع الأكبر . والحياة داخل كبسولة ضيّقة بحجم رأس الإبرة تتشابه تمامًا مع تلك الّتي تُعاش في الفضاء الفسيح ذي البلايين من المجرّات والكواكب العملاقة ؛ ذلك لأنّ الصّانع واحدٌ وسرّ النّفخة في الرّوح واحدٌ كذلك .

تربّع بيتُ القشّ على الطّرف الأبعد من هذه القمّة الجبليّة الصخريّة الّتي تنبسط ساحتُها حوالي عشرين دونمًا . كانت قمّة بالمعنى الحقيقيّ إذْ كانتْ حوافّها تهوي إلى واد سحيق لا يعلم قراره إلاّ الله ؛ هذا إذا كان له قرار . على الجوانب الصّخريّة الهاوية نبتتْ بعض الأشجار بشكل مائل ، وانبجستْ على مبعدة من السّاحة عينُ ماء عذبة إلى الحدّ الّذي لم أكنْ أشكّ أنّ قطرةً من ماء الكوثر قد مُزجتْ بهذا النّبع فجعلتْه يبدو بهذا المذاق الخالد . جرى الماء من هناك ونفر من الشّقوق الصّخريّة الّتي تهوي إلى ما لا يعلم غيرُ الله .

هنا قال لي الأستاذ سيجري تهيئتُكَ لكي تكون قادرًا على قيادة الملاحم الكبرى عندما يحينُ الحين . قلتُ له : «ولهذا ستتركني وحيدًا؟!» . قال لي : «علّمتُكَ الأسماء ، وآن لله آن يعلّمك ما لم يصلْ علمي إليه . والتّجرّد أوّل أبواب العلم . وأيّ مكان أفضل من هذا يُمكن أن يُجرّدكَ من كلّ خبث قد يخالط روحك ، أو شائبة قد تَشُوبُ نفسَكَ . الشّيطان موجودٌ هنا وهنا - وأشار إلى رأسي وصدري ؛ وهذه الحال الّتي أنتَ فيها ستُعينك على صراعك معه ؛ والانتصار عليه مرهونٌ بتمحيص قلبك» . أجبتُه وأنا أصكّ على أسناني : «وهل

سيطول صراعي معه؟!» ردّ: «إنّه فيكَ فِيّ وفي كلّ حيّ، ولن يتركك أو يتركني حتّى ينفصل المخلوقان: الرّوح والجسد».

غادرني بالتّذرّي؛ تحلّل جسدهُ في لحظات خاطفة إلى ذرّات، أصدرَ دماغُه أوامرَه إلى جسده، فتذرّى الجسد؛ ذرّات ذرّات؛ مئات الملايين من هذه الذرّات تماهت وانفصلَ كلٌّ منها عَنِ الآخر، ثمّ خطفَ نفسه ودارتِ الذرّات في سرعة الضّوء مثل ذيل شهاب وغادرت المكان، وسقطَ خاتمه على الأرض تناولتُه وأغلقتُ عليه قبضةَ يدي، قلتُ وأنا أنظر إلى ما تبقّى من أثره في الفضاء: حينَ تعود سيكون بإمكانكَ استعادةُ خاتمك.

في ليالي التبتّل إلى الله، كانت الأنوار تُشرق داخل روحي، أحسّ بارتقاء الجسد وتخلّصه من نصفه الطّينيّ، وفي ليالي الصّوم الطّويلة كان يظهر قريناي. وُكّلَ بي قريِنان ليعيناني على الشّيطان الأكبر؛ كنتُ في مواجهة حقيقيّة مستمرّة معه، ولم تقتصر المواجهة على الإيحاء والوسوسة والإيهام والتّشكّل والخداع؛ بل كانت تحدث مواجهات جُثمانيّة، واشتباكات بالأسلحة. (راضي) قريني من الجنّ كان يُزيل خِداع البصر أمام عينيّ فيُريني الشيء الماثل أمامي على حقيقته لا على ما يوحي به الشّيطان إليّ. و(رضوان) قريني من الملائكة كان يعجن جسدي بالصّبر رغم العذابات، وكان يُريني النّعيم والجحيم بعينِ البصيرة، فتُعينني البصيرة تلك على احتمال الأهوال والمحن والشّدائد.

بمقدور الإنسان أن يخدم الله حتّى وإن لم يكنْ صاحب سرّ مُقدّس، وخدَمُ الله هم أولياؤه، فكيف بخادمٍ مثلي عنده سِرّان من جنّي مؤمن ومن مَلَك لا يعصي الله ما أمَره؟!!

لم أنتعلْ طَوال مكوثي هنا في قدمي شيئًا ، كانتْ لذّة التصاق باطن قدمي بالطّبيعة البِكر كما خلقها الله لا يساويه شيءٌ . مخلوقان بديعان يمتزجان معًا في لحظة عناق فائقة . قالت القدَم : «من هذا الثّرى خُلقنا» . قال الثّرى : «وإليه تعودين» . قلتُ لهما : «وسأؤدّي حقّ الله فيكما» .

اتّخذتُ لي رداءً قُرمزيًا قَضفاضًا ، يحلّ جسدي فيه طوال الوقت ، لم أغيّره في صيف ولا شتاء ، غير أنّي في اللّيالي الباردة كنتُ ألفّ على بطني بعض جريد النّخل لأقيه قساوة البرد الذّابح . ظلّ الرّداء القرمزيّ مُحافظًا على هيئته كلّ هذه السّنوات البشريّة ؛ لم يتغيّر ، ولم يَحُلْ لونه ، ولم يتمزّق منه شيءٌ ؛ إلاّ بعض أطرافه من الأسفل جرّاء الصّخور الّتي كانت تتشبّث به في مسيري الطّويل .

كانت هناك نعجة أقدم منّي في هذه التّلّة خدمتْ كذلك بعض النّورانيّين الّذين عاشوا هنا ثمّ مضوا ؛ لا أحد يخلدُ ؛ لا المكان ولا الرّوح الحالّة في المكان . حينَ تُونع التّلّة كانت تأتي باللّبن الصّافي ، وحين تُقفر كنّا ننشد الماءَ خوفَ الهلاك ، وعلى بعد بضعة أمتار من البيت سمقتْ إلى السّماء نخلةٌ كنتُ آكل من رُطَبها أو تمرها . وفي المواسم الّتي لم تكن النّخلة فيها تُثمر ولا النّعجة تدرّ الحليب كنتُ آكل من خَشاش الأرض ، بعضَ العشب ، وبعض الثّمر الشّوكيّ الّذي تجود به النّباتات النّامية على أطراف التّلّة ، وفي أحايين قليلة حين تسمو الرّوح سموّ النّور الأعظم الموجود في اللوح المحفوظ كان القرين الملائكيّ يأتيني بلحم الطّير المشويّ من جنان الخُلد .

غيرَ أنّ هذا لم يمنعني من الصّلوات الطّيّبات في سنوات الجدب ؛ إذ كنتُ أضرع إلى الله أن يُديم عليّ مطال الجوع حتى أعرفه أكثر ،

فكان ينقطع عنّي كلّ ما أقيم به أوَدي فأبقى دون طعام شهرًا أو شهرين لا يدخل جوفي إلاّ جُرُعاتٍ من الماء في ذلك النّبع المنبجس من الطّرف القصيّ .

في الرّبيع كنتُ أترك البيت لله ، وأنام في أي جزء من السّاحة الفسيحة على العشب الطّريّ ، كانت روائحه العطريّة تدخل من فتحتَي أنفي القريبتَين منه ، تتحسّسه ، تشمّه طويلاً ، قبل أن تذوب فيه ، وإذا كان النّدى قد بلّله أو المطر النّاعم قد تخلّله فسيكون بمقدور أنفي أن يشمّ عميقًا رائحة الطّين ؛ رائحة الطّين تذكّر الجسد الفاني بأصله .

امتدّ الينبوع مثل أفعى فضّية على الجهة القصيّة ، وحوله ظلّ بساط العشب أخضر ورطبًا معظم أوقات السّنة ، تتباين مغاطس الينبوع في عُمقها ، بعضُها لا يُغطّي السّاقين إن وقفتَ فيه ، وبعضها يصل أعلى من الرّأس . في النّهارات الحارّة في الصّيوف القائظة كنتُ أغطسُ في الجزء الأعمق لأستحمّ وأبترد ، وأغتسل من بعض الأدران الّتي تسبّبها بعض الحشرات ، ثمّ أعود لأرتدي الثّوب القرمزيّ الّذي رافقني كلّ هذه الفترة .

ليسَ هنا من شيءٍ مستتر ، كلّ جزء من هذه السّاحة مكشوفٌ على الله ، على السّماء ، وعلى الحقيقة الّتي لا يُمكن التّعامي عنها . الرّحلة إلى الله تبدأ من هنا ؛ الطّريق طويل طويلٌ ؛ لأنّه ليس هذا المقطوع من الجادّة أو من السّبيل التّرابيّ ؛ لا إنّه المقطوع في أعماق النّفس ؛ في رحلتها الأبديّة إلى لقاء الله ؛ إلى الخلود ، في سعيها الدّائم للتّخلّص من عذابات الجسد ، تلك العذابات الّتي يغرسها الشّيطان الأكبر فيه بالحسد أو الحقد أو الكِبر أو الغرور أو الكذب أو

النّفاق أو التّجرّؤ على الحُرُمات أو كلّ ما يُهلك النّفس دون أن تدري . أصعب الأدواء الّتي أتقن الشّيطان زرعها في النّفس البشريّة هي الغَفْلة ؛ الغفلة هي الّتي تقول لك : «إنّ الشّمس ما زالت في أوّل الضّحى» ، ولا تقول لك : «إنّ الليل يطلب الشّمس حثيثًا وإنّه سيرمي بسرباله الكثيف على عينيها عمّا قريب فتعشيان» . إنّ الغفلة هي الّتي تُريك النّهار الضّاحي ولا تُريك اللّيل البهيم ، تُريك الماء البارد ولا تُريك الحميم السّائل ، تريكَ الظّلّ الظّليل ولا تريك النّار المُحرِقة .

إنّما عوقبَ الأب الأقدم بالغفلة ، وجوزيَ بها الهبوط ، وحُرِمَ ما كان حريًا به أن يُبعده عن كلّ شقاء ونصب لولا أنّه . . . لولا أنّه غَفَل .

(٣٤)
إلامَ هذا العَناءُ يا سيدي؟!

لن تدرك أنّ الله أبدع كلّ هذا الجمال الّذي لا يُمكن تعريفه إلاّ إذا شهدتَ مجلسي ، أو وقفتَ موقفي . من هنا يتراءى للنّاظر كلّ ما هو ساحرٌ ومُدهِشٌ وبديع . جلستُ على حافّة صخرة مُسطّحة في ليلة بهيمة ، بعيدة الغور ، سحيقة الزّمن ، ورحتُ أراقب النّجوم ، بدا أنّها تريد أن تستعرض أمامي ، لتدلّني على حقيقة جديدة للسّحر . راحتْ نجمةٌ هي الأكبر من بين أخواتها تسير في مدارٍ دائريّ يضيق كلّما تقدّم الزّمن ، ظلّت تدور ويضيق مع كلّ مرّة قُطر المدار حتّى صارتْ في النّهاية تدور حول مركزها ثمّ استقرّ دورانها ، كان هذا الاستقرار إيذانًا لنجوم صغيرة بالظهور ، ثم بَدَأَتْ هي الأخرى استعراضها ، صفٌ من النّجومِ الصُّفر شكّل أوّل طبقة عالية ، لم تلبث أن ضاق مدارها من جديد ، ليسمح في مدى رؤيتي بدخول صفّ جديد من النّجوم الخُضر راح يدور فوق مدار النّجوم الصّفر وكلاهما يضيق مداره باتّجاه المركز حيثُ النّجمة الكُبرى ، ثمّ توالى صفٌّ ثالث من النّجوم الحمر ، وفعَلَ فِعلَ صاحبَيه السّابقَين ، ثمّ صفّ رابع ، وخامس . . و . . . توالت صفوف النّجوم وظلّت تُضيّق مداراتها مرّة بعد مرّة حتّى تداخلتْ جميعها في المدارات كلّها ، واختلطت الألوان كلّها فتشكّلتْ كتلةٌ إهليجيّةٌ كثيفةٌ من النّجوم ذات الألوان البديعة الممزوجة من كلّ لون

ممكن . . . واستمرّتْ في دورانها الّذي راح يُصدر صوتًا رتيبًا في سكون اللّيل المُطبق . . . لم يكنْ من صوت ليُسمَعَ حينها إلاّ لتلك النّجوم السّيّارة الّتي تكاثفت بالبلايين ، وهي تطرق في سيرها على الفراغ الحالّ أمامها في دورانها المُذهل فينتُجُ صوتٌ أشبه بالنّشيد الإلهيّ الكونيّ المُذهل : دُمْ . . . دُمْ . . . دُمْ . . . طَرَقاتٌ إثر طَرَقات . . . والكون كلّه يُصغي إلى هذا الإيقاع الأخّاذ . . . وبينَ طرقة وأخرى تحينُ لحظةُ صمت هي ثانيةٌ في الزّمن البشريّ أو أقلّ ، ولكنّها في مدى الجمال تُعيشُكَ آلافًا من الصّمت الجميل انتظارًا للحظة الإيقاع القادمة : دُمْ . . . دُمْ . . . دُمْ . . . هل الكون يُغنّي؟! أهذه النّجوم قلبٌ طروبٌ دعاها إلى أن تُنشد القطعة الموسيقيّة المُمكنةَ الأجمل؟! وأنا ؛ هل كان لي قلبُ طفل وأنا أصغي إلى هذه الأصوات الّتي تُلقي في الرّوع الهيبةَ والجلال ، وتذرّ في الرّوح السّحر والجمال؟!!

خشعتْ روحي لهذا النّشيد البديع ، وتمايلتُ على إيقاعاتها الكونية ، ودارتْ بي الأرض فترنّحتُ قبل أن أسجد على جبهتي أمام الخالق : يا ربُّ كُلِّ شيء أعطِني من كلِّ شيء ما يدلّني عليك . . . يا آخذًا بناصية كلِّ شيء حرِّرْ ناصيتي من يد الشّيطان الأكبر .

أمعن اللّيلُ في الظّلمة ، تابعتُ صلواتي ، قبل أن تدور الكواكب من جديد ، ويرتحل اللّيل طائعًا غير مُكره ، وترتحل معه الخَلَوات والتّأمّلات .

بعد عشر سنوات من اللّقاء بالله ، جاءني الأستاذ ليقطعَ عليّ خلوتي ، تشكّلَ بالتّدرّج في الهيئة البشريّة الّتي اعتدتُ أن أراه فيها ؛ بدا أنّه مهموم ، قال لي وهو مُطرق :

– الكوكب الّذي ذُلّل لنا ولكم في طريقه إلى النّهاية .

- تعني اقتراب السّاعة .
- لا ، إنّما أعني أنّه يُدمَّر على يدِ قاطنيه .
- وقاطنوه الّذين يُدمّرونه من الإنس أم من الجنّ؟!
- بل من الإنس بالدّرجة الأولى ؛ إنّهم أعدى أعدائه ، إنّهم يطعنونه بالسّكين وهم لا يُدركون أنّ السّكين أوّل ما تنفذُ ستنفذُ في رقابهم .
- وكيف ذلك؟!
- سأقول لك ذلك بلغة العلم الحديث ؛ هناك ٥٠٠ مليون جهاز كمبيوتر و٧٥٠ مليون هاتف محمول و ٣٠ مليار بطاريّة فاسدة تُرمَى كنفايات في باطن الأرض سنويًا . هذه النّفايات الإلكترونيّة تزداد سنةً بعد سنة ، وهي مخلّفات تراكميّة أصبحتْ تحتوي على ما هو أخطر من القنبلة النّوويّة في غُرَف البَشر أو الذّريّة بمئات المرّات ؛ إنّها تحتوي على الرّصاص والكروم والكادميوم والزّئبق والبولي فينيل كلوريد ، الّتي لها آثار سامّة وقاتلة ؛ فهي تتسبّب في السّرطانات الّتي لم يعرفها البشر من قبلُ ، وتتسبّب في تلف المخ ومرض الكلى إضافةً إلى التّشوّهات الخلقيّة ، وهي عبارة عن قنابل موقوتة قد تبدأ بالانفجار في درجاتِ حرارةٍ معيّنة بعد زمن قصير من التّفاعل ؛ ممّا قد يؤدّي إلى موت عشرات الآلاف من البشر يتزايدون عامًا بعد عام حتّى تقضي هذه المخلّفات على الملايين في المستقبل القريب .
كانت عيناي تتّسعان اندهاشًا ، وقلبي يتقبّض حسرةً على المآل البشريّ البائس . كنتُ أعرف أنّنا نحن الجنس البشريّ نملك السّم والتّرياق معًا ، وأنّه حتّى ننقذ كوكب الأرض من طمع أصحاب الشّركات الكُبرى يجب أن نقنع البشريّة أنّ حياة أجدادنا في الصّحراء أو في الرّيف كانت أكثر أمانًا وراحةً ممّا تعيشه البشريّة من تعاسة في المُدُن الكبرى . وأعرف أيضًا أنّنا - نحن البشر - كنّا من الحماقة

والاستشار بمكان لدرجة أنّنا ظنّنا أنّ الأرضَ لنا وحدنا ، ونسينا أنّه يُقاسمنا الحياة فوقها ملايين الأنواع الحيّة ، وما نحنُ إلاّ نوعٌ واحدٌ منها . . . وفي النّهاية نحن ندمّر المكان علينا وعلى جيراننا . . . وحدهم الجنّ الصّالحون وقفوا يراقبون الأمر من بعيد وهم لا يملكون يدًا في إيقاف هذه الانهيارات الرّوحيّة المتسارعة الّتي ستقضي على كلّ الأجناس الّتي تتشارك الحياة فوق هذا الكوكب!!

قضيتُ مع الأستاذ ليلةً في التّسبيح والصّلوات . درّبني يومها على أن أُصغي إلى أصوات كلّ الموجودات . كان كلّ جمادٍ وحجرٍ وشجرٍ يسبقنا في تسبيحه ، كانت لديه صلوات أفضل من صلواتنا نحن الثّقلين الإنسَ والجنّ ؛ كان أداؤه للصّلوات يفوق في خشوعه أداءنا ، وحينَ كنّا نختبئ - أحيانًا - خلفَ نيّاتنا وضمائرنا المستترة كان هو يفتح قلبه وروحه وصدره ويديه وكلّ ذرّة فيه لربّه الأعلى لكي يفوز بالرّضا من مولاه .

حينَ استلقينا في العراء استعدادًا للنّوم ، أشارَ إلى نجمة عالقة في السّديم :

- أتراها هُناك . . . الحياةُ الّتي تضجّ في جنباتها تفوق كلّ الحَيَوات الّتي رأيتَها أو عِشتَها في حياتك!!

- ما الّذي يُميّز حياةً عن حياة؟! (سألتُه)

- مدى معرفة مَنْ يحيا بالُمحيي . (أجابني) .

صمتَ الأستاذ ، وانتظمتْ دقّات قلبه ، فعرفتُ أنّه نام . تأمّلتُ وجهه الهادئ ، وغضون جبينه الموغلة في القدم ، و . . . ثقلتْ عيناي فنمتُ أنا أيضًا . جاءني في المنام هزّني من كتفي فاستيقظتُ ، تلفّتُّ إليه في مكانه فلم أجده ؛ كان حُلُمًا ؛ لا بُدّ أنّه كذلك . ولكنّ الأستاذ

ليس في منامه ، هل غادر إلى عالمه الخاص ، أجلتُ بصري في الأطراف المتناثرة للسّاحة هنا وهُناك ، فتراءى لي شبحُه عند طرف النهر قائمًا يرفع يديه إلى السماء متضرّعًا بالدعاء . جررتُ رجليّ ومشيتُ بتؤدة حتّى صرتُ قريبًا منه ؛ لم يُعرني انتباهه أو لعلّه لم يُحسّ بوجودي ، كانَ كتفه الّذي يظهر لي يرتجّ من النّشيج ؛ لا بدّ أنّه كان يبكي . . . اختلطتْ كلّ اللّغات في شفتيه وهو يناجي الرّبّ ، لا بُدّ أنّها تصل إلى خالق كلّ شيء بالمعنى إيّاه ، ظللتُ أراقبه مشدوهًا حتّى أنهى ، استدار نحوي ، وعلى ضوء بعض النّجوم القريبة الّتي أرسلتْ نورها وألقتْه على جانب وجهه ، بدا أنّه هرم ألفَ عام وأنّ التّعب الّذي خلقه الله قد حطّ كلّه على كاهليه ، سألتُه بصوت خافتٍ :

- إلامَ هذا العناء يا سيّدي؟!

- إلى يوم الدّين .

- وهل من راحة في هذا العناء السّرمديّ؟!

- الرّاحة هناك . . . الرّاحة هناك . . . (وأشار إلى الخلود) .

نفضَ يديه كمن تذكّر شيئًا ، واقتربَ منّي أكثر ، ووضعَ يده على كتفي ، وقال بصوت عميق :

- آنَ أنْ تتّخذ لكَ حواريّين .

- ولِمَ؟!

- من أجل أن تُنفّذَ مهمّتك الّتي دخلتَ عالَمنا من أجلها .

صمتُّ ، وأنا أفكّر فيما قال ، ثمّ تذرّى في لحظة فارقة ، قال وذرّاته تتبع هيولاه :

- سأظلّ آتيك كلّما رأيتُ أنّ هناكَ حاجةً للقائك . ولا تنسَ أنّكَ تستطيع أن تستحضرني متى شئت بمجرّد النّطق باسمي .

(٣٥)
لَقَدْ جِئْتُكَ مِنَ الصَّحراءِ،
فأنّى لي أن أعرِف؟!

من هنا ، من أطرف العشب الطّريّ ، وعلى ضفاف النّهر الجاري ، وتحت فَيْء النّخلة العالية ، وبين الأعمدة الأربعة نَبتُوا ، كما لو كانوا بذرات صالحةً في الثّرى سقطتْ عليها أمواه السّماوات فَنَموا . كما لو كانوا نجومًا مُعلّقةً بأهداب السّماء فتخلّتْ عنهم تلك السّماء لصالح الأرض فسقطوا هنا ثمرةً طيّبة من شجرةٍ سماويّة طيّبة . كما لو كانوا غمامات جاؤوا التّلّة في هجير الصّيف ورمضائه فأظلّوا كلّ ما حولهم ، وذرّوا الأُلفة في كلّ شيء .

كانوا اثني عشر حواريًا ، من الّذين تلقّوا العِلم على يد الأستاذ ، وهيّأهم ليكونوا عونًا لي على المهمّة الكُبرى الّتي جئتُ من أجلها . بنوا لأنفسهم في السّاحة الفسيحة اثني عشر بيتًا من القصب ، وحرصوا أن تكون نوافذهم تُطلّ على البيت الّذي أسكنه ليكونوا جاهزين آنَ طلبهم . أمِنَ الجنّ هم أم من الإنس ، أم فيهم من كلّ خَلْق نصيب؟! أم غلبَ أحد الخلقَين فيهم على الآخر؟! لم أكنْ أدري على وجه الدّقّة لكنّني أعرف أنّهم يُشبهونني في النّصفَين ، غير أنّ ما ميّزني عنهم هو سَعةُ العلم الّتي تلقّيتُها دونهم ، وعرفتُ وعرفوا أنّ العلم يرفع صاحبه درجاتٍ عند الله ، فإذا ارتفع تلك الدّرجات عنده فمَنْ يُحطّه عنها؟!

اثنا عشر حواريًا يعني اثني عشر فارسًا عتيدًا وقائدًا حصيفًا ومُقاتلاً صَليبًا . لا بُدّ أنّ المعركة القادمة لا تحتاج في البداية إلى جيش عرمرم أكثر من حاجتها إلى قادة قادرين على إدارة هذا الجيش اللّجِب . وكانوا مُطيعين لي كما هُيِّئوا أنْ يكونوا . اتّخذوا لأنفسهم رداءً أرجوانيًا غامقًا جعل الاثني عشر يبدون كما لو كانوا جسدًا واحدًا موزّعًا إلى اثني عشر عضوًا ، وبقيتُ أنا على ردائي القرمزيّ الّذي كان يُشعّ حين تسقط عليه أشعّة النّجوم حيثُ أقفُ في مركز الدّائرة الّتي يشكّلونها من حولي في اللّيالي القاتمة عندما كنتُ أعظُهم .

حينَ هبطَ علينا الأستاذ في ضُحى نهار ربيعيّ أصبحنا أربعةَ عشر مخلوقًا استثنائيًا . يومَها قال لنا : «لقد امتلكْتُم قوّة المعرفة فآن لكم أن تمتلكوا قوّة السّلاح» . وبدأتْ سنةٌ من التّدريب الشّاق على كلّ فنون القتال . قاتَلْنا بالسّيف وبالرّمح وبالخنجر والسّكين والعصا والقوس والنّشّاب وبكلّ أدوات القتال التّقليديّة ، ولم نقاتل بالمُسدّس ولا بالقنبلة ولا بالرّشّاش ولا بالطّائرة ولا بالصّاروخ ولا بأيّ من وسائل القتال الحديثة ، مع أنّ الجنّ كانوا يمتلكون ما هو أحدث وأكثر تطوّرًا ممّا يملكه الإنسُ يومها . بعد عشر ساعات من المبارزة بالسّيف مسحتُ عرقي عن جبيني وطلبتُ من الأستاذ هُدنة ، وقلتُ له :

- ألن نستخدم الصّواريخ العابرة للكواكب أو الحرب الإلكترونيّة ، أوالحرب الجرثوميّة؟!

- الصّواريخ العابرة للكواكب استخدمها الجنّ قبل ملايين السّنين أوّلَ ما خُلِقوا ، وبعد أن كثرتْ أعداد الجنّ واختلف قادتهم فيما بينهم استخدموا الحرب الإلكترونيّة وأفنَوا مليارات منهم في غضون أسابيع ، وأمّا الحرب الجرثوميّة فقد استُخدمت من أزمانٍ سحيقة وما زال بعضُ

المَرَدة من الجنّ يستخدمها إلى اليوم ويوحي ببعضها إلى كَفَرة الإنس، الحرب بالجرثومة هو هو عند الخلقين، ولكنّ الّذي يختلف هو اسم الجرثومة.

- ألهذا الحدّ سبقَ الجنُّ الإنسَ في هذه الاختراعات.

- لقد سبقوهم إلى الشرّ، كلّ هذه الوسائل أُعدّت لإفناء الآخر لا إلى مدّ يد السّلام إليه، فلئن كان من فضلٍ للجنّ في السّبق فهو ليس سبقًا إلاّ إلى سفك الدّماء وإزهاق الأرواح.

- فلماذا إذًا لا تدرّبنا على مثل هذه الأدوات؛ فإنّها إذا كانت في يد الخير استُخدمت لإفناء الشرّ ودَفْعه، وحماية الخير ورَفعه.

تنهّد الأستاذ طويلاً، قبل أن يبتعد ليصطفّ في محيط الحلقة الّتي ضمّتْنا جميعًا، موجّهًا إلينا كلماته:

- قولوا لي: ما هي أسرع طائرة استطاع البشر أن يخترعوها؟!

صمتْنا صمتَ القبور قبل أن أتبرّع بالجواب كون النّصف البشريّ ما زال حيويًا فيّ:

- بالنّسبة لي لم تُعلّمْني هذا الجزء من الحرب، ولقد جئتُك من الصّحراء، فأنّى لي أن أعرف.

ركزَ يديه على وسطه فتخصّر رداؤه الأبيض، وبرقتْ عيناه الزرقاوان الحادّتان قبل أن يقول:

- أسرعُ طائرة اخترعها العقل البشريّ القاصر لا تساوي واحدًا إلى مليون من سرعة أبطأ نجم. والقوّة النّارية المتدفّقة من فوّهة قنبلة صاروخيّة لا تساوي واحدًا إلى مليون من الكتلة الهيدرو-جنيّة المُنبعثة من الكواكب المُلتهبة. بل إنّ التّاريخ البشريّ الّذي أُهبطَ إلى الأرض منذ بدء الإنسان الأوّل إلى نهاية آخر بشريّ فوقها لا يساوي طرفة عين

من عمر الكون . . . وحين ينتفش صدر الإنسان بما وصل إليه من ألعاب بهلوانيّة تُدرك كم هو جاهلٌ وأحمقٌ وسيّئ الظّنّ بالله!!

ارتجّتْ أبداننا من هول الكلمة الأخيرة : (سيّئ الظّنّ بالله) ودعَونا الله جميعًا في سرّنا ألاّ نُسيء الظّنّ به وأن نعبده كما شاء .

اقتربْ يا (رضى) وأشار إليّ :

- لديّ من القوّة ما أستطيع به أن أحمل فوق ظهري صخرةً بقطر ٥ كم ، وأستطيع أن أذيبَ بين ذراعيّ كتلةً من الثّلج يبلغ وزنها ١٠٠ طن في أقلّ من دقيقة ، وبإمكاني أن أحصد غابةً من الأشجار تمتدّ ٥٠٠ فدّانًا في ثلاث دقائق ، ولدى أقراني وأسلافي وأجدادي من القوّة ما هو أكثر من ذلك بكثير ، ولكنّنا نعرف أنّ هذه القوّة عَرَضٌ ، وأنّ صاحبها الأجلّ يُمكن أن يسلبها بكلمة واحدة فلمْ نتكبّرْ ، ولم يَزِدْنا ما أعطانا إلاّ تذلّلاً له وخُضُوعًا لجلاله .

ثمّ صاح بنا جميعًا أوقدوا النّار هنا ، وتحلّقوا حولها ، سأقول لكم من قَبَس الحكمة ما علّمني الله :

- إنّ كلّ ما أعطي الإنسان اليوم من تقدّم تكنولوجيّ سوف يُسلَب منه ، وسيأكل بعضه بعضًا مثل هذه النّار ، ولقد قال هيراقليطس من أنّ حريقَ العالَم آتٍ لا محالة ، وإنّ الحريق سيُجدّد العالَم مرّةً بعد مرّة ، الطّوفان واحد ، ولكنّ الحريق كثير ، يعود في كلّ مرّة ليقضي على المجرمين ويُطهّر الأرض منهم ، ويقلبها مع الثّرى لتنبتَ مثل شجرة من تحت الرّماد بعد أن يسقيها الرّبّ . إنّ النّاس ستعود إلى الخيل والسّيف والرّمح . وإنّ التطوّر ليس تصاعديًا مع الزّمن ، فكم من حقبات مرّتْ على الجنّ أو على الإنس هي أكثر تطوّرًا ممّا نعيشه اليوم ، ولكنّه مضى وانتهتْ دورته ، وفي كلّ حقبة تبدأ دورة الحضارة

والتّطوّر من جـديد ، ولا مـانح أو مـانعَ سـواه . وإنّ أيّ تقـدّم علمي لا يغني عن روح الإنسان ، ولا يقبل الله منه إلاّ ما عَمِل وما ادّخر من حسنة .

تَلَونا الصّلوات في تلك اللّيلة معًا . وأنهينا آخر درس في القتال . وتذرّى الأستاذ ، سقط خاتمه في يدي ، وبقي الحواريّون حولي ورؤوسهم مُطرِقة ، صرفتُهم بإشارةٍ منّي إلى بيوتهم ليرتاحوا ، وأخبرتُهم أنّ المهمّة الصّعبة قد بدأتْ .

(٣٦)
عَدَدُ السِّنين في حِسابِ المَوْتِ واحِد

جاءني أحد الحواريّين في صبيحة اليوم التّالي، أخبرني أنّ لديه رسالة شفويّة من الأستاذ:

- الأستاذ يريد أن يُطلعك على شيءٍ لم تعرفْه.

- ماذا؟!

- أتدري كيفَ هلكَ قومُك؟!

- كنتُ صغيرًا حينها... لا أذكر إلاّ أنّني سمعتُ الهَيْجة يومَ العذاب. كلّ ما أعرفه هو ممّا قالتْه لي أمّ سليم من شذراتٍ عن أبي وأمّي.

- لديّ التّفسير الأدقّ؛ لقد شهِدَ الأستاذ وزوبعة ما حلّ بقومك من العذاب، كانا على مبعدةٍ من الأرض الّتي حلّ فيها السّخط، وكانا يراقبان ما يحدث ويتعجّبان من جرأة الإنسان على الله الّتي ألجأت المُنتقم أن يُنزل بهم ما أنزل!!

- أخبِرْني إذًا.

- لقد بعثَ الله نيزكًا من السّماء بقُطرِ ١٠ كم، كان النّيزك كتلةً مُلتهبةً مُتفجّرة تهوي بسرعة ٥٠ كم في الثّانية من السّماء باتّجاه صحراء (الدّهماء)، لكنّه لم يضرب الدّهماء مباشرة، بل ضرب أرضًا

خاليةً تسبقها بأكثر من ١٠٠ كم ، لحظةَ اصطدامه بالأرض غاصَ فيها حوالي ٢ كم ، وهو يُطلِق موادَّ متفجّرة تُعادل ٥ تريليونات طن متريّ من مادّة T . N . T ، بالطّبع كانت هذه المادّة كافية لأن تتبخّر بفعل حرارتها مدينة بأكملها تضمّ أكثر من ٥ ملايين ساكن ، ارتفعتْ قبّة من اللّهب فوق الصّحراء أكثر من ٥٠٠ متر ، وكان النّاظر لا يستطيع أن يُديم النّظر فيها لأنّها كانت ساطعة أكثر من سطوع الشّمس نفسها . الحرارة العالية نشّفتْ كلّ الماء الموجود في الأنهار والسّواقي والمزارع في غمضة عين . بيد أنّ النّيزك المُرعب في بداية الارتطام لم يحرق أحدًا لأنّه لم يضرب الدّهماء مباشرة ، الأنكى هو ما حدث بعد الاصطدام وهو يفوق الحريق ، كان هناك الصّوت الّذي نجم عن الانفجار وارتداداته ، استطاع هذا الصّوت لهوله وشدّة اصطخابه أن يمزّق صدور نصف سكّان الدّهماء وينقب قلوبهم لتسقط منخلعةً على الأرض!! وتناثرت الجسور ، وتطايرت الأحصنة مع عرباتها في الهواء ، وانخلعت الأشجار وسبحتْ في الهواء مثل أوراق يابسة في مجرى نهر . ليس هذا فحسب ؛ بل إنّ ارتطام النّيزك أخرج حجارةً من الأرض ارتقتْ من جديد إلى أعلى ارتفاع سمح به الارتداد ثمّ سقطتْ بقانون المقذوفات في حركة نصف دائريّة على بيوتات الدّهماء ومزارعها ، وأثناء هُويّها اشتعلتْ بفعل الاحتكاك مع الهواء السّاخن فأحدثتْ في المنطقة حرائق لا يُمكن السّيطرة عليها رفعتْ درجة الحرارة إلى الحدّ الّذي تنصهر فيه الحجارة . . . ولم ينجُ أحدٌ إلاّ من أراد الله أن يُنجّيه إمعانًا في تعذيبه بسبب شدّة ضلاله ، أو لحكمة ما . أبقى الله على عمّك الشّيخ (عايد) والقليل من أهل الدّهماء ، ولكنّه بعد سنين نسي ما نزل بالدّهماء من السّخط ، وعاد إلى ضلاله رغم أنّه رأى العذاب بعينيه .

- وأينَ أبي من كلّ هذا؟!

- إنّما حدث ما حدث لأنّ الشّيخ (عايد) تآمر على الصّالحين من أهل الدّهماء، وفي مقدّمتهم أبوك.

- وكيفَ هي حال (الدّهماء) اليوم؟!

- ربّما عليكَ أن تعرف بنفسكَ، إنّما لكلّ علمٍ حدّ. وأنا يقفُ علمي هنا.

تركتُ الحواريّين، وخلوتُ بنفسي في البيت عند أعمدة النّور الأربعة لأستحضر الأستاذ، كنتُ بحاجة شديدةٍ إلى استلهام الحكمة منه، فقد غامت الطّريق والدّروب، نطقتُ باسمه فتذرّى أمامي بهيئته المعتادة، أعطيتُه خاتمه الّذي أحتفظُ به في جيب ردائي. وسألتُه عن الخُطوة القادمة؛ أجابني أنّه تمّتْ لي وسائل الاستعداد لما هو آت. طلب منّي أن أوقد النّار في وسط السّاحة، ودعا الحواريّين من جديد، وألقى بيننا مواعظه الأخيرة:

- اليأس هو أن تقول لنفسك: «آن لي أن أموت»؛ إنْ لم تُدرك ماذا يُمكن أن يكون خلف الموت فإنّ الحياة الّتي تحياها ستشكّل موتًا فيزيائيًّا بالنّسبة لك، ولن تعني سوى العدم. نحن نحيا بمقدار ما نفكّر بالنّتيجة المرجوّة بعد الموت. عدد السّنين في حساب الموت واحد؛ اليوم كالأسبوع والأسبوع كالشّهر والشّهر كالسّنة والسّنة كمئات السّنين، والمئات كالآلاف، والآلاف كالملايين وكالبلايين.. و.. وما دامت النّتيجة واحدةً فسواء طال العدد أم قصر. تذكّروا أنّ الله قال ذلك لابن عمران»: ضَعْ يدكَ الشّريفة على العجل، واحظَ بعمرٍ آخر يساوي عدد ما تناثر من الشّعر تحتها. فقال ابن عمران: وإنْ عشتُها؟!

فقال الله : ستموت بعدها . فقال : الآن أريد . وأنتم عليكم أن تعملوا من أجل وجهه كأنّ ما تقومون به هو آخر عمل .

تنهّد طويلاً قبل أن يقول :

- هل من سؤال؟!

قاطعتُ استرساله الّذي جعل الرّؤوس تهوي على الصّدور من رهبة الموقف ، وقلتُ بنفاد صبر :

- متى سأرى زوبَعة؟!

- ما زالتْ فضيلة الصّبر لم تتمكّن من روحك ؛ نصفك الإنسيّ يمنعك من ذلك .

- إنّ بي توقًا عجيبًا للقائه .

- ستراه . . . ستراه . . . انتظر الإشارة عمّا قريب .

(٣٧)
زَمَنُ الله..
لا حدَّ ولا مُبتدأ ولا مُنتهى

توسّط البدر صفحةَ السّماء، كانت التّلّة أعلى منه، ظلّ يصعد حتّى صار نصفُه فوقها ونصفه الأخر تحتها؛ أين يشهق هذا البديع؟! وأيّ تلّة هذه الّتي تُطاوله في مثل هذا السّموق. أويتُ إلى البيت مُبكّرًا، قرأتُ المُلك عن العمود الّذي لم يتغيّر، وتدثّرتُ بغطاءٍ خفيف وتمدّدتُ على سرير القصب في الجزء الأعلى. مرّتْ نسماتُ هواءٍ عليلةٍ ملأتْ قلبي بالطُّمأنينة، ونمت وأنا ريّان من السّرور.

عندما توسّط البدر القبّة السّماويّة الّتي تضرب رداءها الكُحليّ فوق التّلّة، نزل الزّرزور الأبيض من عُشّه في الزّاوية الّتي ينتهي إليها العمود الرّابع المنقوش عليه المزامير. وقف قبالة وجهي، وناداني باسمي فلم أفِق. اقتربَ أكثر وقال لي: «إنّها ليلة الوَعد؛ قُمْ فإنّ اللّيل يغدر بالجائزة. الفوز بالأمنيات لا يُدركه الغافلون». استيقظتُ خفيفًا جذلان، نزلتُ إلى الجزء السّفلي وتوضّأتُ بماءٍ في الإبريق الّذي أركُنه في زاوية العمود الثّاني. نظرتُ من النّافذة الوحيدة المُطلّة على السّاحة؛ كانت النّار المُقدّسة تلتهب في الوسط وهي تُكافح أمواج الظّلام المُحيطة فتحيلُها هالاتٍ من النّور. وكان الحواريّون قد استيقظوا قبلي وتحلّقوا حول النّار. وعلى ضوء ألسنة النّار المتراقصة بدت وجوه

الحواريّين وهي تزداد ألقًا . أرسلتُ ردائي القرمزيّ على جسدي ، وعبرتُ باب البيت باتّجاهم ، ذرعتُ المسافة القليلة المتبقّية بخطوات سريعة ، وعندما سمعوا صوت خطواتي على الأرض أطرقوا برؤوسهم خشوعًا لمقدمي ، طفتُ بهم واحدًا واحدًا ، وضربتُ بيدي على كواهلهم ، وحين أتممتُ الدّائرة وقفتُ ورفعتُ يميني إلى السّماء :

- لا بدّ أنّها إشارة الأستاذ .

ظلّوا مُطرقين برؤوسهم ، وقد همْهموا بعضَ الهَمْهَمات الّتي تُشعِر برؤيتهم للإشارة مثلي . على ضفّة الينبوع كان هناك ثلاثة عشر حصانًا ؛ اثنا عشر بيضًا ، والثّالث عشر أسود أدهم يلمع جلده على ضوء القمر كأنّ شيئًا من الزّيت قد صُبّ عليه . تلونا الصّلوات الطّيّبات . وتقدّمتُهم نحو الأحصنة ، اعتليتُ الأدهم ، واعتلوا من بعدي البيض . كُنّا نعرف أنّ هذه الخيول المخلوقة لهذا اليوم تعرف طريقها دون أن ندلّها نحن عليه . همزنا بطونها بالمهامز وانطلقتْ هي تعدو مُسابقةً الرّيح . ركضتْ مع امتداد النّهر في المسافة المتبقّية ، كان النّهر يهوي كشلّال من قمّة التّلة باتّجاه الوادي الّذي لم نكنْ نعلم قرارًا له ، إذا كان الماء يهوي ليسقي ذلك الوادي فما الّذي يُمكن أن تفعله هذه الأحصنة بعدأن تقطع الأرض ولا يبقى أمامها إلاّ الفراغ؟! كنّا نعرف أنّها مُسيّرة وبالتّالي لم نقلق للحظة حول ما سيحدُث إذا أصبحنا في الفضاء . . . ركضتْ بسرعة أكبر وفَحَصتْ بحوافرها التّراب بشدّة أعلى قبل أن تنتهي المسافة الأرضيّة ، حتّى إذا لم يعد من الفضاء مهرب نبتتْ لها أجنحةٌ على الأطراف حملتْها وحملتْنا معها ، وصارتْ تسبح في ذلك الفضاء الرّهيب كأنّها سفينٌ يشقّ عباب الماء .

الزّمن هنا ليس زمن البشر ، ولا الجنّ ، ولا الملائكة ، ولا ما خُلِق

ممّا عرفْنا وممّا لم نعرف ؛ إنّه ببساطة زمن الله ؛ زمن الله الممتدّ كدهر والمنقبض كلحظة ، والمتداخل في العصور والأزمنة كلّها ، والقادم إليه مثل الماضي منه ؛ والباقي له مثل الذّاهب فيه ؛ لا حدّ ولا مُبتدأ ولا منتهى ؛ إنّه زمن اللّحظة المُعاشة والّتي لا يُدرك كنهها من الطّول والقصر والتّداخل والتّماهي إلاّ خالقها . وكنّا نحن نعيش زمن الله ذاك مع تلك الخيول السّابحات .

كيف صار الضّحى وقد كان اللّيل ، وما المسافة الزّمنيّة الّتي بينهما ، وهل العشيّة هي ما قضينا فوق خيولنا أم ضُحاها؟! ومَنْ سَبَقَ الآخر ، أهذه الضّحْوة الّتي نحن فيها كانت قبل تلك العشيّة أم بعدها؟! وهل الّذي سيتبع هذه الضّحوة مثلُ الّذي سبقها؟! أفكنّا في ضَحوة بين عشيّتين ، أم في عشيّة بين ضَحوتين؟! أيّها السّائل اللّجوج : دعكَ من هذه الأسئلة العقيمة ؛ فإنّها مثل السّاعة لا يعلم منتهاها غير الله ، وعِشْ لحظتكَ الّتي أنتَ فيها ، واقبس من نورها ما يضيء لكَ العتمات المُدلجات ، وانشُدْ من حكمتها ما يُعينكَ لكي تصل إلى الغاية الكُبرى الّتي أمّلْتَ أن تكونها ما عشتَ .

هبطت الخيول أرضًا مُخصبة . ثمّ عَدَتْ وقد تقلّصتْ أجنحتها إلى أن غابت في جوفها ، وظلّتْ تعدو إلى أن قطعتْ اليابسة كلّها الّتي في مرمى البصر ، ثمّ واجهها بحرٌ خضمّ ، فتوقّفتْ قبله وهي تُحمحم ، كان الأدهم الّذي أركبه قد شكّل رأس الطّير في مجموعة الخيول الثّلاث عشرة ، اصطفّتْ ستّةٌ منها عن يميني ومثلها عن شمالي ، حانتْ منّي التفاتة إلى الحواريّين ، كانتْ أرديتهم الأرجوانيّة قد توهّجتْ من الحركة الدّائبة السّريعة ، وقد ألقوا القلنسوة الّتي في أعلى الرّداء على رؤوسهم فغاب نصفُ الوجه الأيمن وظلّ ظاهرًا نصفه الأيسر ؛ تفحّصتُ أنصاف

الوجوه المُطرقة نصفًا نصفًا ؛ كانتْ صامتة لكنّها جذلى ، وكان أعذبُ ما في صمت النّصف الظّاهر نُطقُه بالخشوع البادي ؛ وأجمل ما في العيون المُطرقة إشعاعها بالتّرقّب الحَذِر للقادم الأجمل!!

شددتُ عِنان الأدهم ، رَفَعَ قائمتَيه الأماميّتين ، ودار نصف دورة قبل أن يخوض البحر ، وتُشاكله الخيول البيض من بعده فتخوض معه . كان هدير البحر عاليًا قبل أن تمسّه أقدام الخيول ، غير أنّ هذا الهدير تراجع لصالح صوت الأقدام والقوائم الّتي راحتْ تشقُّ أمواجه ومجموعَ مائه ؛ كان المدّ يهدر في مواجهة القوائم الماضية إلى هدفها كـأنّمـا تحاول أن تثني الخيـول عن هذا المضيّ وقـد راحتْ تزأر في مواجهته ، غير أنّ الخيول لم تعبأ ، واستمرّتْ قوائمها تغوص في الماء كلّما أخذتْها المسافة إلى الأمام ، ورغم أنّني أدرك أنّ هذه الخيول سوف تخرج من الطّرف الآخر سالمة إلاّ أنّ شيئًا من الخوف تسرّب إلى قلبي من أن نغرق دون أن نرى ، ونذوب دون أن نشاهد .

صار الماء يغطّي بطنَ الخيول الذّاهبات إلى مصائرهنّ ، ومَسَّ جُمع الماء الذّيول فرُحنَ يراقصنها في الهواء فيتناثر الرّذاذ على الوجوه فتبترد الأفئدة الواجفة ؛ لكأنّ الخيل كانت بهذا تُريد أن تزرع الطّمأنينة في صدورنا قبل أن تُباغتَها الرّجفة!! ومع استمرار الخيل في المضيّ صرنا نُميل أجسادنا على أعناقها ابتغاء مزيد من الطّمأنينة ، وراحتْ أطراف أرديتنا تغطس في الماء مع بطون الخيـل وتعـوم على الأطراف . . . ثمّ مضت الخيول غير عابئة ، فمسّ الماء أعناقها فرجفْنا ، ثمّ أعرافها فازداد رجيفُنا ، ثمّ رؤوسـها ، ثمّ لم يترك لعيونها مسـاحةً من نور الهواء فغطّاها ، ثمّ غطّى كلّ شيء ، وظلّ نصفُنا فوقها ظاهرًا ، ثم . . . مضتْ كأنّها ترى تحت الماء ، ثمّ سبحتْ حتّى وصلت الضّفّة الأخرى ، فارتفع

أوّل ما ارتفع منها أعناقُها ، ولمّا نجَوْنا إلى الطَّرف الآخر من البحر الهادر كنّا ما نزال نُمدِّد أجسادنا على أعناقها وقد مسّ البللُ نصفَ أرديتنا ، رفعنا جذوعنا نستطلع الضّفّة الّتي أوصلتْنا إليها الخيول فارتسم لنا ثلاثةُ أشباحٍ قائمة في ضحوة باهرة ، ولمّا اقتربْنا أكثر عرفْنا أنّ الأستاذ كان بانتظارنا ، ومعه قريناي راضي ورضوان .

نزلنا عن الخيول وربطناها إلى حلقات ذهبيّة في أعمدةٍ من الرّخام كانت قائمة على يميننا ، مَدَدْنا قلوبنا قبل أيْدينا مُسلِّمين ، وتعانقنا قبل أن نحيطَ جميعًا بالأستاذ ليلقي علينا مواعظه الّتي ستثبّت القلوب قبل المشهد الموعود . كنّا نقف على أوّل ساحةٍ من البلّور المرصوف ، وكانت المياه تجري من تحت أرجلنا ، كأنّنا نخوض فيها ولكنّ الحقيقة أنّ الرّصيف الزّجاجي الّذي يمتد امتداد البصر كان يحجز بيننا وبين تيّارات الماء المتلاطمة . قال الأستاذ وقد اتّقدتْ عيناه :

– دَعوا شياطينكم هنا وادخلوا خالين منها ، مَنْ ظلّ في نفسه من الشّيطان شيءٌ فلن يرى غير العمى . الشّيطان والنّور لا يجتمعان أبدًا .

– وكيفَ نتخلّص منه؟! (سألتُه)

– اقتلوه بالنّيّة أن تكونوا للبارىء الأعظم لا لكم . فله الأمر من قبلُ ومن بعدُ .

كان علينا أن نستصفي قلوبنا ونطهّرها من أن يكون فيها شيءٌ لسواه ، ثمّ نُكمل مسيرنا ، تخلّى الأستاذ عنّا حين أخلى الطّريق أمامنا ، وصار عليّ أن أقود الحواريّين إلى لقاء زوبعة . بَدَونا مثل نمل يمشي على بساط لا نهايةَ له . كُنّا أقلّ من أن نظنّ أنّ قوانا قادرةٌ على النّجاة من أن يبتلعنا البحر الهادر تحت أقدامنا في لحظة استيقاظ الشّيطان في قلوبنا ولو لبُرهةٍ خاطفة . كان وَقْعُ أقدامنا على الأرض

يتردّد صداه في جنبات الصّرح المُمرّد من قوارير ، وقد خفقتْ خلفنا أرديتنا القرمزيّة والأرجوانيّة في ساحة تمتدّ بلا انثناءات إلى ما لا يُمكن للبصر أن يُحيط به . مشينا في خطوات ثابتة منتظمة وفي إيقاع موسيقيّ رهيب شكّله ارتطام كعوب أحذيتنا على الزّجاج الصّلد . كانَ علينا أن نمشي ونظلّ نمشي دون أن ندري متى سينتهي هذا الدّرب ونفوزُ بالرّؤية . وكان علينا ألاّ ننشغل عن جلال الرّؤية بأيّ شيء آخر ، وإلاّ فقدْنا هيبتها وبهاءها .

عَبرْنا أعمدةً قائمةً من الرّخام ، وأخرى من البلّور ، وثالثة من المرجان ، ورابعة من الياقوت ، حتّى إذا شمختْ عن أيماننا وشمائلنا أعمدة النّور انفتحتْ القُبّة الفضيّة الهائلة على مبعدة قليلة من أقدامنا اللاهثة إلى اللّحظة الموعودة . كانتْ ذاتَ القُبّة الّتي رأيتُها أوّلَ مرّة ، أصدرت الأزيز إيّاه فخفتُ أن تنتصبَ أمامنا شاشةُ الزّجاج كما حدث سابقًا فنُحرَم رؤيته ؛ كانتْ حبّةُ الخوف هذه كفيلةً بالفعل أن تحرمنا ما عشنا زمنًا طويلاً من أجله ، غير أنّ الأستاذ تَدَرّى أمامي وهمس في أذني دون أن يراه أحدٌ من الحواريّين : «الخوف عدوّ اليقين ، إنْ لم تُعد بوصلة اليقين إلى قلبك فستضلّ الطّريق وستفقد الغاية» . هتفتُ به وقد تعثّرت بعضُ خطاي وخطا الحواريّين : «ساعدْني» . ردّ عليّ : « «قُلْ ساعدْنا ؛ فإنّ الأنانيّة غشاوةٌ على القلب ؛ تجرّدْ منكَ يا فتى ، أما زال نصفُكَ الإنسيّ يُرجفك ؛ اقتله الآن ، الآن من أجل هذه اللّحظة!!» .

استمرّ انكشاف القبّة النّصفيّة ، قرأتُ أوائل سورة الفتح فعلا صوتها بالتّرتيل وراحتْ تتراجع لتكشف ما في داخلها حتّى غاصتْ بأكملها خلفَ أختها . صرنا أمام العالَم المستور ، كان علينا أن نحبس أنفاسنا قبل أن تلتقطَ عيوننا المشهد المُذهل المرسومَ أمامنا .

(٣٨)
نَحنُ أرواحٌ خَفيفةٌ
تَحمِلُ أجساداً ثَقيلةً

هتفَ بي صوتُ الأستاذ : «لا تبرحْ مكانك مهما حدث ، ولا تتركْ النّار الّتي تشتعل في أعماقك تَحرقُ صبرك ، وانتظر حتّى يتجلّى لكَ السّيِّد» . تحمّلتُ بألمٍ شديد مرارة الصّبر قبل التّجلّي ، كادت كبدي تنفتّتُ في أعماقي وأنا أشدّ عليها لئلاّ تنفطر قبل أن أشهدَ المشهد ، أدرتُ هامتي لأرى الحواريّين خلفي فبدوا آيةً في الطّمأنينة والسّكينة ، هتفتُ في سرّي معاتبًا : أليس لكم قلوب أيّها الحواريّون؟ ألا تشعرون بما أشعر به من شدّة الألم في انتظار اللّقاء؟!» لم تُجبني ألسنتهم ، نابتْ عنهم عيونهم لتقول : «القلوب مواطن أسرار الإله ، أنْزِلْ سرَّ الله في قلبك يثْبُتْ قلبُك» .

تسمَّرْنا في أماكننا امتثالاً واحتسابًا ، قبل أن تنشقَّ الأرض ، ويتداعى الزّجاج ، ويرتجّ المكان بنا فنتمائل للسّقوط قبل أن نتفاداه ، ويتسرّب بعضٌ من الهلع من هول ما نرى إلى القلب ، فنُحكم إغلاقه باليقين لنصدّ طعنة الرّعب النّافذة . لم أكنْ أدري إنْ كنّا قادرين على تصنيف المخلوق الّذي برز من تحت الماء وشقّ القوارير ووقف مثلَ قَدَرٍ شاهق وعميق . ظلّتْ عيوننا مُعلّقةً به ، وأفواهنا لم تسحب الكلام أو الهواء إلى داخلها للحظات ، قبل أن نستجلي الحقيقة الرّائعة الشّاخصة

أمامنا . كان على هيئتنا ، غطّاه رداء أخضر ضافٍ ملأنا بميل القلوب إليه ، وكانت يبدو عليه أنّه - حسب التوصيف البشري - في العَقد الثالث من عمره ، عيناه صافيتان كنبع ، وعميقتان كفكرة ، فيهما سرُّ انجذاب ليس له تفسير ، وشعره الأقتر يُغطّي شحمة أذنيه ، ووجنتاه ناضجتان بدا فيهما غمّازتان ضاحكتان ، وكفّاه مبسوطتان كأنّما تهُمّان باحتضان كلّ مشتاق وموجوع ، ولحيته سوداء داكنة ناعمة استرسل في تَرْكها حتّى غطّتْ فتحة ردائه العُليا . وفمه يفترّ عن ابتسامة تكشف عن أسنان مرصوفة كحبّات لؤلؤ . كان يقف شامخًا كنخلة ، ومُتواضعًا كنبيٍّ ، وعزيزًا كملك ، وقويًا كفارس ، ورؤوفًا كأب ، ومُضيئًا كنجمة .

تحركتْ قدَماه باتّجاهنا ونور ابتسامته الثرّة ما زال يغمرنا ، فبَلَعْنا الكلمات الضّائعة ، والأنسام الموقوفة ، وعدّلنا وقْفتنا استعدادًا للقائه . . . ملأتْ ريحُه العَطرة جوارحنا ، تقدّم أكثر فازدادتْ مساحةُ الرّائحة في صدورنا ، ثمّ عانقناه كأنّه حواريٌّ منّا ، كان يعيشُ بيننا زمنًا طويلاً من الألفة والمودّة ، ثمّ غيّبتْه الأقدار ، وها هو يعود من جديد ، فتعود معه الحياة بكامل رونقها .

- أنا زَوْبعة ، وهذا قلبي لكم . (قال لنا) فثارتْ في أعماقنا زوابع . وركضتْ حَيَوات ، واستيقظتْ سَنَوات ضوئيّة من التّوق إلى كلّ شيء . ثمّ تابعَ :

- قبل أن تدخلوا إلى مملكتي يجب أنْ تدخلوا المملكة الّتي سنأوي إليها جميعًا في نهاية المطاف .

- أيَّ الممالك ستدخل فنحن برفقتكَ أيّها العظيم . (أجابه قلبي دون لساني) .

- سآخذكم إلى القبور لنتذكّر معًا أنّنا فانون ، وأنّنا مهما بلغنا من

العمر أو السّلطان فلا بُدّ أنّ هذه الحفر هي آخر ما يستقبلنا ، وأطول مَن يظلّ محتفظًا بنا من بعد أن نتحوّل إلى جيَف ، جيَف لو رفعها الله من تحت الثّرى وكشفَها لنا لأنِفْنا منها ، وننسى أنّنا هي أو كُنّاها من زمن ليس بالبعيد .

سار بنا إلى مملكة البقاء ، إلى مقبرة ضمّتْ كلّ جُثمان تتجسّد فيه آيةٌ من آيات الاعتبار . كأنّنا سمعناه يهمس في رئانا : « المقبرة أهمّ مكان يُمكن أن يوجد على سطح أيّ كوكب يحمل أيّ حياة . إذا كان بإمكان البشر أن يعيشوا مئة عام أو ألفًا أو ألفين في بيوتهم ، فإنّهم في هذه البيوت القارّة في الثّرى سيعّيشون ما تبقّى من عمر الكون مليون عام أو مليونين تزيد أو تنقص . إذا كانت البيوت الّتي تتحمّل حركتنا ستُفضي بنا في نهاية المطاف إلى هذه المقبرة ؛ فإنّ المقبرة هي الّتي ستُفضي بنا في نهاية المطاف إلى النّعيم المُقيم أو إلى الجحيم المُقيم . وإذا كان على بيوتات الدّنيا أن تتحمّل قذراتنا فإنّ بيوتات الآخرة تخلّصتْ منها إلى الأبد!!»

- وهل من سبيل إلى الخلود؟! (سألتُه)

- نحن نحيا ونتجدّد بأحلامنا فإذا تخلّينا عنها فقد سمحنا للموت أن يعبث بنا .

- وأينَ الخلود في ذلك؟! (سألتُه بأدب وأنا أخفضُ رأسي)

- الّذين يَحلُمون بالخلود هم الخالدون .

- تقصد . . .؟!

- مَنْ عَملَ ليوم الخلود في النّعيم فهو خالدٌ . إنّما نحن أرواحٌ خفيفة تحملُ أجسادًا ثقيلة ، فإنْ أفنيتَ ما خَبُثَ من جسدك في سبيل ما طَهُرَ من روحك أصابتْكَ نَفحةٌ من نَفَحات الخلود .

- والموتُ؟!

- ليسَ الموتُ إلاّ انحلالاً لما انضمّ من عَقْدٍ بين الرّوح والقشرة . الرّوح باقية والقشرة فانية ، وزمن التقائهما قصيرٌ قصيرٌ .

- والاسم؟!

- كان مع الرّوح قبل حلولها في قشرة الجسد ، كم من أسماء نُسيتْ بعد الموت ؛ لأنّ انفراط العقد أذهلَ المحلولَ عن الحالّ ، ويوم السّؤال الكبير يُنادَى على الرّوح باسم ما كانتْه في الدّنيا .

- ونحن؟!

- كلّنا من نفْس واحدة ، نصَفَ جُزءَك في الدّنيا ليبلُوَك ، وسوفَ يُعيدُه إلى كلّه في الآخرة ، فأحسنْ إلى جُزئك ليسلمَ لكَ كُلُّك ؛ إنّما نحنُ عَوارٍ مُستَرَدّة ليوم النّفخ في الصّور أو النّقْر في النّاقور .

- والحياة؟!

- شجرةٌ مُمتدّة ، بعضُ أوراقها ييبسُ فيسقطُ عنها أوّلاً ، وبعضها الآخر ييبس فيسقطُ عنها لاحقًا . . . والنّتيجة؟! كلّ الأوراق ستسقط في البداية أو في النّهاية لا فرق .

سرْنا بين القبور المحفوفة بالنّور والظّلام معًا . وقفَ (السّيّد) عند ناصية قبر ، جثا على رُكبتَيه فجثَونا معه ، قرأ الفاتحة فقرأنا خلفه . آمين . رفع يده من خلف ظهره وأشار لنا أن نجلس قُبالته . فعلْنا .

- «الخطيئة الّتي تُرتَكب بدافع الرّغبة أشدّ فظاعة من تلك الّتي تُرتَكب بدافع الغضب ، وأشدّ منهما تلك الّتي تُرتَكب بدافع الحسد . أمّا الإنس فارتكبوها بدافع الرّغبة فأهلكوا أنفسهم وذرّيّتهم من بعدهم ، وأمّا الجنّ فارتكبوها بدافع الغضب فأهلكوا مَنْ كان حيًّا حولَهم ، وأمّا إبليس فارتكبها بدافع الحسد فأهلك نفسه والإنس والجنّ

وذرّياتهم إلى يوم الدّين .

سألتُه ونحن نغادر المقبرة ونتبعه مثل طيورٍ مهاجرةٍ تتبعُ مقدّمة السِّرب :

- حدِّثْنا عنكَ أيها السّيّد؟!

(٣٩)
العَرَض إنْ كان في قلبكَ أهلَكَ

عُدْنا إلى خيولنا من جديد ، كان عددُها قد زادَ واحدًا ، ركبْناها وانطلقْنا خلف (زوبعة) إلى مملكته ، نصف القبّة ما يزال مفتوحًا ، كان الخيط الّذي يفصل المكان الّذي انزاحتْ منه قد وصلناه للتّوّ ، ودخلنا بذلك حيّز المملكة ، فجأةً ودون سابق إنذار نبتتْ قصورٌ على الأطرف ، وامتلأ المكان بالطّرقات ، وعجّ بالخَلْق ، ومضينا وهم يُحيّوننا من بعيد ، كانت تبدو كأنّها المدينة الفاضلة الّتي تحدّث عنها أفلاطون . كلّ واحد هنا يعرف دوره وواجبه ، وهناك رضىً يسود النّفوس ، وإيمان يملأ القلوب . لم يَسِرْ من الحرس أحدٌ معنا ، مع أنّ الخلق كانوا يعرفون أنّ الملك يجوب المدينة مع ضيوفه ، حتّى إنّهم لم يتفضّلوا إلاّ بالتّحيّة في بعض الأحيان .

ثمّ نبتَ درجٌ عرضيٌّ ، صعدناه على ظهر خيولنا ، ثمّ ساحةٌ ، ثمّ قصرٌ ، ثمّ بهو واسع . كان هذا قصر زوبعة . قال لنا وهو يُؤوينا إلى مناماتنا :

-- ارتاحوا اليوم ، كلّ حيّ يتعب إلاّ هو . غدًا نتحدّثُ إنْ طلع الغدُ .

كان علينا أنْ نبيت تلك اللّيلة في أسرّة مُذهّبة وفُرُش مرفوعة ، وعلى جوانبها نمارق مصفوفة . أَنِفَتْ نفسي من رَغَدِ العيش ، وداخلتْني

الوساوس ، وهممتُ بأن أخرج في اللحظة الّتي تذرّى فيها الأستاذ ليمنعني من ذلك ، وبدتْ هيولاه صافيةً كقطعة من النّور ، وقال :

- العَرَض إنْ كان في قلبك أهلكك ، فإنْ ظلّ خارجه فأنتَ من الهلاك في أمان .

- وكيفَ أعرف أنّ كلّ هذا العَرَض والبَهرج ليس في قلبي .

- امتحنْ أنتَ قلبك ؛ «بَلِ الإنْسانُ على نَفْسِهِ بَصيرَةٌ» .

- أخافُ أن أخدعَني!!

- الخوف ليس إلاّ ذاكرة سيّئة تأسّست على وهم مُتضخِّم ، واليقين ليس إلاّ شعلةً يومضُ بها القلب فيشرقُ هو ، أمّا هي فلا تَكُفُّ عن التوقُّد .

- وهل هذا الّذي أراه من ريشِ الدّنيا وَهْم؟!

- إنّما هو رِزقٌ فَصرِّفْه بما يُرضي عنكَ مَنْ أعطاهُ لك . أرأيتَ إلى امرأة فرعون كانت تعيش في البروج المشيّدة والقصور المُوطّدة فهل نالَ ذلك من قلبها ويقينها شيئًا؟!

ثمّ تذرّى . وأويتُ أنا إلى فراشي ، وما مسَّ لينُه من جانبي أكثرَ من جانبي .

في عتمة اللّيل ، استيقظتُ مع الحواريّين ، وأدّينا الصّلوات الطّيّبات والباقيات الصّالحات . وفي الصّباح مَثُلنا بين يدي زوّبعة على طعام هنيء . قال لي السّيّد وقد أجلسني إلى جواره ، ومدّ صَحفةَ طعام لآكل :

- ليس لكَ إلاّ ما قاتَ جسدك ، كلّ زائد وبالٌ عليه .

- في البيت الّذي عمرتُه فوق التّلة درّبني الأستاذ جيّدًا على الصّيام .

- لأنْ تصومَ دهركَ كلّه خيرٌ لكَ من أن تأكلَ فوق ما تحتاج . كلّ امتلاءٍ في البطنِ يعني خواءً في العقل .

صرفتُ الحديث باتّجاه آخر :

- لماذا أدخلتموني عالمَكم؟!

- ستعرف في الوقت المناسب . دعْني أُخبِرْكَ شيئًا : أنا مَنْ قرّر أن يأتي بكَ إلى هنا لمكانة أبيك عندي .

- وتعرفه؟!

- تمامًا ، كُنّا صديقَين ، لمئات من السّنين حينَ كان يغلبُ نصفُه الجنّيُّ نصفَه الإنسيّ . وكم عملنا معًا من أجل تخليص الأرواح الطّاهرة من الأجساد الخبيثة . قتالنا مع الشّياطين لا يُمكن أن ينتهي . يجب أن تورّث معنى العداوة لها إلى أبنائنا وإلى الأجيال الّتي تأتي من بعدنا .

- أريد أن أعرفَ عنكَ أكثر .

- ستعرف . . لكنْ تحلَّ بالصّبر ، ألم يعلّمْكَ الأستاذ هذه الفضيلة؟!

- بلى . ولكنّ الصّبرَ أوجعُ من البقاء في لاهبة الهجير عشرةً دون ماء .

- تعالَ سأريكَ ما لم ترَ من قبلُ .

قام ، وقمتُ معه ، وتبعنا الحواريّون كظلّنا ، وظلّ قريناي خافيَين إلاّ عليّ وعلى زوبعة . ركبْنا الخيول من جديد ، وشرّقنا في أراضي المملكة ، وعدَتْ بنا الخيول وهي تثير النّقْع من خلفنا حتّى وصلنا إلى سهلٍ فسيح يمتدّ امتداد الأفق . «هنا كان يُمكن أن تدور أرمجدّون ، إنّه

سهلٌ فسيحٌ يتّسع لكلّ جيوش العالَم ، وكلّ أنواع الأسلحة الّتي وصل إليها العقل البشريّ والعقل الجنّيّ . ولكنّ الرّبّ قرّر أن تدور في سواها» . قال لي السّيّد . ثمّ أشار بيده إلى الأفق : «أترى شيئًا؟!» «لا» أجبته . «حدّق النّظر قليلاً يا صديقي لن تحتاج إلى منظار إذا نظرتَ بعينِ اليقين» . ظللتُ مُحدّقًا في الفراغ كأبله ، ثمّ قال السّيّد : «لا بأس ؛ سنعدو بالخيل السّابحة إلى هناك» . نطق بعض الحروف فنبتتْ أجنحة الخيل ، وطارتْ بنا إلى حيثُ أراد السّيّد .

من خلفِ جدارٍ بلّوريّ يعلو إلى ما لا يُقدّر عُلّوه ، رأينا مَخلوقات أقربُ إلى المُسوخ ، قدْ نمتْ على رؤوسهم القرون ، يتهارَشون فيما بينهم بأظافر طويلة كأنّ جلودهم قد أصابها الجَرَب ، يعوون كالكلاب ويتراكضون بلا غاية ، ويخورون كالعجول حينَ يتعبون . ثمّ يتناولون الطّين والأوساخ والقاذورات فيملؤون بها أفواههم ويسفّونها سَفًّا . فإذا ما عَطشوا شربوا من أحواضٍ قَذِرة تسبح في قعرها الأفاعي والدّيدان . فإذا ما جاعوا وأتخمهم الطّين راحوا ينهشون أجسادهم أو أجساد المسوخ الأخرى ، ويخمشون وجوههم ، ثمّ يعضّون ما وصلتْ إليه أنيابُهم ، وينهشُ بعضُهم لحمَ بعض . لقد بدا أنّهم مسجونون هنا إلى أجل غير مُسمّى . قال زوبعة لنا : «أتدرون مَا قصّتهم؟!» . استحيَيْنا أن نسأل ، أو أن نجيب لأنّنا لا نعرف شيئًا ، وظللنا صامتين ، وأزهدنا منظرُهم في العيش خمسين عامًا ، وبدا أنّ في الحياة ما لا نرغب في أن نراه مع أنّه موجودٌ . ونما في داخل كلّ واحد منّا النّزوع إلى التّقشّف والانقطاع لله والتبتّل لعُلاه . وظلّ السّؤال معلّقًا لم يُجبنا عنه زوبعة . وسار بنا إلى مشهد جديد .

قطعنا صحارى تلتصق بالسّماء لامتداد الفراغ الّذي تحياه ، وفي

النقطة الّتي حسبنا فيها أنّها تهنا في هذه المساحات الشّاسعة من الرمال المتناثرة، أوقفنا (زوبعة). قال لي: «انظر من جديد ماذا ترى؟!». أجبتهُ وأنا أفركُ عينيّ: «لا شيء يا سيّدي». مسح بيديه على عينيّ، ثمّ قال لي: «انظر من جديد الآن». تراجعتُ بحركة سريعة إلى الخلف، وشهقتُ. قال لي: «اصدُق قلبَك لتصدُقَ عينُك». توالت موجة الرّعب في عبورها جسدي كلّه، وأنا أرتجف مثل رئة تُركتْ وحيدةً في صقيع الأعاصير. «حَدِّقْ من جديد أيُّها الفتى؛ ماذا ترى؟!» سألني بصوت عال وحادّ كمن نفد صبرُه على طول خوفي. أجبتُه: «أرى عرشًا كبيرًا على الماء قامتْ حوله الحيّات». قال: «صدقتَ ذلك عرشُ إبليس. وإنّه يُرسلُ أتباعه في كلّ يوم إلى كلّ زاوية من الأرض لتُضلّ النّاس، وتُفسدَ عليهم أعمالهم. وإنّه ليعمل دون أن يرتاح، وهو يدرك أنّه سيؤول إلى السّعير، غير أنّ حسده وحقده لا يجعلانه يهدأ حتّى يجرّ معه إلى الويل كلّ من استطاع من ذُرِّيّة مَنْ أُمِر بالسّجود له في الملكوت الأعلى». قلتُ: «وستتركه يعيث دون رادع سيّدي». أجابني: «إنّنا في صراع دائم معه، ولكنّ يوم الذّبح الأكبر لم يأتِ بعدُ، وسينقسم عالم الجنّ والإنس فيه إلى طائفتين». لَوَينا عنان الخيل الّتي نعلوها وعُدنا إلى ديار زوبعة.

اتّخذنا أماكننا حسبَ أعراف المملكة جلوسًا إلى المائدة المستديرة الّتي تُتّخذ فوقها قرارات الدّولة وتنظيمُ المعايش. أخذتُ أنا والحواريّون النّصف الأوّل منها، جلستُ في المركز وعن يميني ستّة وعن شمالي مثلهم. وبدا النّصف المقابل من المائدة المستديرة خاليًا إلاّ في المركز حيثُ كان يجلس زَوْبعة في مواجهتي تمامًا. كنّا بالمجموع المرئيّ أربعة عشر فارسًا عتيدًا، وعلى كتفيّ حطّتْ رُوحا قريناي.

- رضا . (هتف بي زوبعة) .

- سيّدي . (أجبتُه واقفًا) .

- أنتَ مَنِ اختـرناه لكي يُحقّ العـدل في الأرضِ الّتي مُلئتْ جورًا .

- سيّدي . . . هل أنا خليقٌ بهذه المهمّة؟!

- لقد استَصْفيناك مِن شَهَواتك ورغائبك وخَطَراتك لكي تكون خليقً بها .

- سيّدي . الأمرُ ما ترى .

- الخَلْق فريقان ، فريقٌ مع الخير والحقّ وفريقٌ مع الشّرّ والباطل ، والصّراع بينهما قبل وجود الجنس البشريّ وسيستمرّ إلى يوم الخلود . في هذه القاعة العالية وحدها شهودٌ لا حصرَ لهم يفتدون الحقّ بأرواحهم . ولكنّكم لا ترونهم ؛ إنّهم أدقّ من نسمات الهواء ، وأكثر من ذرّات الغُبار .

ضربَ زوبعة الجزء الّذي أمامه من الطاولة بباطن كفّه ، فأومضتْ في القاعة أنوارٌ خافتة ، سقطتْ على مدرّجات ممتدّة خلفه ، كان هناك المئات ممّن ظهروا بأردية بيضاء تعلوها قلنسوات لا تُبدي كامل الوجه . كان الضّوء يخفت كلّما امتدّت المسافة في المدرّجات العالية ، ممّا جعلني أعتقد أنّ هؤلاء ليسوا كلّ الموجودين في هذه الجهة ، وأنّهم فقط الجزء الّذي أراد زَوْبعة أن يُريه لنا . ضربَ مرّة أخرى على الجزء إيّاه فاختفوا تمامًا من المشهد وعتمت المسافة خلف السّيد . ثمّ نطق بكلمات مُبهَمات فأضاءت المساحة الّتي خلفنا ، أدرْنا أنظارنا أنا والحواريّون ، فبدا المشهد مثل الّذي رأيناه أمامنا!! هل كان هؤلاء هم أعضاء هذا البرلمان الجنّيّ ، أم كانوا حواريّي زوبعة ، أم هم الملوك الّذين

يحكمون مملكة الجنّ . لم يكنْ أحدُ منّا يدري ، ولم يشأ زَوْبعة كما فعل في مواقف سابِقة أن ندري .

- هل أنتَ مستعدٌ لتحمّل تبعات الأمانة كما فعل الإنسان الأوّل ، ولكن بحقّها؟! (سألني زوبعة) .

- أنا ومَنْ تبعني مع الحقّ ما دام في الروح شُعلة . (أجبتُه) .

- أتدري يا رضى ؛ لقد شهدتُ مشهدًا لو أنّ لي به كلّ ما خَلَق الله من عرَض ما قبلتُ .

- وأيّ مشهد سيّدي؟!

- أنا من جنّ نصّيبين ؛ وعائلتي من أشرافهم ، وأنا سيّدهم ، ونحن كنّا من النَفر الّذين سمعوا القرآن من فم النّبيّ الحبيب .

- أوَ رأيتَ النّبيّ محمّدًا؟!

- نعم ، وصدّقتُه ، وأنا رسولُه إلى الجنّ المُؤمنين ، أشهدُ بشهادته ، وأستنّ بسنّته .

(٤٠)
عَلَينا أنْ نَغفر زَلَّاتِ الآخَرين لِنَعيشَ عُمرًا أطْوَل

نهضْنا إذْ نهض . مشى مَشدودَ الجسد ، ثمّ التفتَ إلينا .
ستهبطون الأرضَ عند الفجر ، وسيُخبرك الأستاذ بما عليكَ فِعلهُ هناك .
أريحوا أجسادكم الآن .

قبيل الفجر أيقظني (زوبعة) بنفسه ، جلسنا على بلاط الأرض مُتربّعين ، قال وهو ينظر في عينيّ مباشرةً ، ويشدّ على يديّ : «لو أنّ كلّ شياطين الأرض اجتمعوا على أن يهزموا إرادة إنسانٍ واحدٍ ما استطاعوا ، سيستطيعون ذلك بسهولة حينَ يسمح الإنسيّ لهم بذلك . وتذكّرْ : مَنْ أراد أن يعيش عمرًا أطول فعليه أن يدرّب نفسه على غفران زلّات الآخرين ما استطاع» .

ودّعنا على أطراف المملكة ، وانفتح النّصف الفضّيّ من القبّة الهائلة أمامنا ، ثمّ أغلق من بعدنا على مَنْ خلفنا ، واختفت القبّة بكلّ ما فيها عن الأعين ، وظلّتْ مملكة زوبعة قائمة ولكنْ أيُّ عينٍ تراها . كانت الخيول الثلاثة عشر تنتظرنا على الحدّ الفاصل بين ما ترى العين البشريّة وما لا ترى . ركبتُها مع الحواريّين الاثني عشر ، وظلّ القرينان يُفضّلان أن يُحطّا كأنسام خفيفة على كتفيّ .

في الضّحى كنتُ قد وصلتُ إلى صحراءِ آبائي وأجدادي .

صرختُ أوّل ما رأيتُها : الدّهماء ؛ أيّها التّراب الحبيب . لكأنّ النّصف الإنسيّ حنّ إلى جذوره هنا . قصدتُ مع الحواريّين أوّل ما قصدتُ البيت العالي ، فلقد أوحى لي زوبعة : «إذا أردتَ أن تتخلّص من السّم فعليك أن تقتل الأفعى» . خبّتْ بنا الخيول عُرضَ الدّهماء ، كان ردائي القرمزيّ يخفق على جسدي مع هبّات الهواء وسرعة الأدهم ، ومثل هذا الخَفَقان المهيب كان لأردية الحواريّين الأرجوانيّ . كنتُ قد حسرتُ رأسي ، في حين حافظ الحواريّون على القلنسوات الّتي تعلو رؤوسهم . أردتُ أن يتعرّفني أهل بيتي من الإنس . في الطّريق عبرْنا الحواري والطُّرقات والدّروب ، وتبعَنا خَلقٌ كثيرٌ . هابوا ما رأونا فيه من قوّة ، ورأوا فيها الخلاص من العذاب الّذي عاشوا فيه كلّ حياتهم . لا عجَبَ أن أُسمّى عندهم من بعدُ : «المُخلّص» . مئات بل آلاف تبعتْنا في الطّريق إلى البيت العالي . رجالٌ بثياب ممزّقة ، ونساء يحملنَ أطفالهنّ العُراة على أذرعهنّ ، وشباب يحثّون الخُطا خلفنا وهم يهتفون : «خلّصْنا يا ربّ . . . يا ربّ خلّصْنا» . قصدتُ البيتَ العالي أوّل ما وصلتُ الدّهماء لأنهي الشّرور المتراكمة فوقه والمختبئة خلف جدرانه البغيضة . كم من الآثام ارتُكبتْ فيه ، وكم من الظُّلم والسّحر مُورسَ في جَنَباته . صرختُ بأعلى صوتي حين صرتُ على أبوابه :

– يا عايد . . . يا عايد . . . أيّها الفاجر ابرُزْ إليّ .

أطلّ من إحدى الشُّرُفات (مسعود) ، عرفتُه رغم السّنوات الطّويلة الّتي فصلتْ بيننا ، هتف كأنّه كان ينتظرنا :

– منْ هنا . . . من هنا . . . (ونزل الدّرجات ليُرحّب بنا) .

صعدتُ وحدي مع الحواريّين درجات طينيّة مُتباعدة حتّى وصلنا إلى مرتقاه ، كان شيخًا طاعنًا في السّنّ قد اجتمعتْ دواهي الحياة

وأخباثها كلّها في وجهه . جاهدَ لينظر من على كرسيّ عرشه البئيس إلينا ، رفع عينيه وحدّق بي :

- ابنُ أخي .

- عرفتني!!

- تحرّك الدّم في عروقي وهفا إليك ، لولا الدّم لأنكرتُ الهيئة .

صعدَ إلى صُدغي خَدَرٌ غريبٌ ، تذكرتُ يوم تلقّيتُ صفعةَ ابنه ، نما الانتقام في عروقي ، هتف في العروق نفسها الأستاذ دون أن أراه : «ليسَ لَكَ مِنَ الأَمْـرِ شَيْءٌ» «إنّمـا جـئـتَ لتُـحِقّ الحقّ للنّاس لا لنفسكَ» . تلاشى الخَدَر سريعًا .

- أيّها الشّيخ الفاجر .

- أتقول هذا عن عمّك؟!

- ليـس عمّي مَنْ قـتل واغـتصب وارتكب كلّ الموبقـات . ولقـد جئتُ لأخلّصكَ من شرورك ولأخلّص النّاس كلّهم منها .

- إنّما الشّرور باقيةٌ وأنتَ ستتخلّص ممّن حلّتْ فيه فحسب .

- الآن يتكلّم فيكَ نصفُكَ الجنّي .

- تلك كانت مصيبتنا أنا وأبوك ، وأنتَ وسَرْمد .

- لا . أنا كنتُ من نطفة حلال ، وسَرْمد كان من نطفة حرام .

- لقـد مضى المسكين ، ما لنا والموتى ، تعالَ لننشئ المملكة التي كان يحلُم بها أبوك . لقـد تُقتُ إليهـا أنا أيضًا ، ولكنّني لـم أجـد على الخير أعوانًا .

- أوتعرف الخير ، وأنتَ الشّرّ بذاته؟!

أركِعـوه في باحـة البـيت العـالي ونادِ بالنّاس ؛ (قلتُ ذلك لأحـد الحواريّين) . كانت الشّمس قد صعدتْ في دورتها حتّى انتصفت القبّة

السّماويّة ، تجمّع النّاس في المكان نفسه الّذي تجمّعوا فيه يوم وُلدت شروف . تقدّم كبيرُ الحواريّين (سامع) لينفّذ المهمّة المُقدّسة ؛ تخليصَ العالم من شرور هذا الأفّاك . هاج النّاس وتجمّع كلّ مَنْ في الدّهماء ليشهدوا ما كان كثيرٌ منهم يتمنّى أن يعيش لهذا اليوم لكي يشهدهُ ، في المكان إيّاه قبل عقود سحيقة كان هذا الشّيخ ذاته يجلس على سرير الملك ينتظر ولادة النّاقة المباركة . واليوم تكاد صَفْحة عُنُقه تطير تحت سيف العدالة . خطرتْ ببال الشّيخ (يبرين) من جديد ، تذكّرها يوم كان شابًا فتيًا ، وتذكّر السّاحة الّتي انفصل فيها رأسُ (مطروف) عن جسده لطمعه : هتف في نفسه : «ما أشبه اللّيلة بالبارحة» ، وأضاف : «طار رأس مطروف بالطّمع ، وسيطير رأسي بالرّغبة ؛ الرّغبة والطّمع كلاهما خليقٌ بإطارة الرّؤوس» . أشرتُ إلى الحواريّ أن يتراجع ، فأنا أولى بالدّم منه . . . فتقدّم (مسعود) وتناول السّيف من يد الحواريّ ، وقال : «أنا أقتله يا سيّدي» . التفتَ إليه الشّيخ بنظرة ازدراء : «أتريد قتلي يا ابن السّاقطة» . ارتجف السّيف في يده غضبًا ، وفار الدّم في عروقه : «أنتَ أجدر مَنْ أبدأ بقتله من النّاس يا فاجر» . أجابه بغيظ . «ربّما صرخات أمّك في اللّيل وهي تحتي هي الّتي تحثّك على هذا يا بائس» . ردّ عليه الشّيخ . رفعَ السّيف بكلتا يديه ، وبأعلى ما يستطيع وكاد يُنهي المشهد لولا هتافي به : «اتركه يا مسعود ؛ إنّه عمّي ولا أحد أحقّ بقتْله منّي» . اقتربتُ من الشّيخ الموثق فخار كالعجل ، قال وهو ينظر برعب من طرف عينه إلى لَمْعَة السّيف في يدي : «أتقتلُ عمّك؟!» . ارتجّ السّيف في يدي لكلمة «عمّك» . تراجعتُ إلى الوراء قليلًا . تابعَ : «لا يصيرُ الدّم ماءً ؛ نَسَلْنا أنا وأبوك منْ رَحم واحدة» . سقطَ السّيف من يدي ، وغبشتْ الرؤية أمام ناظريّ . كدتُ أتراجعُ عن

قتله بالفعل لولا أنّ الأستاذ تذرّى أمامي ، هتف دون أن يسمعه سواي : «العدل أولى بالدّم من قرابة الدّم» . أجبتُه : «لقد قال لي السّيّد : علينا أن نغفر زلاّت الآخرين لنعيش عمرًا أطول» . «وهل تؤمّل الحياةَ عندما تصفح عمّن أفنى حياته في سَلبِها من الآخرين ؛ أليسَ القصاصُ حياة؟!» . «وزلاّت الآخرين ؛ مَن يصفحها إن لم يكنْ نحن ، أليس العفوُ عند المقدرة؟!» رددتُ عليه . أجابني : «السّيد قال لك زلاّت ، ولم يقل لك خطايا وآثام لو مزجتْ بماء البحر لعاد أسود آسِنًا» . التقطتُ السّيف وتقدّمتُ من جديد ، رفعتُهُ ، وقبل أن أهوي به ، نطقتْ عينا الشّيخ من جديد : «لم أفعلْ ما فعلتُ إلاّ مُكرهًا» . أجبتُه بلسان الأستاذ : «لم تكنْ مُكرَهًا على شيء ، أنتَ اخترتَ كلّ تفاصيل حياتك» . وهويتُ بالسّيف لأقطع عنقه ، في منتصف الهُويّ ، تمثّلتْ آسيار على هيئة مرعبة ، بدتْ شيطانًا ناريًا مُفزعًا ، كان شعرُ رأسِها أفاعيَ تتراقصُ وهي تمدّ ألسنتها ذوات الشُّعَب تهمّ بالتقام يدي مع السّيف ، وعيناها جمرتَين حمراوَين تتطايران شررًا . . . خفتُ . . تراجعتُ إلى الوراء مرّة ثانية . . . النّصف الإنسي يعمل ، وآسيار بكامل قدراتها الجنّيّة على التّشكّل تفعل ما تفعل . آسيار إلى جانبك أيّها الشّيخ الآثم ، آسيار الّتي ذهبتْ بك في الشّرور كلّ مذهب وأوصلتْكَ إلى ما أوصلتْكَ اليوم إليه تقف إلى جانبك تدافع عنكَ . . . يا لَلعجب ، إنّها لا تُدافعُ عنك لذاتك ، فأنتَ أكره النّاس إلى قلبها ، ولكنّها تُدافع عن الشّرّ المخبوء في جنَباتكَ تريده أن يستمرّ لتبقى أداةً طيّعة في يدها لتصريف شيطانيّتها في البشريّة . فحّتِ الأفاعي فحيحًا مُتواصلاً أحسستُ أنّه كاد يمزّق بنُفاثه البارد لحمَ وجهي . أسقطتُ السّيف . وأوشكتُ أن أجثو على قدمي من فعل السّحر الّذي غزا

جسـدي كلّه فأوهنه لولا أنّ أبي تشكّل في هذه اللحظة بالذّات ، بدا شيخًا مهيبًا وقورًا ، كان يظهر ويختفي في مَوجتين مُتتابعين هادئتين . هتفتُ : «أبي» . وركضتُ نحوه أعتنقه ، فغاص جسـدي فيه ، كان طيفًا ولم يكنْ مادّة ، لكنّ صوته عاد من جديد ليقول : نعم ، أنا أبوك ، وهذا أخي . وأنا أطلب منكَ أن تقتله دون تردّد . أيّهما أصفحُ عنه إنْ كان يستحقّ الصّفح أكثر منّي؟! ولكنّني أنا الّذي أريدُكَ أن تفصل رأسه عن جسده الآن» . تدفّقتُ فيّ قوّة غريبة : «لبّيكَ يا أبي» . تناولتُ السّيف من الحواريّ القريب منّي ، وحفظتُ موضع عنقه ، ثمّ أغمضتُ عينيّ ، وبسرعة فائقة ضربتُ عنقه بالسّيف فتدحرج الرّأس وندّت منه صرخةٌ عالية ارتجّ لها الفضاء ، ومن خلف ظهره برزَ فجأةً غرابٌ أسودُ ، وخفق بجناحيه يريد التّحليقَ بعيدًا حينما عاجَله (سامع) ورماه بسهم ، فَخرّ الغراب وعفّر الأرض بالدّم لحظة ارتطامه ، وندّتْ عنه صرخةٌ أكثر رعبًا من صرخة سيّده . حينَها هاج النّاس وصاحوا مُبتهجين ؛ وتنفّسوا الصُّعَداء كأنّ صخرةً من الآثام وحقبةً من الظّلام قد انزاحتْ عن صدورهم .

(٤١)
هَلْ يَنامُ الجَسَدُ الطَّاهِرُ في الفِراشِ الآثِمِ؟!

استتبَّ الأمر في الدّهماء، عاد إليها العدل من جديد؛ هذا ما كان يعمل أبي من أجله. «لو أنّ أبي هنا أو ما زال حيًا. مَنْ يدري فلربّما لم يَذُق أهلها شيئًا من الأذى. إنّما رسّخ عمّي الظّالم حقيقةَ أنّ الإنسانَ عدوّ الإنسان». كان عليّ مع الحواريّين والقُرناء أن نُعيد ترتيب أمور الدّولة.

صدّقَ النّاسُ أنّنا خارقون، وأنّنا قادمون من السّماء، وأنّنا ما جئنا إلا لإحقاق الحقّ، فهفتْ إلينا قلوبٌ وأرواحٌ وأنفُس. وشايَعنا خَلْقٌ كثيرون، سمعوا بنا وجاؤوا من شتّى الأصقاع ليعيشوا في دولة «المُخلّص». ولم أكنْ أمشي إلاّ وحولي أناسٌ يكادون يتمسّحون بي وبردائي طلبًا للبركة، والتماسًا للسّعادة بعد عقود من التّعاسة والنّحْس، فعرفتُ حينها أنّه امتحانٌ جديد من جهتَين؛ أوّلاً للقلب بتخليصه ممّا يُداخله من الكِبْر بسبب ما يرى من اتّباع النّاس له. وثانيًا: بتخليص قلوب هؤلاء الأتباع من الجَهْل الغارقين فيه من إيمانهم بأنّ الخير والشّر في يدي. ولئن كان الامتحان صعبًا بلا شكّ في جهتَيه، لكنّه كان في جهته الأولى أصعب لأنّ الكبر أمكنُ من القلب في الأولى من الجهل في الثّانية، مع أنّ الكِبْر في الأولى سيصيب قلبَ رجلٍ واحدٍ هو أنا، وفي الثّانية يُصيب قلوب البشر

الّذين همّوا باتّخاذنا أنبياء، ولكنّني إذا تخلّيتُ عن الكِبر في الأولى كنتُ أقدر على تخلية قلوب النّاس من الجهل في الثّانية.

جاءني بعد فترة قصيرة سرحان واحميّد كانا قد هرما. استقبلتُهما بالأحضان، تعجّبوا أنّني ما زلتُ فتىً في العشرين من عمري، قلت لهما إنّني عشتُ في عالَم لا يعترف بمرور السّنين مثل اعتراف البشر بها. زاد ذلك من تعجّبهم وانبهارهم. لكنّ سرحان صديق الطّفولة قال لي: «لعلّكَ ابن رضى وليس رضى نفسه». أجبتُه: «تستطيع أن تتحقّق». فردّ عليّ: «كيف؟!». فأشرتُ إلى جبهتي. فشهق وتذكّر، ثمّ تقدّم إلى جبهتي حيثُ كانت سَقْطتي الأولى عليها حين شُجّتْ، قاربَ بين أصابعه وقاسها، ثمّ تراجع إلى الخلف وهو يضحك: «نعم إنّها هي ولكنّها زادتْ عن أمس إصبعًا». ضحكتُ وقلتُ له: «ها أنتَ تقول إنّه أمس. وبالفعل لم يمرّ على طفولتنا إلاّ يومٌ أو بعضُ يوم. أتدري يا سرحان، لقد عشتُ في العالَم الّذي ذهبتُ إليه مئات السّنين في حسابهم، وما تقدّمتُ في العمر إلاّ بضع سنوات قياسًا إلى عالَمكم؛ أليسَ هذا غريبًا». «بلى؛ غريبٌ جدًّا ولكن الحمدُ لله أنّك عدتَ لتخلّصنا من كلّ الضّنك الّذي أعاشنا فيه الشّيخ الهالك عابد». هتفتُ كمن تذكّر شيئًا: «آه صحيح؛ أين المُقرئ علاّم، لقد كان له فضلٌ عليّ، والله لا ينسى صحبة ساعة؟!». أجابني سرحان: «رحل من الدّهماء بعد اختفائك مباشرةً رافقناه أنا ومسعود، وعدنا من دونه، ولا ندري ما حدث معه بعد ذلك». سألته: «وأمّ سليم؛ الّتي آوتني وربّتني وحدبتْ عليّ وكانت أمّي في غياب أمّي؟!». «لقد ماتت». نزلتْ دمعةٌ حارّةٌ من عيني على خدّي، تذكّرتُ بعضَ أحاديثها عن أبي وأمّي. مسحتُ دمعتي. وأشرتُ لهم

جميعًا : «دلّوني على قبْرها» .

نمتُ في الغرفة الّتي كان ينام فيها الشّيخ (عايد) ، في هجعة النّوم العميقة ، صرتُ أسمع أصواتًا ، وتملأ أذنيّ وشوشات وهمهمات غير مفهومة . فأستيقظُ أحدّق في الظّلام فلا أرى شيئًا ، وأرهفُ الأذن فلا أسمع شيئًا . وأتحسّس السرير فلا أجد شيئًا ، ثمّ أعود إلى النّوم ، فأشعر أنّ جثّةً ضخمةً تربض على صدري فتضيّق أنفاسي ، وتقبض بيديها على عنقي تريدُ خنْقي ، فأستيقظُ فزعًا ، أستعيذُ بالله من الشّيطان ومن كلّ هامّة ولامّة . . . ثمّ أعود إلى النّوم من جديد ، فلا يطلع الصّباح كما أشتهي .

حدّثتُ نفسي في إحدى اللّيالي : «أينَ ينام الحواريّون؟!» . فجاءني منّي الجواب : «في بقيّة الغُرف الّتي كانت تنام فيها مَحظيّات الشّيخ» . وأينَ محظيّات الشّيخ اليوم؟! قَتلَ بعضَهنّ ورمى بعضهنّ الآخر في الطّرقات بلا مأوى أو طعام بعد أن هَرِمْنَ ولم يَعُدْنَ يُلبّين رغباته وفجوره . وحدها أمّ مسعود بقيتْ هنا لمكانة مسعود في نفس الشّيخ عايد . هل ينام الجسد الطّاهر في الفراش الآثم؟! وهل يشرب الفم النّديّ من الماء الآسن؟! لا بُدّ أنّنا أخطأنا أنا والحواريّون في المَبيت هنا .

في الصّباح ناديتُهم ، تحلّقوا حولي ، سألتُهم إنْ كانوا يجدون في مناماتهم أشياء غريبة تحدث معهم كما تحدث معي ، فحدّثوني عن فظائع وأهوال أكثر ممّا كنتُ أجد ، فقرّرتُ أن أهدم البيتَ دون إبطاء .

طلبتُ من الحواريّين ومن (مَسعود) أن يجتهدوا في القضاء على المبيت بكلّ ما يحتويه . أمّا الحظائر فقلتُ لهم اتركوها واجعلوها منامات الخيل ، إنّ إحدى هذه الحظائر كانت تضمّ أختي (شروف) ، تلك النّاقة الّتي أدخلتْني عوالم الجنّ ، وتحولّتْ إلى جنّي ذاب في

مجموعهم الكبير في دولتهم الممتدّة .

اصطففتُ أنا وخلقٌ كبيرٌ من النّاس تنظر إلى البيت العالي وأركانه تُقوّض . كان الحواريّون يأتون إلى أعمدته فينزعونها من أساسها كما ينزع الواحد شوكةً من يده ، فيخرّ السّقف على علوّه هاويًا إلى الأرض مُثيرًا حوله عمامةً رماديّةً من الغُبار . اقتضى الأمر بضع ساعات بمنظور الزّمن البشريّ لأنّ قوى خفيّة لم تتدخّل . وجاء دور مسعود وعُمّاله ليحملوا الأنقاض بعيدًا عن المكان . ظهرتْ فظائع جديدة كان الشّيخ الفاجر قد ارتكبها ، عند إزالة الأنقاض ظهرتْ جثث عشر نساء ويبدو أنّ (عابد) كان قد قتلهنّ ، وفي الطّرف الشّرقيّ من البيت انجلى الرّكام عن مقبرة جماعيّة برزتْ فيها آثارُ جُثثِ أمّهات وهُنّ يحملن أطفالهنّ بين أيديهنّ وقد تحوّلنَ مع الأطفال إلى هياكل عظميّة . كنتُ أتساءل : «يأمر الشّيخ بقتلهنّ هنّ وأطفالهنّ ، فمن يقوى على دفنهم بهذه الطّريقة البشعة ؛ أليسَ للبشر قلوب؟!» .

بعد يومين من النّوم في المكان في الأرض الخالية ، بنينا بيتًا متواضعًا لنا أنا والحواريّين .

جاءني الأستاذ ، تذرّى كعادته ، مددتُ يدي إلى جيب ردائي ، وتناولتُ الخاتم وألبستُه له ، قال لي :

– لا بُدّ أن تبني مَعبَدًا لهؤلاء النّاس ليكون أمانهم الرّوحي بعد أمانهم المادّي .

– نفعل ؛ ولكنْ أينَ المكان المناسب لذلك؟! (سألتُه) .

– في موضع الحجر الأسود . ألم يكن المُقرئ علاّم يعلّمكم فيه؟!

– بلى .

– فالله أولى أن يعلّمكم فيه .

خَصَصْتُ الحواريّين وحدهم بشرف البناء ، هنا في هذا المكان الّذي كنّا نجلس فيه على الأرض ومعنا الرُّقُم ونتلو خلف (علاّم) ما يقول . أينَ أنتَ يا علاّم لنتلو خلفكَ اليوم من جديد ما كنتَ تقول؟! كان الحجر الأسود ما زال في مكانه منذ ذلك الزّمن السّحيق . جوانبه الخشنة والملساء ما زالتْ كما هي ، هممتُ برفعه فلم أستطع ، حاولتُ مرّة أخرى فأخفقتُ من جديد ، حاولتُ أن أستخدم بعض القوى الجبّارة الخفيّة الّتي مُنحتُها فلم أنجح أيضًا ، لكأنّه رصاصٌ مصبوبٌ صبًا . جاءني كبيرُ الحواريّين قال لي : لن تستطيع كلّ قوى الإنس والجنّ مجتمعةً أن ترفعه إلاّ إذا قرأت عليه الآية ١٢٧ ثمّ تدعو بعدها الدّعاء إيّاه ، حينها سيُطيعكَ الحجر وسيكون رَفْعُه سهلاً . ولكن انتظر حتّى تُتمّ الأساسات . وسنجعله الزاوية الأولى للبناء على يمين موضع الباب منه . كان الحواريّون يعملون بدأب وإخلاص حتّى ارتفع من البناء بمقدار ارتفاع نصف الرّجل القائم ، وظلّ الحجر الأسود مكانه في الزاوية ، فجئته فقرأتُ عليه الآية إيّاها ودعوتُ الدّعاء فارتفع بخفّة بين يدي فوضعته على مستوى الجدار الّذي ارتفع ، كان ما تحته فراغ ولكنّه لم يسقط . ووقف في تلك الزّاوية دون أن يتأرجح أو يهوي كأنّ عمودًا من النّور تحته يسنده . اقترب منّي (سامع) وهمس في أذني : الملائكة هي التي بنتْ عمود النّور تحته . قبّلتُ الحجر ، ففعل الحواريّون مثلي ، ومن يومها صرنا نصلّي خارج البناء ذي الجدران الأربعة المنخفضة . وظلّ بابه مشرعًا ، ولم يجرؤ أحدٌ منّا أن يصلّي في الداخل . وعلمتُ أنّ الداخل هو موضع سجود الملائكة .

نبتَ النّاس على الأطراف . من أينَ يأتون والبلد لا طعامَ فيه وافرًا ، وكيف يتناسلون كلّ هذا التّناسل والرّزق فيه محدود!! ولماذا

يتسابقون إلى العيش هنا والوادي غيرُ ذي زرع!! كانتْ أرحام النّساء أخصب ما في الأمكنة ، تلد النّساء وتقذف من أرحامهنّ الذرّيّة عقب الذّريّة والأرض لا ينبتُ فيها إلاّ ما كان شوكيًا من النّبات ، ويابِسًا من الأوراق ، وغليظًا من السّيقان . كانت أرحام النّساء في تلك الفترة ولودًا ودودًا وكان رَحِم الأرض جَدْبًا عقيمًا!!

(٤٢)
أيها المغرور؛
أغرك اتباع الأغرار لك؟!

انحازت المدنيّة البشريّة إلى مملكتي، وعقدتْ معي حِلفًا وثيقًا؛ فأنا ما زلتُ «المُخلِّص» في نظرهم. قفزتْ هذه المدنيّة فوق عجلة الزّمن بتطوّرات مُتلاحقة، وبتقدّم تقنيّ مُتسارع. وفي اللحظة الّتي كان يُمكن أن تُشاهد طائرةً كالشّبح تخترق أجواء مدينةٍ ما، كان بإمكانك أن ترى مجاميع بشريّة هائلة تحتها تُعاني الجوع والفقر والتّشرّد والجفاف. إنّ روح البشريّة تنفلتُ من الإنسانيّة في طبيعتها الّتي خلقها الله في التّراحُم لصالح الضّياع الّذي أوجده إبليس في كذبة تُسمّى التّسارع التّكنولوجيّ!! إنّها الكذبة نفسُها الّتي أدّتْ إلى انهيار القيَم الرّوحيّة المُنجية في مقابل إعلاء المادّيّة البغيضة المُهلكة.

أشارَ الحواريّون عليّ بأنّه لا بُدّ من إجراء مُناورات عسكريّة من أجل تقوية الدّولة، والاستعداد ليوم المواجهة. لم أقتنع كثيرًا لأنّ السّيف سيعود بدلاً من الرّشاش كما قال لي الأستاذ في الأعالي، ولكنّ الأستاذ نفسه في تلك اللّحظة الّتي فكّرتُ فيها بهذا التّفكير تذرّى أمامي قبلَ أن أُتمّ خاطري ليقول لي: «إنّها معركة مرحليّة، ولا بُدّ أن تقاتل فيها بالسّلاح الّذي يُقاتل به البشر هذه الأيّام، تخيّلْ نفسكَ تحملُ سيفًا في مواجهة دبّابة فماذا يُمكن أن تكون النّتيجة؟!

فإنّ تحوّل الاقتران الجيبيّ للحضارة البشريّة وأنَ حَمْلُ السّيف فاحْمِلْهُ حينها . اليوم عليك أن تقاتل بآخر ما توصّل إليه العقل البشريّ بإيحاء من الأبالسة أنفسهم ومن الشّياطين ذواتهم . ألا تقولون أنتم العرب : لا يفلّ الحديد غير الحديد!!» .

كم هو عُمر سلاح الجوّ في البشريّة الحديثة؟! إنه لا يتجاوز عقودًا من السّنوات ، بعضُ هذه العقود كانت تمرّ مثل الأيّام في احتساب الزّمن عندَ الجنّ . نصفي الجنّيّ كان يُساعدني على أنْ شعر بخفّة الزّمن في اللحظة الّتي كان فيها نصفي الإنسي يُشعرني بثقل مرور هذا الزّمن ، ومن هنا كنتُ أستعجله ؛ ولربّما من هنا خُلِقَ الإنسانُ عَجولا!!

ذهبَ ستّة حواريّين ليشكّلوا قاعدةً عسكريّة في الصّحراء الواقعة بين الأردنّ والعراق ، أبقوا على أرديتهم الأرجوانيّة ، وجمعوا في طريقهم من النّاس كلّ من هو قادرٌ على القتال في تلك الصّحراء . كلّ جسد قويّ مَفتول العضلات طويل يحتمل الجوع والعطش أطول فترة ممكنة ، ومستعدّ للتّضحية بروحه في أيّة لحظة مقابل أجر ماديّ لعائلته ، ومقابل الرّاحة والأمن والعدل الّذي حَلُم به البشر منذ أن هبطوا هذه الأرض . في غضون شهر بمساعدة الجنّ كانوا قد بنَوا مطارات ضخمة تتّسع لخمسين ألف طائرة توزّعت ما بين المروحيّات بأنواعها والمُقاتلات بأنواعها ، وطائرات النّقل والشّحن بأنواعها . وكانت التّشكيلات العسكريّة تتكوّن من ألف فرقة ، في كلّ فرقة ألفُ دبّابة ، وعشرة آلاف جنديّ ما بين قادة ، ومُشاة مقاتلين ، وأطبّاء ، ومهندسين ، وخبراء عسكريّين ، ومُقاتلي شوارع ، وصحافيّين ، وعلماء نفس ، ومُرتزقة .

أمّا الحواريّون السّتّة الآخرون فقد بعثتُهم إلى الشّمال ، إلى بحر حيفا وعكّا ، ليُنشئوا القواعد البحريّة . التحق بهم عددٌ كبيرٌ من المقاتلين الأشدّاء ، بعضهم كان من نَسْلنا الّذي فيه شُواظٌ جنّيّ ، وأكثرهم من البشر الّذين آمنوا بنا إيمانًا مُطلقًا . استطاعوا بإرادة حديديّة أن يبنوا مطارًا عسكريًا على السّاحل يكون انطلاقًا للهجمات في الاتّجاه الغربيّ إلى أقصى مدى مُمكن ، كان بإمكان الطّائرات أن تُقلع من مطار عكّا قاطعةً البحر الأبيض المتوسّط دون توقّف ودون أن تتزوّد بالوقود ، وبسرعة تفوق سرعة الصّوت بعشرة أضعاف . وكنتُ أعتقد أنّنا يُمكن أن نطوّرها إلى ما هو أسرع من ذلك . وفي البحر كانت هناك مئات الغوّاصات تجوب السّواحل غربًا باتّجاه شواطئ أوروبّا . وسُفُن حربيّة مجهّزة بحاملات طائرات مهمّتها إسناد الطّائرات المُنطلقة من المطارات البرّيّة . تتكوّن القوّة البحريّة من عشرة أساطيل ، كلّ أسطول يضمّ مئة قطعة بحريّة بين سفينة وغوّاصة وقارب . وعلى متن كل أسطول عشرة آلاف مقاتل عتيد من جنود البحريّة .

كلّ هذه القوّات في البرّ أو في الجوّ أو البحر كانت مرتبطة ارتباطًا مباشرًا بالقادة الاثني عشر من الحواريّين ، وجميعهم مرتبطٌ بي كوني القائد الأعلى لجميع القوّات . بالطّبع استخدم الحواريّون كلّ مهاراتهم من القدرات الفائقة والغامضة في صالح الجيش العظيم ، فكان من المُمكن أن تجد سفينةً في عُرض البحر خاليةً من أيّ مخلوق ، ويُمكن أن يصعد على متنها الأعداء مُستبشرين بأنّهم غنموها ، ولكنّهم لا يعلمون أنّ مَنْ فيها هم من الجنّ المتخفّين وغير المتشكّلين على هيئات البشر ، وحالما يصعد إليها العدوّ بكامل غطرسته ، يتمّ القضاء عليهم وقنصُهم واحدًا تلو الآخر دون أن يدري أيٌّ منهم من أين يأتيه الموت . كان هذا أسلوبًا

اتّبعناه في فترة القتال الأولى وقد ألقى الذُّعر في قلوب الأعداء حين شاع بينهم أنّهم لا يقاتلون عدوًّا ظاهرًا ، وإنّما يُقاتلون أشباحًا .

وكان من الطّبيعيّ بناءً على هذه الاستراتيجيّة أن تجد قواعد جويّة في الصّحراء مهجورة في عين من نظر بقُدرة الإنس على النّظر . كان يُمكن أن تكون هناك مئات من الطّائرات رابضة في أماكنها تهبّ عليها سوافي الصّحراء ولا تسمع إلاّ صفير الهواء يلعب بين أجنحتها فيبدأ التّوجّس يتنامى في قلوب الّذين يقتربون منها ، وحينها كنّا نطلب من بعض نَسْل الجنّ أن يزيد المشهد خوفًا بإطلاق مزيد من صفير الهواء . وفي حالات أخرى كان بإمكاننا أن نخفي الطّائرات بأكملها عن عيون العدوّ وهي في أماكنها لم تفارقْها أبدًا . ذلك أنّنا كنّا نحيطها بموجات كهرومغناطيسيّة شديدة الاستقطاب تجعل من مادّة الطّائرة هواءً فلا تبدو للنّاظر إليها . هذا فضلاً عن أنّ التّشويش الّذي كنّا نفتعله بحركة الجنّ السّريعة حول القواعد العسكريّة كان يُفسد أيّ عمليّة رَصْد راداريّة من قبَل العدوّ . باختصار كنّا جيشًا مَهولاً لكنّه غير مرئيّ ، موجودًا حقيقةً ولكنّه غير منظور عينًا . وأفضل الضّربات حين يكون العدوّ مكشوفًا أمامك وأنتَ مستترٌ عنه ، فتبدأ تلهو به كما تشاء وتضربه في اللّحظة الّتي تشاء ، وهو يظنّ أنّه يقاتل الجنّ والشّياطين وقلبُه يقفز بين ضلوعه رعبًا وهلعًا .

مَنْ سأُقاتل ؛ بعد أن صار لديّ هذا الجيش الجبّار؟! مَنْ بإمكانه أن يتصدّى لقتال آلة عسكريّة رهيبة تسحق كلّ مَنْ يقف في طريقها؟! قلتُ في نفسي : «بعد سنوات قليلة سوف أبسطُ سيطرتي على كوكب الأرض بأكمله ، وسأكون ملكَ الملوك حينها» . لم يكد الخاطر ينتهي حتّى أيقظتْني من أحلامي التّوسّعية صيحةٌ غيرُ معهودة ، تذرّى

الأستاذ وقال بصوت فيه عتابٌ وغضب : « أيّها المغرور ؛ أغرّك اتبّاع الأغرار لك؟! لماذا كلّ هذه الغطرسة من الإنسان وما كوكبه إلاّ ذرّة تائهةٌ في السّديم ، غير محميّة أن يهبط عليها أصغر نجم فيُحرقها بما فيها من طائرات وصواريخ ودبّابات ومقاتلين في لحة عين لتُصبح كومةً من الرّماد ثمّ تذروه الرّيح فلا يعود شيئًا؟! أوَتأمنُ أيّها الجاهل أن تنحرف الأرضُ عن مسارها فتقع في البحر الفضائيّ المُطلق فتضيع كإبرةٍ في حقل من القشّ؟! ثمّ يختلّ قانون الجاذبيّة فيها فيصبح النّاس مثل الجبال الرّفيعة إذا زادت سرعتها ، أو مثل حبّات الفول إذا قلّتْ سرعتها!! ما الّذي يضمن للبشر أن يبقى كوكبهم المنسيّ في أمان؟!! أيّها الجاهل المُنتفش ؛ ما أسهل ما ينتهي كوكبُكَ الّذي تريد السّيطرة عليه بمركبة يكون حجمها بضعة أضعاف حجمه فينتهي هو ومَنْ عليه بلحظة اصطدام واحدة ، ألا توجد في الفضاء مركبات تكون بهذا الحجم؟! بل وأضعاف أضعاف هذا الحجم . ما أسهلَ أنْ تندكَّ الأرضُ في لحظة خاطفة ، أو تتبخّر في ثانية عابرة ؛ إنّ الشّمس إذا هزّتْ أعطافها قليلاً ، مجرّد بضعة سنتيمترات فسترتفع درجة حرارة الأرض كلّها إلى ما لا يُمكن لعقل بشريّ أن يتخيّله ؛ وحينها سيتبخّر كلّ شيء ؛ الشّجر والحجر والبَشَر والوَبَر والمَدَر . .!! وأنتَ تجلس الآن لتقول سأصبح ملكَ الملوك ؛ ألا إنّه لَقَبُ الله فمنْ نازعَه فيه قُصم ؛ لقد كنتَ طفلاً مُهمَلاً يتيمًا أشجَّ ، فأعطاكَ الله «وعلّمك ما لم تكنْ تعلم وكان فضل الله عليكَ عظيمًا» .

جثوتُ على ركبتيّ دون أن أنظر إليه خجلاً ، ورفعتُ يديّ إلى السّماء وهتفتُ : «ربِّ إنّي ظلمتُ نفسي فاغفر لي وإلا تغفر لي وترحمْني أكنْ من الخاسرين» .

(٤٣)
الخَبَثُ فيكَ أو حولكَ.
تخلّصْ منه يَعُدْ إليكَ الخيرُ والأمْن

عَمَّرْنا الأرضَ أكثرَ ممّا عمرها مَنْ عاشَ قبلَنا، ملايين نسلتْ من ظهر ملايين أخرى، وامتلأت الصّحارى بالعطاش، والسّهول بالجوعى، والشّواطئ بالهلكى. وبدا أنّ قدرة البشر على تحلية مياه البحر للسّقي والشّرب لا تكفي كلّ هؤلاء الّذين ينتظرون رحمة الله في زمن الجدب والقحط. ينتظرون انهلال السّماء بالمطر، وانبثاق الأرض بالشّجر.

يُمكنكَ أن تصدّ عدوًّا ظاهرًا أو محتملاً، ويمكنك أن تقاتل جيشًا جرّارًا من الأعداء بإرادتك وبالقوّة العسكريّة الّتي تملكها، لكنْ كيف السّبيل إلى مقاتلة الظّواهر الكونيّة الكُبرى؟! مَنْ يملك القوّة لكي يتصدّى مثلاً للرّيح الّتي يرسلها الله فتكنُسُ في طريقها كلّ شيء؟! من يستطيع أن يوقفَ ارتفاع الحرارة الّذي يلتهم بالنّيران كلّ ما يجده في طريقه من الأخضر واليابس؟! مَنْ بإمكانه أن يُخمدَ بركانًا ثار للتّوّ وقذف حممه البركانيّة فأذاب كلّ ما وقع فوقه؟! مَنْ بإمكانه أن يقف في وجه فَيَضانات تجرف في هَيَجانها المطارات والثّكنات العسكريّة فتسيل الدّبّابات والطّائرات على وجه الماء المتعاظم كأنّها أوراق صغيرة في مسيل نهر أو ينبوع!! كُنّا نبدو أكثر من عاجزين أمام قدرة الله الّتي يصرّفها كيف شاء؛ وهل يستطيع الخلقَ؛ كلّ الخلق إلاّ أن يقفوا

مشدوهين ليراقبوا ما يحدث ويُحصوا آثار ذلك من بعدُ؟! كان هذا إيذانًا بكسر حدّة الكبر في النّفوس الّتي أنبتها تنامي القوّة العسكريّة الفارغة في القلوب الفارغة .

قالتْ وكالة الأرصاد الجويّة العالميّة إنّ ارتفاع درجة الحرارة على سطح الكوكب سيؤدّي إلى سلوكٍ حتميّ لنموّ بعض النّباتات وموتِ أخرى . الحرارة العالية أدّتْ إلى القضاء على النّباتات ذات السّيقان القصيرة والمدفونة في التّراب ، وفي المقابل أدّتْ إلى انتشار النّباتات الشّوكيّة ، والنّجميّة مثل الهندباء . وبثّت الوكالة التقرير الآتي : «يتسبّب ارتفاع درجة الحرارة (الاحترار) بانتقال سريع لنبات الهندباء الّتي ستدمّر المروج وستتسبّب في التهابٍ شديد بالجلد مصحوبةً بحكّة وحساسيّة مُفرطة ، ومعها ستنتشر أعداد بمئات الملايين من حشرات القراد ذات الأنواع المئة والّتي ستُصيب الإنسان بعدد من الأمراض مثل الحُمّى وآلام التقيؤ والإسهال واللاّيم (الخَمَجي) وأمراض الدّم . . . ومن الممكن أن تتسبّب هذه الأمراض النّاتجة عن هذه الحشرة بموت نصف سُكّان بلدٍ يزيد تعداده عن عشرين مليونًا . وفي المقابل ستستنفر قناديل البحر وستقوم بمزيدٍ من اللّسعات المؤلمة والمميتة في بعض الحالات ، تاركةً البحر هاربةً إلى الشّواطئ . وستزداد الأعشاب المتعفّنة وكمّيّات لا يُمكن السّيطرة عليها من غاز ثاني أكسيد الكربون ، وسيعمّ مرضُ الرّبو قطاعًا كبيرًا من البشر والأرض ، وستداهم الكوليرا مناطق أخرى ، وستهاجم الملاريا أماكن البحيرات الكُبرى الآسنة ، وستتواصل الأمراض القديمة وأنواع جديدة منها مع تواصل حركة البعوض والفئران والجرذان والقراد والعناكب والعقارب» .

أنساني صوتَ الوكالة في تقريرها الخطير مرورُ مُقاتلة من فوق

شُرُفات البيت الّذي أقيم فيه مع مسعود وبعض الخدم . تبسّم مسعود في وجهي :

- أيّهما أسرع انتشار المرض أم انتقال هذه الطّائرة من قاعدة لقاعدة؟!

- إلامَ تُلمّح يا مسعود؟!

- سباق الإنسان مع التطوّر لم يَحمِهِ من الموت ؛ فالموتُ الّذي قد يستتر خلف نبتة ضعيفة كالهندباء أسرع من طائرة يريد الإنسان من خلالها أن يحمي نفسه من الخطر ليعيشَ حياةً أطول .

- لقد أصبحتَ حكيمًا يا مسعود؟!

- ولكنْ - سيّدي - في اللّهاث المحموم للإنسان إلى الخلود ألا توجد بالفعل طريقة تجعله يعيشُ حياةً أطول!!

أصبح (مسعود) مُساعدي البشريّ في إدارة شؤون الدّولة . شيّد قصرًا منيفًا استقرّ فيه هو وأمّه . أصعبُ مَهمّة واجهتْنا في عامنا الخامس من بناء الدّولة الحديثة كان الجوع ، ماذا كُنّا لنفعل بهذه المُقاتلات إنْ كان مَنْ يجلس في حُجرتها جنديّ لا يجد لقمةً تسدّ أفواه أبنائه الجائعين الّذين يعيشون بعيدًا عنه؟! ما فائدة وجود الحديد والنّار إذا كانت اللّقمة والماء مَفقودَين؟!

بدأتُ أقلق على حال الرّعايا ، لا بُدّ أنّني لم أكنْ لأتخيّل أنّ مسؤوليّة مثل هذه ستكون في ذمّتي ، لم يكنْ حُكم البشر والسّهر على أمورهم شيئًا سهلاً ، خطَرَ في بالي أبي ، قلتُ لنفسي : لماذا نازعه أخوه على السّلطة ؛ ألا يعلم أنّها أمانةٌ ثقيلة ، وإنّ حَمْلها ناءت به الجبال والأرض والسّماوات؟! وفي النّهاية مهما عاشَ أبي منزوعًا من السّلطة أو عمّي

متحلّيًا بها فإنّهما اليوم لم يعودا يدبّان على وجه هذه البسيطة!!

استمرّ انحباسُ المطر في ذلك العام ، وأجدبت الأراضي المزروعة ، وأدّت الحرارة المتصاعدة إلى احتراق هكتارات من المزارع وغابات من الشّجر ، وبدا أنّ حديد الطّائرات والصّواريخ في طريقه إلى أن يصدأ أمام منظر الفلاّحين الفقراء وهم يسوقون في المناطق الرّيفيّة حميرَهم وبغالهم وعليها ما تبقّى من متاعهم يقصدون أماكن جديدة للرّعي والعيش فيها شيءٌ من الماء ولو كان شحيحًا ، بعد أنْ أتت النّيران على ما كانوا يُؤمّلون من ثمر .

وعلى الطّرف الآخر أدّتْ قلّة ذات اليد وانتشار الجوع إلى ظهور عصابات قُطّاع الطّرق ، ولم يسلم من هؤلاء اللّصوص حتّى المُعدَمون ، فكانوا يترصّدون لهم في الطّرق وهم مُرتحِلون فيقتلونهم ، ويأخذون دوابّهم وأمتعتهم . وأنهكَ الجوعُ سلطةَ الدّولة ، فلم يكنْ من الشّرطة ورجال الأمن مَنْ يستطيع أن يتصدّى لهؤلاء المارقين ويوقفهم عند حدّهم ، ويعيد الأمان إلى أهله .

وابتدأت الشّكاوى تصل إليّ من حُكّام الأقاليم والدّول ، وعمّ التّذمّر ، وسادَ الخوف والهلع من المستقبل أفئدةَ كثيرٍ من النّاس ، وراح النّاس يتهامسون فيما بينهم : «لقد جلب هذا الحاكم الجديد معه المرض والفقر ؛ ألا ليتَ أيّام الشّيخ عايد تعود؟!» وكان ذلك إيذانًا بألاّ أنام اللّيل .

ونَصَحني (مسعود) بفرض الضّرائب والعُشور على النّاس وتوزيعها بعد تحصيلها على الفقراء والمُعوزين ، فرأيتُ في نصيحته وجاهةً وأوكلتُ المهمّة إليه ، ففرح بذلك ، وأرسل شُرطته وفِرَقه تطوف على النّاس تتأكّد من دفعهم الضّرائب والعُشور . وظننتُ أنّ بعض الشّكاوى

ستحقّ ، فاكتشفتُ أنّها زادتْ وأنّ الضّرائب المجلوبة من النّاس لم تنفع في إخماد تذمّراتهم ؛ بل زادتهم حنقًا وسخطًا ، ولا أدري أينَ كان يذهب بها (مسعود) إنْ كان يحصّلها بالفعل .

وبعد فترة قصيرة نقلَ إليّ وزير الطّاقة خبرًا صاعقًا ، قال لي والكلماتُ تتساقط من فمه صفراء ميّتة :

- أتذكر احتياط الدّولة من الغاز في صحراء الأنبار؟!

- نعم . ما شأنه؟!

- لقد أدّى ارتفاع الحرارة إلى انفجار ما يقرب من ألف حاوية له . (قال وهو يبلع ريقه جزعًا)

- وأيّ أنواع الغازات فيها؟! (سألتُه والرّعب بادٍ على وجهي)

- أهمّ الغازات المنفجرة والمتسرّبة غاز السّارين .

- وماذا يعني ذلك؟!

- يعني أنّه في غضون يوم أو اثنين من انتشاره في الأنبار فإنّه سيهاجم الجهاز العصبيّ للمخلوقات الحيّة ، وسيتسبب بتلف الجهاز العصبي ومن ثمّ الوفاة .

- وأيّ طريقة يُمكن بها احتواء الموقف .

- الأمر انتهى . لقد انتشر الغاز وقتل أكثر من مليونَي كائن حيّ في المنطقة .

كانت الصّاعقة أكبرَ من أن تُحتَمل . هتفتُ في سرّي : «ما الّذي يحدُثُ؟! لِمَ كلّ هذا الآن» . ردّ عليّ صوتُ (سامع) دون أن أراه : «الخَبَثُ فيكَ أو حولكَ . تخلّصْ منه يَعُدْ إليك الخير والأمْن» . نفضتُ رأسي وأنا أفكّر فيما تخيّلتُ أنّني سمعتُه للتوّ . وبرز لحظتها مسعود وقال لي بلهجة مطمئنة :

- لا بأسَ يا سيّدي ، لم يمتْ من جنودنا إلاّ عددٌ قليل . أكثر الموتى من النّاس ومن الحيوانات في تلك المنطقة . ولم يكنْ بالأمر حيلة ؛ فلا تحزنْ ولا تيأس . ودعنا نفكّر بطريقة أخرى لجلب المال أو الطّعام إلى جيوب الفقراء وأفواههم .

لم أطمئنّ كثيرًا لما قاله مسعود ، غير أنّني أعدتُ التّفكير في الأمر لحماية ما تبقّى من رعايا الدّولة ، في اليوم الثّاني لم يُمهلني وزير الثّروة الحيوانيّة كثيرًا ليأتيني بخبر أشدّ من سابقه ؛ قال لي : «إنّ الثّعالب والضّباع والذّئاب والأسود والنّمور تهرب من أدغال أفريقيا باتّجاه المناطق الآهلة بالسّكان فرارًا من ارتفاع درجة الحرارة في الغابات وانتشار الحرائق في أشجارها ، وإنّ الجوع أدّى بها إلى مهاجمة الأهالي وقتلهم ونهش أجسادهم ، وإنّ وسائل الأهالي في الدّفاع عن أنفسهم لم تعد مُجديةً مع الضّعف البدني الّذي أصابهم جرّاء الجوع . فاستسلم بعضهم لأنياب السّباع وهي تفترسهم . ثمّ إنّ بعض الجثث الميّتة والحيوانات النّافقة كانت تموت على منابع المياه ومجاري بعض الأنهار ، ممّا أدّى إلى تلوّث الماء وتسمّمه ، وفي البلد الآخر الّذي يمتدّ النّهر إليه يكون الماءُ قد وصل الأهالي مسمومًا بسبب عفونة الجثث وما تحمله من جراثيم وبكتيريا ، فيؤدّي هذا التّسمّم في الماء إلى قتل مَنْ يشرب منه . لقد تسمّم ومات بهذه الطّريقة آلاف من البشر والدّوابّ ، ولا بُدّ من أن نبعثَ مَنْ يقوم بإزالة الجثث وتعقيم المياه لكي لا نفقد مزيدًا من النّاس» .

ضاقتْ عليّ الأرضُ بما رَحُبَتْ ممّا سمعتُ ، وبدا أنّ عقابًا إلهيًا ينزل بالبشريّة بذنوب بعض سُفهائها أو مُجرميها . ومرّتْ على الدّولة ليالٍ عصيبة سوداء ، يكاد الظّلام يلفّها من كلّ جهة . والتزمَ الحواريّون

الصّمت ، وفي الصّلوات الطّيّبات بدا أنّ الحُزنَ قد غزا ما ظهر من وجوههم بشكلٍ عميق . وحاولتُ أنْ أجدَ لديهم تفسيرًا لما يحدث فكانوا أكثرَ حيرةً منّي في تلقّيهم لهذه الأخبار وهذه الأحوال .

ثمّ وفدَ من بعدُ وزير الصّحّة ، وكان قد نزلتْ عليه هموم ثقيلة ، وجلسَ ليقدّم تقريره عن الأمن الصّحّيّ بين يدي . أخبرني بأنّ وباءً ينتشر في أماكن الدّولة الشّرقيّة ، وإنّه إذا ما استمرّت حركة الهواء بهذا الاتّجاه فإنّها ستقضي على ثلث سكّان العالَم . قال : «إنّ الفطريّات والطّفيليّات والفيروسات المُسبّبة للحُمّى الصفراء وحمّى الضّنك ، والجدري ، والبكتيريا المُسبّبة للجمرة الخبيثة والطّاعون والكوليرا ، جميعها في طريقها للانقضاض على الجنس البشريّ ، وإنّها إذا أنشبتْ أظفارها في عنق الصّحيّة فلن تتركه إلاّ جثّة هامدة» .

لا بُدّ أنّ شيئًا يفوق تفسير البشر وعقلهم يحدث الآن ، ولا بدّ أنّ الله يريد أن يُرسِلَ رسائل لتصل إلى مُستحقّيها جرّاء ما يحدث . أمّا أنا فوقعتُ في دائرة الحيرة حتّى أطبقتْ ظلماتُها على كلّ ذرّة في عقلي وروحي . صار لزامًا عليّ أن أنطق باسم الأستاذ لأستعينَ به على الطّوامّ الّتي تنزل بالدّولة .

(٤٤)
الله لا يَقبلُ إلاّ طيبًا

دخل على أمّه في إحدى اللّيالي الغائرة . لم يكنْ من ضوءٍ ليتسلّل إلى غرفتها غير ما تناهى من إحدى الثّريّات في البَهو البعيد . وقف مثل الشّبح على الباب وفي يده يلمع خنجر مَعقوف ، تحرّكت أمّه العجوز في سريرها حالما رأته ؛ كادت تقول : «كم تشبه أباك» لولا أنها تراجعت في اللّحظة الأخيرة . كانت تعرف أنّ البؤس والأسى وُلِدا معها ولن يتخلّيا عنها حتّى لو صارت تَرفُلُ في الدّمَقْس وفي الحرير بعد سنين العذاب الّتي لا تُطاق .

سدّ بطوله الفارع ، وبجسمه العريض عُظْمَ الباب ، حرّك الخنجر بين يديه ، وعيناه تبرقان بريقًا اختلطتْ فيه مشاعر عقود من السّنين رأى فيها من الأهوال ما يشيب له رأسُ الوليد . تقدّم خطوتين ، وحرّك الخنجر أمام عينيه مرّة أخرى ، ثمّ قبّل صَفْحته ، ومرّر إصبعه على طرفه ليتأكّد من رهافة شفرته ، حزّ الحدّ الموضع فنزّ الدّم ، وفي لحظات كانت قطرات الدّم تسقط على السّجّادة الفاخرة . لعق الدّم السّائل على طرف إصبعه ، وأعجبه طعمه ، فبانتْ أسنانه البيضاء من خلف سواده القاتم فيما يبدو أنّها ابتسامة طبيعيّة أو مصطَنعة .

صار عند سرير أمّه الّتي اختلطَ في عينَيها الخوفُ بالرّجاء ، وعلى

كثرة ما مرّ بها من آلام ، وما عاينتْه من نوائب ؛ فإنّ ما هي فيه الآن لم تجرّبْه من قبلُ ، أمن المعقول أنّ الولد الّذي نما في أحشائها فوهبتْهُ الحياة يريد الآن أن يذهبَ بها إلى الموت؟! أمن الممكن أنّه يملك هذا الكمّ من الحقد ليدفعه إلى الإجهاز عليها وهي الّتي لم تُعطه إلاّ الحبّ والحنان؟! للحظة فكّرتْ أنّه ابنُ حرام ؛ مَثَلُه مَثَلُ ذلك الّذي أسقطتْهُ عندَ جذع النّخلة!! لا يُمكن أن يكون حقيقةً من صُلبها ، ومن نطفة طاهرة ويأتي إليها بهذه الهيئة القاتلة!! أو لعلّه خليطٌ من نُطَف صُبّتْ في رَحِمها لم تدْرِ أيّ منابعها كان من حلال ، وأيّها كان من حرام!!

– دَعْني . . . لا تقتلْني . . لم يعد بيني وبين الموت مسافة . (قالتْ له متوسّلة) وللحظة شعرتْ أنّها قالتْ ذلك باللّهجة ذاتها الّتي قالتْها لسيّد العُمّال .

– لقد عشت عاهرةً وكان يجب قتلُك منذُ وافقت على الصّعود في ذلك المركب يومَ مجيئنا إلى هذه البلاد المشؤومة . (أجابها)

– لقد فعلتُ ذلك من أجلكَ ؛ إنّكَ لا تُدركُ مدى الشّقاء الّذي عانيتُه من أجل أن تظلّ حيّاً ، وأن تصل إلى ما وصلتَ إليه الآن .

– لم يعد ذلك مُجديًا . ولم يعدْ ممكنًا أن أعيشَ بعاركِ أيّتها السّاقطة .

– أتقول ذلك عمّن عبرتْ بكَ الأهوال لتصل سالمًا؟! أتقولُ ذلك لأمّكَ؟!

– أنتِ لا تدركين أيّ مهزوز وأيّ مهزوم صنعتِ منّي بأفعالكِ الشّائنة ، وبعبوديّتك المقيتة ، لقد آنَ لي أن أنتهي منها ومنكِ بأيّة طريقة .

رفعَ الخنجرَ المعقوف وهوى بثقله به على أمّه ، وغرس الحربة في

أحشائها . ندّتْ منها صرخةُ الفرار من الموت إلى الحياة فعاجلها بكتْمانها حينَ وضع يده على فمها ، فعادت الصّرخة إلى الموت . توالت الطّعناتُ بعد ذلك ، فاقت المئة ؛ مع أنّها ماتت بعد الطّعنة الرّابعة أو الخامسة .

رمى الخنجر من يديه ، وانحنى عليها يحتضنها وهو يبكي بُكاءً مريرًا . ظلّ محتضنًا لها طوال اللّيل ، وهو يتلو على جثمانها كلّ قصّتهما معًا من أيّام الحبشة إلى اليوم ، ودموعه تسبق عباراته . اختلط دمها بجسمه ، تناول الخنجر من جديد ، خطّ به الصّليبَ على صدره فانشعبَ الدّمُ من هناك ، أخذ منه بأطراف أصابعه وخلطه بدم أمّه ولعقهما معًا . ثمّ شعر بشيءٍ من الرّاحة .

في الصّباح ، كان قد خلع ثوبه القديم ، وخلع معه كلّ جلدٍ قديم ؛ كان قد رتّب كلّ شيء . هُرِعَ محزونًا بائسًا إلى سيّده الجديد ، قال لي : «أمّي ماتتْ ، ولا بُدّ أن ندفنها بما يليق بسيّدة خدمت المملكة أحسنَ خدمة» . هززتُ رأسي موافقًا ، واحتضنْتُه مُعزّيًا .

حملْنا النّعش إلى المَعبد . طلبتُ من الحواريّين أن ينادوا بالصّلاة في النّاس على الأمّ الطّيبة الطّهور الّتي قضتْ بعد كلّ هذا العمر الجليل . قال لي سامع : «الله لا يقبل إلاّ طيّبًا ؛ دَعْ مسعودًا يصلّي عليها وحده في القصر» . أجبتُه : «بل يجب على كلّ المؤمنين أن يُصلّوا عليها . احملوها إلى المَعبَد في الحال» .

انتظم الحواريّون في صفوفهم الأولى ، ووُضِعَ النّعش أمامي أنا ومَسْعود في الزّاوية الّتي تقع عند الحجر الأسود ، ورفعنا أكفّنا بالصّلاة فرفعت الجماهير الضّخمة الّتي وفدت من كلّ مكان أكفّها كذلك . وفي السّماء البعيدة كانت تحلّق طيورٌ من أصنافٍ شتّى .

(٤٥)
إنَّ الشَّرَّ قد أحاطَ بأعناقِنا فَمَنْ يُخلِّصُنا منه؟!

مرّ شهران ولم يأتني الأستاذ، والدّولة تنهار اقتصاديًا، وإنْ كانت في أوْج قوّتها عسكريًا من حيثُ المعدّات والدّعم المادّيّ. لا بُدّ من معالجة هذا التّفاقم الخارج عن السّيطرة في الموارد الغذائيّة الّتي تشحّ يومًا بعد يوم. استمرّ الجفاف. انحبس المطر طوال فترة الشّتاء، وحين جاء الصّيف مع ازدياد غير منطقيّ في درجات الحرارة تشقّقت الأرض، وتشكّلتْ خطوط عميقة متقاطعة حوّلت التّراب إلى موات يابس، حتّى ضفاف الأنهار وأماكن الطّمي نالها من اليُبوسة ما نالها، نفقت الأبقار والأغنام في مزارع مصر والسّوادن ووادي النّيل، وهلكت الجمال والنّوق والدّوابّ في صحارى العراق والصّحراء الكُبرى وصحراء نيفادا وجوبي، ولفظت أعدادٌ غفيرةٌ من الخيل آخرَ أنفاسها في بلاد الشّام وتركيّا، وهَمَدت الطّيور والغزلان في بلاد فارس، وانتحرتْ كثيرٌ من الدّلافين والأسماك والأحياء البحريّة على شواطئ بحر الخزر، وغدَت السّباعُ على نفسها فأكلَ بعضُها بعضًا في أدغال أفريقيا وغابات الأمازون، وانحاز خَلْقٌ كثير إلى جزيرة العرب عند المَعبَد طلبًا للأمان والرّاحة، واستشعار اللحظات الأخيرة قبل النّهاية المحتومة. وأنا؟! المسؤول عن كلّ هذه الفجائع والفظائع ماذا يُمكن أن أفعل؟! لقد

خُيّل إليّ أنّ الابتلاء الّذي ابتُليتُ به أكبر من أن يحتمله كاهلُ كلّ أمراء الدّنيا وملوكهم من أوّل أمير وملك إلى آخرهم . وشعرتُ أنّ كلّ هذه النّتائج إنّما هي بسبب من حظّ نفس عندي ، أو هو قدرُ الله النّازل من السّماء ولا يُمكن لأحد ردّه . حتّى سهول حوران الّتي ظلّتْ إلى عهد قريب مخازنَ الدّولة الاستراتيجيّة في الحبوب ها هي تُنبتُ ما شحّ وقصُرَ من سيقان القمح والذّرة والشّعير . وإلى هذه المخازن سيكون لجوؤنا الأخير ؛ فلئن اندثر الخير في أغلب بقاع الأرض ، فإنّ هذه البقعة المباركة ستظلّ تُخصب ولو في الجدب ما يبلّغ الباقين من البشر الكَفاف .

جاءني مسعود ليقول لي :

- احصُدْ كلّ ما في سهول حوران من الزّرع ، واخزُنه للحالات الطّارئة يوم اختطاف الأيادي لما يسدّ الرّمق وقتَ المجاعة ، وجهّز السّهول للمعركة الأخيرة .

- وهل هناك معركة؟! وأخيرة؟!

- بلى ؛ مع القادمين من بلاد ما وراء النّهر ، ومن تحت الرّدْم!!

- ومن أينَ عرفتَ؟!

- لقد استرقتُ السّمعَ إلى الحواريّين ؛ إنّهم يذكرونها في صلواتهم الطّيّبات كلّ ليلة تقريبًا ، ويُعدّون العُدّة لها ، ويسألون الله الشّهادة فيها لأنّها أرض البركة والملحمة الكُبرى .

كانت هذه أوّل مرّة أتيقّن فيها من أنّ مهمّة الحواريّين في هُبوطهم معي تنحصر ربّما في الإعداد لهذه المعركة الفاصلة ؛ غير أنّ الأرضَ ليسَ فيها من الجيوش الفتّاكة يومئذ - فيما أعلم - سوى جيش مملكتي ، وليسَ فيها حتّى من البشر أو الجنود إلاّ مَنْ تخطّاه الموت في

مأساة المجاعة وهو يختطف أرواحهم واحدًا بعد الآخر . ولكنْ مَنْ يدري ربّما هناك من الجيوش ما انحجبَ عنّا بالرّؤية كما انحجبنا نحنُ أحيانًا عن غيرنا . تركتني (مسعود) في حيرة . وتساءلت : كيفَ سنُقاتل ونحن نملك السّلاح ولا نملك مَنْ يقف خلف هذا السّلاح مِنْ أجل أن يستخدمه!!

قلّتْ مراكز التّسوّق الكُبرَى ، وأقفلَ عددٌ منها بعد أن نَفدَت الموارد الّتي كانت تأتيه بالبضاعة ، وأبقتِ الدّولة على متجر مركزيّ واحد في كلّ عاصمة من عواصم الدّول الواقعة تحت السّيطرة والبالغة عددها مئة وخمسين عاصمة . كان على هذا المركز من أجل أن ينظّم الأمور أنْ يفتح من السّاعة الثّامنة صباحًا إلى الثّامنة مساءً ، وفيما تبقّى من وقت يُعيد ترتيب البضائع والاستعداد لاستقبال النّقص من مخازن الدّولة الكُبرى المُحاطَة بحراسة شديدة لا يُمكن اختراقُها .

في نهاية كلّ شهر كان النّظام يقضي بتخفيض قيمة كلّ سلعة إلى النّصف من أجل تمكين ذوي الدّخل المحدود من شراء ما يحتاجون . كان هذا يحدث في آخر سبتٍ من كلّ شهر ، ولمدّة ستّ ساعات فقط . تبدأ من السّاعة الثّانية عشرة ظهرًا وتنتهي في السّاعة السّادسة مساءً .

منذُ السّابعة صباحًا انتشرتْ قوّات أمنيّة كثيفة حول هذه المتاجر المركزيّة في عواصم العالَم . نحن الآن أمام متجر (البَركة) في القاهرة ، والسّاعة الآن هي العاشرة ، وقد احتشد أمام المتجر قرابة أربعة آلاف مواطن بدؤوا بالتّوافد منذ ساعات الفجر الأولى ، وبوجود الشّرطة أمكن تنظيمهم في طوابير ممتدّة أمام ستّ بوّابات ، ولكنّ أعدادهم لم تتوقّف عن الزّيادة . كان يُمكنك أن تشاهدَ كلّ الأجيال واقفةً أمام تلك

البوّابات : الرّجال والنّساء والعجائز والأطفال والشّيوخ ، بيْد أنّ العدد الأكبر كان من النّساء اللّواتي اضطُررنَ إلى القدوم بدل أزواجهنّ ممّن يقضون ساعات عمل في الشّركات أو الحقول أو الجيش أو أيّ وظيفة أخرى . قُبيلَ ساعة الصّفر بدأت المجاميع البشريّة تُهَمْهم وتتململ ، وبدا أنّ التّذمّر سيّد الموقف ، لكنّ هذا لم يطل كثيرًا ؛ إذ في الثّانية عشرة تمامًا انفتحت البوّابات السّتّ ، وانطلقت الأمواج البشريّة في التّدافع إلى الدّاخل ، ولأنّ ساعات التّخفيض قليلة ، فقد وَقر في ذهن كلّ مُشترٍ أنّه لن يُحصّل ما يريد في الوقت المناسب ، ممّا جعله يجتهد أكثر في التّدافع والوصول إلى أماكن البيع ، في موجة التّدافع الّتي ولّدها ضغطُ الانتظار سقطَ عددٌ من كبار السّنّ والنّساء عند المداخل ، كانت إحدى السّيّدات تحمل رضيعًا بين يديها ، فسقطتْ هي ورضيعُها ، وبدأتِ الأقدام المُتتابعة تدوسهما دون اكتراث ؛ على الفور شكّلت الأمّ مثل الخيمة فوق رضيعها وراحت تصرخ : ابني .. ابني .. . الرّحمة يا ناس . . . بالطّبع لم يكنْ أحدٌ يسمعها ، ولَئِنْ سمعها أحدٌ فإنّ صوت الجوع كان أكبر من صوت الأمّ وأشدّ إثارةً منه . مضت الأقدام تدوسُ كلّ مَنْ سقط على الأرض ، وظلّت الأمّ تستنجد أن يرحموا الرّضيع الّذي تقوّس ظهرُها فوقه كي لا يُمسّ بأذى ، بدأتْ صرَخاتها مع الوقت تخفُت ، ولئن لم تُسمَع وفي صوتها قوّة أفستُسمَع وقد بدأ هذا الصّوت يخبو رويدًا رويدًا!! هُرِعَ رجال الأمن لمحاولة إنقاذ الموقف ، وإسعاف مَنْ ديسَ بالأرجل ، وبعد ساعتين من التّدافع كانت النّتيجة أنّ عشرين شخصًا ماتوا تحتَ الأرجُل ، نجا الرّضيع ولكنّ الأمّ كانت قد فارقت الحياة!! وفي نهاية يوم التّخفيض كان ثلث الّذين توافدوا في الطّوابير لم يتمكّنوا من الدّخول بسبب انتهاء السّاعات

السّتّ ، ومن هناك بدأ الصّياح : «سنموت من الجوع . . . سنموت من الجوع . . . أيّها التّجّار الّذين تمصّون دماء النّاس : الرّحمة . . . وتطوّر الموقف إلى نشوب نزاع ، وفي لحظات معدودة كانتْ هناك مشاجرة كبيرة قد نشبتْ بين الأهالي والشّرطة وبعد ثلاث ساعات تمّ السّيطرة على الموقف ، ولكنْ بفقدان أرواح عشرينَ آخرين .

في العواصم الأخرى قد يكون الأمر أقلّ أو أكثر سوءاً ، لا تدري بالضّبط ؛ ولكنّه في النّتيجة سيّءٌ بلا شكّ . والسّؤال : مَنْ يحمي الإنسان من نداء مَعدته الغريزي؟!! هل الشّرّ إلاّ ما اجترح الإنسان من أفعال ، أيّ وجود له لولا أنّ البشر يستجلبونه بسوء نيّاتهم!! كان يُمكن ألاّ يكون لو لم تظهر الأثَرةُ في النّفوس فتحوّلها إلى وحوش مفترسة ، وكان يُمكن أن يعمّ الخير لو أحبّ كلّ إنسان لنفسه ما يحبّ لغيره . فهل بعد هذا يقول الإنسان : إنّ الشّرّ قد أحاط بأعناقنا فمن يخلّصنا منه؟! وهو الجدير بأن يقول : إنّني قد أحطتُ الشّرّ بأعناق إخوتي في الإنسانيّة أفما آنَ أن أخلّصهم منه؟!

وصلتْ إليّ التّقارير المُؤسفة ؛ فماذا يُمكن أن أفعل؟! خلوتُ إلى نفسي في اللّيل وبكيتُ بكاءً مريرًا على الحالة الّتي وصلَ إليها البشر ، وفي غمرة بكائي امتدّتْ يدٌ من خلفي تُربّتُ على كتفي ، التفتُّ فإذا هو (سامع) ، قال لي : «الأرض مليئةٌ بالخيرات ولكنّ الإنسان أعمى . ابحثوا تجدوا ؛ فإنْ أعياكم البحث فارفعوا الأكفّ إلى السّماء كي يزيل الله الغشاوة عن عيونكم فتُبصروا ما لم يكنْ في حُسبانكم» .

هُرعتْ أعدادٌ لا حصر لها توافدَتْ من كلّ حدبٍ وصوب باتّجاه المَعبَد ، والتفّوا في دوائر مُتباعدة حوله ، كانوا شُعثًا غُبرًا ، بادي الأسمال ، وكَثُر فيهم الأطفال العُراة ، والرّجال الحُفاة ، والنّساء

المُخبتات . احتلّ الحواريّون الصّفّ الأوّل ، وكانوا ما زالوا على أرديتهم الأرجوانيّة وإن انقسموا إلى ثلاثة أقسام ، غطّى كلّ قسم منهم زاوية من زوايا المَعبَد ، ووقفتُ أنا عند الزّاوية الرّابعة الّتي فيها الحجر الأسود . انعقدت الأيدي على الصّدور ، وأطرقت الهامات ، وهتف القسم الأوّل : «إلهَ العالَمين لم نسجد للباطل ولم نُصلِّ لما لا ينفع فأنزلْ علينا بَركاتك» . وارتجّتْ من خلفه الألسن تردّد هذه الصّلاة ، ثمّ هتف القسم الثّاني : «يا ربّ كلمتكَ مِصباحٌ لخُطانا ونورٌ لسبيلنا فلا تحرمنا خيرَك» . وردّدت الجموع من بعدهم هذا الدّعاء . ثمّ هتف القسم الثّالث : « اللّهمّ إنّ بالعباد والبلاد ، والبهائم ، والخَلْق من اللأواء والجَهد والضّنك ما لا نشكوه إلا إليك . اللهمّ أنبتْ لنا الزّرع ، وأدرّ لنا الضّرع ، واسْقنا من بَركات السّماء وأنبت لنا من بركات الأرض» . فردّدْنا جميعًا خلفَه ما قال ، واهتزّتْ جنباتُ المَعبَد لهذه الدّعوات والصّلوات الطّيّبات .

(٤٦)
إنّي أرى ما لا تَرَوْن

أصواتٌ انفجارات لا يُعرَفُ مصدرها ، ودويّ ارتطامات تناهتْ إلى أذنيّ لا أدري من أين جاءتْ ، ومع أنّ صوتها كان قويًا وعنيفًا ، ومن المُفترَض أن تبعث الرّعب في الأفئدة إلاّ أنّني شعرتُ بالاطمئنان إلى سماعها ، وعبرتْ قلبي موجةٌ من الحبور لا أدري كُنهَها .

اجتمعتُ بمسعود والحواريّين لأستطلع معهم الأخبار الواردة من شتّى أصقاع المملكة . اتّسعت القاعة للقلوب الواهنة بسبب ما يحدث . وحده قلبي - ربّما - كان مملوءاً بالأمل والرّجاء . قبلَ أن تصفر صفّارات الإنذار المبثوثة في أنحاء المناطق العسكريّة ، وقبل أن تنطق تقارير وكالات الأنباء العالَميّة ، كان كبيرُ الحواريّين يُغادر موقعه ويطلب منّي أن أتبعه . في الممرّ الّذي يقع خارج قاعة البرلمان نظرَ إليّ من تحت قلنسوته المتهدّلة على جبهته ، وقال بصوت هامس :

- القُطب المتجمّد الشّماليّ يتهيّأ لمرحلة فَيَضانات لم يمرّ على البشريّة مثلها إلاّ في عهد نوح .

- سيبتلعنا الطّوفان القادم من الشّمال إذًا . (أجبتُه باستسلام) .

- كلاّ ؛ إنّه عهد الخيرات ؛ هذا الذّوبان الجليديّ الّذي سبّبه الاحترار سيكون خيرًا على البشريّة وليس وبالاً عليها كما صوّرته

وسائل الإعلام الكاذبة . وإنّ الاحتباس الحراريّ الّذي دأب العلماء على تخويف النّاس من نتائجه الكارثيّة ، سيكون ذا فوائد تفوق التّصوّر إنْ أُحسِنَ استثماره .

– وكيفَ يكون ذلك؟!

– نحتاج إلى الأستاذ وزوبعة معًا من أجل أن يُعينونا على التّفكير في كيفيّة الاستفادة من هذا الانهيار الجليديّ القادم لا محالة .

كانت هذه أوّل مرّة أنطق فيها باسم الأستاذ للحاجة الشّديدة إلى ذلك ؛ فتذرّى أمامنا ، ودخل القاعة بخطوات حثيثة وأنا أتبعه . أعرفُ ما تريدُ قوله (قال لي) ، وأدركُ أنّ الأمور في اتّجاهها إلى النّهايات . نظرَ في طريقه إلى مسعود شزرًا ، وبدا أنّه استهجنَ وجوده في قاعة الحُكَماء . شعرتُ أنّه قال بنظراته : «أخرِجْه من بيننا» .

كانت أصواتًا عميقةً أشبه بأصوات المزامير الكونيّة تلك الّتي بدأتْ تُطلقها الجبال الثّلجيّة المُنهارة . خرجْنا إلى سهل فسيح واستطعنا أن نسمعها قادمةً من فجّ عميق تُبشّر بميلاد جديد للبشريّة . انضمّ إلينا (زوبعة) ؛ قرّر أن يشهدَ البُشرى بنفسه ، قال :

– يستطيع اللّيل أن يُمعن في الاستطالة ، لكنّه لا يُمكن أن يمنع قدوم الفجر . وللجدب عاداته في إنهاك الأجساد ؛ غير أنّ الرّبيع تبدؤه وردةٌ واحدة ؛ وأنا أرى أنّ الوردة الّتي ستبشّر بالحياة بعد الموت ، وبالخصب بعد الجَدب سوف تطلع من بين الأكداس الثّلجيّة المُتراكمة هناك .

مئات الغوّاصات نقلها الجنّ من أتباع زوبعة بالتّذرّي من شواطئ حيفا وعكّا إلى شواطئ المحيط المتجمّد الشّمالي . وآلاف الطّائرات والسّفن

الضّخمة الحاملة لصهاريج المياه سِيقتْ إلى هناك . وأنا والحواريّون ومسعود والقرينان والأستاذ وزوبعة ركبْنا طائرةً استدراها السّيّد لتنقلنا في أقلّ من خمس دقائق إلى حيثُ المشهد الأكثر إدهاشًا بعد طوفان نوح . همس زوبعة في أذني : «هذه الطّائرة سيقول البشر بعد ألف عام : إنّهم اخترعوها ، وسوف يتباهَون بأنّها أحدث ما توصّل إليه العقل البشريّ الجبّار المُبدع . مساكين هؤلاء البشر إنّ أكثر اختراعاتهم تطوّرًا هي الّتي تخلّينا عنها نحن لرداءتها أو لبُطئها منذ آلاف السّنين»

كانت درجة الحرارة في المتجمّد الشّمالي (-٢٠) مئويّة ، وحدنا أنا ومسعود كُنّا نشعر بالبرد فاحتجنا إلى صَحْفة لتقينا سكاكينه الذّابحة . أمّا الحواريّون فقد حافظوا على أرديتهم الأرجوانيّة ذاتها ، والأستاذ على ردائه الأبيض ، والسّيّد على ردائه الأخضر . وقفْنا نشاهد الانهيارات المُبهرة ، والذّوبان الكثيف للثّلج قبل أن نبدأ العمل .

جمع زَوبعة أعدادًا لا يُمكن عدّها ولا تخيُّلها من الجنّ الأشدّاء . ربّما فاقتْ أعدادهم الملايين ، كانوا يعملون كما لو كانوا خليّة نحل ، كلٌّ يعرف المطلوب منه ، لا يكلّون ولا يملّون ولا يفترون . رأيتُ الواحد منهم يحمل صهريجًا من الحديد يتّسع لمئة متر مُكعّب من الماء يغرف به ممّا تساقط من الثّلج أو ذابَ فصارَ ماءً فيملؤه منه ، ويتلقّاه عددٌ آخر على متن الغوّاصات والسّفن الضّخمة فيأخذون منهم هذه الصّهاريج ويصفّونها على متن تلك السّفن والغوّاصات . وكان زوبعة بإشارة من يديه يُوقفُ بعض الجبال الثّلجيّة من الانهيار ريثما يتمّ تعبئة الفائض ممّا ذابَ من غيرها ومن ثَمّ التّحوّل إليها ، بعض الانهيارات الثّلجيّة البسيطة تركها زَوبعة تهوي هنا أو هناك وهي تزيد المنظر مهابةً وجمالاً .

استُخدمتْ طائرات الشّحن ، مُلئت بالماء حتّى أوسع طاقة لها ،

وأُمرتْ بالمغادرة إلى أكثر مناطق العالَم جفافًا . وأتبَعَها زَوْبعة ببعض القُوى الجِنّيّة الخفيّة الّتي تدفعها من الخلف فتطيرَ أسرع فتصل إلى مقاصدها بزمن أقلّ . كان الصّالحون يومها يعملون من أجل سعادة البشريّة جَمْعاء وإزالة البؤس عنها ، ولهذا لم أشكّ للحظة أنّ أعوام الرّخاء قادمة!!

وحينَ كانت الطّائرات تتأخر في العودة من أماكن تنزيل الصّهاريج المائيّة ، كُنّا نشاهد هذه الصّهاريج المترعة بالماء تطير في الفضاء إلى مستحقّيها بينَ يدي جنّي ماهر في الطّيران . بالطّبع كان نصفي الجِنّيّ يراها ، في حين مسعود لم يكن يرى إلاّ ما تشكّل أمامه من جنود الجنّ ، وعليه فإنّ أحدًا من البشر لم يكنْ ليدري ما الّذي يحدث لأنّه لا يرى شيئًا ، وصَدَق من قال : «إنّي أرَى ما لا ترَوْن» .

عَمِلَ الجنّ أسبوعًا كاملاً قبل أن تتعرّى منطقة القطب المتجمّد الشّمالي من الثّلوج تمامًا ، وتُصبح أرضًا صخريّة تنتشر فيها الجبال والوديان مثلها مثل أيّ منطقة أخرى في هذه المعمورة ، بالطّبع كان هناك المحيط الّذي يفيضُ بالماء عن جوانبه ؛ صار ماؤه مكشوفًا . وتمكّن الحواريّون مع جنود زَوْبعة أن يُحوّلوا الماء الصّافي إلى الوديان السّحيقة ، ويُفتّتوا الصّخر المنتشر على جوانبها فتتحوّل بذلك إلى أماكن زراعيّة خصبة . وأظنّ أنّهم فعلوا ذلك لتصبح هذه المناطق البلادَ الجديدة الخصبة الّتي تسكنها قبائلهم وأقوامهم وذراريهم .

قرّر (زَوْبعة) أن يُبقي على بعض قِطَع الثّلج على هيئة لوح منبسط بسُمك (٢٥) سنتيمترًا لتكون مركبًا أو قاربًا تتمتّع الدّببة القُطبيّة بالانتقال فوقه من مكان إلى آخر في المحيط ، ولكي يُحافظ على بقاء هذا النّوع الأبيض الجميل من هذه الدّببة خفّض هذه المراكب الثّلجيّة

ببعض المواد الكيماويّة الّتي تُحافظ على كتلتها دون الذّوبان حتّى ولو ارتفعتْ درجة الحرارة هناكَ إلى ٢٠ أو ٢٥ درجة!! وكان من الرّائع أن تشاهدَ دُبًا يستمتع بأشعّة الشّمس الدّافئة فوق هذا اللّوح الثّلجيّ وهو يعوم به عابرًا ضفافًا واسعةً من المحيط .

اليوم الّذين رأوا هذه الدّببة فوق مراكبها ، أو شاهدوها وهي تصطاد الأسماكَ الّتي يعجُّ بها المحيط ، أو أبصروا تلك الحيوانات وهي آمنة ، تنعم بحياة رغيدة ؛ سيقولون : إنّ هذا هو ما فعلتْه الطّبيعة ، ولن يُدركوا - لجهلهم - أنّ الله فَعَلها عن طريق جنّيّ مؤمن قدّم الخير للخَلق دون النّظر إلى أصله يُسمّى (زوبعة) ؛ كانَ قبل سنواتٍ سحيقة قد اجتمع بالنّبيّ الأعظم في صحراء خالية إلاّ من النّور الهابط من السّماء ، فأصاب هذا النّور قلبَ هذا الجنّيّ فقرّر أن يقضي ما تبقّى له من عمر ؛ سواء أكان المتبقّي له ألفًا أو ألفين أو عشرًا في الخير وإسعاد الأحياء .

في طريق العودة من الشّمال قال لي زَوْبعة إنّه لا بُدّ من فلسطين وإن طال عُمر البشريّة!! وحينَ سألتُه ماذا يقصد؟! قال إنّها أرض الملحمة ، وإنّني أُمِرتُ أن أبني فيها كهفًا واسعًا ذا غور تضلّ الأعينُ في منتهاه . أجبتُه وقد أخذني العَجَب : ما قيمة هذا الكهف الغائر في الأرض كأنّه جبّ سحيق وقد بسط الله لنا الأرض وبثّ لنا فيها من كلّ زوج بهيج!! قال : سيأتي أوانه .

باتَ (زَوْبعة) تلك الليلة في المَعبَد ، وفي الصّباح كان قد ارتحل بأتباعه إلى الجليل ، وفي جبالها العُليا حفر الكهف ووسّعه وعمّقه ، وصبّ عليه النّحاس حتّى لا يَهرَم ولا يُهدَم ، وبثّ فيه أسباب الحياة ، ثمّ ردمَ عليه فأخفاه فلا أحدَ من يومها يستطيع رؤيته أو يعرف موضعه سواه . ثمّ طار بنفسه وبأتباعه إلى الأعالي .

(٤٧)
هل الماء يُغيّر الجغرافيا؟!

انتشر النّاس في الآفاق ، كُلٌّ يختار وطنًا جديدًا يصلح أن يعيشَ فيه حياةً حافلةً ، وظلّ البشر الّذين دانوا - في حدود معرفتهم - بالفضل لي مشدودين إلى السّلطة المركزيّة الّتي يُمثّلها المعبَد . فمن هذه البقعة استطاعت السّلطة الّتي تحكمها أن تغيّر خارطة العالَم ، وتُنشئ جغرافيا جديدةً قادرة على إعاشة كلّ الّذين أشفَوا على الهلاك ، ومَنْح كلّ المحرومين ، والمَسح على جراح كلّ المُصابين .

هل الماء يغيّر الجغرافيا؟! وهل هو قادرٌ على أن يُنشئ أممًا من العدم؟! وهل هو مصدر الحياة أم موئل الموت؟! أم هو الاثنان معًا ؛ مصدر الحياة لأنّه لا حيّ يُمكن أن يستغني عنه ، وهو موئل الموت لأنّ الصّراع نشبَ على قيمة الحياة الكامنة فيه . في السّنين السّبع العجاف الّتي استمرّ فيها الجفاف بدا أنّ الاستحواذ على خيراته سيكون سيّد المرحلة القادمة؟! وأنّ حروبًا لا نهايةَ لها سوف تنشب حول منابعه العذبة . وفي لحظة قسريّة كان يُمكنكَ أن تقول إنّ كلّ ما لدى البشر من سلاح لن يُستَخدَم من أجل إضافة يابسة أو تضاريس جديدة إلى حُكم دولةٍ أخرى ، أو أن يُزهق أرواحًا لكسر إرادة العدوّ ودَفْعه إلى الاستسلام ومن ثَمّ السّيطرة عليه ، بل كان هذا السّلاح سيُستَخدَم من

أجل الحصول على المزيد من الماء والاستئثار به . غير أنّ كلّ هذه التوجّسات والتخوّفات انتهتْ أو غابَ شبحُها بعد انفجار الماء في القطب الشّمالي وتدفّقه بقدرة الله إلى كلّ ما كان جدبًا مقفرًا من الأرض ، أو ما كان عطشًا توّاقًا إلى الرّيّ .

نعم . . . غيّر الماء كلّ شيء ، لكأنّ العدل صار أن يُوزّع الماء بشكل عادل على كلّ مَنْ يحتاجه ؛ فقد كفّت الكلاب عن التّهارُش ، والذّئاب عن التّعاوي ، وأمنت الأغنام في مراعيها ، وسكنت الإبل في مَرابِضِها ، ومرحت الغزلان في منازلها ، وداعبت الشّمسُ جذوع النّبات من كلّ لونٍ وصنفٍ في الأرض المرويّة فترعرع الخصب في ضيافة النّور ، وانتشر في عهد السّقاية .

عَمَرَ نَسْلُ الحواريّين الأودية والشّعاب ما بين الجبال في القطب الشّمالي ، ولم يعد متجمّدًا ، بل إنّ درجات الحرارة تصل فيه إلى ١٥ درجةً في تموز وقد تنزل درجتين أو ثلاثًا تحت الصّفر في كانون ، وهذا ما لم تحظَ به مناطق كثيرة فوق هذه المعمورة . بسطَ الحواريّون كذلك سيطرتهم على المحيط الّذي أصبح بحرًا دافئًا في بعض أماكنه ، وتدفّقت الثّروة الحيوانيّة فيه بشكلٍ يفوق التّصوّر ، وفاق عدد الأسماك والحيتان والأحياء البحريّة الكامنة فيه والصّالحة للطّعام عدد الأحياء الموجودين فوق سطح الأرض من جنٍّ وإنس ومخلوقات أخرى لم يأتنا خَبَرُها ، أو لم تكتشفْها مخترعاتنا . هذا عدا عن كلّ ما هو ثمين من المرجان واللّؤلؤ والياقوت والأحجار الكريمة . وفشا الغنى في الذّراري حتّى صار أطفال الحواريّين يلعبون بحبّات اللؤلؤ عوضًا عن الحصى!!

وطلب مسعود منّي أن يُشاركَ الحواريّين أو بعضهم في الاستثمار هناك ، فهي أراضٍ بِكرٌ ، ويُمكن أن يجلب إليها من البشر من أتباعه

المبثوثين حول المَعبَد منْ يُحيلها إلى دول ذات حضارة ومدنيّة . وافقتُ دونَ تردّد لأنّ مهمّة الإنسان في الأرض أن يكون خليفة الله فيها ، ومعنى الاستخلاف هنا هو الاستعمار ، بينما حذّرني الحواريّون من الموافقة على ذلك ، ولكنّني لم أُعر تحذيرهم أيّ انتباه وحين سألتُهم لِمَ لا تُريدونه أن يشاركَكم الخيرات الجديدة ، أليست الأرضُ لله ، قالوا : «إنّ قلبه أشدّ سوادًا من بشرته» ؛ فنَهرتُهم عن ذلك وقلتُ : الله أعلم بالقلوب ، أمّا أنا فأحكُمُ على الظّاهر ، ولم أرَ منه سوءاً إلى اليوم ، وإنّه لَمطيعٌ أمين .

كان نموّ الدّولة أكبر من أن أظلّ أمينًا عليه ، وكانت طبيعة تربيتي في الأعالي قد فرضتْ عليّ نمطًا من العبادة لا أستطيع أن أتخلّى عنه لصالح مشاغل الحُكم ، فكان لا بُدّ من التّضحية بأحدهما ، ولأنّني أعرف أنّ الحواريّين ليسوا من الإنس ، وإنّما هم متشكّلون في عالَمهم فلم يكنْ بناءً عليه من الحكمة أن أولّي أحدهم مكاني على شؤون الدّولة ، فما يصلح للجنّ لا يصلح بالضّرورة للبشر ، وكنتُ أرى في (مسعود) بطبيعته القياديّة شخصيّة جديرة بهذا المنصب .

في صباح أحد الجُمَع ، كنّا نجتمع أنا والحواريّون الاثنا عشر في البرلمان ومعنا مسعود ، وجّهتُ كلامي لهم جميعًا : «كان على النّورانيّ فيّ أن يظلّ في سموّه ، ولأنّ الحكم يشغله عن المضيّ في مهمّته فإنّني أفوّض صلاحيّاتي كاملةً إلى مسعود ليقوم بتحمّلها والعمل على إنفاذها» . تقدّم مسعود منّي وانحنى بجلال بالغ ، ثمّ قبّل يديّ وقّعتُ مرسوم التّنازل ، وأشهدتُ عليه الحواريّين الّذين فعلوا ذلك – على ما يبدو – مُكرَهين .

انصرفَ الحواريّون إلى شؤون حياتهم ، وغادروني جميعًا وبقي

منهم معي (سامع) ليخدمني ويُشير عليّ بالإضافة إلى القرينَين . كنتُ أعرف أنّ الحياة تتبدّل وتتعاقبُ فيها الأطوار ، وأنّ بعض النّفوس إن كان فيها من الجنّ أو الملائكة شيءٌ فلا بُدّ أنّ الحياة على الأرض تُغيّرها ، وتزرع فيها قِيَمًا جديدة ، وأساليب مختلفة في التّعامل معها . ولعلّ التّراب المنثور على الأرض والطّين المجبول فيها يجذب إليه حتّى مَنْ كان مُتساميًا من قبلُ وفيه من روح الملائكة شيءٌ .

تدفّقتْ رؤوس الأموال الضّخمة التّي جلبها مسعود لتستثمر في البلاد الجديدة ، وملأت الأفق منشآت بحريّة جديدة ، واستطاع الخبراء أن يبنوا هناك موانئ خاصّة لإنتاج الغاز الطّبيعيّ وتصديره . وامتلأتْ خزينة الدّولة بالمليارات جرّاء بيع الغاز إلى كافّة الدّول الأوروبيّة المستوردة . كان احتياط القطب الشّمالي وحده يشكّل ٩٠٪ من إجمالي احتياط الغاز في العالَم ، وكان كلّه تحت سيطرة (مسعود) .

وحينَ كانت عقليّة التّنافس تستحوذ استحواذًا كاملاً على مسعود ، لم يكنْ للحواريّين ولا لأبنائهم من هدفٍ وراء ما يجنونه من الثّروة الحيوانيّة وخيرات البحار سوى العيش بأمانٍ وقضاء ما تبقّى لهم من عمر ، قبل أن يدخلوا بوّابة الآخرة ويلقَوا الله خالينَ ما استطاعوا من ذنوب الشّره والطّمع والتّنافُس . غير أنّ عينَ مسعود لم تكتفِ بثروة الغاز فحسدت الحواريّين على ما لديهم مِمّا تحتَ البحر ، فساومهم على شراء المصانع الّتي تُنتج المأكولات البحريّة ، وحينَ قال له أحد الحواريّين : «إنّنا لسنا تُجّارًا ولكنّنا مُؤمنون» . ردّ عليهم بحزم : «إذا لم تبيعوني هذه المصانع فسأقطع عنها الغاز وسأحولّها إلى مُعدّات صَدِئة غير قادرة على الإنتاج» . في النّهاية قال له أحدهم : «مَنْ يُرِد الدّنيا فليشبَعْ بها ؛ إنّها دودٌ في القلب» .

اتّخذ (مسعود) ممثّلين عنه في البلاد الّتي دانتْ له ؛ كان يختارهم بطريقة مُبتكرة ؛ أقام معسكرات للتّدريب كانتْ تضمّ ألفًا من المُجنّدين من المرشّحين لاستلام قيادة دُول أو جمهوريّات بأكملها . في صحارى لا يدخلها أيّ كائنٍ حيّ كان يقطعهم فيها عن العالَم بأكمله ، فلا يرون إلاّ ما يُريد هو لهم أن يروا ، ولا يسمعون إلاّ ما يشاء لهم أن يسمعوا ، وتعرّضوا لتدريبات قاسية من التّجويع والتّعطيش إلى درجة الهلاك ، ومن كان يهلك لم يكنْ يسمح للآخرين بدفنه ؛ بل كان يطلب منهم أن يرموه بعيدًا حتّى يُلغي ذاكرة الموت من عقولهم ، وإنْ كانوا يُعايشونه في اليوم ألف مرّة . بعد سنة من التّدريب على القسوة الخالصة من كلّ ما عداها ، يُجري اختباره الأخير على مَنْ صمد من الألف ؛ وهم يتراوحون بين عشرين إلى ثلاثين ؛ يُعطّشهم لثلاثة أيّام ويُجوّعهم لتسعة أيّام ، وفي اليوم العاشر يُعرَضون عليه شخصيًّا ، وجوهُهم إلى وجهه ، وعيونهم في عينيه ، كان يريد أن تنتقل القسوة الّتي في عينيه إليهم مباشرةً . ثمّ يأمر بأن يأتوه بسياط حديديّة مجدولة بالغُرَز ، ويبدأ يهوي بها على صدورهم ، ومَنْ يئنّ منهم تحت الوطأة أو يصرخ أو يغيّر وقفته كان يأمر بقتله مباشرة ، ومن يصمد يختاره ليكون أحدَ ملوكه . انتهى الأمر في سباق الصّمود إلى أربعة من الأشدّاء ساعدتهم أجسامهم الضّخمة ، وقوّة عضلاتهم ، والتّحكّم بمراكز الألم في أدمغتهم عن طريق التّخاطب العقلي المنطقي فيما بين المُثير والمُستجيب .

شكّلت الدّولة الجديدة الّتي أنشأها مسعود تقاطعًا سياسيًّا واقتصاديًّا يضمن له سيطرةً كبيرة على الدّول الّتي حكَمها ، فمن حدود إيران شرقًا إلى المحيط الأطلسي غربًا ، ومن الحجاز في الوسط

إلى القُطب - الّذي لم يعد مُتجمّدًا - شمالاً .

حَكَمَ باسمه - من بعدُ - المَلك البوذيّ (مزدك) في الشّرق ، والمَلك المُسلم (سُفيان) في الوسط . والمَلك المسيحيّ (روجرز) في الغرب ، والمَلك اليهوديّ (ياني) في الشّمال . وجعل في أيديهم أمور سياسة البلد في المجالات كافّة عدا المجال العسكريّ بوجه عامّ ، إذ إنّ القيادة العسكريّة الّتي كانت تحت سُلطة (رضى) تحوّلتْ إليه بتفويض من الأخير ، وزاد عليها قيادات عسكريّة في البلاد الجديدة ، وكانَ أغلبُها في يده . إذ إنّه اعتقد أنّ مَنْ في يده القوّة الضّاربة فمعناه أنّ في يده كلّ شيء ، وأنّ مَنْ يستطيع أن يوجّه الرّصاصة يستطيع أن يفرضَ شروطَه الّتي يُريد .

كان المجلس العسكريّ يتكوّن من عشرين قائدًا يتولّون قيادة عشرين جيشًا موزّعين في التّقاطع المقلوب الّذي يحكمه (مسعود) ويجتمعون كلّ شهر في البرلمان الّذي تحوّل فيما بعد إلى مبنى الإدارة العسكريّة ، وسُمّي (الدّيْسَق) . كانوا يأتون من أصقاع العالَم يركبون طائراتهم الخاصّة ويصطفّون أمام (مَسْعود) ليُملي عليهم أوامره وليُناقشهم في آخر المُستجدّات . ومَنْ كان يتخلّف عن الاجتماع لمرّة واحدة كان يُعزَل مباشرة ويحلّ محلّه من هو أقدر على أن يجتمع بالزّعيم الأكبر (مسعود) . وكان القائد المعزول لمجرّد تغيّبه عن اجتماع واحد يُجرّد من كافّة امتيازاته ، من رُتَبه العسكريّة ، ومن مَركباته ووسائل ترفيهه ، وبيته ، ويُحجَر على أمواله ، وربّما يُنفَى إلى الجبال الجرداء أو الصّحارى القاحلة .

وطّد (مسعود) بلا شكّ أركان الدّولة . وأعطاها مفهومًا جديدًا مختلفًا عمّا دأبت عليه الدّول في العصور السّابقة . واهتمّ بنموّها في

كلّ شيء، كما لو كانت نبتةٌ خضراء يحنو عليها، ويتعهّدها بالسّقاية في كلّ حين. ثمّ إنّه لم ينسَ الاستفادة من العلماء والدّارسين والباحثين، وجنّد بمساعدة هيئته المصغّرة في الحجاز الآلاف منهم في كلّ إقليم، يُنفق عليهم كلّ ما يحتاجون من أجل مزيدٍ من الاختراعات المُفيدة للبشريّة.

ولكنْ مَنْ يحكم بالفائدة من هذه الاختراعات إذا كانت هي ذاتها تحكم على ذاتها بالرّعب والخراب والدّمار!! نعم؛ العلماء هم جنّ الإنس، إنّهم يعرفون كلّ أشكال البكتيريا، وكلّ أصناف الجراثيم، ويرون الأحياء الدّقيقة الّتي تحتاج إلى تكبير أكثر من مليون مرّة حتّى تشاهدها العين المجرّدة. ويستخدمون كلّ ذلك في اكتشافاتهم. تخيّلوا أنّ الجراثيم أو البكتيريا الّتي نحتاج إلى الملايين منها لملء مكعّبٍ بحجم طرف الإبهام هي أخطر قوّة يُمكن أن تُستعمل لفناء البشر.

عمد العلماء الّذين استخدمهم (مسعود) إلى معرفة خصائص المعادن والأملاح، فنشأتْ من وراء معرفة العدد الذّرّي والوزن الذّرّي لهذه المعادن صناعات ومُخترعات ستحوّل بوصلة البشر إلى التقدّم والتطوّر!! ولكنّ أحدًا ما - لا أدري من هو - كان قد قال: «نعم إنّه تقدّم، ولكنّه نحو الجحيم. بلى إنّ تطوّر ولكنّه إلى الهاوية». أيّ جحيمٍ وأيّ هاوية ننتظرُ إذًا؟!!

(٤٨)
إنه شرٌ كله
فمن أينَ يأتيه الخير!!

انتشرت المُستوطنات البشريّة على منابع الماء، وامتدّتْ إلى منابت الزّرع. وشاعتْ حول المصانع الكُبرى الّتي تنتج الطّعام والوقود. وبثّ البشـرُ ذراريهم في كلّ مكان كـما لو كـانوا نَمْلاً ينبـعون من تحت الأرض، واجتمع لمسعود أكثر من خمسة مليارات من البشر كلهم يدينون له بالولاء وبالفضل، ويُدركون قوّته وجبروته، ومدى سيطرته على السلطة المركزيّة المحكومة بقبضته.

كان قراري بتفويض سُلْطاني لمسعود سببه أنّ قلبي لا يتّسع لأعباء السّياسة وتوابعها، مع أنّني ظللتُ أراقبُ أفعال مسعود، فرأيتُ فيه شخصيّة قياديّة توّاقة وطموحة، وقادرة على أن تعفيني من انشغال القلب بأمور الحُكم. وظللتُ أنا و(سامع) إلى جانبي مقيمَيْن في الدّهماء الّتي شقّت الشّوارع الحديثةُ رمالها. وأنبتُ من كلّ زوج بهيج تُرابَها، وكثر فيها الماء والخضراء والوجه الحَسَن. وكان المعبد أكثرَ مكانٍ كنّا نلجأ إليه من تعب الرّوح، وطُغيان الحضارة على النّفوس.

غير أنّ (سامع) ظلّ من أمر (مسعود) في خيفة، ولم يرتح في يوم من الأيّام لما يحدث، وحاولتُ أن أقنعه إن كان يرى فيه من الشّرّ جانبًا فإنّني أرى فيه من الخير كذلك جانبًا، والخير والشّرّ موجودان في كلّ

حيٍّ، فتعالَ نُعظِّمْ جانبَ الخيرِ فيه حتّى يطغى على شرِّه، ونقاتلْ معه شرَّه ونُعينَه على شيطانه. فكان يردّ: «إنّه شرٌّ كلّه فمن أينَ يأتيه الخير، وإنّه هو الشّيطان بذاته فيكفَ نُعينُه عليه؟!».

وماذا أفعل أنا هنا فيما تبقّى لي من عمر، صحيحٌ أنّني ما زلتُ في أوّل الشّباب، غير أنّني لم أخلَق لأجلس دون غاية، ولم آتِ لأراقب مسعودًا فيما يفعله عن كثب فحسب. لا بُدّ أن أدعو إلى الخير والمحبّة، وأبشّر النّاس بكلمة الله. وأتركَ خلف ظهري كلّ فتن الدّنيا وزينتها. لقد وهبتُ حياتي من أجل الّذي أعطاها، فلا بدّ أن أعمل بكدّ من أجل أن يرضى عنّي.

إنّ أدواء البشريّة الّتي كان بعضُها سبب هبوط أبينا الأوّل، وبعضها نشأ مع الذّراري على وجه هذه الأرض هو ما سأسعى لأخلّص النّاس منه؛ مـا أصيع القلوب والأرواح الّتي تغطس في وحل الشّهوات، وترمي بأنفسها في نار الخطايا!! إنّ روحًا واحدةً تنجو من الأخباث على يديّ لأحبّ إليّ من مُلك الدّنيا وما عليها.

كنّا جلوسًا في ليلة مقمرة عند الزّاوية المناظرة للحجر الأسود في المعبَد حينَ تاقتْ نفسي إلى الأستاذ، وقلتُ لسامع: لقد مرّ زمنٌ طويلٌ مذ غادرنا الأستاذ وزَوْبعة، ليتَ أحدهما يزورنا فيضيء لنا بعض ما ادلهمّ، فإنّ في قلبَيهما من النّور الخالص ما يكفي لأن يُحيلَ كُلَّ الظّلمات إلى محجّة بيضاء. لم يُمهلني الأستاذ لأكمل، فقد تدلّى في لحظة الأمنية ذاتها.

سلّم علينا، ثمّ أنبتَ لنا من جانب المعبد ثلاث خيول، وطار بنا دون أن يستشيرنا إلى أطراف الدّهماء. انتظرنا لحظات صامتين قبل أن تبدأ بعض الأصوات بالاستغاثة، التفتْنا مرعوبين جهةَ الصّوت،

لاحتْ لنا أشباح على هيئة مخلوقات متماوجة لا تتماسك أطرافها ، أشار الأستاذ إلى القمر وإليهم فكأنّ نور القمر أضاءهم من جديد ، فصاروا أكثر وضوحًا ، عندما وَقَر المشهد في مخيّلتي شهقتُ من الرّعب ، كان المشهد ينقل إليّ الصّور نفسها الّتي أراني إيّاها زَوْبعة للمسوخ الّذين يأكل بعضهم بعضًا ، تراجعتُ إلى الخلف وأنا أكاد أولّي هاربًا ، غير أنّ الأستاذ وقف في وجهي :

- لا تَخَفِ الآن ؛ سيأتي زمان الخوف .

- مرّتين . . .؟! لا أقوى على هذا؟! (أجبتُهُ) .

- الخوفُ هو ما تخيّلتَه ممّا أوحتْ لك به أشكالُهم ، فالفكرةُ عن الشّيء سابقةٌ على الوجود له ؛ ما يصنعه مخيالُكَ ليسَ الحقيقة ؛ فعليًا ليستْ حقيقةُ الأشياء إلاّ ما كان فيها من الحقيقة بالوجود ، أمّا ما تنقله إليكَ ذرّات الهواء ، وما يضخّمه خيالُكَ في الأساس فما هو إلاّ وهم .

- وكيفَ سأميّز بين الحقيقة والوهم؟! (سألته وأنا ألوذ به لاهثًا ، وأتّقي النّظر إلى المسوخ)

- بالإيمان ؛ وتذكّر عصيّ السّحرة ؛ هل انقلبتْ إلى أفاعٍ حقيقيّة ، أم أنّ الوهم هو الّذي شكّلها على هيئة الأفاعي فأخافتْ قلبَ موسى وما هي في الحقيقة إلاّ عصيّ يابسة ليس بها من حياةٍ ولا روح؟! كم من الأشياء حاكمْناها وحكمْنا عليها بناءً على وهم!!

- وكيفَ النّفاذُ إلى حقائق الأشياء؟! (سألتُه)

- بالمُعايَشة ؛ لا تقلْ لي أعرفُ الحقّ والباطل ؛ ليسَ الحقُّ إلاّ ما عايشتَه فعرفتَه فاتّبعتَه ، وليسَ الباطل إلاّ ما عايشتَه فأنكرتَه فاجتنَبْتَه .

- ماذا تقصد أيّها الأستاذ؟!

- أظنّك فهمتني . ألم تعايش مسعودًا؟!

- بلى .

- فَلِمَ لمْ ترَ أنّه الباطل حتّى الآن .

- لم أرَ منه ما تقول .

- لأنّكَ لم تنظر بعين الإيمان . أمّا هو فاستخدم معك عصيّ السّحرة . الآن انظر . (وأشار بيده إلى المسوخ المرعبة فانقلبوا إلى بشر يتسامرون في حدائق غنّاء) . أرأيت؟! إنّك تنظر إلى مسعود بالعين نفسها الّتي نظر بها موسى إلى العصيّ ، فلمّا وقر الإيمان في قلبه وألقى عصاه ، التقم الحقُّ كلّ باطل تراقصَ في طريقه . انظر بعين اليقين والإيمان إلى الّذي أوليته نعْمتكَ فترى الحقيقة بيّنةً كالشّمس لا تحتاج إلى دليل .

تذرّى الأستاذ مع آخر كلمة قالها ، وتركَ لنا حصانين لنعود إلى الدّهماء . في الطّريق غزا القلق قلبي ، وبقيتُ مطرقًا في الأرض وأنا أفكّر فيما سمعتُ ورأيتُ للتوّ ، كان كبير الحواريّين يسير بحصانه إلى جانبي واضعًا يده على كتفي يحاول تهدئة ما ثار من خاطري ، وسألته :

- أمَا مِنْ سبيلٍ للنّجاة؟!

(٤٩)
زَهْرةُ الخَشْخاش

فاقَ عددُ سكّان القُطب الشّماليّ ثلثَ سكّان العالَم . ولا عَجَب فإنّ كلّ موارد الأرض وخيراتها قد أخرجَتْهُ الأرضُ مع أثقالها من هناك .

نَجَم عن تدفّق الغاز من الشّمال قِيام الشّركات الكُبرى الّتي تُنتج للنّاس كلّ ما يحتاجون . ربط (مسعود) كلّ إدارات هذه الشّركات بوزارة التّجارة في كلّ بلدٍ وجعل توقيع الوزير لا يَنفُذ إلاّ بتوقيعه . كانت هذه الشّركات تعمل في الشّرق بتجارة الأخشاب ، أرتالٌ من مهندسي الدّيكور قدّموا للبشريّة فنونًا يعجز العقل عن تخيّلها في تشكيل الخشب ومِعماره ؛ من السّفن العملاقة والمنازل والعَرَبات إلى المُنمنمات الصّغيرة والدّقيقة في الكراسيّ والأسرّة والمكاتب . أمّا عُمّال المناجم فاستخدموه لتصنيع الفحم النّباتيّ ، وأمّا المزارعون فابتُكرت لهم منه الآلاتُ والأدوات .

واستخدمت دولة مسعود التّجارةَ البينيّة ؛ فكانت الدّولة تبيع لجارتها الأغذية وقطع الغيار والملابس وأدوات البناء مثلاً وتأخذ منها الوقود والمركبات والفواكه . وأبدعت في التّصدير للدّول الأخرى وخاصّة دول الجنوب كلّ ما يحتاجه البشر التّوّاقون إلى الرّفاهيّة .

وأصبح (النّموذج المسعوديّ) نموذجًا يُحتذى وتتطلّع إليه أمم الرّعاع والغوغاء الّتي لا تعرف من المدنيّة شيئًا ، وإنّما هي غارقة في الجهل والظّلام ، ولا تتقن غير الأكل والقتال .

غير أنّ هذا النّموذج المُتطلّع إليه ، لم يترك من شيء في سبيل توّقه إلى الغنى المُتضخّم والثّراء الفاحش ، فراح بعضُ المُتنفّذين في الدّولة يزرعون المُخدّرات في الأطراف الشّماليّة للدولة المتراميّة ، وازدهرتْ تجارة المخدّرات حتّى نافستْ تجارة الغاز . ونشأت مدنٌ بأكملها في الحَيْد الشّمالي على ضفاف المزارع الّتي تُنبت الهيروين والحشيش والماريجوانا والكوكائين ، وأصبح شعبٌ من الحشّاشين ينتشر في الجزء الشّمالي من (الدّولة المسعوديّة) ، وبدأ نفوذه يتنامى إلى الحدّ الّذي كان بإمكانه أن يحيّن عشرة وزراء على الأقلّ في مجلس (الدّيسق) الّذي يضمّ خمسة وعشرين وزيرًا ؛ كان المال سيّدَ الموقف ، وسيّد الكلمة . ولم يكنْ من مالٍ أوفر من ذلك الّذي تأتي به زهرةٌ صفراء تنمو في مناطق مَنسيّة لبُعدها عن مركز الدّولة لكنّها حاضرةٌ لتأثيرها في الوجود البشريّ تُدعَى : زهرة الخشخاش .

لم يَقنَعْ مسعود بالتّسلّح الّذي شكّلته المعدّات العسكريّة من طائرات وراجمات وغوّاصات وقاذفات ورشّاشات وغيرها ، بل تاقتْ نفسه إلى أسلحة ليس لعقل البشر أن يتوصّلوا إليها ، فكان لا بُدّ من الاستعانة بالجنّ . باتَ في قصره الّذي اتّخذه لنفسه على أنقاض البيت العالي ، كان قصرًا منيفًا جمع فيه كلّ مظاهر القوّة والأبّهة ، وجعل (الدّيسق) في جانب منه حتّى يقول إنّ القصر ليس مكانًا للنّوم والاسترخاء ، بل إنّه في الأساس مكانٌ للطّلقة النّافذة ، والسّلطة الضّاربة .

نَهَمُ الإنسان لا ينتهي ، وجشعه لا يتوقّف ، ولو كان كوكب الأرض كلّه في يده لتاق إلى كوكبٍ آخر يلقي عليه نفوذه . لم يأته النّوم في إحدى اللّيالي الشّبيهة بالغابرات من البعيدات السّحيقات ، ظلّ يتقلّب في الفراش وهو يفكّر أنّ كلّ هذه الأسلحة الفتّاكة إنّما هي أسلحة جُثمانيّة مرئيّة ومن السّهل جدًا القضاء عليها وتدميرها ، نحن محتاجون إلى أسلحة خفيّة غير مرئيّة تقضي على العدوّ دون أن يرى أو يشعر . لا بُدّ أنّ سلاحًا مثل هذا لا تقدر عليه إلاّ الشّياطين ؛ «أينَ أنتَ يا آسيار ؛ إنّ بيننا تاريخًا حافلاً بالمودّة؟!» هتف في نفسه قبل أن يأتيه صوتٌ عميقٌ وودود سمعه غير مرّة من قبلُ ، وها هو يعود بكامل ألفته إليه :

- أنا هنا يا مسعود .

انتفض في سريره وجلس قبل أن يبتلع ريقه ، ويسأل :

- عُدت من جديد إذًا .

- أعرفُ ما تشتهي ، سيّدُك الآبق كان يشتهي النّساء ، أمّا أنتَ فتشتهي السُّلطة والقوّة .

- فأيّهما أحقّ بشهوته؟!

- بالطّبع أنتَ . هو أغبى من رأيتُ وتعاملتُ . أمّا أنتَ فتسعى إلى الكمال . النّساء يقضين على من يشتهيهنّ ، أمّا القوّة فيقضي بها مُشتهيها على مَن يشاء .

- فامنحيني إيّاها إذًا .

- سأفعل .

- مقابل ماذا؟!

- بدون مقابل ؛ وحدهم الحمقى مَنْ لا أتركهم دون مقابل .

- وماذا ستفعلين إذًا من أجلي .
- قابلني غدًا وحدك في الدّيسق . أمّا الآن فنَمْ فإنّ الغد ثقيلٌ .

نامَ المَلك؟! كلاّ . لم ينمِ المَلِك!!

(٥٠)
قُلوبُكُمْ ضَعيفةٌ
أيَها البَشَرُ المَساكين!!

ظللتُ أرقبُ الفجر ليطلع ؛ ما أصعبَ الانتظار حينَ يكونُ طعنةً في الرّوح من أجل الغاية المأمولة ؛ إنّ آسيار لا تكذب في الشّرّ ؛ ولكنّني أعدّ الثّواني للقائها ؛ لقد مرّ زمنٌ طويلٌ على حضورها البهيّ في ذاكرتي العقربيّة . تقلّبتُ على الفراش بما يكفي لأوقنَ أنّ ليلةً واحدة من الانتظار عند أصحاب الهمّ تساوي دهرًا كاملاً عندَ مَنْ لا همّ له .

في السّادسة صباحًا كنتُ أجلسُ في كرسيّ الرّئاسة في المجلس البرلمانيّ العسكريّ التّنفيذيّ ؛ (الدّيْسق) ، شعرتُ أنّ أرواحًا كثيرةً تطوف بالمكان ، لكنْ لم يكنْ من سبيلٍ إلى رؤيتها ، أنا إنسيٌّ خالصٌ أطمح إلى أن تخلط (آسيار) جزءاً من إنسيّتي الطّينيّة الثّقيلة بجنّيّتها النّاريّة الملتهبة فتجعلني أكثر قدرةً على تحقيق رغباتي بسرعة دون البطء الّذي يُعانيه البَشَر البُلْهاء .

ظهرتْ من الباب بكامل كبريائها ، كان يمشي خلفَها مخلوقٌ آخر كأنّه عبدٌ يتبعُ سيّده ، لمْ أتبيّنْ هيئته على وجه التّحديد ، مع خطواتها الواثقة الّتي تقرع الأرض بصوتٍ قويّ كانت دقّات قلبي تتناغم مع ذلك الإيقاع ولا أدري إن كان ذلك خوفًا وقلقًا أم فرحًا وسرورًا ، حينَ

صارتْ هي ومَنْ معها قُبالتي وقفتُ على قدمَيَّ تعظيمًا ، حينَها تبيَّنتُ المخلوق الّذي كان يتبعها ؛ كان رجلاً في الثّلاثينيّات من عمره على ما يبدو ، وسيمًا ، جسيمًا ، أبيضَ البشرة تشوبُ خدّيه حُمرةٌ تزيدُه وسامةً ، وعيناه صافيتان واسعتان سوداوان ، وجبهته عريضةٌ ، وشعره فاحم ، وثيابه كأنّها النّور لا القماش . قالتْ لي آسيار تعرّفني عليه :

- بِلْعام ، سيرافقنا كلَّ المرحلة القادمة ، وسيُساعدنا في إنفاذ مَهمّتنا .

تحوّلتُ عن الموضع الّذي أنا فيه ، وتقدّمتُ نحوه ، اقتربتُ خطوات كافيات ومددتُ يدي نحوه مُصافحًا :

- تشرّفْنا ؛ مَسْعود .

ضغطَ بيده على كفّي فكادت تذوب بين أصابعه ، خلّصتُ يدي منه وأنا مرتاب ، ونظرتُ في عينيه فإذا هما جمرتان ، توجّستُ خيفةً ، عرفت آسيار ما يدور في ذهني ، سارعتْ بالقول :

- لا تخفْ ، إنّما ظهر لك في عينيه بعضُ حقيقته .

- وهل هو جنّيّ؟! (سألْتُها)

- إنّه سيّد الشّياطين يا أبله ، وزعيمُ مَرَدَتها ؛ إنّه غريم (زَوْبعة) يا أحمق .

- وهل سيُساعدنا من أجل أنْ نُحكمَ قبضتنا على العالَم بأسره؟!

- ولماذا قَبِلَ أن يأتي إليك يا مُغفّل ؛ لا تُكثر من الأسئلة ، إنّ الأسئلة الجوفاء تُثبّط الأعمال الكبيرة ؛ فلنبدأ بإنفاذ أفكارنا .

- هل يُمكن أن يبدو لي على هيئته الطّبيعيّة؟!

- إنّكَ لا تحتملُ رؤيتي أنا على هيئتي الطّبيعيّة فكيف تحتمل رؤيته هو!! قلوبكم ضعيفة أيّها البشر المساكين!! (قالتْ ذلك ساخرةً) .

- لا تغرنّك الهيئة البشريّة الّتي تُغطّيني ؛ فلقد أسكنتُ داخلها كلّ الشياطين والأبالسة .

قهقه بلعام لجملتي الأخيرة ، واهتزّتْ جَنَبات الدّيسق لقهقهته ، وارتجّت الأرضُ الرّخاميّة من تحتي ، وهتفَ بصوتٍ كأنّه ارتطام سيلٍ من الحجارة الهاوية من أعلى جبل :

- سنرى أيّها الإنسيّ . . . سنرى . . . أمامكَ وقتٌ جيّد لتُثْبتَ للبشريّة ذلك . ثمّ التفتَ إلى آسيار وتابع :

- لا بُدّ أن نمسّه ؛ نخلط إنسيّته الضّعيفة بشيطانيّتنا المتمرّدة فيعود قويًا قادرًا على احتمال التّكاليف الّتي نطلبها منه .

هزّتْ أسيار رأسها موافقةً ، حرّكتْ طرفَ إصبعها حركةً دائريّة فسقطَتْ في يدها كأسٌ بلّوريّة صافية ، ثمّ حرّكتْ طرف إصبعها مرّة أخرى فسقط في يدها خنجر ما زال يَدمَى ، أمعنتُ النّظر فيه ؛ فشهقتُ ، ثمّ كتمتُ شهقتي لكي لا أُفضَح ؛ لقد كان الخنجر نفسه الّذي قتلتُ به أمّي . نظرتْ إليّ أسيار بطرف عينها مع ابتسامة خبيثة كأنّها تريد أن تقول لي : «لا تشهق أنا الّتي كنتُ فيكَ حينَ قتلْتَها» .

راحتْ أسيار تملأ الكأس ممّا تقاطر من الدّم على الخنجر فملأ ثُلُثَها ، ثمّ طعنتْ نفسها في موضع قلبها بالخنجر فثعبَ دمٌ فوقه فملأت الثّلث الثّاني من الكأس ، ثمّ أدار لها (بلعام) صدره ورفع عنقه فطعنتْه في موضع القلب كذلك ، فملأت ممّا تقاطر من دمه الثّلثَ الأخير من الكأس . ثمّ مدّتْ بها إليّ ، وقالا بصوتٍ جماعيّ ودود :

- اشربْ يا بُنيّ تَكُنْ معنا .

تردّدتُ قليلاً قبل أن آخذه منها ، فكرّرا هذه المرّة بصوتٍ جماعيّ قاسٍ :

- اشرب يا أبله تَكُنْ مِنّا .

تناولتُ الكأس بيد مرتجفة ، نَظَرًا في عينيّ ، فثبتتْ أركاني ، ابتسما فاطمأنَّ جَناني ، رفعتُ الكأس إلى فمي ، وأفرغتُهُ كاملاً في جوفي .

(٥١)
أعتقني من سجنك البغيض أيها الجسد المتسلّط

تغيّرت الدّهماءُ يا (سامع) ، لقد كانَتْني أو كُنتُها ؛ فما الّذي غيّرها إلى هذا الحدّ؟! ما الّذي لوّث وجهها البِكْر الّذي أعرفه فلم يَعُدْ هُو هُوَ؟! أهو التّطوّر أم الانهيار!! أهو الصّفاء والنّقاء أم الخُبث والدّهاء!! إنّها لَتفقدُ روحها بسببٍ من هؤلاء الّذين يعرضون جسدها للشهوات ؛ فتُمعن فيه على أيدي مُدمنيها نهشًا!! ويلَ الرّوح من انتشار الرّذيلة!!

إنّنا في صراع دائم مع الجسد لنخلّص الرّوح من الانجراف وراء متطلّباته الطّينيّة ، ومنْ أجل أن نهدم هذا الجدار الكثيف الّذي يمنع الرّوح من تحليقها ؛ إنّ الرّوح لتصرخ بالجسد في اليوم مئة مرّة : «أعتقني من سجنك البغيض أيّها الجسد المُتسلّط» .

- أما تاقتْ نفسُكَ إلى الزّواج؟! (سألني سامع)

- أنا من الأوصياء فلا أتزوّج أبدًا إلاّ إذا تخلّيتُ عن صفتي .

أحكمَ مسعود سيطرته على كلّ شيء ، طلبَ أوّل الأمر من آسيار وبلعام أن يفكرّا له بسلاح غير مرئيّ يستطيع أن يقضي به على مَنْ يشاء ممّن يُمكن أن يُعارضَه أو يقف في وجه مشروعاته الإصلاحيّة والتّوسّعية ، فقال له (بلعام) :

- مُرْ (مَزْدك) أن يأتيك بكأسٍ من خمر العنب في الشّرق ، ومُرْ (سُفيان) أن يأتيكَ بكأسٍ من نبيذ الشّعير في الوسط . ومُرْ (روجرز) أن يأتيكَ بكأسٍ من خمر الرّمّان في الغرب ، ومُرْ (ياني) أن يأتيكَ بكأسٍ من غَوْل التُّفّاح في الشّمال .

جاءتْه الرّسل بالكؤوس الأربع ، خَلَطها (بلعام) في وعاءٍ واحد ، ثمّ نفثَ فيها من بُصاقه ، وفعلتْ مثله من بَعده آسيار ، وتَلَوا عليه بعضَ العبارات المُبهَمة ، ثمّ عمدوا إلى البئر الّتي أُلقيتْ فيها آسيا في الزّمن السّحيق ، فتركوا الوعاء فيها شهرًا كاملاً . في كلّ ليلة كان يأتي (بلعام) بتسعةٍ وتسعينَ شيطانًا يتحلّقون حول البئر ويقرؤون على الوعاء ممّا استرقوه من السّمع في تلك اللّيلة . بعد انقضاء الشّهر ، جمع (بلعام) حوله علماء الجراثيم وخُبَراء البكتيريا من الجنّ الكَفَرة ، أضافوا إليها موادّ كيميائيّة وخَلَطوا الجزئيات ، ثمّ جيءَ بالوعاء إلى مسعود ، قال له بلعام : «هذا سلاحٌ جرثوميٌّ فتّاك ، كلّ قطرة واحدة منه تحوي عشرة ملايين جُرثومة ، كلّ جرثومة قادرةٌ على قتلِ نفسٍ بشريّة ، يُمكن زَرْعه في القذائف والقنابل الجرثوميّة ، وبالطّائرات تستطيع أن توجّه به الضّربة المناسبة . لكن الآن احتفظْ به في مكان أمين في القصر ، ولا تستخدمه إلاّ في حالة الضّرورة القُصوى ، وإن احتجتَ إلى أن نستخدمه معك فنحن جاهزون» .

أصبحَ لدى مسعود قوّة جرثوميّة لا قِبَلَ للبشر بها ولا بالوقوف في وجهها ، خبّأها في أوعية خاصّة تحفظها من التّسامي أو التّبخّر في قرار مكين ، ومعها الأجهزة الدّقيقة المخصّصة لاستخدام هذا السّلاح . ونامَ ليلته وقد انتفختْ كبرياؤه حتّى لم يعد القصر يَسَعُه . في الصّباح سارتْ معه آسيار إلى الدّيسق ، سألها :

- ما قيمة المجلس العسكريّ التّنفيذيّ إذًا إذا كنتُ أملك هذا السّلاح؟!

- هذا السّلاح لكَ تستخدمه دون أن يعرف الآخرون، وهو سلاحٌ شيطانيّ، أمّا البشر فلا يقتنعون إلاّ بما يرون، فهل تعتقد أنّ وزراءكَ والحُكّام الّذين يحكمون باسمكَ في مقدورهم أن يتخيّلوا أنّ لديكَ مثل هذا السّلاح، دعهم يستخدموا حربَ الطّائرات والصّواريخ والرّاجمات، ولا تستخدم الحربَ الجرثوميّة إلاّ إذا اضطررتَ إليها، ونحن أنا وبلعام نقرّر مدى هذه الضّرورة عنك.

- إذًا إنّ قارورةً واحدةً لا تكفي؛ إنّ البشر ينتشرون في الأرض مثل الذّرّات في الهواء والنّجوم في السّماء.

فهقهتْ قبل أن تقول:

- فرقٌ شاسعٌ بينَكَ وبينَ شيخك الهالك؛ إنّهما شهوتان، ولكنّ شهوتكَ أكثر حدّةً وسُعارًا. لا تخفْ أيّها الفاني سيكون لديكَ ما تريد.

بُعِثَت الكؤوس من جديدٍ من شتّى الأصقاع الّتي تنتهي إليها سُلطتي، واستُخدمتْ آبارٌ أخرى غير بئر آسيا، وجيء بملايين الشّياطين مُسترقي السّمع ليتلوا أسجاعَهم على الكؤوس المكمورة في أعماق الآبار المهجورة، وصارتْ لديّ قوّة لم يكنْ بمقدور من يعرفها أن يُنكرَ أنّها قادرةٌ على قَتْل كلّ مَنْ في الأرض جميعًا، ولو كان خلف كُلّ حَجرٍ روحٌ.

(٥٢)
لَقَدْ عَقَدْتُ حِلْفًا مَعَ الشَّيْطانِ

اقتحمتُ على (مَسْعود) الدَّيسق، كان خبر انتشار مزارع المُخدّرات وكروم الخمر الّذي وصلَ إليّ مؤخّرًا قد أثار حفيظتي، لا بُدّ أنّ مسعود قد تجاوز حدّه، وأعماه الطّمع إلى المال والسّلطة عن كلّ شيء؛ ألَهُما كلّ هذا البريق الّذي يخطف القلوب قبل الأبصار فيُوقعُ في شِباكه اللاّهثين خلف سرابه!! ما الّذي غيّركَ يا مسعود بهذه الطّريقة؟! كانت هذه الخواطر تُراودني وأنا أذرع الأرض بردائيّ القرمزيّ باتّجاه مسعود في المجلس الحصين الّذي اتّخذه مركزًا يقضي فيه أوقاتًا أكثر من تلك الّتي يقضيها في قصره.

على الباب تلقّاني الحرس، فمنعوني من الدّخول، صرختُ في وجههم، فأحدثوا جلبة، انتبه مسعود لذلك، قَدِمَ من عليائه وفي يده صولجان المُلك وعلى رأسه تاجُه، أشار للحرس أن يبتعدوا فدخلت، قلتُ له غاضبًا:

- أتريدُ أن تعيثَ في الأرض فسادًا يا مسعود؟!

قَهقهَ طويلاً، ومال بجذعه إلى الوراء قبل أن تتناقص ضحكته الفاجرة، ثمّ يستعيد حزمه وشدّته ليقول:

- أنا أم أنتَ أيّها البائس؟!

- أنتَ ، إذ تطلب من أتباعكَ الفَسَقة أن يملؤوا الأرضَ البِكر بمزارع المخدّرات ، وبكروم العنب لتُنتجَ الخمر والخبائث .
- لقد كانت كلّ هذه المزارع جليدًا ، لا حياةَ فيها ؛ مَنْ أمر الجنّ أن يرفعوا درجة حرارة الأرض ليذوب ثلج القطب الشّماليّ ، فيذوب من بعده كلّ شيء .
- الله ، وليس الجنّ يا جاحد .
- لا . . لا . . . يا مسكين ؛ تُعلّق كلّ شيءٍ بقدرة الله ، فأينَ النّفر الّذين ملؤوا بالماء كلّ الصّحارى حتّى عادت خضراء . أليسوا هم أصل كلّ هذا البلاء . هلاّ أمرتهم بأن يملؤوا الحجاز بالثّلوج إذًا ، إنّ الماء لم يعد كافيًا لمقدار التّرف الّذي أريد ، لا بُدّ من الثّلوج حتّى تفيض المروج .
- أن تُخصبَ الأرض خيرٌ ليسَ شرًا .
- كلاّ . . . لقد بَطِرتْ معيشةُ هؤلاء ، ألا ترى أنّ انتشار الخير في ظاهرِه الرّحمة ، وفي باطنه من قِبَله العذاب ؛ أليستْ كثرة العَرَض مُقدّمة البَطَر والطّغيان؟!
- فأنتَ تُقرّ أنّكَ طغيتَ؟!
- نعم ؛ أنا أعرف بنفسي منكَ ، ألم تقرأ هذا في الأعالي على العمود الأوّل من أعمدة بيتكَ : «إنّ الإنسانَ ليطغى أن رآه استغنى» .
- يا مسعود ؛ إنّنا أنا وأنتَ إنّما خُلقنا لكي نخلّص الأرض من أدرانها لا لنزيدها .
- فات أوان ذلك ، لقد عقدتُ حِلفًا مع الشّيطان .
- مع الشّيطان؟!!
- نعم .

- وفيمَ وقد وثقتُ بكَ وسلّمتُكَ القياد؟!

- لأنّ فيّ من الشّيطان نصيبًا جاء ليأخذه فلبّيتُ وأنا طائعٌ مسرور، أمّا أنتَ فلم يعد لكَ إلا الخواء. ولقد ضِقتُ ذرعًا بكَ وبتعاليمك.

- أحرقْ مزارع المُخدّرات، فإنّ تحت كلّ زهرة منها شيطانًا، واقضِ على مصانع الخمور واقصفْها ودمّرْها شرّ تدمير حتّى لا يكون عليكَ ذنبٌ من أغويتهم بسبب مطامعك.

- واهمٌ... أنتَ واهمٌ وضعيفٌ، بل وعاجز، لم تعد من قوّة في الأرض لتقفَ في وجهي، أمّا أنتَ فصعلوكٌ وحيدٌ ليس له حولٌ ولا قوّة.

- لقد كنتُ أرجو أن تكون مَلكًا عادلاً.

- أوتظنّ أنّ هذا هو عصر الأنبياء المُخلَصين، أو الملائكة المُطهّرين أو الأولياء الصّالحين أيّها المُغفّل؟! كلاّ؛ إنّه عصر المَردة من الشّياطين، والجبابرة من الأبالسة الملعونين!!

- لقد هلكتَ وأهلكتَ.

- لم يَعُدْ مُرحّبًا بكَ بعد اليوم في مملكتي، اخرجْ من هنا طريدًا شريدًا.

فززتُ بجسمي، وركضتُ باتّجاهه أريد أن أفتكَ به، وأقضي عليه بيدي، فبرزتْ (أسيار) و(بلعام)، بدا الأخير على هيئته الطّبيعيّة المُرعبة، توقّفتُ قبل أن أحكمَ قبضتي على عنق مسعود. برز من الجهة المُقابلة (سامع) وبقيّة الحواريّين بأرديتهم الأرجوانيّة. تمايز الصّفان فيما بدا أنّها مواجهةٌ وشيكةٌ، نفث (بلعام) من فمه صديدًا وأطلق ريحًا فكادت أركان الدّيسق تنخلع من أساساتها، دار (سامع) بسرعة الضّوء

حول الصَّفين فتأرجح المجلس كلّه ، زعقتْ آسيار ، جهرَ الحواريُّون بأنفاسهم اللاهبة ، كادتْ أن تنشبَ الأهوال ، أشرتُ إلى (سامع) لأوقفَ معركةً غير محمودة العواقب ، وقلتُ له :

- لا أريدُ لهذه الحرب أن تبدأ الآن .

انسحبتُ (بسامع) والحواريّين إلى الخارج ، وقفلْنا عائدين . كان كتفاي ثقيلَين كأنّ كلّ هموم الكون تركبهما ، وقلبي حزينًا كأنّ كلّ بؤس في العالَم قد سكنه ، خطرتْ ببالي نصيحة الأستاذ في (مسعود) حينَ لم أسمع له ، وردّدتُ في داخلي : «ها أنذا أدفع الثّمن ، ليتني أدفعه وحدي ، يبدو أنّ البشريّة ستدفعه معي» .

في الليل ، وقفتُ بين يدي الخالق ، كنتُ كفًّا تنوح بالدعاء ، في آخرها قرّرتُ أن أُنقذ نفسي ، سأترك لمسعود كلّ هذا العَرَض الفاني واللُّعاعات الزّائلة ، وأمضي إلى الأعالي ؛ إلى حيثُ التّلّة الّتي غرست النّور في قلبي ، هذا النّور الّذي بدأتُ أشعرُ أنّه يخبو تدريجيا بسبب أطماع البشر القذرة ، ورغباتهم الشّرّيرة ، ونزَاوتهم القاتلة .

كان الأستاذ كفيلاً بأن يُعيدَني إلى هناك . تسلّلتُ خارج البيت ، فأفاق (سامع) على وَقْع خُطاي ، وعرف ما أُضمره في أعماقي ، لحق بي ، وعلى باب البيت المتواضع الّذي قضيتُ فيه أيّام الأرض والبشر ، بدا حزينًا هو الآخر وعاتبًا :

- أنتَ تهربُ يا رِضى!!

- إذا كان هربًا من الشّيطان فنعمَ الهرب .

- ومَنْ سيُقاتل الشّيطان هنا من أجل هؤلاء المخطوفين بزينته؟!!

القِسم الثالث

(٥٣)
كانت الكُؤوس تدُور على النُّفوس فتطيح بما في الرؤوس

مِن طبّاخ تعلّم الطّبخ وهو ابن ثمانية على أيدي العاملات العَزباوات في سكنهنّ أيّام الشّيخ (عايد) ومزارع النّخيل البائدة قفز هذا الفتى الطّموح إلى أعلى سُلطة في الدّولة ، وها هو يسير قُدُمًا في تثبيت أركان حُكمه .

تمسّحَ به (خدّام) ذات مرّة ليسأله :

- أيّ الرّجال في موضع ثقتك؟!

- أنا لا أثق بأحد . (أجابه ببرود) .

- ولا أنا!! (ردّ عليه خدّام بحنوّ) .

- أنا لم أثق بأمّي أيّها الأبله لأثقَ بك!!

مجلس الأُنس الّذي كان يقضي معه اللّيالي الطّوال ، كان يتكوّن من (خدّام) رئيس الحرَس هذا ، و(مأمون) رئيس التّشريفات المدنيّة ، و(نيشان) رئيس الإنتاج الحربيّ ، و(خير الله) رئيس الإنتاج الغذائيّ ، و(بليغ) رئيس الاستخبارات ، و(شَهْم) رئيس الأوقاف الإلهيّة . وعدد من الوزراء مثل وزير التّخطيط المدنيّ ، ووزير الأمن القوميّ ، ووزير المعارف .

لم تكنْ (آسيار) تفارق (مسعود) ولا حتّى ظله ، وقيل إنّه تزوّجها وإنْ لم يكنْ من أحد ليدري ، وقيل إنّها دخلتْ فيه ومسّته فهو ينطق

بلسانها ، وبالطّبع لم تَفُتْها أيّ حفلة من حفلات الأنس هذه ، ولم يكنْ أحدٌ يراها أو يدري بوجودها سواه . كانت الكؤوس تدور على النّفوس فتُطيح بما في الرّؤوس ، وكان يحدثُ أن يأخذ السُّكْر مأخذه من (مَسعود) ، فيسأل وزير الأوقاف الإلهيّة بحروف مُترنّحة :

- أليسَت الخمر مُحرّمةً يا مولانا؟!

فيجيبه الوزير (شَهم) :

- إنّها ليستْ مُحرّمةً على الملوك يا سيّدي ؛ فاشربْ ما شئت .

- ولحم الخنزير أيّها العارف بالله؟!

- إنّه أكثر حلالاً من لحم الضّأن صبيحةَ العيد .

- وقَتْل الخارج عن الدّولة أيّها العليم بالأسرار؟!

- إنّه واجبٌ لا يُؤجّل .

- ومَسُّ النّساء أيّها القريب من السّماء؟!

- لا يُجتنب إلاّ في صِيام يا سيّدي .

وتستمرّ المحاورة بين (مسعود) ، و(شَهْم) على إيقاع الضّحكات المخطوفة من بين أشداق الشّياطين . لم يكنْ أحدٌ ليعرف سرّ العلاقة بين امتداد السّلطة والشّهوة ؛ كان مسعود كلّما أمعن في الشّرّ وطّدَ الله له ركنًا ، وكلّما بالغَ في الأذى جلبَ الله له خيرًا ، وكلّما زرع خُبثًا بسلوكه أنبتتْ له الأرض زرعًا وغذاءً!!

في التّقاطع المُعاكس للدّولة المَسعوديّة ، كانت هناك دولٌ في الجنوب البعيد ، وعلى أطراف الشّرق الأدنى ، والغرب الأقصى تقف حائرةً أمام انتشار السّلطة المُنافسة . وتحسد ما أوتي هذا الرّجل من متاع الدّنيا ، وتتمنّى أن تكسبَ شرف المنافسة في التّقدّم التّقني الّذي أحرزه هو وحاشيته .

أكبر دولة ناهضة في أوروبًا حَكَمَها (ويليام) العاشر، وسار فيها سيرة العلماء الحُكماء، فأعلى من دور العلم وأهله، وبشّر بسيطرته على الدّين، ونادى بالفصل بين الكَهنوت والحياة، ووضعَ مثالاً وغايةً يسير إليهما في سباقه مع غريمه صاحب التّقاطع المقلوب، وفي أقصى الشّرق حكم (دارْيوس) الّذي جعل من القوّة والمعرفة والحكمة سبيلَ مملكته، وكان بين الشّرق والغرب تباعدٌ في الدّين والنّهج والأحكام، ولربّما كان هناك مئة سبب لاختلافهما وتفرّقهما، لكنّ سببًا وحيدًا وجيهًا كان يجمع بينهما؛ ألا وهو عداوة الدّولة المَسعوديّة الّتي سيطرتْ على أكثر خيرات الأرض، ولم تُبقِ لهم إلاّ ما تناثرَ مِمّا تبقّى من نصف أوروبًا، ونصف آسيا خارجًا عن السّيطرة!!

وعلى عادة الملوك ونفاقهم، كان (ويليام) و (داريوس) يهنّئان (مَسْعودًا) في الأعياد الرّسميّة والشّعبيّة، ويقدّمان التّبريكات والتّهاني، ويتطلّعان إلى مزيد من التّعاون بين هذه الامبراطوريّات الثّلاث، وتبادل الخبرات والخُبراء في مجال التّعليم والتّصنيع والإنتاج.

مئات البرقيّات والرّسائل عبر التّخابر وأجهزة البثّ الآنيّة تراكمت بين يدي رئيس التّشريفات المدنيّة ولم يُكلّف مسعود نفسه بالنّظر فيها أو الرّدّ عليها. وطلبَ من وزير المعارف أنْ يكتبَ ردًّا واحدًا مُتشابه الكلمات والمَضمون، يبعثه في أعياد الشّرق والغرب بمناسبة أو دونها؛ وذلك لأنّ وقت (مَسْعود) أثمن من أن يضيع في الاستماع إلى ترّهات أو الاطّلاع عليها.

في القصر المُنيف لم يكنْ له من رفيقة ولا صاحبة في الظّاهر غير صوتٍ في أوّل البهو المؤدّي إلى غرفته المنيعة، كان صوتَ ببّغاء جاء به

منَ الحبشة أيّام تشرّده مع أمّه وهجرته من هناك . عاشَ هذا البّبغاء كلّ الحقب الدّستوريّة الّتي بدأتْ مع تأسيس الدّهماء إلى اليوم ، ولديه ذاكرة عن الأب الّذي رُمِي في أحد المستنقعات في الحبشة ، والأمّ وابنها في درب الآلام الّتي قطعاها ، وبقيّة الأحداث فيما بعد . ولم يكنْ للببّغاء قفص ، كانتْ له شجرةٌ في البهو لا يُبارحها إلاّ قليلاً . بالإضافة إلى الكلب السّلوقيّ الأسود الّذي كان يقضم أصابع الشّيخ (عايد) في الزّمن الغابر ، ولم يكنْ يدري أحدٌ أو يتكهّن متى يكون هذا الكلبُ كلبًا ، ومتى يكون جنًّا!! وكانتْ له غرفة بجانب غرفة مسعود تُضاهيها رونقًا وجمالاً وتأثيثًا .

كانت الببّغاء تنطق بلغتين ، هما الأمهريّة وهي لغة المولد ، والعربيّة وهي لغة المنشأ . وكان (مسعود) يُحاورها باللّغتين فإذا أراد أن يختصّ نفسه دون غيره بالفهم تحدّث معها بالأمهريّة ، وأمّا الكلب السّلوقيّ فكان يحاور من خلاله (أسيار) الّتي كانت - على عادتها - كثيرًا ما تتمثّل فيه .

(٥٤)
هل البشريةَ فُقاعةُ صابون تنتفخُ سريعًا ثم تَنْفثئ؟!

جبهةٌ عريضةٌ ، وطولٌ فارع ، وبَسطةٌ في الجسم ، وبشرةٌ سوداء ، وعينان حادّتان ، وأنفٌ أَفْطس ، وخدّان لاحمان ، ومشيةٌ عسكريّة ، وعبوسٌ لا يفارق الوجه إلاّ قليلاً ، وجِدّيّة مُفرطة لا تنتهكُها إلاّ مجالسُ الأُنس ، وفيما عدا ذلك فهو غضبٌ مُستشيط وشرٌّ مستطير ، لا يترك اللّباس الكاكيّ العسكريّ إلاّ إذا أوى إلى فراشه ، يغطّي كتفيه وصدره بالنّياشين المُذهّبة الّتي تلمع على ضوء ثريّات (الدّيسق) الّتي كان يقضي فيه أكثر أوقاته .

رأسهُ تتحرّك فوق كتفيه كأنّه ديكٌ ينقر حَبّ الأرض ، حَرَكات سريعاتٌ خاطفات كأنّه يريد أن يرى ما يحدث حوله في كلّ ثانية ، لا تهدأ الرأس وعمودها من الالتفات يمنةً أو يسرةً ، صعودًا أو هبوطًا أبدًا . ومع أنّ عينَيه واسعتان إلاّ أنّه كان يُضيّقهما أغلب الأوقات كأنّه في تركيزٍ مستمرّ وتحفّز دائم . وعلى يمينه سلاحه المحشوّ والجاهز للاستخدام ، لقد أصبح في مكانه على وسطه جزءًا ثابتًا من هيئته المطبوعة في ذهن رؤساء دوائره ووزرائه وحتّى أعدائه .

في عامه الثّاني كان قد بسطَ نفوذه كما لم يحدث لامبراطور من قبلُ ، لكنّ نهاية هذا العام حملتْ له مفاجأة جديدةً ، فقد أخبره (خير

الله) أنّ العلماء الّذين كانوا يُجرون أبحاثهم في الصّحراء الكُبرى اكتشفوا الذّهب الأسود الّذي تشكّل من المواد العُضويّة للأحياء المنقرضة كالدّيناصورات وغيرها عبرَ ملايين السّنين . وأنّ نتائج الفحوص أثبتت أنّه سيكون وقود العالَم المستقبليّ ، وأنّه سيقوم بتشغيل كلّ المعدّات الحربيّة بدلاً من الغاز ، فضلاً عن تشغيله لآليّات الإنتاج الغذائيّ في المصانع الكُبرى .

كان هذا السّائل الأسود قد أضيف إلى السّواد الأعظم الّذي مُنيتْ به الدّولة ، فبالإضافة إلى الحاكم الأسود والكلب الأسود وآسيار ها هو يُطلّ برأسه من جديد ليُضيف عَرَضًا جديدًا من أعراض الدّنيا السّوداء في أيدي السّلطان .

وحينما كانت الدّول والحضارات تنشأ على الماء ، وتبني مجدها على الضّفاف ، كانت هذه الدّولة المسعوديّة تستعدّ لتبني مجدًا جديدًا على منابع الماء الأسود . ولأنّه صار يدخل في التّصنيع والإنتاج على أوسع مدى فقد بدأت تظهر التّحالفات بناءً على أماكن وجوده ، ولا عجبَ أنّ دولاً جديدةً قد تمّتْ هناك ، وأنّ مُدنًا قد جرى تخطيطها حوله لتستوعب العائلات الّتي ستقيم حول مصانعه مع أربابها العاملين في شركات استخراجه .

واجتهد وزير التّخطيط المدنيّ (أشرف) هو وكوادره في إنشاء مدن حديثة ، بشبكة طرق مُتطوّرة ضمّتْ أنفاقًا وجسورًا ضخمة ، واعتمدتْ على استيعاب عشرات الملايين أو المئات منهم في كلّ مدينة . إنّها الصّحراء ؛ وإنّها قابلةٌ لأن تستوعب أكبر المدن وأضخمها وأكثرها تمدُّدًا . وتحوّلتِ الأراضي الصّفراء إلى طرقٍ سوداء ؛ ليحكُمَ السّواد من جديد ، وليكون سيّد الموقف والشّاهد عليه .

إلى أينَ تتّجه المَدَنيّة الحديثة ، إنّه لتطوّر مُذهل هذا الّذي يحدث ، وإنّه لتسارعٌ لا يكاد العقل يلتقط أنفاسه في تصوّر مدى حركته الدّائبة . ما الّذي يحدث للعالَم؟! هل هو الانفجار الكبير أم الأخير؟! هل البشريّة فُقاعة صابون تنتفخ انتفاخًا سريعًا ثمّ تنفثئ فتعود فراغًا وهواءً وخواءً؟! أم هي مدّ بحريّ سيبتلع اليابسة فيما يُشبه الطّوفان؟! إلى أين يريد أن يصل البشر في اختراعاتهم؟! هل هم مُؤهّلون روحيًا لاستيعاب الموجة المادّيّة القادمة؟! أم أنّهم سيغرقون فيها فيبدأ فيهم التّنافس فيقتلهم أوّلاً ثمّ يقتل كلّ ما حولهم .

إذا كان هذا التّطوّر قد وفّر للإنسان كلّ سُبُل الرّاحة ، وأغدق عليه من الأموال والنِّعَم والخيرات ما لم يكنْ يحلُم به عقلُ أكبر الفلاسفة من أوّل الحياة فما فائدة الجنّة إذًا؟! ولماذا بشّر الأنبياءُ المُعذّبين من أتباعهم بها يوم القيامة؟! إذا كان هؤلاء البشر اليوم قد وجدوا كلّ ما يشتهون ويتمنّون بين أيديهم ففيمَ التّوق إلى ما لا لم تره عينٌ من قبلُ ، ولم تسمعْ به أذُن ، ولم يخطر على قلب بشر؟! أم أنّ الجنّة مُخصّصةٌ لأولئك الغابرين من الّذين عاشوا حياة الضّنك والعذاب في العصور السّحيقة جزاء ما عانَوه ، ومحرّمةٌ علينا نحن الّذين نعيش في عصر الخيرات والبركات هذا؟! ألأنّ عصر الأنبياء قد انتهى ؛ فقد انتهى معه عصر التّبشير بالجنّة ، فجاء بها الله إلينا دون تبشير لفقدان النّبيّ القادر على التّبشير بها؟! أم أنّ هذه البَرَكات ما هي إلاّ خيرٌ ظاهرٌ عابرٌ سرعان ما يضمحلّ وينتهي ، ويستفحل من بعده الشّرّ والبؤس الكامنان فيه؟! أإذا ما تمتّع النّاس بالرّغد أيّامًا معدودات فإنّ الشّقاء المقيم سيأتيهم من بعدُ وعمّا قريب؟! وفي زحمة الخيرات المُتراكمات ألا ينسى الخَلْقُ الخالق ، ويلتفت القلب إلى الطّين ، ويقسو الشّعور ، وتتبلّد

الأحاسيس ، فلا يعرف المُتقلّبون في النّعيم فضل المُنعم الأوّل؟!!

شكّل (خير الله) مُريدين حوله ، أغدق عليهم بعضَ عوائد الذّهب الأسود الّذي أخرجتْه الدّولة ، وخصّ نفسه بنصيب الأسد من خلال امتلاك الشّركات المُستخرِجة والمُصدِّرة على حدّ سواء ، وإقامة المتاجر الكُبرى الّتي تبيع للنّاس غذاءهم .

غير أنّ كثرة الخير تفتح القلب على الشّره والطّمع ، والطّمع إذا تمكّن من قلب صاحبه حوّله إلى لصّ يُسوّغ لنفسه السّرقة بوسائل شتّى . هذا ما حدث في المدن المُحدثة ، إذ سُرقتْ من قبل المتنفّذين وعلى رأسهم (خير الله) ولم يكن الأخير يشكّ للحظة بأنّ ما فعله هو لمصلحة الدّولة ، لكنّ الّذين لم يحصّلوا من الغنيمة ما حصّل هو ، من حاشيته وحتّى أقرب الأصدقاء له وشَوا به إلى (مسعود) ، وقدّموه إليه على أنّه لصٌّ كبيرٌ سرقَ مُقدّرات الدّولة ، فناداه مسعود ، وعقد له ولزبانيته محاكمةً خاصّة في (الدّيسق) :

- تأكل من جسدي في غيابي .
- معاذ الله سيّدي .
- الكلب العقور وحده الّذي يأكل اليد الّتي تمتدّ نحوه .
- إنّما أنا عبدُك الذّليل ، وخادمك المُطيع .
- إلى ساحة الإعدام . (أشار إلى فرقة الموت الّتي يترأسها فاتك) .

(٥٥)
تَركَ كُلَّ ما فِي الجَنَّةِ مِن نَعيمٍ، وأكلَ مِن الشَّجرة!!

إنّها (الغاشية) ؛ حيثُ كان حُلْم (أسيار) أن تُسمّى ، ولقد بُنيتْ على خبرة ومعرفة ودراية منها ؛ ساحة الإعدام هذه ليستْ سجنًا مكتملاً ولا بناءً شامخًا ، إنّها أقرب إلى ساحة دائريّة فسيحة يصل قطرها إلى ٧٥٠ مترًا . وعلى أطرافها جدارٌ عالٍ يُحيطُ بها من جميع جوانبها لكي يمنع الضّحيّة من الهرب إذا ما تُركَ غيرَ مقيّد ، وداخل هذه الأسوار بعضُ غرف الإعدام الخاصّة . وعلى الطّرف الغربيّ من هذه السّاحة أقيمَ مدرّج داخليّ صغير يتّسع لمئة شخص من الخاصّة ، وتنتصبُ في طرفه الأبعد عن مقاعد المتفرّجين شاشةٌ عملاقةٌ تعكسُ صورة الضّحيّة في ذرّات الهواء ، لها أطراف من السّيليكون غير المرئيّ ، تُضخّم صورة الكائن الحيّ عشرة أضعاف حجمه الطّبيعيّ ، ولم تكن الشّاشة تُستخدم إلاّ نادرًا . في حين أنّه حدث غير مرّة أن يملأ مقاعد المتفرّجين عددٌ من الشّخصيّات البارزة في الدّولة المسعوديّة الممتدّة يُشاهدون عمليّة إعدام مقصودة لذاتها ، ومُعدّة لكي يراها هذا الجمع العليّ من القادة .

جيءَ (بخير الله) إلى الغاشية ، رُفعَ عاريًا على الصّليب في وسطها ، ودُقّتْ كلّ يدٍ على خشبةٍ من الخشبتين الممتدّتين بمسامير

كبيرة ، سالَ منهما الدّم على كفّيه وهو يئنّ من وطأة الألم صاكًا على أسنانه لكي لا يصرخ فيُقال : ضَعُف وجَبُن . وجمُعتْ ساقاه معًا وقُيِّدتا إلى الخشبة الهابطة بحبال معدنيّة فانجرح موضع القيد ، وبدأ الدّم ينزّ من جسده . أمر (مسعود) بوعاء زجاجيّ يوضعَ أسفلَ قدميه لكي تتجمّع فيه القطرات . تُرِك في الشّمس خمسةَ أيّام ، في كلّ يوم يأتيه (مسعود) ويأخذ من (فاتك) حربةَ الإعدام فيمرّ بها على صدره فيجرح منه ما شاء وهو يقول له : «كان عليكَ ألاّ تختبر قَسْوتي» . فيزداد الجسد المصلوب شحوبًا وينزّ الدّم من بعد الجروح فيسيل على فخذيه في خطوط متعرّجة ، فيتلقّاه (فاتك) بالوعاء فيملأ ما قَطَر من أسفل أصابع قدميْه المدَلاتين . ثمّ يُترَك الوعاء في الشّمس بقيّة اليوم . بعد اليوم الخامس أمر مسعود بأن يُفتَح صدر الوزير بمقصّات فولاذيّة ويُستَخرج منه القلب ، ويُذهَب به إلى الكلب السّلوقيّ في القصر ليأكله . أمّا الوعاء فجيءَ به في اليوم السّادس إلى (الدّيسق) بحضور هيئة القيادة العسكريّة والمدنيّة فوُضعَ أمام (مسعود) فأدناه من فمه ، ثمّ رفعه إلى فيه وصبّ كلّ ما فيه داخل جوفه ، وسالَ بعضُهُ على شدقَيه ، فمسح ما سال بطرف كمّه ، ثمّ قام على قدميه فرمى الوعاء باتّجاه الجدار أمام ذهول الوزراء والقادة وهلَعهم فتكسّر ، وأحدث ذلك تكسُّرًا في قلوبهم وجزعًا فانخفضتْ أكتافُهم ، ثمّ قال بصوت أقربُ إلى صوت الوحوش الجريحة : «لأشربَنّ من دم كلّ خائن يفكّر في أن يطعنَ الميثاق أيّها الجُبناء ، تعالَوا اسجُدوا عند قدميّ» . وقفَ الوزاء والقادة مثل أغنام تنهضُ من مَرابضها ، بدأ (فاتكٌ) حفلةَ الخضوع ؛ قبّل الأرضَ بين قَدميه قبل أن ينهال عليهما لثمًا وشمًّا وتمسُّحًا . ثمّ تتابعت السّجدات والرّكعات والقبلات ، وهو ينظر إليهم وأنفاسُه

تتقطّع شـزرًا وغضبًا ليقول : هذا واجب الرّعاع تُجاه مَلِك الملوك ، ثمّ صرخ بهم جميعًا ليخرجوا . وفي اليوم السّابع عيّنَ مكان رئيس الإنتاج الشّخصَ الّذي وشى به عنده . وفي اليوم الثّامن أُنزلت الجثّة وأودعتِ التّراب .

عشرُ وسائل للإعدام جُهّزتْ لها (الغاشية) بكافّة ملحقاتها ؛ فمن الإعدام صلبًا إلى الإعدام شنقًا ، أو رميًا بالرّصاص ، أو بغرفة الغاز ، أو بالمقصلة ، أو بالأحصنة ، أو بالكلاب ، أو بالكرسيّ الكهربائيّ ، أو بالجراثيم ، أو بالخوزقة .

أكثـرُ من نصف هذه الوسائل كانت بوحي من (بلعام) إلى السلاطين والملوك السّابقين ، ونصفها أوحي بها إلى مسعود ، وقد ادّخر غيرَها عنده ليُفاجئه بها عندما تقتضي الضّرورة ؛ إنّ إبداعات (بلعام) تفوق الخيال ، وإنّ ذكاءه مكّن (مسعودًا) من أن ينتقم من أعدائه على الوجه الّذي يُرضيه ، ويُهدّئ ثورة القلب الّتي لا تنطفئ .

عادَ إلى قصره ، تأكّد من أنّ الكلب السّلوقيّ قد نَعِمَ بوجبة طازجة وشهيّة مكوّنة من قلب وزيره الخائن ؛ حدّث نفسه : لقد كان قلبُه قاتمَ السّواد ؛ إلاّ أنّ هذا ما يُلائم جوع الكلب ؛ لا بُدّ أنّه مَضَغه بشهيّة فائقة . ترك الكلب واتّجه إلى غرفته الحصينة ، توقّف في وسط البهو للحظات ، فحطّتْ على كتفه الببّغاء . أراد أن يستعيد معها بعضَ الحوارات المحفوظة في ذاكرتها . كانت هذه الببّغاء جاسوسًا له على الحواريّين أيّام اجتماعاهم السّريّة ، وعلى (رضى) و(زوبعة) حينما كانا يتحاوران في الأيّام القليلة الّتي قضاها (زوبعة) في ضيافة الدّهماء .

قُولي أيّتها الببّغاء اللّعينة ، أشعر ببعض الرّاحة في استعادة بعض هذه الحوارات ، وإنْ كانتْ حوارات بينَ سُذّج .

- فما الّذي أهلك قومي؟! (قالتْ على لسان رِضى)

- الحسد . (أجابتْه على لسان زَوْبعة)

- لقد كانوا ذوي ملك عظيم وثراء فاحش ، ففيمَ الحسد؟!

- فما كانوا يشبعون ، إنّهم ما رأوا نعمة على أحد إلاّ قالوا ليت لنا مثلها ، وعندهم خيرٌ منها . قلوبهم فارغة . والحسد عدوّ الشّكر ، يحملك على أن تنظر ما في أيدي النّاس وتنسى شُكر الله على ما في يديك .

أوقفها مسعود عند هذا الحدّ قبل أن تتابع ، ووجّه كلامه إليها ، كأنّه يُخاطب (زوبعة) من خلالها :

- لكَ ألاّ أشبَعَ.وألاّ يزولَ مُلكي . الحزم يُثبّت الدّول ، وأنتَ وصاحبُكَ فاتكما ذلك . (ثمّ أشار إلى البَبّغاء لتُكمل)

- فما أخرجَ إبليس من الجنّة؟! (قالتْ على لسان رِضى) .

- الحسد . «قال أنا خيرٌ منه» حينَ رأى أنّ الفاضل لا يسجد للمفضول!!

- فما أخرج آدم من الجنّة؟!

- الطّمع . تركَ كلّ ما في الجنّة من نعيم ، وأكل من الشّجرة .

(٥٦)
النّاسُ على دينِ مُلوكِهِم

في المنام جاءتْه أمّه . تقلّب على جنبه الآخر ليطرُدها من حلمه ، فلحقتْ به إلى هناك ، حرّك يده في الهواء مُتوعّدًا فلم يسمع لوعيده صدىً . استسلم إلى طيفها فقالتْ له :

- كان قتلُكَ لي كقتلك للنّاس جميعًا . . . أُبشّر البشريّة بالقاتل الأكبر .

- بعضُ القتل حياة ؛ أنا لا أقتلُ إلاّ مَنْ يستحقّ .

- كلاّ أنتَ تقتل لنفسك . تثأر من وَضاعتك .

- أمّي تقول هذا!!! أيّ وضاعة حلّتْ بامرأة أكثر ممّا حلّتْ بك؟!!

ثمّ يستيقظ مفزوعًا وأنفاسه مُتلاحقة ، يصيح كما كان شيخُهُ يصيح على اختلاف المكانَين وتشابُه الدّافعَين ، فيأتيه (فاتك) بالماء ، ثمّ يعود إلى نومه من جديد .

في اللّقاء الأخير في (الدّيسق) قال لمزدك وهو يقبضُ بجُمع يدَيه على عنقه : «لا يغرنّك لينُ جلد الأفعى ، إنّما السُّمُّ مخبوءٌ في النّاب» . وعده مزدك ألاّ يثير الأفعى وألاّ يقترب حتّى منْ مواطن إثارتها ، وهتف بخضوع : «أنا مُكتف باللّين يا سيّدي» . غادره وعيناه ترجُفان ، في الطّائرة التي أعادتْه إلى الشّرق لم تكفّ هاتان العينان عن

الحركة في مَحجرَيهما كأنّهما قَطْرَتا زئبق تتأرجحان على أرض صلّدة .

جمع (مَزْدك) مُستشاريه ، يسألهم عن سبب تغيّر مَلِك الملوك ناحيته . أحدهم قال : لعلّك لم تُقبّل الأرض بين قدمَيه كما يجب . آخر : لعلّك أغضبتَه . ثالث : لعلّك لَصَصْتَ بعضَ خيراته دون الرّجوع إليه ، فإنّ رئيس الإنتاج الغذائيّ الجديد ليسَ على علاقة طيّبة بك ، وإنّه واشٍ مُحترف ، وربّما أراد التّخلّص منك بهذه الطّريقة .

ظلّتْ الحيرة تأكل قلبَ (مَزْدك) ، لكنّه لم يهتدِ إلى وسيلة ، ففكّر أن يستعينَ بالجنّ ليعرف ما الّذي يُضمره له ملك الملوك . جاءه أكبر العرّافين في الشّرق ، قال لمَزْدك :

- لا تشرح لي شيئًا ؛ أعرف ما أهمَّك ؛ إنّ آسيار هي الّتي أوغرتْ صدر المَلك عليك .

- ومَنْ آسيار هذه؟!

- رَئيُّه من الجنّ .

- وما العمل؟!

- أرضِها ، يرضَ عنكَ قلبُ المَلك .

- أنا مستعدٌّ لأن أدفع نصف عمري من أجل ذلك .

بعد ليلتَين ، استحضر العرّافُ (آسيار) ، وسألها الرّضى ، فأجابته سينتهي كلّ شيء ، وسيُصبح مزدك هو الأثير والحبيب إلى الملك ، لو نفّذ ما يُطلَب إليه . ردّ عليها العرّاف : إنّ سيّدي مستعدٌّ لذلك تمامًا . قالت : إذًا سيأتيه (بلعام) في هيئة بشريّ حكيم وسيُملي ما يجب عليه فعله . قال العرّاف لمزدك : سيحلّ عليكَ حكيمٌ نجدٍ فأنصتْ له بقلبك .

بدا كأنّه الفيلسوف الأكبر ، على وجهه وقار الحُكماء ، وفي

ـهته نور العلماء ، وفي لسانه فصاحة الشّعراء ، وفي قوْله بلاغة الأدباء ، وفي معانيه ظلّ الخُلود . استقبله (مزدك) بأحسن ما يكون الاستقبال ، وأولم له الولائم ، وأوقد له على النّار المكارم ، فقال له : «ما لهذا جئتُك ، ولكنْ لأمرٍ فيه صلاحُكَ وصلاح أمر هذا الشّرق الّذي ما زال يئنّ تحت وطأة الجَهْل والعبوديّة» .

وفي اللّيل ، في خلاء من الإنس ، وفي صفاءٍ من حَيٍّ في المجلس إلاّهما ، قال (بلعام) لمزدك :

- إنّما أنا رسول (آسيار) الّتي علّمت الخلقَ الخيرَ والهُدى .

- نِعْم الرّسول والمُرسِل .

- لقد رأينا أنّ دولتك الكريمة هي المكان الأنسب لنشر هذه الفكرة الطّيّبة .

- لا يرفضُ الطّيّبَ إلا خبيث .

- إنّ شعبَك عنده القابليّة للفكرة الّتي نحن بصدد الحديث حولها وتطبيقها .

- قُلْ فإنّي مُصغٍ .

- ألم يخلق الله آدم ، ثمّ خلق منه حوّاء؟!

- بلى .

- ألم يكونا جسدًا واحدًا؟!

- بلى .

- ففيمَ نفرّق نحن اليومَ بينهما!!

- . . . . . !!

- ألم يتزوّج ابنُه ابنتَه؟!

- بلى .

- ففيم النّاسُ اليوم حرّموا هذا ، والله من قبلُ قد حلّله؟!
- . . . .!!
- وفيمَ ينظرون إلى أنّ امرأةً واحدةً هي زوجةُ رجلٍ واحدٍ ؛ أليس المنطق الّذي نسَلَ عليه الخلقُ هو شيوع الفراش؟!
- وضّحْ لي أكثر ، أرجوك ماذا تعني بشيوع الفراش؟!
- شيوع الفراش يعني أن يطأ الرّجل عليه ما شاء من النّساء ، وأنْ تنام المرأة فيه مع ما شاءت من الرّجال .
- وثمرة اللّقاء بينهم؟!
- للدّولة ؛ إنّها دولتكَ أنتَ ، وإنّهم فتيانُك ، وإنّكَ إنْ ربّيتَهم على ما تحبّ من القوّة والفروسيّة نتجَ لك منهم خيرُ القادة وخير الفاتحين .
- صدقتَ .
- ولكنْ في بالي أمرٌ .
- قُلْ .
- إنّ النّاسَ لن تتقبّل هذا فجأة وقد اعتادتْ على سواه .
- والحل؟!
- كُنْ أنتَ القُدوة ، فإنْ رأوكَ تفعل هذا الأمر فعلوا مثلك ؛ إنّما النّاسُ على دينِ مُلوكهم .
- أفعَلُ .

في الصّباح ، كان رُسُل الملك يُحدّثون النّاسَ بما فتح الله على (مزدك) من الحكمة ، ويبشّرونهم بأنّ عهدًا جديدًا من الحرّيّة والمُتعة سوف يعمّ الدّولة ، وأنّ عصور التّخلّف والانحطاط الّتي سارتْ عليها دولٌ لا تفقه من سياسة الشّعوب شيئًا قد ولّتْ إلى غير رجعة .

وفي اللّيل من ذلك الصّباح كان (مزدك) ينام مع ابنته في ذات الفراش ، وهو يقول لها : ليسَ بمقدور البشر أن يصبروا على طعام واحد . أمّا هي فتجيب : ولا يكون الطّبق ممتعًا إلاّ إذا ألقيتُ فيه أصنافٌ شتّى وألوانٌ عدّة .

بعد بضعة أشهر صار (شيوع الفراش) مبدأ تسير عليه الدّولة المزدكيّة ، ولم ينجُ منه أحدٌ إلاّ مَنْ رَحِمَ الله ، وكثر أولاد الفراش الّذين لا يُعرَف لهم أصلٌ على وجه التّحديد ، واستُحدِثتْ بيوتات من أجل هذا الجيل الجديد من اللّقطاء المُكرّمين!!

لكنّ (شيوع الفراش) أدّى إلى شيوع الشّهوة ، والشّهوة إنْ لم يكنْ لها حدٌ يردعها تغولّتْ على كلّ شيء ، وإذا استحكم خَبَثُها في الإنسان دون أن يضبطها انقلبتْ إلى وحش مفترس أوّل ما يبدأ بصاحبه ؛ وذلك حينَ لا يُرضيه حدٌ معيّنٌ منها فيطلبُ ما هو أعلى منه ، أو ما هو مختلفٌ عمّا جرّبه ؛ فيؤدّي ذلك إلى تحطيم ما تبقّى من جُذُر الصّمود أمام هذا الطّوفان الجارف ؛ وهذا ما كان ؛ فلقد اشتهى الرّجالُ الرّجالَ ، واشتهت النّساءُ النّساء . وانهدّ كلّ محرّم ، وارتُكِبتْ كلُّ فاحشة!!

(٥٧)
كلُّ مَنْ يجري وراء شهَواته فكأنَّما يجري وراءَ شَبَح

غـابَ (سـرحـان) في أيكة الأحداث المتشـابكة ، ونأى بنفسـه بعيدًا ؛ إنّه حينَ ضاقَ قلبُه ممّا يرى من كثرة الخبث ، واعتلال الموازين اعتزل الفتنة واتّخذ له كهفًا في طرف الدّهماء ، يعبد الله فيه ، ويقتات على مـا يجد حوله من أعشـاب الصّحراء ونباتاتها . وعل غِـرار تلّة (رضى) في الأعالي كان هنا كهف (سرحان) .

في اللّيـالي الدّوامس ، حـيثُ يصمتُ الكون كلّه في الفـضـاء الرّحيب لهيبة العظيم ، كان يجلس ساهمَ الطّرف موجوع الفؤاد يُقلّب طَرْفـه في النّجوم ، ويسأل الله الهُـدى والنّجاة ، ويأسى على مـا حلّ بالدّهماء والنّاس والبلاد كلّها ، وكان كثيرَ الصّيام ، قليلَ الكلام ، لا يُناجي إلاّ الله مُنتظرًا يوم الخلاص .

لم يأكل شيئًا منذُ ليلتَين ، صَلّى ما استطاع ثمّ أوى إلى فراشٍ من حصيرٍ في الكهف واستغرق في نوم طويلٍ بعد تعبٍ وجُهد وجوع ، جاءه في الحُلُم (رضى) :

- لقد غبتَ عنّا ، وطال بنا الشّوقُ إليك .
- لا أحد عانى من الغياب مثلي .
- لن يطول بقائي في الأعالي ، لقد اقتربَ يومُ الرّجوع والطُّهر .

ولكنَّني عاتبٌ عليكَ اعتزالَكَ النَّاس في كهفٍ ، فلمن تركتَ هؤلاء الآثمين يتخبَّطون في غيِّهم؟!

– لقد كنتَ أجدر منِّي بهذا العتاب ؛ أنتَ الَّذي غادرْتَنا دون أن تقول كلمة وداع ولو في السِّرِّ .

– دَعْنا نتركُ العتابَ جانبًا ونتحدَّثْ في المهمِّ ؛ أريدُ منكَ شيئًا ؛ أن تذهب إلى (مسعود) فتنصحه ؛ فإنَّ شرَّه يستفحل ويكاد يدمِّر الكون .

– إنَّه طغى في الأرض وتجبَّر وإنَّه بطَّاش سفَّاك ، وأخاف أن يمسَّني من عذابه ما يمسَّني ، وإنَّك لم تعرف ماذا أحدثَ بعدكَ .

– لا تخفْ ؛ لا يزال معك من الله نصيرٌ فلا يستطيع أن يقربك .

صحا (سرحان) من نومه خفيفًا ، وفيه من السَّعادة ألوان ؛ وكأنَّه أدركَ أنَّ الحياةَ رسالة ؛ وأنَّ انزواءه في الكهف لن ينفع أحدًا ، ولكنَّه يضرّ الكثيرين ؛ وأنَّ الحياةَ لا طعمَ لها إذا لم تُخالط النَّاسَ فيصيبُكَ من لأوائهم ما يُصيبك فتصبر فيكون ذلك لك ذخرًا . أمَّا الَّذين يعتزلون فإنَّهم سرعان ما يأكل الجفافُ قلوبهم واليبوسة أرواحهم ؛ أرأيتَ إلى القطرة اليتيمة النَّازلة من السَّماء أتسقي الزَّرع والحرث ، أم أنَّها لا تكاد تجاوز موضعها الَّذي نزلتْ فوقه؟! إنَّما يأتي الرَّوض البهيج من قطرات متتابعات متشابكات يسبقُ بعضُها بعضًا ، إلى أن يزرع نفسه في الأرض فيأتي بخيرٍ على قدره ، ثمَّ تضيف إليه قطرةٌ أخرى خيرًا آخر . . . وهكذا حتَّى يمتدّ الخير فيعمّ . ولو أنَّ كلَّ قطرة فكَّرتْ أن تعزل أو أن تمتنع عن الهُطول لظلَّتْ الأرض جدباء شوهاء .

لم يُمهل الشَّمسَ أن ترتفع كثيرًا ، سار بعزم فتيٍّ ، وإيمان راسخ ، فجاوز القصر ، فأراد الحرسُ أن يمنعوه فما استطاعوا حتَّى دخل (الدِّيسَق) على (مسعود) ، فنظر إليه الأخير مزدريًا كأنَّما شاهدَ جيفةً ،

ثمّ شدَ على كفّيه مُشبّكًا بينهما قبل أن يهتف فيه باستهزاء :

- ما الّذي جاء بكَ أيّها القدّيس؟! ألم تكن قد اعتزلتَ مجلسنا خوفًا على نفسك؟! فما الّذي جذبكَ إلينا من جديد؟! أيكون جسدُك طلبَ ما يطلب جسدُ الأصحّاء من التّوق إلى ما يُشبعُ النّهم، ويُطفئ الأوام؟! فلكلّ جسد نهمُه، ولكلّ شهوة أوامُها.

- كلُّ مَنْ يجري وراء شهواته فكأنّما يجري وراء شبح يتوهّم أنّه سيُمسكه، والحقيقة أنّه لا طائل من العَدْو وراءه، وما من لاهثٍ وراء شبح الشّهوة إلاّ سقط من الإعياء قبل أن يبلغ مرامه.

- ماذا تقصد أيّها المُتعالم؟!

- لقد أخضعتَ نفسكَ لنزوات جسدك ففسد عقلُك، فأفسدت بفساده النّاس، فانتشر الشرّ وعمّت الرّذيلة.

- لم أُخضعْ جسدي للشهوة؛ لقد آليتُ على نفسي ألاّ أقرب النّساء.

- ولكنّك أخضعتَ قلبكَ للشهوة، وهذا أعمّ وأطمّ.

- وكيف يخضع القلبُ للشّهوة مولانا؟! (قال ذلك باستهزاء فاضح)

- باستمراء القتل، وبتوهّم أنّ السّلطة إذا وقعتْ في اليد فليس تُفارقها.

- أنا لا أقتُلُ إلاّ مَنْ يُعرّض نفسه للسّيف، لو أنّ النّاس تتّخذ من الشّريعة منهاجًا لما ارتفع سيفي في وجه أحد.

- إنّها شريعتُكَ أنتَ؛ شريعة اشتهاء الدّم.

- بل شريعة الحقّ والعدل، وأمّا شريعتكَ أنتَ فهي شريعة الخَوَر والبَلَه.

- واهم . أنتَ تريد أن تعانقك الشّياطين في الظّلمات ، وأنا أريد أن تصافحني الملائكة في الطّرقات .

- اخرجْ ، لولا العهد الّذي كان بيني وبينَ (رضى) لما تركتُ نفسي أستمع إلى تُرّهاتك .

- أنتَ لا ترعى عهدًا ولا ذمّة ؛ بل ديدنُكَ الخيانة والغَدْر ، ولئنْ لم تنته ليرتدَنَّ سيفُكَ إلى نَحرك .

- اقتلوه . (يصيح بالحرس ، فيتقدّم فاتك ليضع الرّصاص في عنقه) .

- لا تُتعب نفسكَ ، لا سُلطانَ لك عليّ ؛ لا أنتَ ولا زبانيتُك . (يشير بيده فيقف فاتك دون أن يتقدّم خطوة أخرى) ، ويتابع : لقد نصحتُك ولكنّ قلبكَ أشدّ سوادًا من قِطَع اللّيل المُظلم ، ولقد ران عليه الإثم فأنّى له أن يستجيب لصوت الله .

- أُخرجْ قبل أن أقتلعكَ أنتَ وقومك أجمعين .

ظلّ مسعود يتقلّب على فِراشه في تلك اللّيلة ، لم يُقلقه ممّا قاله سرحان شيءٌ إلاّ تلك الجملة : «لئنْ لم تنتهِ ليرتدَنَّ سيفُكَ إلى نحرك» . وخاف على نفسه . هتفَ في داخله : «هل من المعقول أن يحدث هذا وأنا الّذي أُحيي وأُميت؟!» كان ذلك مُحاولةً لطمأنة نفسه ، لكنْ هيهات والكلمات تثقبُ جدار القلب ، وتُحدث طنينًا متواصلاً في الجمجمة . تركَ الفراش . . . مشى قليلاً بخطوات بطيئة في السّاحة يريد أن يطرد عنه الوساوس ، تأكّد من أنّ الكلب السّلوقي في مربضه . كان مستلقيًا ينعم بنوم هادئ ، حوّل نظره إلى الشّجرة فرأى الببّغاء تدفن رأسها في ريش صدرها وتغطّ في نوم عميق . حسَدهما ، هتفَ في نفسه : «ليتَ لي قلبيكما لأنام!!» .

(٥٨)
كانتْ لديكَ فُرصَةٌ لتَموتَ عَزيزًا، ولَكنكَ اختَرتَ الأُخرى

غَلَتِ الحِمَم في القُمقُم، والتهبَ كلّ ما في قَرار الجبل، وزمجرتْ سيولٌ من الحديد المُنصهر في الجوف، واشتدّ غيظُ النّار في تلك القُدُور. أمّا الجبال المُحيطة بالدّولة المَزْدكية من جهة الشّرق والشّمال فقد كادت تخرّ مصعوقةً من هول ما يجري تحتها.

«ما الّذي أغضبَ الطّبيعة إلى هذا الحدّ؟!»؛ قال مَزْدك لوزرائه حينَ جاءته تقارير عن ثَوَران بركان جبل (ألبرز). أجابه وزير البيئة: «يد الله لا تُردّ، وإذا بطشتْ كان الهول أكبر من أن تحتمله عقول البشر وقلوبهم مُجتمعين». «وما العمل؟!» سأل مَزْدك الوزيرَ. «إعلان الجلاء بأسرع ما يُمكن، ربّما لن يُمهلنا البركان أكثر من نصف يوم ليغادر السُّكّان بيوتهم ومحلاّتهم ومكاتبهم». شيءٌ ما آخر أكثرُ هولاً حدث؛ ذلك أنّه حينَ بدأت إجراءات الإخلاء لم يُعطهم البركان أكثر من نصف ساعة.

ثار البركان كأنّ مَلَكًا من خُزّان الجحيم كان يجلس تحته متحفّزًا لأمر إلهيّ إليه بالنّفخ في الصّور، ولقد جاء الأمر بالفعل، ونفخ المَلَك تحتَ الحجارة التي تُشوى بالنّار حتّى كادتْ تتفرقّع، ثمّ جاءتها النّفخة الحارّة فتطايرتْ في الأجواء، وانفجرتْ في تطايُرها لشدّة حرارتها فتشكّلتْ سحابةٌ من النّيران الملتهبة ارتفعت في السّماء لأكثر من عشرة

كيلومترات ، ثمّ تحوّلت هذه النّيران مع الحمم والصّخور المنفجرة إلى رماد . ثمّ بُغتَ النّاس من هول الأصوات في البداية فانكتمَ النّفس في قلوبهم فسقطوا صَرعى ؛ كُلٌّ في مكانه . فمنهم مَنْ صُرع في بيته مع زوجه وأطفاله ، ومنهم من صُرع في الطّرقات ، ومنهم من صُرع في الشّركات ، ومنهم من صُرع في دورات المياه ، ومنهم منْ صُرع في السّاحات والحدائق ، ومنهم مَنْ صُرع وهو يأكل ، أو ينام ، أو قاعدًا أو قائمًا . . . وكأنّ سرّ الحياة سُلبَ منهم جميعًا في لحظة واحدة خاطفة فلم يُحرّكوا من بعدها ساكنًا ، وتجمّدتْ أوصالهم على الهيْئة الّتي كانوها . ثمّ هوت الكتلة الرّماديّة العملاقة من موضعها العالي فغطّت الدّولة المزدكيّة بأكملها ، وانتشرتْ على مسافة مئات الكيلومترات في كلّ الاتّجاهات ، وطمرتْ تحتها كلّ شيء ، ولم يبقَ ظاهرًا من الدّولة إلاّ بعض المعالم القليلة في الدّولة والّتي شُيّدت فوق الجبال المرتفعة ، وكان من بينها قصر مَزدك .

أوّل مَنْ عَمِل بموجب الإخلاء والجلاء هو الملك نفسه ، كانت هناك طائرة أسرع من الصّوت بعشرة أضعاف تنتظره في باحة القصر هو وأهل بيته ؛ زوجته وأطفاله وبعضُ خدمه . نزَل الملكُ دَرجات القصر الّتي تُفضي إلى الباحة من الجهة الخلفيّة وهو يكاد يسقط متعثّرًا لشدّة ارتجافه ؛ كانت أصوات غليان الحمم في أعماق الجبل تصل إليه فينخلع لها قلبُه ، ولم يكنْ مركز البركان بعيدًا عن قصره .

صاح بزوجته وأطفاله وهو يقفز على رجليه ومُلوّحًا بيديه ليُسرعوا ، وكان طَمَعه قد أخّره قليلاً ليحمل بنفسه بعضَ أدوات رفاهيّته ممّا كان يعدّه تافهًا ومُحتَقرًا ومُهملاً فيما مضى قبلَ الكارثة ، والآن في لحظات الخَطَر المُحدق صار له قيمة ، أمّا أولاده فكانوا يجرّون بعضَ ألعابهم ، ويبكون دون أن يفهموا ما يجري ، وأمّا زوجته فكانت

تشدّ بين يديها إلى صدرها على صندوق من الذّهب هو كُلُّ ما استطاعت استنقاذه وتداركه قبل فوات الأوان .

ركبوا الطّائرة الّتي اتّجهتْ بهم إلى الشّمال حيثُ كان قد تخابر مع أحد تجّار مزارع المُخدّرات الكبار ليستضيفهم عنده إلى حين انجلاء الغبار ، وإحصاء الضّحايا .

صارتْ جُثث البشر في الدّولة المزدكيّة حجارةً ، على هيئاتهم البشريّة نفسها تحوّلوا إلى حجارة ؛ ذلك أنّ الرّماد الّذي غطّاهم أتبعتْه عواصف رعديّة ، وزخّات مطريّة ، وهبوط حادّ في درجات الحرارة فحفظ ذلك الصّقيع المُفاجئ أجسادهم من التّحلّل أو التّمزّق .

لم يُمهل مَلكُ المُلوك تاجرَ المُخدّرات إلاّ يومَين ليُسلّمه (مزدك) وعائلته ، وإلاّ فإنّ ملكيّة المزرعة الّتي تُشبع بطنه ستُسحَب منه ، ونتاجها سيؤول إلى الدّولة المركزيّة .

لم يتأخّر التّاجر في الرّدّ على سيّده ، بعث إليه برسالة في اللّحظة نفسها يقول فيها : «مالٌ في اليد ولا هَمٌّ في القلب . مَزْدك وعائلته مجتمعين لا يُساوون عندي زهرة خشخاش واحدة» . اطمأنّ الملك للرّدّ وأضاف إلى رجاله الثّقات رجلاً جديدًا ، وقد يُعطيه نصف القطب الشّماليّ ليحكمه عن قريب . وهكذا جيء بالمَلك إلى سيّده ذليلاً مُهانًا . وقف (مزدك) مُطرق الرأس أمام (مسعود) الّذي قال له كمن طُعن طعنةً غادرة :

– هربتَ من العدوّ الطّبيعة فما أسهل أن تهرب من العدّو البشر .

– لم يكنْ بإمكاني أن أفعل شيئًا لهم يا سيّدي .

– بلى ؛ كان بإمكانكَ أن تموت معهم عزيزًا كما ماتوا . الّذي يُضحّي بشعبه لينجو هو خائن .

- قضيتُ عمري في طاعتك .

- وأن لعمرك هذا أن ينتهي على يديّ ، لقد كان موتُك قدرًا مكتوبًا ، وكانت لديكَ فرصة لتموت عزيزًا ، ولكنّك اخترتَ الأخرى .

صاح (بفاتك) : «إلى الغاشية أريده أن يموت بالخازوق» . اصفرّ وجه (مزدك) ؛ بدت حياة الرّفاهية الّتي غرق فيها هو وشعبه تضمحلّ في لحظة خاطفة ، جفّ ريقه وهو يتصوّر أنّ كلّ ريش النّعام والحرير الذي كان يتقلّب فوقه أيّام مُلكه سينتهي إلى الخازوق المرعِب .

قُيِّدتْ يداه من خلفه ، وعُصبتْ عيناه ، ومُدّد على جانبه الأيسر ، وشُقّتْ عنه ملابسه ، وأُتي بالخازوق فأدخلَ في دُبره ، فصاح ، ثمّ حُشيَ بالمطرقة أكثر فولول ، ثمّ بدأ (فاتك) يحرفه عن أحشائه لكي لا يمسّ الرّئتين أو القلب فيموت سريعًا ، كان ينفّذ وصيّة ملك الملوك : «أريدُه أن يموت ببطء» . ظلّ (فاتك) أكثر من ساعتين وهو يحشر الخازوق بعناية حتّى خرج من كتف (مزدك) . أيُّ آلام يُمكن لمزدك أن يصفها لو كان له لسان في تلك اللّحظات . ظلّ حيًّا ثلاثة أيّام من بعدها ، في مساء اليوم الأوّل أمر (مسعود) بأن يأتوه بزوجته وأطفاله ، وأمر المطبخ أن يُجهِّز ، فدخله وأعدّ بنفسه مائدةً طبخَها ممّا اشتهى من الطّعام . ثمّ أمر العائلة أن تُساق إلى حيثُ ربُّها يُعذَّب بالخازوق ، ثمّ أوعز بحزّ رقابهم جميعًا ، وأُقيمتْ له المائدة قريبًا منهم ، فكان يأكل اللّقمة بلذّة فائقة وهو ينظر إليهم يتخبّطون في دمائهم لم يموتوا بعد ، ومزدك يرى أهله يُذبحون ويلفظون أنفاسهم أمامه ، وينظر إلى ما لدى مسعود من أطايب الطّعام والشّراب ، وعيناه تتقلّبان في جحيمه ونعيم غريمه . مع آخر طفل لفظ أنفاسه كان مسعود ينفض يديه من آخر لقمة ازدردها وهو يقول : لم آكل

في حياتي طعامًا أطيبَ من هذا ولا أشهى منه .

في اليوم الرّابع انفصلتْ روح مزدك عن جسده ، حُمِلَ مثلَ حيوان في كيس ، شاهد (مسعود) المنظر فتذكّر أباه ، قال لهم توقّفوا : «هل من مستنقع هنا؟!» . «لا يا سيّدي» أجابوه مستغربين . «إذًا اقذفوا به إلى حفرة القّاذروات والنُّفايات» .

في اللّيل جاءته أمّه في النّوم ، كانت تضحك ضحكات هستيريّة ، شاركها الضّحك في حلمه ، ثمّ استيقظ وهو يبكي . صرخ برئيس فرقة الموت عنده ، جاءه على عجل ، طلبَ منه أن يأتي ومعه عشرةُ رجال أشدّاء وفي أيديهم المعاول . سار بهم حتّى وصل قبر أمّه ، طلبَ منهم أن ينبشوا القبر ، تردّدوا قليلاً في البداية ، فصرخ فيهم ، فأسرعوا ، حينَ انجلى التّراب عن الجثّة ، هبطَ بنفسه إليها لم يكنْ قد تبقّى منها إلاّ بعض العظام والجمجمة . تناول الجمجمة بينَ يديه ، أزال عنها ما علِقَ بها من التّراب والدّيدان ، رفعها إلى السّماء فبدتْ شبحًا مُرعبًا على ضوء القمر ، أدناها من وجهه وهمّ أن يبصق في عينيها ، تراجع عن ذلك ، رفعها إلى أعلى مرّة ثانية وهو يصيح ، أدناها من جديد ، ثمّ هوى عليها يقبّلها وهو يبكي!!

أمر (فاتك) ومَنْ معه أن يدفنوا العظام ويهيلوا التّراب عليها ، وأبقى على الجمجمة بين يديه يحتضنها ، وحينَ وصلَ غرفته الغامضة ، وضع الجمجمة في ثلاّجة تحتلّ الرّكن القريب من سريره ؛ وسمّاها ثلاّجة الذّكريات . صار فيما بعد كلّما جاءته أمّه في المنام يقوم إلى ثلاّجة الذّكريات يفتحها ، ويتناول الجمجمة من داخلها ، يطبع قبلةً عميقة على جبينها ، ودمعتان حارّتان تسيلان على خدّه ثمّ يعيدها إلى موضعها في الثّلاجة ، ويأوي إلى فراشه فينام!!

(٥٩)
ما من ليلٍ يدومُ باليأس
إلاّ وباغتَه صباحٌ يهزِمُه بالأمل

لئن كان الدم مُستفادًا من الشَّراب في عهد (عايد) ، فإنّه الشَّرابُ نفسُه في عهد مسعود الخبيث . فلقد أدمنَ شُربَ دماءِ ضحاياه ، حتّى صار يقتل لكي تمتلئ كأسُه به إذا فرغتْ . ولئن كانَ (عايد) يقتُلُ من أجل الشّهوة فإنّ (مسعود) يقتل من أجل القَتْل ؛ يُسيلُ الدّمَ من أجل الدّم لذاته لا لسواه ، لقد صار يشعر أنّ كلّ روحٍ يُزهِقُها هي روحٌ جديدةٌ تُضاف إليه ، وعمرٌ آخر يكتسبه يُراكمه فوق عُمره . ولكنْ مهلاً ؛ مَن أوحى له بأنّ الأرواح خالدةٌ وأنّ قيمة هذا الخلود يعزّز توقه إليه أكثر فأكثر؟!!

أكلُّ حُكمٍ مُوكّلٌ بالقتل ؛ فلا يدين الحُكمُ إلاّ لمن كان سَفّاحًا؟! أما من فرصٍ لحُكمٍ عادلٍ لا يقوم على الدّماء ، ولا ينهضُ على الأشلاء؟! أم أنّ الشّرّ الكامن في نفوس البشر مُركّبٌ فيها منذ الأزل لكي يعيثوا في الأرض فسادًا ، ويجوسوا خلالَ الدّيار نهبًا ودمارًا!!

أكان استدراج الإنسان الأوّل للقتل سببُه حسد الشّيطان إذ رأى غريمه يرتع في النّعيم فأراد أن يجرّه معه إلى الجحيم؟! أما إنّه لو سادَ الحبّ بين النّاس لوجد الموت فرصةً للرّاحة قليلاً من اللُّهاث خلف الأجساد المَنهوشة .

أيّها اللّيل المُمعن في الدُّجُنّة؟! أليسَ الصّبح دليلاً على تولّيك وفرارك؟! إنّه ما من ليل يدوم باليأس إلاّ وباغته صباحٌ يهزمه بالأمل . ولولا التّوق إلى التّغيير وإلى الغد المُنبثق من جوف الظّلام لما احتملت القلوب الصّادقةُ شيئًا من كَبَدِ الحياة .

اقتحمَ عليه باب (الدّيسق) من جديد كان يريد أن يُنذره لا أن يُبشّره ، لأنّ بعضَ القلوب ترتدع بالخوف أكثر ممّا ترتدع بالكلمة ، وتنتهي بالتّهديد أكثر ممّا تنتهي بالعظة ، خاطبَه :

- لقد امتلكْتَ القوّة ولكنّك لم تمتلك العلم ؛ إنّما أنتَ كتلةٌ من الوحشيّة الّتي تفتكُ بكلّ ما يقفُ في طريقها .

- إنّ عُلمائي في هذا العصر ليفوقون في العدد ما تواضعتْ عليه البشريّة في كلّ العصور . (أجابه بكبرياء معهودة)

- علمائي!! نعم إنّهم علماؤك كما قلت ؛ عَلِموا من أجلك ، إنّهم قد سخّروا علمهم في سبيل تضخيم سُلطتكَ في الشّرّ ، ولم يُسخّروها فيما ينفع النّاس ؛ إنّها سلطة الجسد التّوّاق إلى الدّماء ، لا سلطة الرّوح التّوّاقة إلى البناء .

- إنّ القوّة هي الّتي تقود العالَم .

- بل هي الّتي ستدمّره ؛ لأنّها كالنّار تأكل بعضَها ؛ يستحدثها العقل البشريّ الجمعيّ المريض ليفتك بنفسه ، وليُهلكَها ؛ إنّها تُثبتُ أنّ الإنسان هو العدوّ الأكبر لنفسه والأكثر وحشيّة مع بني جنسه .

- يبدو أنّ للعمر ضريبة ، أراكَ هرمتَ فصرتَ تهذي . . . لئنْ عُدتَ إليّ من جديد لآمرنّهم أن يُلقوك في قِدْرٍ كبيرةٍ من زيت مغليّ فينفصل لحمك عن عظمك ، فتكون عبرةً للّذين يتجرّؤون على مُلوكهم .

- لو كان بيدك أن تفعل ذلك لفعلتَ ، ولكنّك عاجز . (قال ذلك ومضى)

نام تلكَ اللّيلَة في (الدّيسق) ، خاف أن ينام في فراشه فتؤرّقه بعضُ عبارات (سرحان) اللاّذعة ، أو توقظه من منامه حكَمُه الّتي يثرثر بها . مضى نصفُ اللّيل عرفَ أنّه كان على صواب في مبيته هنا فقد تخلّص من سرحان ومواعظه ، لكنّ الّذي لم يحسب حسابه هي أمّه ؛ فلقد طلعتْ له من كوابيسه من جديد .

جاءته هذه المرّة جمجمتها فقط ، كانت تمشي وحدها على الأرض حتّى صعدتْ إلى الكرسيّ الّذي ينام عليه ، ودَرَجَتْ على بطنه وهو في ذعر وهلع ، حتّى إذا وصلتْ إلى أعلى صدره هَوَتْ على عنقه مُنشبةً أسنانها في رَقَبته ، فصرخ ، ثمّ استيقظ راجفًا ، مدّ يده إلى عنقه يتحسّس الموضع فلم يبدُ له شيءٌ في العتمة ، صاح بصوت تردّد صداه في جنَبات الدّيسَق : «ماذا أفعل حتّى أنتهي منكِ أيّتها السّاقطة؟! قسمًا بالآلهة لأحرقَن الأرض الّتي منها خرجت ، ولأبيدنّ كلّ ذرّة من تراب عليها اضطجعت .

لم ينتظر حتّى الصّباح ، كان لا يزال يرتدي زيّه العسكريّ ، خابَر (همّام) وزير الأمن القومي ، واجتمع بكلّ القيادات العسكريّة المُمكنة ، غصّ (الدّيسق) بهم وهم رُكوعٌ بين يديه لا يرفعون رؤوسهم إلاّ ما استطاعوا من خلال نظرات خاطفة ليستطلعوا الأمر من خلال وجه مليكهم ، لكنّ ذلك لم ينجح ، فراحوا يتهامَسون فيما بينهم ليعرفوا سبب استدعائهم في مثل هذا الوقت ، انتظموا في مقاعدهم بعد أن أشار لهم بذلك بحسب رُتَبهم . قال لهم وهو يصرخ دون وَعْي :

- أريدُ من كلّ الطّائرات الموجودة في القواعد القريبة أن تحرق أرض الحبشة بِمَنْ فوقها .

كان يريد أن يقطع كلّ شيء يذكّره بأمّه أو بماضيه ، أن يحرق كلّ ما يمتّ إلى ذلك الماضي بِصِلة . بدأت الطّلعات الجوّيّة بصبّ حممها وقنابلها على أرضَ الحبشة ، لم يشكّ أحدٌ من البائسين القاطنين هناك أنّ هذا هو يوم القيامة ، وأنّ الأرض تُلقي بما في جوفها من الرّعب ، وأنّ الجحيم استيقظ من غفْوته لينال من الآثمين . أكثر من خمسين ألف طلعة جويّة نُفّذت من أكثر من ألفَي طائرة حديثة مُقاتلة أطلقتْ أكثر من نصف مليون قذيفة ، تصل الواحدة منها إلى طنّ من المتفجّرات الانشطاريّة .

حينما طلع الصّباح على الكون ؛ وهو الصّباح ذاته الّذي لم يطلع على الحبشة ، كانت أرض الحبشة بكلّ ما فيها من بَشر وشَجر وحَجر قد تفحّمتْ وصارتْ سوداء بالكامل . سُمّيتْ منذ ذلك الحريق الأكبر أرضَ السّواد ؛ (أثيوبيا) .

(٦٠)
أيّة حسرة تصيبكَ وأنتَ ترى الحُلم يغرق أمام عينَيك!!

نما الذّهبُ في الشّمال كما لو كان نبتًا يُسقى بالماء، لا معدنًا يختلطُ بالثّرى. بعث (ياني) الملك اليهوديّ إلى سيّده يُخبره أنّ الجبال الرّابضة على بُعد عشرات الكيلومترات من (إينوفيك) قد تعرّتْ، وبدتْ زينتُها للنّاظرين، وإنّها لتُسفرُ عن ذهبٍ خالص سيكون ثروةً هائلةً تُضاف إلى بقيّة الثّروات الّتي تنوء بها الدّولة. أخبره (مسعود) أن يستخرجه، ويبعث إلى الأقاليم الأربعة نصيبَها منه، ويحتفظ بربعه عنده على أن يُنفقه في الإنتاج الحربيّ، والغذائيّ، والتّعليم. وأوفدَ إليه الوزيرَين (أشرف) و(رفيق) لكي يقوم الأوّل بتخطيط المدن الّتي ستنشأ حول مناجم الذّهب، ولكي يقوم الثّاني بإنشاء منظومة تعليم قادرة على أن تُنتجَ الخرّيجين من المعاهد والجامعات الّذين يُتوقّعُ منهم أن يعملوا على تطوير المنطقة.

لم يكتفِ بالوزيرَين فألحق بهم رئيس الاستخبارات (بليغ) لكي يراقبَ عمليّةَ توزيع الثّروة، وألاّ تنحرف الأمور عن الجادّة المرسومة: «إنّ الذّهب يُعمي بصر القلب، وإنّ بريقه ليسبي الحكمة، فكُنْ رقيبَ القلبِ ألاّ يعمى؛ ورقيبَ الحكمة ألاّ تُسبَى». ثمّ أردف: «مُرهم فليصنعوا لي طائرة من هذا الذّهب أتّخذها وسيلةً للتّجوال إنْ عافتْ نفسي القصر والدّيْسَق».

كـانت عُـروق الذّهب السّـائل تبـرق على ضَـوء الشّـمس في الصّباحات المشرقة فتلمعُ لمعانًا يخطَفُ الألباب، ويُوقفُ الأنفاس. لكأنّ كلّ أبالسة الكون قد اجتمعوا هُناك فزيّنوه وبَهرجوه ونمّقوه وأضافوا إليه بريقًا رائعًا فسحروا به أعيُنَ النّاس، فسقطوا صَرعى الهوى فيه، وذابوا به حُبّـا. وهتفَ هاتِفٌ من جـانب الطّور: «وتحبّـون المال حُـبّـا جَمّا».

ألفُ خاطر طعنَ ذهنَ ياني وهو يفكّر كيفَ سيُوزِّع الذّهب وكيف سيقسمه بين الأقاليم، ولعنَ نفسه مليون مرّة على وَرعه الكاذب، وتمنّى لو أنّه لم يُخبر بأمره ملكَ الملوك. وحدّث نفسه: «ماذا لو أبقيتُ على الأمر داخل حدود مملكتي، ولم أجعل لهذا العَبْد الأسـود منه نصيبًا، مَنْ كان سيُدريه بما يحدثُ هنا وهو قابعٌ في خيبته على بعد عشرات الآلاف من الكيلومترات». لكنّه تذكّر بطشه ووحشيّته في الإيقاع بِمَنْ يُخالفه فتراجع عن فكرة الاستفراد بالذّهب، وعظّم في باله فكرة السّرقة الخفيّة منه بين الحين والآخر أثناء توزيعه وتقسيمه.

ما الّذي في الذّهب حتّى تكون له هذه المكانة في القلوب؟! ما الّذي يُحدثه فيها حتّى تُذعن أمام بريقه، وتستسلم لإغرائه؟! أهو الله الّذي منحه هذه الخصيصة أم الشّيطان؟! أهو النّداء الخفيّ القابع في الأعـمـاق إلى الغنى والجاه أم إلى الشّهوة والرّفاهية؟! أفكان توقَ الإنسان إلى الخلود أم إلى الهلاك؟! لا بُدّ أن شيئًا غامضًا لا يُدرك الإنسانُ له تفسيرًا يستتر خلف لَمعانه؛ وإلاّ فلماذا كلّ هذا التّهافُت عليه؟! أفكان ذلك الشّيء الغامضُ داعيَ الحياة أم ناعيَ الموت؟!!

لكنّ مليونَ خبرٍ قد يظلّ سرًّا إلاّ خبرَ الذّهب؛ فإنّه سرعان ما انتشر في الآفاق، وسَمِعَ به القاصي والدّاني. وتناهى ذلك إلى الملك

(ويليام) ملك الأجزاء الغربيّة من أوروبّا ، فطار له فؤاده وطاش له عقله ؛ وكانت دولته ترزح تحت نير الفقر والعوَز . فجمَع الملكُ قادة الجيش ، وقال لهم : «إنّ أرض إينوفيك تنبُت بالذّهب ، وإنّ هذا الحبشيّ المُستبدّ ليستولي عليها كأنّها إرثُ أبيه ، وليسّ له الحقّ وحده أن يقتطعها لنفسه ونقف نحن أمام كلّ هذه الخيرات دون حراك . وما هي إلاّ أرضٌ تزيّنتْ للنّاظرين من البشر ؛ أفكانوا هم وحدهم البشر ونحن البهائم . وانّي عزمتُ على أن أرميه بقوّتي وأنازعَ عامله هناك عليه ؛ فإمّا أنْ ننتصر ونعيش حياةً كريمة وإمّا أنْ نموت دون مالٍ بعثه الله شائعًا للنّاس أجمعين» . لم يُخالفْه أحدٌ من قادته ، بل زادوه إصرارًا على ما نوى . وقدّموا له الطّاعة ، ورجَوه أن يُسرع في تنفيذ ذلك .

جُهّزت مئات السّفن الحربيّة المُدرّعة ، وحُمّلتْ بآلاف الطّائرات والدّبّابات وبالمُعدّات العسكريّة المُتقدّمة ، وبُعثت طائرات الاستطلاع من قبلُ ، وجُهّزَ أكثر من مليون مُقاتلٍ نَفْسَه للقتال ، كلّهم يحلم أن يعود إلى وطنه بالذّهب وهو لمّا يخرج منه . وجُعل الجيش على ثلاثة أجزاء ؛ الأوّل في السّواحل القريبة من (إينوفيك) والثّاني في المحيط الأطلسيّ في منتصف المسافة ، والثّالث في المملكة ولكنّه جاهزٌ للتّحرّك في أيّة لحظة . أمّا الأوّل فسيبدأ المعركة ، وأمّا الثّاني والثّالث فسيكونان للإسناد عند الحاجة .

قادَ (ويليام) بنفسه الأسطول الأوّل ، ومَخَرت السّفن عُباب المحيط الأطلسي مُتّجهةً نحو الشّمال ، وظلّتْ سائرةً باتّجاه الحُلم الّذي راودَ الملك ، وها هو يقاتلُ من أجل تحقيقه ؛ وأيّ حُلْمٌ أشدُّ وثوقًا من الحلم بالذّهب!! بعد أقلّ من شهر كان جيشٌ بأكمله يصطفّ قبالة الشّواطئ

المؤدّية إلى جبال الذّهب ، وقف الملك على رأس جيشه وأرسل من خلال المنظار طَرْفه إلى الجبال فلمعتْ في عينيه تحت شمس الضّحى فانخلع لها قلبُه توقًا وشوقًا ، وطاشَ لها عقلُه تشوُّفًا وتحرُّقًا ، وزاد ذلك من يقينه في الإقدام على ما جاء من أجله ، ثمّ أمر كلّ القادة أن يفعلوا مثلما فعل ليستوثق شرفُ القتال في أنفسهم كما استوثق في نفسه لمجرّد الرّؤية .

كانت الأخبار تصل إلى (ياني) بمسير جيوش أوروبًا إليه ، فوقع في ظنّه أنْ يستمرّ في استخراج الذّهب ، وأعماه الطّمع عن الاستعداد جيّدًا لمواجهة الأعداء ، وحدّث نفسه قائلاً : إنّ شهرًا واحدًا يفصل بين وصولهم إلى (إينوفيك) ، وفي هذا الشّهر يكون قد نقل نصف الجبل الذّهبيّ أو ثلثه على الأقلّ ، وإذا ما دخل معهم في مفاوضات فإنّها ستُعطيه مهلةً إضافيّة لكي ينقل المزيد منه ، فإذا ما تقاتلوا كان أكثر الذّهب في حوزته . ولكنّ الّذي لم يحسبْ له اليهوديّ حسابًا هو أنّ (ويليام) بمجرّد أن رأى هو وقادته الذّهب يلمع في عيونهم عبر المنظار ، أمر طائراته بقصف الجماميع البشريّة من العاملين في استخراجه ، وبالفعل حلّقتْ حوالي مئة طائرة فوق الهدف ، وخلال دقائق معدودة كانت الأشلاء تتناثر في الفضاء ، والدّماء والحرائق تغطّي مساحاتٍ واسعة ، وكان هذا إيذانًا ببدء الحرب دون أيّة مُقدّمات .

تقاتل الجيشان برًّا وبحرًا وجوًّا . ودوّت أصوات الانفجارات في كلّ مكان ، وتوقّف العمل في استخراج الذّهب ، ولأنّ جيش (ياني) أُخذ بحلم الغنى الموعود من خلال الذّهب كما هو جيش (ويليام) فإنّ المعركة تحوّلتْ في عقيدة الجيشَين إلى عقيدة الاستحواذ على الذّهب ،

وصار القتال من أجله فقط ، ونسي الطّرفان فيما إذا كانوا يُقاتلون من أجل الوطن أو الدّفاع عنه أو من أجل صدّ المُعتدي ؛ واضمحلّ كلّ هدف إلاّ هدف الحصول على الذّهب ، وتحوّلتْ بوصلة القتال إليه ، وتأكّد أنّ الجنس البشريّ من الطّغيان والهمجيّة بمكان يجعله بريقُ الذّهب متوحّشًا فيه ، لا يُقيم للأخلاق ولا للحرمة ولا للحقّ وزنًا أمام ذلك .

ومع تصاعد حِدّة القتال كان الذّهب يستمرّ في لَمعانه الخاطف فيرفع وتيرة القتال أكثر فأكثر ، واستماتَ الطّرفان في القتال من أجله ، ومُورستْ أساليب وحشيّة في سبيل الحصول عليه ، وكانت القذائف تهوي على رؤوس الأبرياء وتقصف البشر والشّجر والحيوان من الطّرفَين ، ولكنّها لا تَصل إلى جبل الذّهب ، وصار الجبل كأنّه المُقدّس الوحيد في هذه المعركة ، فلا أحدَ من الطّرفين يقترب منه ولا يُلقي باتّجاهه قنبلة ولا صاروخًا ولا حتّى رصاصة . وحمى الذّهبُ نفسَه بنفسه من الموت بقيمته الفائقة في أذهان التّائقين إليه ، في حين أنّ كلّ شبرٍ حوله كان ينضح بالموت ويتفجّر بالوحشيّة . وبدا الجبل مثل إله مُقدّس ، أو كإبليس معبودٍ من الأبالسة ينظر بعلوّ وابتسام وارتياح إلى بشرٍ يتذابحونَ حوله ويتناحرون في سبيله وهو سليمٌ بريءٌ من كلّ أذى . وبدا أنّ (بِلعام) (وآسيار) يتربّعان على عرشٍ فوق قمّة هذا الجبل ، ويضحكان ملء شدقَيهما على ما يدور من حروب طاحنة تحتهما .

وتجلّى (بِلعام) في هيئة بشريّة للملك (ياني) ، وقال له : «إنّي مبعوث مَلك الملوك إليكَ ، وإنّه يقول لكَ إيّاك أن تستسلم ؛ وقاتلْ دون الجبل حتّى لو أدّى ذلك إلى فناء القُطب بأكمله ، إنّما نحن نقاتل عن شرَفنا وشرَف الدّولة قاطبة» . وتجلّتْ (آسيار) للملك (ويليام) قنبلةً من

الشّهوة العارمة ، وقدّمتْ نفسها على أنّها جاريته الأشهى ، وفي حمأة الذّوبان فحّتْ في أذنَيه : «حذارِ أن تستسلم ، أتتركُ كلّ هذا الخير لهذا الأفّاك ، إنّ لكَ فيه حقًا أكثر ممّا له ، أكان الله قد أنزل من السّماء في كُتُبه أنّ جبال إينوفيك لفلان دون فلان ؛ قاتلْ ما شئتَ فإنّك على الحقّ وإنّ الحقّ منتصرٌ حتّى ولو طال الزّمن ، ومهما قدّمتَ في سبيله من تضحيات فإنّ الأمر يستحقّ ذلك وأكثر ، ولا تنسَ أنّ الملايين من شعبكَ قد تركتَها هناك وهي تحلم أن تعود لها بالذّهب وبالخيرات ، فلا تخيّبْ رجاءَها فيك ، وكُنْ أمينًا على حُسْنِ ظنّها بك» .

في الصّباح بعد ليلة الشّيطانَين ، كان القتال قد ارتفع إلى مستويات لم يصل إليها من قبلُ ؛ فأباحَ كلّ شيء ، ولم يرعَ ذمّة ولا حرمةً مهما صَغُرَتْ أو كَبُرَتْ . وكادَ جيشُ (ويليام) أن يفنى عن بَكرة أبيه ، فأرسلَ في طلب الإمداد من الجيش الثّاني ، ودخل نوعٌ جديدٌ من الطّائرات الشّبح الّتي تقصف دون أن تُرى ، ولا يكشفها أدقّ الرادارات ، وسقطَ أكثر من نصفِ مليون قتلى من شعبِ (ياني) ، واستحرّ القتل حتّى أُبيدَ من النّاس ما لا أحد له قدرة على تصوّره ، وفي اليوم العاشر من القتال طلبَ (ياني) هدنةً لدفنِ الضّحايا ، والبدء بالتّفاوض . أمهله (ويليام) نصفَ يوم ليقدّم تنازلاته ، وإلاّ بعثَ له الجحيم على الحقيقة من أوروبّا ، وقال له إنّ كلّ ما حدث لم يكنْ إلاّ دغدغةً أمام الأهوال القادمة الّتي يتوعّده بها .

في اليوم الحادي عشر التقى المَلِكان ؛ عَقَدا اجتماعهما في خيمة أقيمت على جُثث القتلى الّتي ما زالتْ طريّة ، وعلى دمائهم الّتي ما زالتْ سيّالةً ، قال له (ياني) : «سأعطيكَ من الجبل ما تُعوّض به خسائرك مقابل عودتك إلى ديارك» . قال (ويليام) لكاتب الملك ،

اكتب : «أريد من الذّهب ما أعوّض به أهل الشّهداء ، وخسائر الحرب من الرّجال والمُعدّات والآليّات ، وأريد من الذّهب ما يسدّ عجز الموازنة ، ويشقّ الطّرقات ، ويضيء العَتمات ، ويُزيّن الحدائق ، ويبني المُتنزّهات ، وما يكفل حياةً كريمةً لكلّ مواطنٍ من مواطني دولتي الشّرفاء ، هذا بالإضافة إلى ما يجب أن تقدّمه من اعتذار وهدايا للملك والملكة» .

أخذ (ويليام) ثُلثَي جبل الذّهب ، وما تبقّى من رجاله بعد المعارك ، واستقلّ طائراته إلى السّفن الرّاسية على الشّواطئ ، في الجوّ فكّر أن يعود من جديد إلى ساحة القتال ؛ إنّه المُنتصر وهو يستحقّ الجبل كاملاً لا ثُلثَيه فقط ، وراودته نفسه في القتال من أجل الثّلث المتبقّي ، ولكنّ شيئًا ما دفعه باتّجاه السّفن ، ومن هناك أبحر إلى أوروبّا عائدًا إلى بلاده .

في منتصف المسافة بين القُطب وأوربّا ، انهمرتْ قنابل لا يدري أحدٌ مصدرها على سُفُنه وطائراته ، كانت مَطرًا جحيميًا ، تشتّت الأسطول الحربيّ ، وغرقت السّفن بما فيها من الذّهب ، واستنقذ الملك نفسه حين ركب إحدى الطّائرات وحلّق عاليًا فوق الأسطول الغارق ليشهد بنفسه غرقَ الذّهب أمام عينيه دون أن يملك القدرة على منع ذلك . أيّة حسرة تصيبُكَ وأنتَ ترى الحلم يغرق أمام عينَيك!! أيّ طعنة تنفذُ إلى أحشائكَ وأنتَ ترى أنّ كلّ ما قاتلتَ من أجله وقدّمتَ التّضحيات في سبيله يذوب أمام ناظريكَ في لحظة ، ويتبخّر في ثانية!!

رجع الملك (ويليام) مخذولاً إلى الشّعب الّذي استقبلَه باللّعنات ، وهتفَ ضدّه حروبه ومغامراته الفاشلة ، ولم تَزد تلك الهتافات الدّولة إلا فقرًا والشّعبَ إلاّ هُراءً ، وغاصتْ أوروبّا في الوحل والطّين ، وغرقتْ في الظّلام ، وصارتْ من أفقر دول العالم حينئذ ، ومن أشدّها بؤسًا وهوانًا .

(٦١)
انخطفَ البَريقُ، وانتهى الهَوَس، ولم تبقَ إلاّ الحَسرة!!

لم يهدأ فؤاد (ياني) بعد خسارته في المعركة ؛ شعر أنّ المُصيبة القادمة ستكون أوجعَ من تلك الذّاهبة ، وأنّ ما تبقّى من الذّهب لن يُنجيه من بطش (مسعود) ، وأنّ نيّته الطّيّبة في الحفاظ على شعبه مقابل الذّهب لن يتفهّمها مَلِكُ الملوك بأيّ حال من الأحوال .

عادَ (ويليام) بحسرته إلى أوروبّا ولكنّه تركَ مصائبه خلفه في (إينوفيك) ؛ كانت الأرض تضجّ بالجثث المتناثرة ، وكانت هذه الجثث إيذانًا بالأهوال الّتي ستشهدها البلاد . بدأت الجثث بالتّعفّن ، وانتشرتِ الرّائحة الكريهة في الأجواء ، وبدا أنّ الإنسانَ غيرُ قادر حتّى على تحمّل نتيجة ما اكتسبتْ يداه ، فهرب النّاس من مناطق القتال ليتّقوا العفونة وتحلّل الأجساد ، ولكنْ إلى أين والرّائحة هواء؟! والهواء لا يحجزه شيءٌ ؛ إنّه يسافر مع المُسافر ويرتحل مع المُرتحل .

زَكَمَتْ الرّوائح أنوف الأحياء جميعًا ، وبدأت الأمراض النّاتجة عن تحلّل تلك الجثث تنتشر ، وبدا أنّ المعركة كانتْ هيّنةً في أهوالها أمام تفشّي الأمراض الخبيثة . واستنجد (ياني) بكلّ القادة والوزراء في دولته ، واستنفر كلّ إمكانيّات الدّولة ليدفن الجثث ويتخلّص منها بأيّة وسيلة وبأسرع وقت .

غير أنّ عدد الجُثث كان أكبر من طاقة العاملين على إزالتها ، وبدا أنّ الإنسان الميّت قد صبّ لعنته على الإنسان الحيّ ، وأنّ الموتى ينتقمون من الأحياء ، وأنّهم قادمون لكي يغرزوا أنياب الموت في أعناق منْ تبقّى منهم على قيد الحياة ؛ إنّها عداوة الإنسان للإنسان ؛ إنّها همجيّته الّتي تقتله وهو حيّ بأيدي موتى لا حيلةَ لهم إلاّ ما جناه الإنسان على نفسه من الدّمار ومن قتل أخيه الّذي سيقتله بدوره وهو ميّت!!

عند ذاك لم يجد (ياني) بُدّاً من الاستغاثة بمَلك الملوك فهو الوحيد القادر على تسيير الآليّات بإشارة من يده ليدفن الجثث المُتفحّمة والمُتفسّخة ، ولكيّ يُطهّر الأرض ممّا ينتشر فيها من الجراثيم ، في البداية لم يُعر (مسعود) نداءات الاستغاثة القادمة من القُطب الشّماليّ أيّ انتباه ، وقدّر أنّ أقلّ عقوبة يجب أن تلحق بالملك (ياني) هو أن يموت بهذه الأمراض جرّاء تخاذله وتسليمه الذّهبَ للأعداء ، لكنْ فيما بعدُ وصلتْه أخبار تقولُ إنّ هذه الجراثيم المُتطايرة السّابحة في الهواء تمتدّ لتصل إلى مزارع المُخدّرات ، وسوف تقضي على الزّهور الصّفراء ترياق الحياة في أقلّ من أسبوع ، ففزّ من كرسيّه ، وبدأ مع خبرائه رحلة إنقاذ المُخدّرات ، ولم يدخل في حسابه البشر الّذين هناك مثلما دخل في حسابه الحفاظ على الذّهب النّباتي الأصفر المتمثّل في الخشخاش . زَعَقَ في وجه خبرائه : «أريد أن أُنقذَ الخشخاش ولا أريد أن أنقذ الأرواح» . في النّهاية اهتدى إلى حلّ يرضي وحشيّته ؛ جهّز الأسلحة الجرثوميّة الّتي يحتفظ بأوعيتها المركّزة في قصره في دهاليز سرّيّة وخاصّة جدّاً ، وطلبَ من القائد العسكريّ أنْ يُنفّذ رغباته .

دخلتْ إلى محيط القصر قوّة خاصّة مُدرّبة على الخطف

والاغتيال، تمكّنتْ من قتل كلّ الحرس المُحيطين بـ (ياني) واختطفوه، وأودعوه طائرة خاصّة وبُعث به إلى (مسعود). في الأثناء كانت طائرات الحرب الجرثوميّة تلقي مرشّاتها، وكانت العناصر الكيماويّة المكوّنة لهذه الأسلحة تُذيب كلّ شيء وتقضي عليه. لم تستغرق المنطقة أكثر من ستّ ساعات لتكونْ أثرًا بعد عين، في مساء ذلك اليوم المشؤوم لم يكنْ من حيّ حتّى ولو كان نملةً يدبّ على أرض (إينوفيك)، حتّى الحشرات الّتي في باطن الأرض اختنقت وماتتْ، كانت الدّولة قد مُحقتْ وسُحقتْ بكلّ ما فيها. لكنّ خبرًا آخر غير سارٍّ كان يصل إلى (مسعود) عبر التّخابُر الطّيفيّ؛ لقد حوّل السّلاح الجرثوميّ ما تبقّى من جبل الذّهب إلى حجارة سوداء لا تُساوي شيئًا. انخطفَ البريق، وانتهى الهَوَس، ولم تبقَ إلاّ الحسرة!!

كلّ هؤلاء الّذين ماتوا من أجل الذّهب ماتوا من أجل لا شيء، من أجل حلم كاذب، وهوىً خدّاع. لكأنّ الذّهب لم يكنْ موجودًا بالأساس، وأنّ الّذي كان موجودًا كان مجرّد وَهم، لَكأنّ الموت وحده هو الّذي كان يقبع خلف خادعات البصر وكاذبات الأماني. وما النّتيجة؟! سَفْكٌ للدّماء، وذبحٌ للبشر من أجل كنز غير موجود!!

جيءَ بالملك (ياني) مُقيّدًا إلى (الدّيسَق)؛ أُركع أمام (مسعود) كأنّه شاةٌ تُهيّأ للذّبح، لم يرفع طرفه ليُبصِر الموت المتجسّد في هيئة بشريّ يُسمّى (مسعود):

- تستسلمُ أيّها الجبان؟! أما عرفتَ أنّ هذه خيانة عُظمى؟!!

- لم أستسلم؛ كنتُ أريد أن أحقنَ دماء شعبي.

- كاذب؛ لم تُحقَن دماءٌ بالاستسلام عبرَ التّاريخ، لقد كان بمقدور (ويليام) أن يقضي عليكَ وعلى شعبكَ أيّها الأحمق.

- إنّه الذّهب الّذي فعل كلّ ذلك ، لعنة الله عليه .

- ليسَ الذّهب ، بل القلب الهَواء ، أنا لم آتِ لأعيّن ملكًا يملّ من القتال فيهرب أو يرضخ لعبوديّة العدوّ أو يحاوره ؛ نحن لا نحاور عدوًا ، نموتُ ولا نستسلم أو نفاوض .

- إذا أردتَ أن تقتلني فاقتلني على الوجه الّذي يُريحني ، لا تعذّبني في موتي أرجوك يا سيّدي!!

- إنّ تُهمتك هي التّولّي يوم الزّحف ، وإنّ الموتَ لقليلٌ جزاءٌ عليها . . . إلى الغاشية (صاح بفاتك) إلى الغاشية أريدُهُ أن يموت ألف مرّة قبل أن يموت .

تداعى الوزراء والقادة ليشهدوا اللّحظات الأخيرة لملك الشّمال ، جلسوا على المقاعد المئة في المدرّج الصّغير ، وفي مقدّمتهم (مسعود) جالسًا على كرسيّ الأباطرة . رُبطَتْ أيدي (ياني) إلى مقابض الكرسيّ الكهربائيّ ، ورجلاه إلى رجليه ، وأُنزلتْ بطريقة آليّة نصفُ أسطوانة لتغطّي الجزء الأعلى من رأس (ياني) ، ثمّ أشار (مسعود) بعصًا ، فأُنزل القابس الكهربائيّ وبدأ الملك المسكين رحلته مع العذاب ، كانت شدّة الكهرباء تصعقه فتجمّد الدّم إلى ما قبل اللّحظة الأخيرة ، ثمّ تُخفّف عنه لكي لا يموت سريعًا ، انتفختْ عيناه حتّى أوشكتا على الانفجار ، وعلا رأسَه بعضُ البخار من احتراق الجلد والشّعر ، وبعد ساعتين من ارتفاع الجهد الكهربائي وانخفاضه كان الملك يلفظُ آخر أنفاسه .

دارت الإسطوانة العلويّة على أعلى جمجمته ، فحزّتها بسكّين فولاذيّ قاطع ، ثمّ ارتفعتْ آخذةً معها الجزء المحزوز ، فبدا الدّماغ كاملاً

تتصاعد منه بعضُ الأبخرة . وقف (مسعود) مُنتشيًا ، طلبَ من (فاتك) أن يذهب بالدّماغ السّاخن النّاضج إلى الكلب السّلوقيّ ، شمّ الكلب رائحته من قبل أن يصله ، فنبح استبشارًا ، وحينَ وُضع بين قدمَيه ، التقمه في لحظات ، وقال لأسيار : أشهى وجبة يقدّمها إليّ السّيد الكريم في هذا العام!

(٦٢)
الموتُ لا يعترف بتطوّر الأزمان، إنّه موتٌ فحسبُ

الموتُ ليسَ انقطاعَ الحياة، وليسَ كائنًا حيًّا؛ على الأقلّ في هيئته الموجودة على سطح الأرض؛ قد يكون للموت معنىً آخر في كوكب آخر أو في حياة مختلفة، ولكنّه هنا على الأرض يتّخذ شكلاً ثابتًا دون أن يغيّره؛ إذا كان الموتُ عند القَتَلة والمُستبدّين يعني نهاية الحياة، فإنّه عند الفلاسفة والحُكماء يعني بدايتَها!!

يبدو الموت على الأرض تبدُّلاً في وتيرة الزّمن، بمعنى أنّه يستعيد الزّمن المَكنوز في روح صاحبه ويتركه بلا زمن، فينتقل من هذا الزّمن الأرضيّ إلى زمنٍ آخر، ومن أجل هذا فهو لا يعترف بالشّكل أو الهيئة الّتي يتقدّم بها إلى صاحبه؛ إنّه موتٌ فحسبُ؛ ما الفرق في أن يأتي بالذّبح كالشّاة أو بالرّمي بالرّصاص أو بالتفاف الحبل حول العنق، أو بسواها؛ هذه كلّها أساليب يختبئ خلفها الموت أو يُخبّئها الإنسان لأخيه الإنسان داخلها، وبالطّبع ليستْ هي الموتَ بعينه. ولكنْ لماذا يفعل الموتُ ذلك؟!! لسببٍ جديرٍ بالتّفكير؛ إنّه لا يأتي الإنسان على صورته الحقيقيّة، لأنّ صورته الحقيقيّة ليستْ مرئيّة بالنّسبة لنا، ولو قُدّر لنا أن نراه على صورته الحقيقيّة تلك لربّما متنا قبل أن نموت في الواقع؛ ولذلك يقدّم نفسه أو نقدّمه نحن على صورةٍ قد تكون منطقيّة

أو معقولة لمن يُقضى عليه بها!!

سيقول المُتفذلكون : إنّ الموتَ الّذي نُقدّمه إلى بني جنسنا من البشر بالغاز ، أو بالكرسيّ الكهربائيّ ، أو بالحرب الجرثوميّة هو موتٌ غيرُ رحيم ؛ وإنّ هذه الوسائل مع أنّها وسائل حديثة وُلدتْ بعد ظهور المسيح إلاّ أنّها عديمة الإنسانيّة!! حسنًا فأيّة وسيلة أرحم إذًا فيما تعتقدون؟! تقديم الموت شنقًا مثلاً ؛ إنّ الملايين الّتي جاءها الموت في عُقدة الحبل المتدلّية من خشبة الإعدام لا تتّفق معكم في هذا الرّأي ، بعضُ هذه الملايين بقوا أكثر من سبع دقائق قبل أن تصعد أرواحهم تاركةً خلفَها قشرةً مُتدلّية!! أيّ فيلسوف كان بإمكانه أن يترجم لي شعور الرّوح البشريّة تلك وهي تعانق الموت كلّ هذه الفترة الطّويلة ؛ أليستْ هذه وحشيّةً قاسية ؛ ومع كلّ هذا فإنّ شخصًا ما قبل آلاف السّنين واجهَ الموت بهذه الطّريقة ، وشخصًا ما في أيّامنا هذه واجهه بالوسيلة نفسها ، وشخصًا ثالثًا سيواجهه بالوسيلة إيّاها بعد آلاف السّنين!! فأين هو معيار التطوّر في الموت الرّحيم ، إذا كانت هذه الوسيلة استطاعتْ أن تعيش في العصور المُظلمة واستمرّتْ إلى العصور الّتي تدّعي أنّها متنوّرة ؛ فهل تغيّرت الوسيلة بتغيُّر الزّمن ، أو تطوّرتْ بتطوّره؟! كلاّ . إذًا ؛ لا تقل لي تطوُّر ؛ فالموتُ لا يعترف بالتّطوّر ، إنّه موتٌ فحسبُ ؛ نحنُ الّذين نُجرّب في الهيئة الّتي نُغلّفه بها ، ونُغيِّرا!!

هذا الغلام العليم ، الّذي أخذ العلم صافيًا صادقًا لم تَشُبْه شائبةٌ من المُقرئ (علاّم) ، صار كهلاً اليوم ، إنّه يستعيد الأيّام الّتي ثَقِف فيها دروس الفهم والحكمة على يَدي المُقرئ بصُحبة (رضى) ، فيقول : «ما فائدة هذا العلم الّذي وعيتُه إنْ لم أُبلّغه ، إنّ الحياة جوفاء آخذةٌ في الانهيار ما لم يهدِها في تخبّطها الّذي «علّم الإنسانَ ما لم يعلم» وما

لم يكنْ منهجُها على العلم الّذي يبني لا الّذي يدمّر، وعلى الّذي يُحيي لا الّذي يقتل، وعلى الّذي يقود إلى نقاء النّفس وتصالحها مع الكون لا الّذي يُعمي ويقود إلى خَبَثِ النّفس وتخبّطها في الشّرور.

لم تكنْ غفوةُ (سرحان) في جوف الكهف موتًا ولا حتّى غفْلة؛ فلطالما أقضّ مضجعَه مجيءُ (رضى) في الحُلم، هذه المرّة قال له كأنّما يقدّم بين يديه نبوءةً: «لقد أراد التّاريخ أن يدور على البشر دورته؛ كلّ هذا الثّراء الفاحش والتّقدّم التكنولوجيّ لم يمنع الفقر من أن يحلّ ضيفًا من جديد على أهل الحجاز والشّام. وإنّ مسعود لا يهمّه إلاّ البطش بمعارضيه، وكلّ نفس معرّضةٌ للذّبح على يديه إلاّ نفسَك إلى أن يشاء الله». فيردّ عليه (سرحان): «وماذا تريد منّي أن أفعل». «أريدُكَ أنْ تهيّئ لثورة قادمة؛ هي ثورةُ الجِياع الّذين سلبَ حقوقهم على حساب شهوته الفظيعة إلى القتل والاستبداد».

كأنّ وحيًا لا ينتظر كثيرًا من أجل أن تبلّغ رسالته؛ نزل (سرحان) من كهفه، واتّجه إلى (مسعود)، وفكّر: إذا تركَ الفجر وراءه في الكهف فإنّه بإمكانه أن يستقبل الضّحى في (الدّيسق)، يعرف الحرّاس أنّه لا فائدة من منع هذا القدّيس من الدّخول على ملك الملوك فيُفسحون له الطّريق. كان (مسعود) قد ضاق ذرعًا بمواعظ (سرحان)، ولكنّ هذا لم يمنع الأخير من أن يقول كلمة الله ولو دفعَ مقابلها أيّ ثمن:

- إنّ شعبًا تحكمه بالحديد والنّار لن يرفع في وجهك إلاّ الحديد والنّار إنْ لم تتداركْه. (قال ذلك لمسعود دون أيّة مقدّمات).

- تهدّدني أيّها الجيفة القذرة؟!!

- أجلْ. وإنّني لن آتيكَ بعد اليوم، لأنّ بشائر النّهايات تلوح في الأفق.

- أيّة نهايات؟! أنا ربّ النّهايات كلّها ؛ أنا ملك الملوك ، سيّد الإنس والجنّ ، ما من أحدٍ في باطن الأرض ولا فوقها يجترئ عليّ ، وما من قوّة من الثّقلين تستطيع أن تصمد أمامي . أنا الّذي إذا ما رضيتُ أحييْت ، وإذا ما غضبتُ أمتّ .

- بل أنتَ بشرٌ ، يأكل الخوف قلبَك ، ويقضمُ الدّود جوفك .

- بل أنا الإله الأقدس أيّها النّكرة . وكلّ قادة العالَم يحسدونني على ما وصلتُ إليه ، حتّى الفَضَلات أمثالك يغارون منّي ؛ ولئن لم تسجُد لأقتلنّك ، ولأُصلّبنّكَ في جذوع النّخل .

- أيّها المسكين ؛ أفلم تكنْ من زمن قليل تستجدي عطفَ شيخك وتركع بين قدمَيه مَهينًا ؛ فكيفَ أُصبحتَ جبّارًا وأنتَ ذليل ، وكيفَ تنمرّدتَ وأنتَ وضيع!!

- أنا وارث الجبّارين من الإنس والجنّ ، ولأبلغنّ المجدَ في الأرض وفي السّماء .

- أيّ شرٍّ كان كامنًا فيكَ هذا الّذي حوّلكَ من حَمَلٍ وديع إلى وحشٍ مُفترس ، لقد كنتَ تبدو بهيمةً أو قِردًا حتّى في نظر نفسك أيّام شيخِك الفاجر فما الّذي غيّرك؟!!

- خُذوه ، إلى الغاشية ، يا (فاتك) . . . إلى الغاشية .

- لن تُسلّط عليّ إلاّ إذا أردتُ ، ولئن حبستَ الجسدَ فليس الجسدُ لي!!

سيقَ (سرحان) إلى إحدى زنازين الغاشية ، وأُلقي في جوفها . كانت الزّنزانة خاليةً من كلّ شيء ، إلاّ من الجدران الصّمّاء الباردة الّتي تلفّ جوانبها الأربعة الضّيّقة . لم يكنْ من فراشٍ لينام فوقه ولو

(ان) حصيرة ، ولا من طعام ولو كان كِسرة خبز ، ولا من شراب ولو كان (ق)طرة ماء .

في اللّيلة الأولى ، نام جائعًا ، وجاءه (رضى) في المنام :

- الثّورة قادمة ، وخلاص البشريّة قريب .

- وأنا؟!

- لا تطلب الخير لنفسك .

- وأنا؟!

- سينهشون جسدك ، وستأكل الطّير من رأسك .

صحا من نومه فزعًا ، تحسّس بيديه جسده ليطمئنّ ، فجاءه صوتٌ (و)دود : «لا تقلقْ . لقد عشتَ في الجنّة قبل أن تحلّ روحك في جسدك (ع)لى الأرض ؛ إنّه ما من خلاص إلاّ عن مُكابَدة ؛ والثّمرة لا تسقط إلاّ إ(ذ)ا نضجتْ . وإنّ روحكَ الطّاهرة قد اشتاقتْ إلى أمثالها في السّماء» .

عادَ إلى نومه هذه المرّة هانئًا ، لقد شعر بارتياح عجيب ، وكأنّ رحلته الّتي تُشبه الحُلم على الأرض قد انتهتْ . في اليوم الثّاني سيق إلى ساحة الخَلاص . كانت السّاحة تنقل إلى (مسعود) وشياطينه المشهد وهم جلوسٌ في المدرّج الصّغير . عشرة كلاب مَسعورة جُوّعتْ أسبوعًا كاملاً ثمّ أطلقتْ عليه وهو مقيّد . تناهَشته الأنياب ، كانتْ مِزَع اللحم تنسلخ من جسده وهو حيّ تلتقمها أنيابُ كلب فيأتيه كلبٌ آخر فينتزعها من بين أنيابه من جديد . كان الفكّ الأقوى ينغرز بقوّة في الذّراع أو البطن فيقتطع اللحم و(سرحان) ينظر إلى الكلاب تتناهبه وهو يبتسم ودماؤه تشخبُ من كلّ جزءٍ منه ، لكأنّه كان ينتظر هذه اللّحظة من زمن بعيد ؛ لكأنّه أحسّ أنّه يحيا لا يموت ، وأنّه يرتقي إلى السّماء لا يغوص إلى الأرض . لم يختلط مع سُعار الكلاب ونُباحها

غير قهقهات (مسعود) وهو يرى جسد القدّيس يتلاشى بين أفواه الكلاب الجائعة . بعد ساعة من التّهارش الفظيع كان القدّيس قد استقرّ في جوف الكلاب العشرة ، ربضت الكلاب على بطونها ، وأدارتْ وجوهها يمنةً ويسرةً ، وراحتْ تلعقُ بقايا الدّم والأشلاء من أفواهها!!

لم يشعر (مسعود) بأعظم من تلك السّعادة الّتي غَمَرتْه في ذلك اليوم ، تناوَلَ سلاحه ، وأطلقَ منه عشر رصاصات في الجوّ ابتهاجًا ، لكنّ أحدًا غير الله لم يكنْ ليدري أنّ هذه الرّصاصات كانت قد أعلنتْ بداية الثّورة ؛ وأنّ الطّوفان قادمٌ لا محالة .

في اللّيل ، رأى (مَسْعود) الأشلاء تخرج من بطون الكلاب ، تتجمّع من جديد ، وتتشكّل في أمكنتها ، ويعود الجسد سليمًا كما كان ، رأى (سَرْحان) ينظر إليه بعَينين وادعتَين وهو يقول له : «لقدْ أفسدتَ عليّ موتي ، وأفسدتُ عليكَ حياتَك ، مَوتي حياة ، وحياتُك موتٌ» .

(٦٣)
إلى المَعبَد لعلَ الموتَ يأخذُ راحةً هناك من اللّهاث

إنّها الثّورة العارمة . خرج النّاس في الطّرقات ، وانداحوا في الشّوارع والسّاحات يهتفون ضدّ الطّاغية . جاءته الأخبار فاستهزأ بها وصرخ ، ثمّ هتفَ مُلتاعًا : «إنّهم مجرّد صراصير» . بعدَ ثلاثة أيّام من انداح المدّ البشريّ الغاضب ، أمرَ قائده العسكريّ بأن يقصفهم بالطّائرات . مئة شهيد تناثرتْ أشلاؤهم من أوّل صاروخ ، وتوالت الصّواريخ والقنابل من بعدُ ، دبّ الهلع والهَرْج بين النّاس ، ماتَ أناسٌ لم يكونوا قد خرجوا معَ الحشود ؛ بل وُجِدوا بينها قَدَرًا ، هتفَ أحدهم : «لماذا نُقصَف . . . لماذا نُقتَ . .» لم يُكمِل عبارته الثّانية حتّى كان قد تحوّل إلى قطع مُبعثَرة!!

كثيرون لم يعرفوا لماذا كلّ هذا الجنون والسُّعار ؛ آخرون غادروا الأرض أمواتًا دون أن يعرفوا لماذا قُتِلوا . التجأ النّاس إلى المَعبَد لعلّ الموت يأخذ راحةً هناك من اللّهاث وراءهم ، فالمَعبدُ بيتُ الله الآمن . حينما التفّوا حوله بمئات الآلوف ، قُصِف بالقنابل الارتجاجيّة ، فدُمّر بالكامل ، وأجهزت المُتفجّرات المنشطرة على كلّ من كان حوله . . . وانهدّتْ قواعد المَعبَد ، وسقطتْ أركانه ، وكأنّ الخير كلّه في الأرض قد سقط ، وكأنّ الشّرّ قد أزاحه عن المكان ليحلّ محلّه . أمّا الحجر الأسود

فهوى من هناك على التّراب ليعود إلى مكانه الاوّل الّذي استقرّ فوقه أوّل هبوطه من السّماء . ولم يتأثّر بالقنابل ؛ لم يُكسَر ولم يُدمّر ، ولم يُخدَش . لكنّ أحدًا - أيضًا - لم يكنْ ليستطيع أن يُزحزحه عن مكانه ، أو يحرّكه قيدَ أنملة .

أعدّ (مَسْعود) طائرته الخاصّة ، وركبها مع زبانيته ، وغادر الحجاز إلى بلاد الشّام ؛ فإنّ أرضَ الحجاز لم تَعُد صالحةً لأن تُحكَم بعد أن اضطرّه الغوغاء والرّعاع إلى تلويثها بالقنابل الارتجاجيّة . أمّا (الدّيسق) فقد أمّر عليه (نيشان) رئيس الإنتاج الحربيّ وأحدَ قادته العسكريّين . وأمّا بمتلكاته الخاصّة في القصر والأسلحة الجرثوميّة فقد حُملتْ على الطّائرة كذلك .

استقرّ في (صفد) ليكون قريبًا من قواعده العسكريّة والبحريّة الجاثمة على شواطئ المتوسّط ؛ وليستطيع إعادة ترتيب الدّولة ، وتوزيع القوّة والهيبة على باقي أجزائها . وأقام في قصرٍ اتّخذه بيتًا ومجلسًا أمنيًا لاتّخاذ القرارات الطّارئة .

في اللّيل برزتْ له أمّه : «لقد وَلَدْتُ شيطانًا ؛ أيُّ نطفة تلك الّتي استقرّتْ في رَحِمي وجاءتْ بكَ؟!» قامَ إليها احتضنها في الحلم وبكى على كتفها وصرخ في وجهها : «لماذا تركتِني وحيدًا؟!» .

عمّت الفوضى كلّ رُكنٍ في الدّولة ، تناقل النّاس الأخبار من قُطر إلى قُطر ، وفشا فيهم تَضعضُع قوّة المَلك ، فهاجوا في الشّوارع ، ومن شُرُفات القصر المنيف الّذي يسكنه الملك كانتْ أصوات الجماهير الغاضبة ترجّ الجدران ، وتهزّ البنيان ، ووقف (مَسْعود) ليشهد طوفانًا من البشر يتداحون وهم يهتفون ضدّه ، فصرخ ، ثم تعالتْ صرخاته وتوالتْ ، ثمّ أغلقَ أذنيه لكي لا يسمع شيئًا ، ولكنّ الأصوات ظلّتْ

ـضب رأسه وقلبَه ، فازداد صُراخُه ثمّ تحوّل إلى بكاء أشبه ببكاء طفلٍ ـتيم ، وظلّ يبكي إلى أنْ سالَ مُخاطه على فمه .

حينَ عادَ إلى الدّاخل كانت (آسيار) و(بِلعام) بانتظاره ، خفَفًا من لوعته . قال له بلعام :

- إنّ هؤلاء شراذم خرجتْ من أجل بَطْنِها ، وإنّ مُلكَك لا أحدَ ـستطيع أن يهُزّه ، فاطمئنّ ؛ لأنّنا نحن مَنْ يريده أن يستمرّ .

- وما العمل ؛ إنّ هتافاتهم تُصيبني بالجنون . (سأله مسعود)

- أسْكِت الأفواه .

- وكيف ذلك؟!

- أعطِهم خبزًا وشعيرًا ؛ فإنّ الفم إذا امتلأ بالطّعام لم يعد قادرًا على الكلام .

أمر (مسعود) وزير الإنتاج الغذائيّ أن يُعطي كلّ مواطن مئة دينارٍ من خزينة الدّولة ، وأن يَهَبَهُ خبزًا وسَمنًا وعَسَلاً يكفيه لشهر . نفّذَ الوزير رَغَبات الملك ، فهدأ كثيرٌ من الغضب الّذي امتلأتْ به الصّدور ، وظلّ عدد الخارجين يقلّ كلّما ازداد امتلاء البَطن ، وبعد أسبوع كان عدد الّذين يخرجون للمطالبة بحقوقهم لا يزيد عن بِضع عشراتٍ من المؤمنين حقًّا ، فسَهُلَ محاصرتهم ، ومن ثَمّ سحقُهم والقضاء عليهم . ولم يدرِ أحدٌ من أولئك الّذين امتلأتْ بطونهم أنّ لهم إخوةً ماتوا من أجلهم وهم جوعَى!!

(٦٤)
الإله طيّبٌ لا يقبل إلاّ طيّباً، وأنتَ خبيثٌ غلبتْ عليكَ شِقوتُك

هدأتْ أرجاءٌ كثيرةٌ من الدّولة، واطمأنّ (مَسْعود) إلى ذلك، ونسي ما كان أو تناساه، وعادَ إلى سابق عهده، لكأنّ خروج النّاس عليه ذكّره بضعفه الطّارئ، فلمّا هدؤوا أو هُدّئوا عادَ إلى بطشه الأصيل.

تولّى (نيشان) أمْرَ الحجاز فلمّا رأى أنّ سيّده صار في مكان بعيد حدّثتْهُ نفسُه بالانقلاب عليه؛ إنّها عقيدة العسكر الّتي تظنّ أنّ السّلاح وحده قادرٌ على أن يحسم الموقف لصالحه؛ وأنّ أيّ قوّة أخرى للفكر أو المنهج أو إرادة النّاس يجب أن تتراجع أمامه؛ ولكنْ مَنْ ينقلب على مَنْ؟! عسكريّ على عسكريّ آخر؛ وقوّة بطش على قوّة بطش أخرى. وهنا تكون النّتيجة كارثيّة، لأنّ صراع الرّصاصات لا يرحم أحدًا، ويبدأ بصاحبه أوّل ما يبدأ!!

جمع (نيشان) مستشاريه، وأطلعهم على ما أضمَر من أنّه يريد الاستقلال بالدّولة الحجازيّة عن الامبراطوريّة المسعوديّة، مُعتقدًا أنّ هذا الوقت هو أنسب وقت لتنفيذ ذلك مع اهتزاز أركان الدّولة الممتدّة، ومع تلقّي (مسعود) نفسه ضربة شعبيّة ليستْ ببعيدة العهد. فوافقه على ذلك كلّ مَنْ تاقتْ نفسه إلى أن ينال حُظوةً عند (نيشان)، وأن

ستطع له الملك الجديد شيئًا من الكعكة لحظةَ اقتِسامها ، إلاّ قائدًا واحدًا ، قال له :

– لئنْ أخفقْتَ فإنّها ستكون الكارثة عليكَ وعلينا وعلى الشّعبِ الذي لم تبرأْ جراحاته بعدُ

– ولكنّ الأمر يستحقّ المحاولة . (أجابه نيشان) .

– هذه ليستْ محاولة إنّها مغامرة أو مقامرة ، والمقامرة مشيٌ على حدّ السّيف ؛ إنْ نجوتَ نجوتَ بجراح وإن سقطتَ قَسَمكَ الحدّ نصفين .

امتلأ قلبُ (نيشان) بالرّعب ، وفكّر بالتّراجع ، لكنّ بريق السّلطة لمع في عينيه فأعمى بصيرته ، فأردف مُستطلعًا :

– وماذا سيفعل (مسعود) بي؟!

– إنْ ظفر بك فلن يقبلَ أقلّ من شَيِّكَ حيًا .

دبّ الرّعب من جديد في صدره ، لكنّ (آسيار) تمثّلتْ في هيئة أحد قادته ، تقدّم منه وحنى رأسه تبجيلاً وقال :

– سيّدي . امضِ لما عقدتَ عليه العزم ، فوالله لا نتركك له أبدًا ، وإنّنا شركاؤك في الغُنم والغُرم ، أنا وكلّ ضُبّاطي رهنَ إشارتك ، نحيا بحياتك ، ونموت بمماتك .

قفزَ الطّمع في صدره كأرنبٍ هارب ، وكأنّه كان ينتظر لحظةَ موافقةٍ مثل هذه ليحسم أمره ، فوجّه أمرهُ إلى كلّ القادة الموجودين :

– لقد قرّرتُ أن أستقلّ بهذه الدّولة عن سيطرة (مسعود) وسأعلن ذلك غدًا في وسائل الإعلام ، ولا نامتْ أعيُن الجُبناء (والتفتَ إلى القائد الّذي دفعه إلى ذلك فلم يعثر له على أثر) .

وصل خبر (نيشان) إلى مَلِك الملوك ، فلم يتوانَ لحظةً في إرسال أساطيله إليه من الشّمال والشّرق ، وفيما كان الملك المزهوّ بشجاعته في

الإقدام على عمل جريء كهذا يُلقي خطابَ إعلان الاستقلال من الدّولة المسعوديّة كانت الطّائرات تقصفُ مبنى الإذاعة الّذي يتكلّم عبره ؛ ولم يتخيّل أنّ أمرًا دبّره بليل مع مستشاريه وأمنائه وصلَ إلى (مسعود) قبل أن ينطق حرفًا منه عبر وسائل الإعلام؟! أيّ جنٍّ هذا الّذي يُخبره بما يحدثُ لحظةً بلحظة!!

من موقعه بلباسه العسكريّ في غرفة البثّ، اقتيدَ (نيشان) مع مجموعة الانقلابيّين إلى (صفد) حيثُ القصر الأفخم في العالم يومئذ، قصر (طُوبى) الّذي صار مركز الحُكم الجديد لمسعود ؛ كان هذا القصر يضمّ ألف غرفة تحكّم أسفله وفي دهاليز مُغلقة، متّصلة بحوالي مئة قمر صناعيّ تصوّر كلّ بوصة من سطح الأرض، وتنقله عبر كاميرات في بثٍّ مباشر بالثّانية. وكانت الغرفة رقم صفر تضمّ أوعية السّلاح الجرثوميّ بعد أن تخلّى (مسعود) عن النّوويّ لصالحه ؛ ذلك أنّ الجرثوميّ أشدّ فتكًا بأضعاف مُضاعفة من النّوويّ ؛ الّذي أصبح سلاحًا تقليديًّا غير صالح لتطوّرات الزّمن وتسارع تكنولوجيّته.

طلبَ (مسعود) أن يُجهّزَ مطبخ القصر بكافّة معدّاته ومستلزماته لاستقبال اللّحوم الطّازجة القادمة من الحجاز. دخل بنفسه وحوله عددٌ من مساعديه الطّبّاخين، وأمرَ حرسه بأن يخلعوا البزّة العسكريّة الّتي يلبسها نيشان، وأن يُعدّوا الفرنَ على درجة الشّواء المناسبة للّحم البشريّ، ثمّ جيء بصينيّة عملاقة بطول الملك المخلوع، ودُهنتْ بالزّيت قليلاً، ورُشّ في أسفله بعضُ الدّقيق حتّى لا يلتصق اللّحم بقاع الصّينيّة عندما يبدأ الجسم بالنّضج... في هذه الأثناء كان (نيشان) يتوسّل وهو ينشج إلى سيّده المُرعب:

- بحقّ الآلهة الّتي تعبدها لا تقتلني.

– أنا الآلهة وأنا إلهها . (ردّ عليه دون أن ينظر في وجهه) .

– فدعني أعبدك إلهًا من دون العالَمين .

– الإله طيّبٌ لا يقبل إلاّ طيّبًا ، وأنتَ خبيثٌ غلبتْ عليكَ شقوتك .

– فدَعْني أرعى الغنم في الصّحراء ، أو أُلّمع لك الحذاء .

– سبقَ غضبي رحمتي .

رُفعَ بعد أن تيبّس جسده من شدّة الخوف ، ومُدّد في الصّينيّة العملاقة ، ثمّ دُفعَ إلى الفرن الملتهب ، وأُغلقَ عليه الباب ، كان الفرن مُجهّزًا بكاتمٍ للصّوت حتّى لا تتأذّى أذنا مَلك الملوك بصرخات الآثمين . بعد ساعة كان جسد الضّحيّة قد أنضجَ تمامًا ، أُخرجَ من الفرن برفق ، وأمر (مسعود) أن يُلبَس البدلة العسكريّة الّتي ظهر فيها على الشّاشة من جديد ، وأمرهم أن يفعلوا ذلك بحذر حتّى لا يتفتّت اللّحم النّاضج ، ولكي يكون كأنّه ما زالَ حيًا ، ثمّ وُضعَ على تلّة من الرّزّ في صَحفة ضخمة ، ورُشّ فوقه اللّوز والصّنوبر ، وجيء بعروق البقدونس فأمر بفمه ليُفتَح ، ووضعت هذه العروق على شكل نبتة داخل فمه ، ثمّ ذُهبَ به إلى دار الضّيافة .

في دار الضّيافة اجتمع كُبراء القوم ، وعلية القادة والمستشارين والوزراء . وقف في وسطهم (مسعود) وحدجهم بعينٍ قاسيةٍ حادّة ، ليقول :

– اليوم أقدّم لكم جسد (نيشان) ؛ لا بُدّ أنّ أكثركم يعرفه ، إنّه أحد الرّفاق العتاق والمُحاربين القُدامى ، وقد أبى لكرمه إلاّ أن يقدّم جسده طعامًا لكم وفاءً لذكراكم وللعُمر الّذي قضيتموه معه .

ثمّ أشار إلى أحد الخدَم ، ففتح أزرار البدلة العسكريّة فبان لحم

البطن والصّدر والعُنُق شهيًا طيّبًا ، ثمّ أمر كلّ وزير أو مستشار أو قائد عسكريّ أن يتقدّم بسكّينه ليقتطع من الجسد ما يحلو له ، وحذّرهم أن يقتربوا من الوجه فإنّه محرّم إلاّ عليه . همهم الوزراء قبل أن يتقدّموا ، أصابَ الغَثَيانُ بعضهم من المنظر المُقزّز والمُخيف في آن معا ، وتلكّأ بعضُهم عن أن يمتثل للأمر ؛ فمنْ يأكل لحمَ صديق كان قبلَ زمن بسيط أحدَ المقرّبين ، ثمّ هل نحن آكلو لحوم البشر حتّى نفعل ؛ مَنْ يأكل لحمَ الإنسان أفظعُ من الإنسان؟! هل وصلَ مستوى الجنون عند الملك إلى هذا الحـدّ؟! لا يُمكن أن تكون الرّوح الّتي تسكن هذا الملك المُروّع هي روح إنسان أو بشر ؛ لا بُدّ أنّ الشّياطين تلهو وتمرح داخل تلك الرّوح!!

رأى الملك تردّدهم فـمـدّ يده إلى سـلاحـه ، لكنّه أراد أن يرمي رصاص الكلمة قبل أن يرمي رصاص الفوّهة ، فهتف بصوت أقربَ إلى زئير أسد غاضب مجروح :

– يبدو أنّ وليمةً مثل هذه ستتكرّر ، كنتُ أظنّها الأخيرة ، لكنّ جوع بعضكم سيَجعلني أقدّمها لكم من جديد في مناسبات أخرى .

كانت هذه الكلمات كفيلةً بأن تجعل الضّيوف ينهالون بسكاكينهم على جسد (نيشان) ليقتطع كلّ واحد منهم نصيبَه ، كانت الأوسمة المُتدلّية عن يمينه ويساره تهتزّ تحت وطأة اقتسام جسده فتُصدر رنينًا أقربَ إلى النّواح .

بعد أن أكل كُلّ مَنْ في القاعة من جسد الضّحيّة ، تقدّم (مسعود) فأمر بسكّين فولاذيّ حادّ الشّفرة ، فعمد إلى الرّأس ، فحزّه من الأعلى ، ثمّ استخرج الدّماغ ، فكّر أن يُرسلَ به إلى الكلب السّلوقيّ كالعادة ، لكنّه تراجع في اللّحظة الأخيرة ، قرّبه من فمه ، واقتضم منه قضمةً ، فلاكها ثمّ بصَقَها وهو يقول بأسىً : «واحسـرتاه لو كان صالحًا لعرف كيف

ـستخدمه ، لكنّ هذه العقول العَفنة تأبى أن تتربّى إلاّ على الذّلّة والخسّة . يبدو أنّه حتّى الكلب يأنف وجبةً مثل هذه» .

في اليوم الثّاني سيق كلّ مستشاري (نيشان) الّذين أيّدوه في الانقلاب إلى ساحة الرّماية ، وصُفّوا صفًا واحدًا بمسافة جيّدة بين كلّ واحد والآخر ، ثمّ وقف على منصّة الإطلاق أمهر الرّماة والقنّاصين في الدّولة ، وفي غضون دقائق كانت أجساد الضّحايا تتساقط كأنّها أشجار اجتثّتْ من فوق الأرض .

أمّا القائد الّذي خالفَ (نيشان) في الرّأي ، فجيء به إلى القصر ، وأُدخلَ على (مسعود) وكان جالسًا على كرسيّ المُلك فوقف احترامًا ، وخاطبه :

- كيفَ عرفتَ أنّني سأشويه ، أفكنتَ تدري بذلك أم أردتَ أن تدلّني على طريقة جديدة ممتعة في القتل تشفي الصّدور وتذهب غيظَ القلب لحُمق بعضهم؟!

- بل أردتُ أن أنصحه ؛ لكنّ الّذي خُتِمَ على قلبه أنّى له أن يستجيب؟!

- صدقتَ ؛ والصّادقون لا مكان لهم في حِلْفي .

مدّ يده إلى سلاحه ، وأطلق عليه النّار فوقع على الأرض يتخبّط بدمائه ، حتّى إذا سكنتْ روحه أمر بقلع لسانه وتحنيطه ووضعه في وعاء زجاجيّ مملوء بسائل حافظ ؛ وأودعه في ثلاّجة الذّكريات . ثمّ صار كلّما أحاطَ به الكذبُ من كلّ جهة ، وتحلّق حوله النّفاقُ من كلّ صوب يُهرَع إلى الثّلاّجة فيستخرج الوعاء فيظهر له اللّسان ممدودًا كأنّما يستهزئ به ، فيبتسم ثمّ يقول له : «أنتَ أصدقُ من كلّ هؤلاء الكَذَبَة» ثمّ يُشير إلى نفسه وإلى المجموعة الّتي يتوهّم أنّها تُحيط به هنالك!!!

(٦٥)
إنه طفلٌ مشوهٌ ولدتهُ ناقةٌ ممسوسة

ثمّ نشبتْ حروبٌ لا يعلم أحدٌ منتهاها لكثرتها ؛ وإنّما كان يُوقدها (مسعود) إيقاداً ليُظهر مقدرته على سَحقها من جهة ، وليجعل الشّعوب تستغيث به للقضاء على الأعداء الغاشمين من جهة أخرى من أجل إعادة الهدوء بعد الفوضى الّتي تعمّ كلّ شيء . وبدا أنّ هَوَسَ هذا الطّاغية قد تحوّل من حزّ الرؤوس وسَفْك الدّماء إلى افتعال الحروب والحرائق .

ولا يدري أحدٌ العلاقة بين الحرب من جهة وبين الجوع والفحشاء من جهة أخرى ، إنّه ما قامتْ حربٌ - حتّى وإن كانت بعضُ نوايا المُتورّطين فيها طيّبة - إلاّ نجمَ عنها مجاعاتٌ تحصُدُ الأرواح ، وتُحيل الزّرع يَبَسًا . وما قُتِلَ رجلٌ في المعركة إلاّ وضاعتْ من بعده امرأة كان يرعاها أو بيتٌ كان يتعهّده ، ومِنْ ثَمّ فما أكثر اليتامى والأيامى الّذين كانوا نِتاج الحروب المُبهَمة الغامضة ؛ تلك الّتي نشبتْ في عشرات البلاد من الدّولة المسعوديّة الممتدّة ولا أحد يستطيع أن يجهر بِمَنْ بدأها ، ولا مَنْ أوقدَ فتيلها .

ما أكثر الكوارث الّتي حلّت بالبشر في عهد هذا الطّاغية ، لكأنّ وجوده بحدّ ذاته لعنةٌ هبطتْ من الجحيم فالتصقتْ ببطن كلّ مَخلوق وحيّ ، فأوردته المهالك ، وقضتْ على أيّ أملٍ في حياةٍ كريمةٍ أو طيّبة .

مَنْ قال إنّه قَدِم من الحبشة مع أمّه ، مَنْ يحفظ هذا التّاريخ ، وقد بدأ أبناء المحكومين وأحفادهم يُشكّكون فيه ؛ أمن المعقول أن تُنتج الحبشة شيطانًا مريدًا بلعنة تفوق لعنة إبليس الأكبر على البشريّة جمعاء؟! أمن المُمكن أن يكونَ ذلك الطّفل اليتيم الّذي استقرّ فوق ظهر أمّه في رحلتها نحو الحلم الموعود كان بشرًا ، أمْ أنّ إبليس قذف في رَحِم هذه الأمّ المسكينة نُطفته الملعونة فجاء هذا الفتى الّذي ظلّ سرًّا غامِضًا حتّى أفصحتْ عنه أفعاله الشّيطانة الّتي تفوق الوصفَ والخيال؟!

ظلّ (مسعود) يتفنّن في وسائل التّنكيل بمعارضيه حتّى دارتْ حوله الأساطير ، وبدأ جيلٌ من النّاس يعتقد أنّ الّذي يجلس على ذلك الكرسيّ ليس من طينة الآدميّين في أيّ حال من الأحوال ، وأنّه ليس من صُلب البشر الأصحّاء ، ولم يكنْ له من أمّ ولا أب ، وإنّما الحكايا الّتي تَرِد عن أصله من الحبشة وعن أبيه الّذي رُمِي في المستنقعات وأمّه الّتي ارتحلتْ به هي مَحضُ افتراء واختلاق للتّغطية على أصله الحقيقيّ . فما أصله الحقيقيّ إذًا؟! بعضُ الرّوايات تقول إنّه عُثِر عليه طفلاً مُشوّهاً وَلَدَتْهُ ناقةٌ مَمْسوسة . وبعضهم يقول إنّه نتاج حسد الشّياطين للجنّ المؤمنين لاستجابتهم لكلمة الله دونهم ، وأنّه إنّما هو شيطانٌ تخفّى في هيأة بشرٍ ليُذيق المؤمنين ألوان العذاب . وبعضهم يقول : إنّه ذنوب البشر اجتمعتْ في مخلوق ما فتشكّلتْ على هيئة هذا الّذي يُسمّى (مسعودًا) . وبعضُهم يرجّح أنّه ليسَ بشرًا ولا شيطانًا وإنّما حجرٌ من الجحيم هبطَ من كوكبٍ مجهول فلّما اخترق هواء الأرض جرتْ عليه قوانينُها فصار على هيئته اليوم!!

غير أنّ (مسعود) إنّما هو فردٌ واحدٌ ؛ فإنْ كان طاغيةً فَلِمَ تتبعه هذه الملايين ومن ورائها الملايين كأنّها قُطعانٌ عمياء يقودُها إلى حتفها!!

وفيمَ تُصدّقه هذه الجاميع البشريّة الّتي تعلم كَذِبه؟! وفيمَ تستأمنه هذه العقول الّتي تعرف غدره وخيانته؟! وعلامَ تتحوّل إلى وحوش مثله هذه الكُتل الإنسانيّة المُتراكمة؟! أفكان على ابنِ حرام واحد أن يحوّل كلّ البشر إلى أبناء حرام مثله؟! أما من ابن حلال يقفُ في وجهه فيردعه ؛ أما مِن (سرحان) جديد يُعيد إلى وجه الإنسان ماءه بعد أن لم يبقَ في الوجه من الذلّ والخنوع ماءٌ قطّ؟! أم أنّ الحقّ وأهله ماتوا بموت (سرحان) وقَضَوا بقضائه؟!!

أيّهما أشدّ بلاءً ؛ الحرب أم الجوع؟! كلاهما له نابٌ ؛ والضّحية هي الجسد الطّريّ من الإنسان الغافل ؛ لكنّ الجوع نابُه لا يغوصُ في جسد الضّحيّة كثيرًا ، قد يوجعُ . . وقد يؤذي . . وقد يقتلُ أحيانًا ، إلاّ أنّه أكثر رحمةً من تلك الحرب الّتي تأكل الخَلْقَ بأنيابها ، وتطحنهم تحتَ ضرسها طحنًا .

ها هي الرّيح في الوديان وفي السّهوب تبكي لِما حلّ بالإنسان ، تنوح لوحشيّته الّتي لا حدّ لها ، ترثي لتبعيّته الذّليلة وراء شبح يُدعى (مسعود)!! ها هي الأشجار تتساقطُ أوراقها عن أغصانها خجلاً لما حلّ بالبلاد والعباد!! ها هي الجبال والحجارة تكاد تنفلق غيظًا لما ترى من الهوان الّذي استمرأه بنو البشر!! وها هي السّماء تبكي مطرًا غزيرًا محزونةً على الطّوق العبوديّ الّذي ارتضى الإنسان أن يضعه في عنقه؟!

أيّتها الرّيح لا تنوحي . . أيّتها الأشجار حافظي على أوراقك الخضراء من أن تسقط . . أيّتها الجبال دعي الحجارة في مواضعها تقرّ هانئة . . أيّتها السّماء لا تبكي كثيرًا ؛ أيّتها الرّيح والأشجار والجبال والسّماء : لا تحزني إنّ جيل التّغيير قادم ، وإنّ طوفان الحقّ غالب ، وإنّ فَجْر الحرّيّة عمّا قريب سيُولَد .

(٦٦)
أفكانَ بمقدورِ الأصمِّ أنْ يَسمعكَ حتّى لو رفَعتَ صوتَكَ؟!

خَلَفَ المَلكُ (سُفيان) على ما تركه له (نيشان) بعد مقتله، وجعله (مسعود) ملكًا على الوسط والحجاز، وآلَ الحُكم إلى طاغيةٍ جديدٍ يأتمر بأمر سيّده الطّاغوت الأكبر. وعبدَ النّاس في العهد الجديد ما شاؤوا أن يعبدوا باسم حرّيّة الاعتقاد. وتُركَ لهم أنْ يتّخذوا ما شاؤوا من الآلهة، ولم يكن أحدٌ ليُحاسَبَ حتّى لو كان إلهُه صنمًا، أو مالاً، أو امرأةً، أو شهوةً، أو أيَّ شيءٍ آخر. وغلبَ منطق القوّة على كلّ شيءٍ، ودان ثلاثة أرباع العالَم بكلّ ما فيه من هُلاميّات بشريّة إلى مَلِكِ الملوك. وبدا أنّ الظّلام قد غطّى كلّ شيءٍ على وجه الأرض، وأنّ الشّيطان قد عادَ ليُعبَد من جديد، وأنّ هاويةَ الضّلال تلقَفُ كلّ دابّة تمشي في المناكب يومئذ.

أكلَ البشرُ بعضُهم بعضًا، ورضي (مسعود) بنهش الأجساد سبيلاً لاستمرار سيطرته على البشر. وحَكَم السّيف بدل العدل. والقوّة بدل الحقّ. كانت البشريّة يومئذٍ مقسومةً إلى نصفَين؛ نصفٌ ينخرطُ في جيش الدّولة العُظمى، ونصفٌ ينخرط في المعايش. وكان النّصف الثّاني يعمل كالعبيد من أجل النّصف الأوّل. كلّ ما يجنيه النّصف العامل يذهب من أجل رواتب النّصف العسكريّ، ومن أجل

رفاهيته ، ولا يبقى للكادحين إلاّ الفُتات الّذي يستبقونه من أجل أن يَقُوتوا أنفسهم وأُسَرَهم الّتي تتضوّر جوعًا وبؤسًا من خلفهم .

جيوش (مسعود) ليس لها بداية وليس لها نهاية ، تنتشر في جسد الأرض كأنّها الطّاعون أو السّرطان ، تنهشُ من ذلك الجسد أينَ شاءت ومتى شاءت وكيفَما شاءتْ . كانت أعدادهم أكبر من أن تُحصَى ، وأعظم من أن تُعرَف . قرّب (مَسْعود) من قيادات الجيوش كلّ اللّصوص والمرتزقة وقُطّاع الطّرق وأولاد الحرام والمقطوعين من شجرة والّذين لا يُعرَف لهم أصلٌ ولا نسب ؛ وكان يعتقد أنّ هؤلاء يدينون له بالولاء والطّاعة أكثر من غيرهم ، وأنّ اللّصّ يستطيع أنْ يخدع أيّ أحد ، لكنّه لا يُمكن أن يخدع لِصًّا مثله . واستمرّ عهد اللّصوص يومذاك بالتّفشّي ، وتغاضى (مسعود) عن كلّ الّذين تسابَقوا لملء محافظ نقودهم من أموال الشّعب ، ولمْ يُقاضِ أحدًا منهم ، ولم يستمع إلى أيّة شكوى تُقدّم ضِدّهم ، مع أنّه كان يعلم كلّ صغيرة وكبيرة!!

كانت القُوى العسكريّة البشريّة المتنوّعة الّتي تتبعه تضع على القبّعة المركوزة على الرّأس شعارَ الدّولة المسعوديّة ؛ وجه (مَسعود) الأسود الأفطس المصنوع من النّحاس المَطليّ وتحته عبارة : «لا يُسألُ عَمّا يَفعَل» . وكان هذا إيذانًا بإعطاء حرّيّة التّصرّف لأيّ جنديّ يلبس هذا الشّعار كما يشاء في الأموال والأعراض . فكان بعضُهم يدخل بأعداد كبيرة إلى المزارع فيحطمُ ما يقفُ في وجهه ، ويُطلق الرّصاص على مَن لقيه في دربه ، فيدبّ الهلع والفَزَع في قلوب الأطفال ، وتهيجُ الحيوانات ، وتَجْأر النّساء ، وَيَفْرَق الرّجال . وكان لزامًا على العاملين في المزرعة أن يتداركوا ما دبّ في أوصالهم من خوف ، فينتظموا في صفوف متراصّة على جانبي الطّريق ويُبادروا إلى الهُتاف باسمهم

وتمجيدهم ، وأن يذبحوا لهم بقرةً من الأبقار ، ويطبخوها لهم ، فيأكلوا ويأكلوا ، حتّى إذا شبعوا قاموا فدمّروا ما أرادوا ولربّما هتكوا الأعراض ، وعاثوا في الزّرع فسادًا ، ثمّ خرجوا دون أن يُحاسبَهم أحدٌ!!

أينَ هو الأمل الّذي سيـهـزمُ كلّ هذا اليـأس الّذي خيّم على الأرض ، أفليس بمقدور هذه الأرض أن تُنجبَ هذا الأمل القادر على أن يقف في وجه جيوش الظّلام المُنداحة في كلّ مكان؟!! كيفَ لستارٍ كثيف من الظُّلم أن ينزاح عن البلاد ، وكيفَ لغشاوة سميكة غطّت الأفئدة أن تُجلى عنها؟!! كلّ المحاولات السّابقة من المؤمنين القلائل قد أُجهضتْ قبل أن تؤتي ثمارها ، وقد وُئدَتْ في مَهدها ؛ فَمَنْ للبشر ليخلّصهم من هذا الكابوس الجاثم على الصّدور حتّى ليمنعها من الحياة ، من أبسط مظاهر الحياة الكريمة!!!

بدا أنّ ظُلُمات الأرض تحتاج إلى نورٍ من السّماء ليكشفها ، وبدا أنّ غُلامًا نبويًا ، أو فتىً مُطهّرًا هو وحده من سيكون مُهيّأً لتحمُّل تبعات التّغيير ، وأثقال المواجهة ؛ وكان كلّ يوم يمرّ على الأرض يقرّبها من يوم المواجهة الكُبرى ، ويُدْنيها من يوم المعركة العُظمى بين الحقّ وأتباعه ، وبين الشّرّ وأعوانه . ولقد رَسَخ في النّفوس أنّ هذا اليوم قريبٌ جدًا ، وأنّه لا محالة قادمٌ ، وأنّ الملائكة ستختار جيشها ، والشّياطين ستختار هي الأخرى جيشَها .

خضعَ النّاس للسّيف المُسلّط على رؤوسهم ، وركنوا إلى النّأي بالنّفس عن المواجهة لأنّهم يعلمون أنّ المواجهة تعني تطايُر الرّؤوس ، ورضوا بحياة الذّلّ من العزّ لأنّه وقَر في أذهانهم أنّ (مسعود) شيطانٌ لا يُمكن أن يُهزَم ، وأنّ جنوده شياطين مثله مُسلّطة على رقاب النّاس ، وأنّ مُقاومتها تُشبه مقاومة شعلة صغيرة أمام ريحٍ عاصف!! وأنّه كذلك

لم تعد من فائدة لنُصحه أو نُصح قادته أو حتّى جنوده الصّغار ، لأنّ عقولهم رُكّبتْ على أن يركع الآخرون لهم دون أن يُناقَشوا ، وإذا كانت المحطّة الّتي تُرسل إليها الإشارات مُعطّلة وصَدئة فما الفائدة من الاستمرار في إرسال هذه الإشارات؟! أفكان بمقدور الأصمّ أن يسمعكَ حتّى لو رفعتَ صوتك؟! أم كان بمقدور الأعمى أن يقودكَ حتّى لو تركتَ له يدَك؟!

لم يقلْ أحدٌ إنّ الحرب واجبةٌ على الخَلْق من أجل التّطوّر ، السّلوك البشريّ المدفوع بأقدار إلهيّة يقول ذلك!! ولم يذكر أحدٌ أنّ الحربَ لا بدّ من خَوضها لكي تتبدّل الأطوار ، وتتغيّر الأوضاع وتتقدّم البشريّة إلى مرتبة جديدة ؛ مرتبة قد يكون فيها بصيصٌ من نور في هذا الطّوفان الظّلاميّ المُخيف . أفكان على البشر أن يذوقوا ويلاتِ الحروب لكي يَنجُوا من الموتِ المُقيم ، أفكانت الحربُ بدايةَ الحياة مهما نفثتْ أنيابُها من سُمّ الرّدى العقيم!!!

من قديم في التّاريخ البشريّ كانت السّماء موطن الرّحمة والنّجاة ؛ حتّى على أؤلئك الّذين هَلكوا ؛ لأنّ هلاكهم كان نجاةً ورحمةً لمن رَزَحوا تحت نار عبوديّتهم وبطش جَبَروتهم .

(٦٧)
انهضْ أيّها الفتى فقد جاء دورُك!!

في التّلّة المُطلّة على رحمة الله ، الخالية من كلّ شيء إلاّ ممّا يقرّب من الله ومن معرفته ، قضى (رضى) عشرينَ عامًا يسأل الله الخلاص من العذاب والنّجاة من الخَبَث . عشرون عامًا ذاب في مَلَكوت الله فشغله ذلك عن كلّ شيءٍ حتّى شغله عن نفسه وبشريّته ومهمّته في الحياة . وكأنّ روحه اطمأنّتْ إلى هذا الجلال الّذي يغلّف كلّ شيءٍ في هذه البقعة فهدأتْ وسكنتْ وسعدتْ واستقرّتْ .

غيرَ أنّ الحياة ليست هدوءًا وركونًا إلى الدّعة وتخلّيًا عن الرّسالة ، بل صَدعًا بالحقّ ، وصَرعًا للباطل ، وهي - بالضّرورة - ليستْ اعتزال الشّرّ والفتنة ، بل محاولة القضاء عليهما ؛ وهي لا تقوم بالاكتفاء بالتّعبُّد والتّبتُّل والتّنسُّك ، بل لا بد أن يصحبها عملٌ وفعلٌ ومخالطةٌ للشّرّ الكامن في النّفوس ثمّ مخالصة النّاس منه . فانهضْ أيّها الفتى فقد جاء دورُك!! واستعدّ أيّها الغلام فإنّ الأرض تنتظرك ، واحمل سيفك فإنّ المعركة قادمة قد سُعّرتْ نارُها!

كان القمر بدرًا ، واللّيلة تحفّها السّكينة ، ويعروها الخشوع ، ويجتمع في كَنَفها الملائكة المُسبّحون . ومن حيثُ هيّأ الله له أن يأتي بعد فترة من اليأسِ والقنوط ؛ هبطَ (زوبعة) إلى التّلّة حيثُ موطن (رضى) . كان هبوط (زوبعة) يعني أنّ أمرًا بالغ الأهمّيّة جعله يتمثّل لرضى ، وأنّ

عهدًا جديدًا يأذن بالقُدوم .

عانقه صديقًا قديمًا يعود بعد طول غياب ، هتفَ به (زَوْبعة) : «خفّف جرعة الشّوق قليلاً ؛ إنّ البقيّة في الطّريق» . لم تمرّ دقائق حتّى تدرّى الأستاذ ، ومن بعده الحواريّون ، واجتمع عِقد بهجتنا ؛ أربعةَ عشرَ مؤمنًا . قال زَوْبعة :

- لقد بلغ الشّرّ على الأرضِ منتهاه ، وإنّ الجور والظّلم ليملآنها حتّى فاضتْ بهما . والنّاس في بؤسٍ شديد .

- ولكنْ ألم يمنحْهم كلّ هذا التّقدّم العلميّ والتّقنيّ سعادةً ؛ أليسَ من المفترض أن يجلبَ لهم الرّاحة والرّفاهية ، فلِمَ البؤس؟! (سألته مستطلعًا) .

- إنّه لم يزدهم إلاّ نكدًا . إنّما السّعادة بالقرب من الله لا بالقربِ من الشّيطان ، وهذه الاختراعات المتقدّمة جلبتْ لهم كلّ شياطين الأرض وأقعدتهم في أحضانهم .

- وكيفَ تكون سعادتهم إذًا .

- السّعادة تكون في إعطاء الرّوح حقّها من الاتّصال بالله ، لا الانغماس في وحل الشّهوات ونسيان حقّ المُنعِم ، إنّما ينشأ الضّنك من الإعراض عن ذكر الله .

- وما العمل؟!

- إنّ (مسعودًا) الّذي فوّضتَ له كلّ صلاحيّاتك قد تحوّل إلى ربّ يطلبِ من النّاسِ عبادته ، وإنّ شروره قد ملأتْ العالَم ، ولا بُدّ من إيقافه .

- وكيفَ ذلك؟!

- سنواجهه في الأرض ونُقاتله .

دخلتُ على (مسعود) قصر (طوبى) ، كان غايةً في الفخامة والعظمة والأبّهة ، تحرّك فِيّ نصفي البشريّ ، شيءٌ ما في أعماقي جعل قلبي يميل إلى هذا البهرج وتلك الزّينة ، تذكّرتُ ما أنا قادمٌ من أجله فأحجمتُ وربط الله على قلبي ، السّنون العشرون الأخيرة كان زادُها الإيمانيّ يفعل فِعله الآن . استقبلني في كُرسيّه وهو يحدجني بطرف عينه احتقارًا :

- عشرون عامًا كانتْ كفيلةً بأن أنساك ، لكنّ رداءك القرمزيّ أعادكَ إليّ .

- وبه سأقاتلك .

- بالنّسبة لي سأجعله كفنك ، لعلّ روحكَ تقرّ به .

- كلّ ما أنتَ فيه من العَظمة الزّائفة كان أحد ذنوبي .

- ذنوبك؟!

- أنا الّذي ملّكتُه لك ، وكنتُ أرى فيكَ أمانة ، كم كنتُ مخطئًا ، ولو قيل للخيانة أن تتمثّل في شخص لكُنْتَها .

مدّ (مسعود) يده إلى سِلاحه ، همّ بأن يقتل (رضى) ، تذرّى في تلك اللّحظة (زَوْبعة) ومن بعده الأستاذ ، وارتجّتْ أركان القصر لظهورهما ، ثمّ تهيّأتْ (آسيار) ومن بعدها (بِلعام) . اصطفّ (زَوْبعة) والأستاذ إلى جانب (رضى) ، واصطفّ (بِلعام) و (آسيار) إلى جانب (مسعود) :

- البشر فانُون ، ولن يدوم لك كلّ هذا المُلك ، ففيم الغَطرسة؟! (قال ذلك زَوْبعة لمسعود)

- لن يفنى ما دمتُ إلى جانبه . (ردّ بِلعام عن مسعود) .

- إنّه يَخدعُكَ ، كما خَدَعكَ من قبلُ ؛ ما من حيّ إلاّ سيفنى ،

حتّى نحن الجنّ سنفنى ولكنّنا نعيشُ أعمارًا طويلة .

- لا تُصدّقْه ، أتذكُر الشّراب الأصفر الّذي كنتَ تقدّمه لشيخك ، ألم تكنْ تشرب منه يا مسعود خِفية ؛ فذلك هو شراب الخلود ؛ فأنت خالدٌ ما شئت .

- كاذب ؛ لو كان شرابَ الخلود فلماذا مات الشّيخ عايد من بعده؟! (يضطرب مسعود لسماع هذه الحقيقة) ، لكنّ (بلعام) سرعان ما يقول :

- الشّيخ عايد أنا الّذي قتلتُه (ردّ بلعام ليُطمئنَ رضى) ، ولو تركتُه لعاش خالدًا .

- ولكنْ ألم يقتله رضى؟! (قال ذلك مسعود متدخّلاً في الحِوار) .

- كلاّ ، أنا مَنْ قتله ؛ إنّما كان (رضى) مُغمَضَ العينين لحظتها ولم يكنْ يرى شيئًا . (ردّ بلعام) فتدخّل زوبعة موجّهًا كلامه إلى مسعود :

- ولنفترض أنّ بلعام هو الّذي قتله ، فما الذي يمنعه أن يقتلك كما قتله ، ويرمي بجثّتك للكلاب؟!

اهتزّتْ أركان مسعود لمجرّد إحساسه بأنّ عنقه معرّضةٌ للانفصال عن جسده .

- لن يُقتَل ما دامتْ أفكار الشّياطين وأفكاره متناغمة ، إنّه يفكّر أفضل منّا ، ويأتي بأساليب أكثر جدوى من أساليبنا ، فسيعيش أطول ممّا نعيش . (أجابَ بلعام)

- سينتهي كلّ ذلك ، ونحن مَنْ سيُنهيه ؛ أنا والأستاذ ورضى والمؤمنون .

- أتهدّدُنني ، وأنا أملك الأرضَ ومن عليها؟!

- السّيف بيننا ، وكلمة السّيف أبلغ من كلّ الكلام .

- وليكنْ ؛ لأجعلنّه يحزّ رقابكم أجمعين .

ارتفعتْ نبرةُ التّهديد ، ومضى الفريقان في طريق كريهة صَعبة ، لكنّ كلاًّ منهما أدرك أنّه لا مفرّ في النّهاية من المُواجَهة ، وأنّ آخر الدّواء الكيّ ، قال (زَوْبعة) : «الأفعى لا تموت بِقَطع الذّنب . والكلبُ لا يسكتُ إلاّ إذا ألقمتَه حجرًا» . وقال (مَسعود) : «إنّ كافرًا لا يُقرّ بألوهيّتي لخليقٌ بألاّ أرحمه ، وإنّ عندي من الجحيم ما يتّسع لكلّ كَفَرَة العالَم أجمعين»!!

(٦٨)
أعداءُ الأمسِ صاروا أصدقاءَ اليومِ

«لقد خرجتَ من الصّحراء ؛ ولكنّك ستعود إلى فلسطين والأردنّ . لقد خرجتَ من وادٍ غير ذي زَرْع لتعود إلى الأرض الّتي تدرّ لبنًا وعسلاً ؛ إنّها الأرض الخليقة بالنّهايات الكُبرى . . . الأرض الّتي ستلفظ كلّ الأشرار ، وتُذيبهم مثل الحُمَم في باطنها ، وتهيّئ جسدها الغضّ بعد ذلك لكلّ الصّالحين» .

استنفرَ (زَوْبعة) الجنّ المؤمنين الّذين سَكنوا أطراف القُطب الشّماليّ ، ووديانه وشعابه ، وحثّهم على الاحتشاد إلى جانبه من أجل الحرب المُقدّسة القادمة فاجتمع عنده خلقٌ عظيمٌ ، وسار (رضى) مع الحواريّين في النّاس يُبصّرونهم ويدعونهم إلى الثّورة على الطّاغية ، ويبشّرونهم بقرب الخَلاص من عذابه ، وبالأمل في إنهاء عهده الظّالم ليعمّ العدل والأمن والسّلام الأرضَ بأكملها ؛ كان رضى يقول : «إنّ الموتَ وأنتم تقاتلون هذا الطّاغية في سبيل التّحرّر لَهُو أهون ألف مرّة من الذّلّ الّذي أرغمكم على الرّضى به ، وإنّ الموتَ في معركة الخَلاص ليأتي مرّة واحدة ، ولكنّه في عيشة الذّلّ هذه يأتي في اليوم ألف مرّة» .

لكأنّ كلماته كانتْ نغمًا شفيفًا هفتْ إليه قلوبهم ، وأصغتْ إليه جوارحُهم ، ولكأنّ دعوته إلى حلم التّخلّص من استبداد الطّاغية كان

لنا عذبًا ، وحُلْمًا أسطوريًا قضوا حياتهم من أجل أن يروه متحقّقًا قبل أن يُغادروا هذه الحياة الفانية . من أجل ذلك تبعَ المساكين والفقراء والمسحوقون (رضى) في دعوته ، ومالتْ إليه قلوبُ مَنْ وقع عليهم الحيفُ ، ومَنْ سُلِبتْ أموالهم وممتلكاتُهم ، ومن أثكلوا أو أبعدوا عن أوطانهم . . . وكان من هؤلاء عددٌ كبيرٌ مَهول ؛ فما من بلد ولا من بُقعة إلاّ وكان فيها مَنْ عانى من بطش هذا الطّاغية ، وناله من أذاه ما ناله .

والتقى أنصار (رضى) من البشر مع أنصار (زَوْبعة) من الجنّ المؤمنين في المناطق الشّرقيّة لسهول حوران ، وبدأت الاستعدادات للمعركة القادمة . كانت هناك مئات الألوف من الجنود ممّن عقدوا العزم على مواجهة (مَسْعود) وجبروته ، أُخضعوا لتدريبات عسكريّة شاقّة ، وكان المُدرّبون من الجنّ قد درّبوا كلّ مَنْ تطوّع للقتال على كلّ أنواع الأسلحة من الطّائرات والدّبّابات والصّواريخ والأسلحة الثّقيلة والخفيفة . وأقيمت مُعسكَرات لشهور طويلة في تلك السّهول ، ومع أنّه كان بالإمكان كشف المواقع التّدريبيّة من جواسيس (مسعود) إلاّ أنّ عاملَين ساعدَا على استمرار التّدريبات دون التّعرّض للأذى ، الأوّل استهانة (مسعود) بهذا الّذي سمّاه الذّباب المُتطاير في السّهول ، والثّاني إخفاء الجنّ لعدد كبيرٍ من المُقاتلين والآليّات عن طريق تقنية المجال الكهرومغناطيسيّ .

ومع مرور الأيّام تكاثر أنصار جيش الحقّ ، وانضمّ إليه كلّ مَنْ أراد أن يحوز شرَف إنهاء حُكم هذا النّمرود . وبعد ستّة أشهر كان عدد المُقاتلين يفوق خمسة ملايين مقاتل ، يتوزّعون على سهول حوران ، ويملؤونها إلى أطراف طبريّة . فأقاموا على الماء الّذي يسبقها ؛ على ماء

الأردنّ وعلى ما حوله من السّهوب والوديان الصّغيرة، وتمركزَ لُبّ الجيش على مرتفعات (أمّ قيس) بقيادة (رضى) ومعه نصفُ الحواريّين، وتمركزَتْ أطرافه الأخرى على هضبة الجُولان بقيادة (الأستاذ) ومعه النّصف الآخر من الحواريّين، وانتظروا جميعًا إشارة البّدء في المعركة الفاصلة من القائد الأعلى للجيوش.

أمّا (مسعود) فقد تَبِعه الكُبَراء وأصحاب النّفوذ، وتُجّار المُخدّرات، وأصحاب المصالح، واللّصوص، وقُطّاع الطّرق، والقتلة، والمُجرمون، وعديمو المروءة والجَهَلة. وكانت أساطيله تملأ أكثر من نصف مساحة دول العالَم، أمّا ترسانته العسكريّة فكانت تتوزّع على مئات الألوف من الطّائرات والدّبّابات والسّفن الحربيّة والمدرّعات وجنود المُشاة. وكانتْ ميزانيّة العسكر تأتي من طريقَين: المُخدّرات والغاز.

أمّا الجَهَلة فاندفعوا يهتفون بحياة إلههم العظيم، واندلقتْ في الطّرقات حشودٌ من الطلاب ممّن لم تنفتح عيونهم إلاّ على ما أراد الطّاغية لهم أن يفتحوها عليه، وراحوا يحملون صُوَرَه بأحجام مختلفة، ويطوفون بها السّاحات، ويطلبون من صاحبها أن يسحقَ الصّراصير الّتي تجترئ عليه، وأنْ يُهجّرهم من الأرض، لأنّ أرضًا أطعمتْهم ورعتْهم ببركة الإله لا يستحقّون أن يعيشوا فيها. وتجمّعتْ أعدادٌ هائلةٌ في السّاحات العامّة وراحت ترقُصُ ابتهاجًا بقدرة الإله ونيّته القضاء على الفئران الّتي تعيثُ في الحقول فسادًا، وتنشر الفوضى والخراب في الدّروب الآمنة. وكان من المألوف أن ترى شعراء الطّاغية يتصدّرون المنابر في كلّ المحطّات وإرساليّات البثّ وهم يُعدّدون سجايا ربّهم الأعلى، ويُسبّحون بحمده، ويرجُونه أنْ يُسرع في القضاء على الفَسَدة الّذين لم يَرعَوْا في حُرَم المواطنين الأبرياء إلاًّ ولا ذمّة.

وتسابقَ كلُّ مَنْ يملك قلمًا حصيفًا من المُفكّرين والأدباء ممّن راحوا ينتظرون الجائزةَ يومَ الحصاد في بيان حكمة الطّاغية ، وبُعد نظره ، وما يملكه من استشرافٍ للمستقبَل بما يعود على الأمّة بالنّفع والخيرِ والنّور!!

أمّا مَنْ سَمع - ممّنْ لم يدخل تحت سيطرة (مسعود) من ملوك الدّول الأخرى - بأنباء الجموع الّتي تحتشد لمقاتلته ، وأنّه في وَرْطة ، فقد تحرّك الشّوق المكنون والحقد الدّفين داخلهم ليقفوا إلى جانب الثّائرين عليه ليتخلّصوا هم بدَورهم منه ، أمّا (ويليام) فلم ينسَ بعدُ طعم المصيبة الّتي حلّتْ به وبشعبه بعد جبل الذّهب فتحفّزتْ نفسُه للانتقام . وأمّا (داريوس) فرأى أنّ مصلحته تقتضي أن يقف مع جيوش (رضى) لأنّ في الخلاص من مسعود انفراجًا للقبضة الحديديّة الّتي يفرضها على حقول الغاز المُتاخمة لدولته .

جمع (ويليام) مُستشاريه ، يستطلع رأيهم في الحرب القادمة ؛ أيقفون إلى جانب (رضى) كما يرى هو أم إلى جانب (مسعود)؟! لكنّ (أسيار) لم تُمهل المجلس الاستشاريّ من الانعقاد ؛ وحينما سمعتْ بما ينوي (ويليام) القيام به تمثّلتْ له في هيئة وزيره المؤتمن ، ليقول له :

- سيّدي الملك المُبجّل ؛ أرى أنّ وقوفَك إلى جانب (رضى) قد يحسم المعركة لصالحه وبالتّالي لصالحك ، ولكنّ ذلك لن يتمّ إلاّ بعد أن يكون ثلاثةُ أرباع جيشكَ قد أُبيد ، وما المصلحة الّتي ستحقّقها جرّاء هذا النّصر بعد أن تكون كمن ذبح أكثرَ شعبه بيده؟! لا شيء سوى الدّمار والضّحايا . هل ترى أنّ شعورك بردّك (لمسعود) الصّاع صاعَين سيُريح ضميرك على حساب شعبكَ ؛ كلاّ ؛ إنّكَ لن تنام اللّيلَ بعدها ندمًا على ما أقدمتَ .

- وما العمل إذًا؟!

- إذا أقنعتَ مسعودًا بأن يُعطيَكَ نصف عائد المُخدّرات في الشّمال مقابل أن تقفَ معه في الحرب فافعل ، فإنّ المال الّذي ستجنيه من أرباح المخدّرات وحدها سيُعيد بناء الدّولة من جديد ، وسيكفل لك ولمواطنيك الرّخاء والرّفاهية .

- نعم الرّأي ؛ سأهاتف (مسعودًا) بالأمر .

وأمّا (داريوس) فقد عزم على ما عزَم عليه (ويليام) في البداية ، لكنّ (بلعام) تمثّل له في هيئة كبير مُستشاريه ، وخاطَبه :

- أيّ ربح يُمكن أن تحصّله من وقوفكَ إلى جانب هذا المسكين ؛ إنّ جيشه لا يُساوي سُدْسَ جيش (مسعود) ولا تجهيزَه . أيّ معنىً للوقوف إلى جانب المهزوم قبل أن تبدأ المعركة؟!

- وما العمل؟!

- أقنعْ (مسعودًا) بأن يُعطيَك نصف عائد الغاز في الشّرق مقابل أن تصطفَّ معه كَتِفًا إلى كَتِف في المعركة . وبهذا تضربُ عصفورَين بحجر واحد ؛ النّصر في معركة محسومة النّتائج ، والحصول على أرباح الغاز من أجلك ومن أجل شعبكَ العظيم .

- نِعمَ الرّأي ؛ سأهاتف (مسعودًا) بالأمر .

قبل أن يُخابرَ الْمَلِكان (مسعودًا) كانت (آسيار) و(بلعام) يحُطّان في قصر (طوبى) في حضرة مَلِك الملوك ويُخبِرانه بما فعَلا ، ويطلبان منه الموافقة دون تردّد .

في اليوم نفسه كانت جيوش الشّرق الجرّارة ، وجيوش الغرب الفتّاكة تزحفان إلى وسط العالَم ؛ إلى شمال فلسطين لتقف إلى جانب

الأفاك (مسعود)، وبدا أنّ أعداء الأمس قد صاروا أصدقاء اليوم، وأنّ قُوى الظّلام على اختلاف نواياها الخبيثة تجد سبيلاً للاحتشاد جنبًا إلى جنب مهما كانت الاختلافات الجوهريّة، وتتوصّل إلى تفاهُم يجمعهما من أجل مواجهة عدوٍّ مُشترَك؛ ألا وهو النّور.

إنّ حربًا فاصلة لا تقوم بين الأشقّاء، ولا بين الخيّرين، ولا بين أصحاب العقيدة الواحدة، ولا بينَ أصحاب الغايات النّبيلة؛ لأنّها حينئذ ستكون مذبحةً لا معركة، أمّا المعارك الخالدة فإنّها دائمًا ما تقوم بين قوى النور والظّلام، والعدل والظّلم، والدّنيا والآخرة.

(٦٩)
الفكرة البيِّنة لا تَحتاجُ إلى بيِّنة

اجتمع الجنّ والإنس في الصّفّين، وبدا أنّ الاحتشاد في كلّ صفٍّ قد انبنى على أساس الفكرة البيّنة الّتي لا تحتاج إلى بيّنة؛ إنّها المفاصلة بين فُسطاطَين؛ كُفر وإيمان. ذلك أنّه كان يُمكنكَ أن تجدَ جنديًا في صفّ (رضى) وأبوه في جيش (مَسْعود) أو العكس، أو أن تعثر على جنّي في جيش (رضى) وابن عمّه يصطفّ إلى جانب (مَسْعود). وصار جليًا أنّ المعركة تقوم على تمايز الصّفّين بسبب من العقيدة لا بسبب من الأصل أو الجنس. وكان من المُمكن أنْ يقتل الابنُ أباه، والأخُ أخاه، والعمُّ ابنَه، وابنُ الأخت خالَه!!

إنّها سهولٌ مُمتدّة، يتتابَعُ امتدادها من جنوب بلاد الشّام إلى أن يصل هَضَبات الجولان، والوديان المُحيطة بها، فإذا ما عبرتَ تلك الوديان السّحيقة، انبسطتْ لك سهولٌ أخرى وأدّتْ من بعدُ إلى قصر (طُوبى) في صفد من شمال فلسطين. بلادٌ هواؤها إذا دخل القلب أعاد له الحياة، وشرحَ له الصّدر، غير أنّه في هذا الهواء نفسه تزفر أنفاسُ المقاتلين من الجهتَين؛ كُلٌّ يتحفّز للقضاء على غريمه.

كانتْ جيوش (ويليام) قد اتّحدتْ مع جيوش (روجرز) اللّذَين اصطفّا تحت رايةٍ واحدة، وجاءا عَبْر البحر، وسَمِعَا النّداء ذاته؛ نداء

الرّبّ ؛ واتّخذا لباسًا مُوحّدًا ؛ جُنود المُشاة يلبسون التّنانير السّوداء الّتي تُغطّي نصفَ رُكَبهم ، ومن تحتها سراويل من الزّرد ، ويضعون على رؤوسهم خُوذًا معدنيّة ، وعلى صدورهم واقيات الرّصاص القاتمة ، وفي أيديهم رشّاشات التصويب الأوتوماتيكيّ . أمّا (ويليام) نفسه فقد شاء أنْ يقود سربًا من الطّائرات ، من غرفة تحكّم بُنيتْ له تحتَ أعلى قمّة في جبل (الجرمق) القريبة من مركز إقامة سيّده ؛ ولعلّ رائحة الخشْخاش هي الّتي جعلتْه يتحمّل البرد القارس الّذي يلفّ قمّة الجبل ، ولربّما ألجأه ذلك إلى تحمّل تساقُط الثّلوج لكي يعود من بعدها بمخازن الخشْخاش مع طائراته إلى شعبه الّذي تنازل عن حلم الذّهب في سبيل حُلم جديد . واختار الملك (ويليام) لنفسه لباسًا تقليديًّا ، فبعد أن لبسَ البدلة الواقية من الأشعّة ، أسبلَ فوقها عباءةً سوداء مُغلقةَ الأزرار وقد نقشَ على صدرها الأيمن الصّليبَ بلونٍ أبيض .

أمّا (روجرز) فقد تأخّر قليلاً عن حليفه الجديد (ويليام) وأقام على بُعد بضعة كيلومترات منه ، واختار أن يقود كتائب المدفعيّة الثّقيلة ، واتّخذ له من مرتفعات (المَنْصورة) ما بين صفد وعكّا مركزًا رئيسيًّا لانطلاق هَجَماته ، أمّا الآليّات المُدمّرة الّتي كانت تأتمر بأمره فقد تجاوزتْ مئة ألف آليّة ، جعل في مقدّماتها دبّابات (أجاممْنون) ذات القدرة القتاليّة الفائقة ، والكفاءة العالية ، وأمر أن تصطفَّ ألفٌ منها في المقدّمة على شكل عشرة صفوف في كلّ صفٍّ مئة دبّابة ، ما بين دبّابة وأخرى مئة متر ، وتحتلّ الدّبّابة التّالية في الصّفّ التّالي نصفَ المسافة ، وكان مداها يصل إلى ٥٠ كم بدقّة إصابة تبلغ ٩٠ ٪ . ولو قُدّر لك أن ترتفع أكثر من ٧٠٠ متر عن سطح البحر يومئذ وتنظر إلى هيئة قوّات (روجرز) لرأيتَ ما يَروع القلب ، ويَخطَف البصر ؛ إنّها أرضٌ مُباركة ملأ

الموتُ كلّ بقعة منها مستترًا خلف آليّة عسكريّة بغيضة!!

أمّا الملكُ (داريوس) فقد اختار لجنوده مرتفعات (جبل كنعان) المُطلّ على بحيرة طبريّة ، وهي في مدى الرّؤية حيثُ يقيم (مسعود) وجيوشه المُدافعة عن قصره ، ولعلّ الغاز تحرّك في رئتيه فاختار أن يكون جيشُه أقربَ الجيوش إلى موضع سيّده ليُدافعَ عنه بشراسة عند انهيال الموقعة ، فينال الرّضى ، فيعود بنصف الغاز إلى شعبه . ألبسَ (داريوس) جنوده الحديد المطليّ بالسّواد من أعلى الرأس إلى أخمص القدمَين ، حتّى بدا الجنديّ الّذي لا تظهر منه غير عينيه كأنّه كتلةٌ من الحديد ، أو قذيفةٌ من الرّصاص تدبّ على الأرض . وعُدّتْ جبهته خطَّ الدّفاع الأوّل عن (طوبى) ؛ إذ كان مهمّته الكُبرى أن يمنع المتسلّلين عبر الجبال من النّفاذ إلى البحيرة ، لأنّ البحيرة لا يحميها إلاّ أرضٌ قريبة المسافة من موقع مَلك الملوك .

ولبستْ بقيّة جيوش الظّلام السّواد في قطعتين ، وكان هذا يحميهم في اللّيل من اكتشافهم بسهولة ، ويُعمّي على مواقعهم في اللّيل ، وخصوصًا في الوديان والمنخفضات إذ يبدو أنّ سواد الهواء هناك بسبب انكسار الضّوء يُساعدهم على التّخفّي ومن ثَمّ التّنقّل بحُرّيّة .

واختار (زَوْبعة) ومَنْ تبعه من الثّائرين المؤمنين الأبيضَ لباسًا لهم ، وأمَر جُندَ الأرض أن يغطّوا أنفسهم بأوراق الشّجر إذا كانوا في الحقول ، وبالجذوع اليابسة إذا كانوا في الوديان ، أمّا جُندُ الفضاء فحركتهم السّريعة كفيلةٌ بإخفائهم ، بالإضافة إلى أنّ الفضاء وخاصّة في الليل يتكفّل بالتّعمية عنهم وعدم الإرشاد إلى مواقعهم ، وسيحمون هم بدورهم البشر ممّنْ سيُقاتل في السّهول والهضاب والأماكن الأخرى .

ظلّ الجانبان يحشدان عامًا كاملاً بانتظار الواقعة الكبيرة، كانت موارد الدّولة المسعوديّة حينذاك تعمل بأقصى طاقاتها لتوفير الطّعام والغذاء لجيوشها، كلّ أرباح المُخدّرات والغاز والذّهب الأسود والمزارع والمناجم قد صُبّتْ لتخدم إطعام الجنود الّذين تنتظرهم معركة مصيريّة، وعمل (مسعود) على ترفيه جنوده من الجيوش كافّة، وطبخ لهم العجول والأغنام والأبقار والخرفان والخنازير والطّيور، وكان يأتي بالأنعام في طائرات من أفريقيا، ويُساعده (داريوس) فيأتيه بالأبقار من أقصى الشّرق مقابل أن يدفع له ثمنها، وأمّا الجمال فتكفّل بها (سفيان) عامل مسعود على الحجاز وبعض أجزاء الشّام. لكنّ هذه الرفاهية الباذخة الّتي وفّرها (مسعود) لقوّاته لم تمنعه من أن يُمارس وحشيّته المعتادة في كلّ الأحوال، فكان يُراقب معسكرات التّدريب ويُحصي المرضى والضّعاف والخائفين والّذين لا يقوون على القتال، فيقتلهم في حفلات إعدام جماعيّة، ويرمي لحومهم للكلاب، وأحيانًا إلى المَرَدة من الشّياطين فينهشونها ويمصّون عظامها. كان يقول: «إنّها المعركة الأخيرة، ولا أريد أن يُشارك فيها إلاّ الأقوياء. إنّ جُنديًا واحدًا ضعيفًا هو بمثابة زهرة خشخاش فاسدة ينخرها الدّود فإذا ما تُركتْ دون أن تُقتلع فلسوف تقضي على حقل بأكمله منَ الزّهرات الصّالحات».

وجُنّ جنون الجنّ بعد أكلهم اللّحوم البشريّة، وراحوا يَعزفون كأنّهم الرّيح العقيم، ويَعوُون كأنّهم الذّئاب الجارحة، ويتقافزون كأنّهم النّيران اللاّهبة. وامتلأتْ نفسُ (مسعود) بالفرحة العارمة، لقد أدّى هذا اللّحم البشريّ عمله على أكمل وجه، وراح يتساءل: أيّ جنّ كان مُختبئًا في لحوم هؤلاء الفاسدين من الجُند حتّى جُنّ له هؤلاء؟! وأيقنَ حينها أنّ الجنّ صاروا على أهبة الاستعداد لخوض المعركة، فاطمأنّتْ

نفسُه ، ثمّ قتل لهم مزيدًا من البشر ورمى لهم جُثثهم لمزيد من الاطمئنان!!

تحصّنَ فريق (زَوْبعة) ورضى على منابع الماء ما استطاعوا ، وأقاموا يأكلون التّمر ومِمّا تُنبته الأرض ، وما تمكّنوا من صيدِه مِمّا توافر لهم في تلك الأنحاء . وانضمّ إليهم من أقاصي البلاد من شاركهم الأمل بالخَلاص ، وبدا العالَم يومها صَفّين لا ثالث لهما ، فكان كلّ مَنْ يدب على وجه الأرض من الجنّ والإنس إمّا مع النّور ، فإنْ لم يكنْ معه فإنّما هو مع الظّلام بلا شكّ!!

وفي اليوم الّذي وصل فيه إشباع الجنّ إلى التُّخمة من أكلهم لحوم البشر ، رفع (مَسْعود) فوق قصره الصّليبَ الأعظم ، وكان ذلك إيذانًا ببَدْء المعركة .

(٧٠)
الأرضُ برميلٌ منَ المُتفجراتِ أُوقِدَتْ تحتَه النَار

كان يومُ السابع من تموز في العام ٢٢٢٢ بَعدَ ميلاد السَّيِّد المسيح إيذانًا إلهيًا بانطلاق العاصفة ، ونشبت الحرب الّتي أُديرتْ بعقليّة بشريّة وإيحاء شيطانيّ . بدأ فيلقٌ تابعٌ لزَوْبعة بقصف القصر الّذي منَ المُفتَرض أن يُقيم فيه (مَسْعود) ، أوّل قذيفة تزن ١٠٠ طن ألقتْ بها طائرةٌ حلّقتْ مع سربٍ من الطّائرات مُكوّن من ١٥ طائرة فوق قصر (طُوبى) ، كان الوقت يُشير إلى الواحدة بعد منتصف اللّيل . لم تتمكّن رادارات القصر المُتقدّمة من اكتشافه ، لأنّ الجنّ المؤمنين داروا بسرعة الضّوء في مجال قُطرُه عشرة كيلومترات حول القصر ، فَعُمِّي على كلّ آليّة مُحلّقة في المحيط . سقطت القذيفة فأحدثَ انفجارُها هلعًا هائلاً ، وتزلزلتْ أركان القصر وخَرَّ جزءٌ كبيرٌ منه ، فأنبأ أنّ الرَّمْية في عُقر دار العدوّ تُساوي ألفَ رمية حواليه . ثمّ كان ذلك إيذانًا بهجوم وحشيّ مُضادّ .

لم يكنْ في القصر من أحد وقتئذ غير الخدم ، كان (بِلعام) مع عدد من مُهندسي العفاريت قد ابتنوا ملجأً لمسعود والقيادة العسكريّة العُليا بعمق ٥٠٠ متر تحت سهل يبعد ٢ كم عن القصر ، وكان الملجأ مُصفّحًا ومُحصّنًا ضدّ الزلازل والحرائق الكوارث والقنابل النوويّة ، وكان

سطح الأرض الّذي يعلو الملجأ قد زُرعتْ في مُحيطه أجهزةُ استشعار حسّاسة تنقل المعلومات وتحلّل مدى خطورتها وَفق نظام برمجيّ مُعقّد ، فيما كانت أجهزة الاستطلاع الأخرى تنقل الصّورة الّتي تدور عليها المعركة مرتبطة بأجهزة اتّصالات مع كلّ الجَبَهات القتاليّة . تشكّل الملجأ من امتدادات مُتشعّبة تضمُّ غُرفًا وسراديب حصينة ، وبَهوًا يتّسع لقاعة اجتماع ضَخمة مُجهَّزة بشاشة كبيرة تحمل على ذرّاتها كلّ ما يتحرّك في البرّ أو البحر أو الفضاء ، وأمامها يتّخذُ الجنرالات مقاعدهم لتوجيه دفّة القتال . وفي أحد السّراديب استقرّتْ بأمان الرّؤوس المتفجّرة الّتي تحمل السّلاح الجرثوميّ الفتّاك .

كانت الأرض يومئذ تبدو كأنّها برميلٌ من المُتفجّرات قد أُوقدتْ تحته النّار ، ولئن انفجر فإنّه لن يَدَعَ من الأحياء أحدًا ، ولن يكون هناك مُنتصرٌ أو مهزوم ؛ فإنّ الموت لن يترك من بعده مَنْ يتفاخر بانتصاره على خَصْمه ، أو مَنْ يبكي على خسارته أمام غَريمه . هل من حرب في التّاريخ حُسمتْ دون أشلاء أو انتهتْ دونَ ضحايا؟! كلاّ ، إنّها الحرب وإنّها الموت الّذي يتّخذ شكله الأبشع من خلالها ، ويأتي بوجهه الأبغض عَبرها . إنّ آثار حربٍ كارثيّة مثل هذه سوفَ تدومُ لزمن طويل ، وإنّ جراحها سوفَ تغوص في لَحْم الذّاكرة عميقًا ؛ ولكنْ ألاَ يمكن أن تستمرّ الحياةُ دون حرب؟! هل كان لزامًا على الأحياء أن يُحاربوا من أجل أن يعيشوا؟! في البَدْء لم تكن الحرب ؛ في البَدْء كان الشّيطان ، ثمّ كانتْ بسبب منه ؛ فلأجلها وُجد ، ولأجله تُسْعَر ، وما من حرب حتّى تلك المُقدّسة إلاّ وكان الشّيطانُ أحدَ أطرافها!!

تَبعتْ السّربَ الأوّل خمسةُ أسراب أخرى انطلقتْ من قواعدها الرّابضة ما بين (أمّ قيس) (وكفر أسد) ، حلّقتْ على ارتفاع مُنخفض

دون مجال التقاط الرّادارات ، توجّه أحدها غربًا باتّجاه (جبل كنعان) ، والثّاني باتّجاه (المنصورة) ، والثّالث باتّجاه جبل (الجرمق) ، واثنان بقيا في المحيط الضّيّق لمدينة (صَفَد) . أصعب مهمّة هي تلك الّتي واجهت السّرب الّذي حلّق فوق (الجرمق) ؛ شكّل ارتفاع الجبل عائقًا بالنّسبة للطّيّارين فهو أعلى جبال الجليل ، وعملتْ الضّبابيّة على تضليل مجال الرّؤية ، فاستُخدمت المناظير اللّيزريّة فأعادت الرّؤية واضحةً كما لو كانت في النّهار وليسَ في اللّيل . أطلقَ قائدُ السّرب الملايين من الموجات الإلكترونيّة فقامت بالتّشويش على مجسّات (ويليام) ، ومع ذلك التقطتْ مجسّاته المواقع الدّقيقة لـ ٧ طائرات ؛ حُدّدت الإحداثيّات مع اعتبار عامل التّغيّر الحركيّ ، في اللّحظة الّتي قال فيها الجهاز إنّ الهدف صار في المرمى الصّحيح أُطلقتْ صواريخ محمّلة برؤوس متفجّرة وبذيول استشعاريّة تصويريّة ، فأُسقطتْ الطّائرات المُستهدفة جميعها . الطّائرات الثّماني الّتي نَجَتْ كانت قد حلّقتْ على ارتفاع يسمح لها بإصابة الأهداف بدقّة ، في اللّحظة الّتي صارَ فيها الارتفاعُ ملائمًا ألقتْ كلّ طائرة ١٠٠ قنبلة انشطاريّة أحالتْ ليلَ (الجرمق) إلى نهار ، أحدثت الانفجارات حُفرًا واسعةً في الجبل ، واندفنتْ تحتها العشرات من طائرات العدوّ قبل أن يتمكّن قائدوها من الإقلاع . كانت الصّخور الّتي انهالتْ فوقها كفيلة بأن تُحطّم أجنحَتها كما لو كانت جناح طائرة خشبيّة صغيرة هشّة تُدَقّ بحَجر ، فقد (ويليام) في هذه الطّلعات أكثر من ٢٠٠ طائرة ، لقد غابتْ تحت رُكام الصّخور المنهارة .

«من الممكن أن يفعلها (روجرز)» ؛ قال (مسعود) لكبار القادة العسكريّين الّذين يُتابعون بذهول الطّلعات الجوّيّة الأولى ، عليه أن

يقصفَ هضبةَ الجولان بالمدفعيّة ، وليكنْ بأوسع عددٍ مُمكن . انهالتْ القذائف على حشود (الأستاذ) ومَن معه من الحواريّين والمؤمنين ، أكثر من ٥٠٠٠ قذيفة مدفعيّة أطلقت في أقلّ من نصف ساعة ؛ أعادت طائرات (رضى) المُحلّقة قرب المنصورة تصويبَ الوضع ؛ التقطتْ أجهزتها الاستشعاريّة قذائف المدفعيّة فغيّرتْ مسارَها ؛ حلّقتْ على أعلى ارتفاع مُمكن ، واتّجهتْ بأقصى سرعة نحو الغرب أقصى الغرب ، وشكّلتْ خلف قوّات (روجرز) ما يشبه الكمّاشة ؛ لكنّ قذائف المدفعيّة الّتي أطلقها روجرز من الدبّابات الكامنة على تلال مُرتفعة واصلتْ سيرَها نحو هدفها في هضبة الجولان ، حدثَ كلّ ذلك في أقلّ من دقيقة ، أصابت القذائف طلائع المجاميع والآليّات الرّابضة على الهضبة ، فاشتعلت النّيران بشكلٍ متوالد ، ومن بعيد بدا أنّ اللّيل تخلّى عن ظلمته وسواده لصالح اللّهيب الّذي تبعثه ألسنة النّيران ، وارتفعتْ سحابات ضخمة من النّار إلى الأعالي ، واحترقتْ آليّات كثيرة وسقط ضحايا بعشرات الآلاف . تقدّم ما تبقّى منهم باتّجاه الجنوب وأوَوا إلى بعض الوديان على انخفاضٍ كافٍ حتّى لا يكونوا في مرمى النيران . صارتْ بحيرة طبريّةَ على بعد بضعة أميال ، من بعيد على ضوء القمر بدا ماؤها غيرَ مُكترثٍ بما يدور حوله من أهوال ، إلاّ أنّ بقايا النّيران المشتعلة في الهضاب المجاورة عكسَ بعضَ الهول في الجزء الشّماليّ من البُحيرة .

في الأثناء ، كان السّرب الثّاني يواصل مَهمّاته القتاليّة ، لم يمرّ غيرُ دقيقتَين حتّى انخفض ليحدّد الأهداف بدقّة ، وصارت مئات الدّبّابات في مرمى نيران طائراته ، ألقت الطّائرات الـ ١٥ أثقالها في لحظة صفر واحدة ، كانت صواريخ برؤوس نوويّة صغيرة تتفجّر انشطاريًا في دائرة

قُطرها ١ كم ، أصابتْ أهدافها وارتفعتْ عاليًا بسرعة قبل أن تُصيبها ،ربة الانشطارات ، كان منظر الانفجارات يُشبه اندكاكَ الجبال يوم صعقة موسى ؛ لا بدّ أنّ هذا المشهد من مشاهد أهوال الآخرة ، سُوّيت القمّة الّتي كانت تربض فوقها الدّبّابات بالوادي الذي تحتها ، وغاصت الآليّات في الرّكام الّذي لم يُعطِ مَنْ فيها من المقاتلين فرصة لينجوا بأنفسهم فدُفنوا تحت الرّكام ، ظلّت النّيران ترتفع لأكثر من ثلاث ساعات ؛ إلى ما بعد الواحدة فجرًا ، وحتّى عندما أطلّت الشّمس بوجهها كاسفةً في اليوم التّالي ظلّت الدّبابات المُنقلبة على ظهرها أو جَنْبها تتصاعد من أطرافها ألسنةُ اللّهب كأنّها لُعب صغيرة تُطلقُ أضواء مُتراقصة .

كانت ضربة السّرب الثّاني الّتي تلقّاها (مسعود) وحلفاؤه قد هزّت التّحالف من أركانه ، وضَعْضعَتْ تماسُكَه ، وكانت ضربةً قاصمة قضتْ على خطّ الدّفاع الثّاني الّذي كان يمثّله (روجرز) ، أُبيدت المنصورة بكلّ كائنٍ حيّ يتحرّك فوقها وآلية تجثم عندها ، وهرب (روجرز) بطائرة الشّبح المُعدّة للحالات الطّارئة مع طاقمه العسكريّ الّذي يمثل اثني عشر قائدًا عسكريًا ، واحتموا بالملجأ الحصين ، على الشّاشة العملاقة المنصوبة في البَهْو بدتْ طائرتهم وهي تحطّ في المَدرّج القريب من المنفذ السّرّي ، أمّا هم فنزلوا منها مُسرعينَ خائفين كأنّ شبح الموت قد خيّم على رؤوسهم ، فُتح لهم المنفذ ليعبروه ، وأشار (مسعود) إلى فاتك إشارةً خاصّة فهم منها المطلوب . غادر (فاتك) موقع القاعة ، فيما ظلّت الشّاشة تنقل لمسعود تحرّكهم عبر نفق طويل مُصفّح الجانبين ، في منتصف هذا النّفق ضغط (فاتك) على أحد الأزرار بجهاز تحكّم في يده فانفتح أسفله وصاح الضّبّاط جميعًا قبل أن يتداركوا أنفسهم

ويسقطوا إلى حفرة عميقة مملوءة بالنّحاس المنصهر المغليّ ، ذهبت آهات صيحاتهم سُدًى قبل أن يذوب لحمهم وعظمهم في تلك القدر الشّيطانيّة الكبيرة . قال (مسعود) لمن شاهدَ المنظر على الشّاشة لمن حوله من القادة : «هذا مصير كلّ خائن ؛ الحرب الكونيّة لا تتّسع للخَوَنة» .

بقيَ السّربان الرّابع والخامس يُحلّقان في الفضاء على ارتفاع لا يسمح للرّادار بتعقّبهما . أمر (رضى) قائد كلّ سرب أن يبدأ بتمشيط المناطق الجنوبيّة من مدينة (صفد) . وألاّ يرحم فيها أحدًا ؛ بدأ إطلاق الصّواريخ ، فتحولت السّهول إلى براكين تقذف باللّهب إلى أعلى . تبيّن أنّ (مسعودًا) أخفى عددًا من الآليّات الثّقيلة وأنظمة الاتّصالات داخل غابات النّخيل المنتشرة هناك ، وتحت شوادر ساترة موزّعة على أماكن غير محدّدة . دُمّرتْ مواقع قياديّة متعدّدة وقُطعتْ خُطوط الاتّصال ، وتشوّش جزءٌ من المعلومات الواردة إلى الملجأ الحصين الّذي تحتمي به قيادات (مسعود) العُليا .

تحرّكَ (رضى) بخمسين كتيبة من المدرّعات والدّبّابات والمُعدّات الثّقيلة نزولاً من (أمّ قيس) باتّجاه البحيرة ، ومن أجل العامل الاستراتيجيّ أبقى على بعضها في القمّة . كان يُريد أن يقطع خطوط الإمداد الّتي بدأ (داريوس) بتنفيذها لإنقاذ ما تبقّى في محيط (صفد) من الجهة الشّرقيّة . وفعل مثله (ويليام) إذ أمر آليّاته بالهبوط من جبل (الجرمق) باتّجاه السّهل الفسيح ليحمي الجهة الغربيّة من (صفد) ، وأمّا (المنصورة) وما حولها فلم يكنْ فيها غير الجثث المتفسّخة الّتي لم تدفنها الانهيارات ، وبعض الحرائق الصّغيرة المتبقّية هنا وهناك .

مع بزوغ خيوط الفجر الأولى بعد اللّيلة الدّامية ، كانتْ آليّات

(رضى) تُعسكر على ضفاف بحيرة (طبريّة) تنتظر أن تُعيد ترتيب صفوفها وتشكيل قوّاتها . وكشف النّهار الّذي له عُيون عن هَول الخسائر من الطّرفين ؛ كانتْ بعضُ النّيران في الحقول لا زالتْ مشتعلةً ، ودُخان الشيف بشكّل سحابات متّصلة تُحلّق فوق الأبنية المُهدّمة ، وشبكة الطّرق مُدمّرة بشكلٍ شبه كامل ، وانتشرتْ أشلاء القتلى في كلّ مكان ، كان بعضُها محترقًا بشكل تامّ ، وبعضُها ما زالت النّار تأكل من جسده وهو حيّ يُعاني سَكَرات المَوت ، وفاحتْ في الجوّ روائح الشّواء للأجساد ، وفي أمكنة أخرى اضطرّت الذّبابات في بعض الطّرقات أن تمرّ فوق جثث الضّحايا فانهرستْ تحت جنازيرها واختلط اللّحم بالحديد وعُجن بين فَجَواته ، وكان من المؤلم أن ترى أشلاءً بشريّة متناثرة بشكل عشوائيّ ، فهنا بضعة رؤوس مقطوعة ، وهناك أجسادٌ دون أيد أو أرجل . ولو كان للطّبيعة يومها لسانٌ مُبينٌ لقالت : «أيُّ ظُلم هذا ؛ نَبتُّم من رَحمي أسوياء ثمّ ها أنتم أولاء تعودون إليّ أشلاء؟!» .

(٧١)
الحَربُ في النّهايةِ ستكونُ مِنْ أجلِ السيطَرَةِ على مَنابعِ الماء

لم يتبقَّ لمسعود إلاّ خطّا الدّفاع الموجودان على جبل (الجرمق) وجبل (كنعان) وعلى رأسهما حليفان من حلفائه لا قائدان من قادته ! أمّا قوّات المنصورة فقد صارتْ أثرًا بعد عين ، كانت قوّات (الجرمق) تعاني آثار الضّربة الأخيرة الّتي أودتْ بـ ٢٠٠ طائرة مقاتلة من أصناف متعدّدة ، لكنّ ٥٠٠ طائرة أخرى هناك مازالتْ قادرة على القتال من جديد وضَرْب أهداف متحرّكة وهي جاثمة في مدرّجاتها . غير أنّ المهمّة الأصعب كانت مواجهة قوّات الحامية الأولى بقيادة (داريوس) الرّابضة على مرتفعات جبل (كنعان) .

كانت أقربُ الجبهات إلى قوّات (داريوس) هي تلك الّتي بقيادة (الأستاذ) والّتي تتمركز حول أكثر من قمّة في الجولان . اصطفّ الطّابور الأوّل من الدّبابات على القمّة (أ) شماليَّ الهضبة ، والثّاني على القمّة (ب) جنوبيّها ، والثّالث على القمّة (ج) وسطَها . وشكّلوا مثلّثًا بزاوية حادّة ، كان طابور الدّبابات في الوسط يملك مدفعيّة ذات نيران بعيدة المدى ، وطابور الشّمال والجنوب يملكان مدفعيّة ذات نيران متوسّطة المدى . ساعة الصّفر تمّت في الثالثة وخمس دقائق فجرًا ؛ صبّت الطوابير الثّلاثيّة جامّ نيرانها فوق جبل كنعان ، فانطلقت القبّة

الإلكترونيّة تعترض آلاف القذائف المنهمرة باتّجاهها ، فنجحتْ في تغيير مسار أربعين بالمئة منها ، في حين أصاب ستّون في المئة من القذائف أهدافه إصابةً مُباشرة . تحوّل الجبل إلى جحيم حقيقيّ ؛ وفقد سلاح الجوّ المتمركز هناك أكثر طائراته المُقاتلة ، ودُمّرت عشرات الآليّات الأخرى . وحينَ شاهدَ (مسعود) من موقعه الّذي يحدث جُنّ جنونه ، وبدأ يصرخ بلا وعي . وكانت الضّربة الثّانية هذه قد نفذتْ بطعنة عميقة إلى القلب .

أتمّتْ قوّات (رضى) تمركُزها على المحيط الغربيّ لبحيرة طبريّة ، وربضتْ بانتظار توافد بقيّة القوى الأخرى بقيادة (زوْبعة) و(الأستاذ) . قال (زوبعة) عبر شبكة التّواصل الخاصّة بالقيادات : «لدينا مهمّتان مُستعجلتان ؛ علينا أن نقطع خطوط الاتّصال والإمداد لكي تتفكّك جبهات القتال في الجبال ، ولكي تفقد الطّائرات بصرها فلا تعود قادرةً على تصويب قذائف نيرانها ؛ فمن لا يملك المعلومة لا يملك القوّة ، ومَنْ يفقد الصّورة يفقد القدرة على القتال . ومن جهة أخرى علينا أن نقطع شبكات الماء الّتي تصل مركز (مسعود) في (صفد) ؛ فمن فقدَ الماء فقدَ الحياة ؛ وحينها لن يُغني الحديدُ عن المُقاتلين من الماء شيئًا .

تكفّلتْ عشرُ طائرات من النّوع الّذي لا يظهر في الفضاء إذا طار ، ولا تكشفه أجهزة الاستشعار مهما كانت دقيقة بتحديد خطوط الاتّصال بناءً على معلومات أدلى بها بعضُ الأسرى الّذين وقعوا في أيدي قوّات (رضى) أثناء تمشيطها للمناطق الجنوبيّة ، وفي خلال خمسين طلعةً جويّة كانت أكثر خطوط الاتّصال وأطباق نقل المعلومات قد سُوّيت بالأرض ، وطُمرتْ داخل التّراب . وأمّا شبكات المياه فقد تكفّل بإيقاف إمداداتها المُهندسون الّذين رافقوا قوّات (رضى) المُتمركِزة

على محيط بحيرة طبريّة .

لقد أُطبقَ فكُّ الكمّاشة على مسعود وقوّاته ، ولم يَعُد هناك مناص من الحرب البريّة الطّاحنة : حرب المواجهة من نقطة الصّفر ، وبدأت قوّات المؤمنين بقيادة (زَوْبعة) تحتشد في الجزء الجنوبيّ الشّرقيّ من منطقة (صفد) ، وقوّات المارقين بقيادة (مَسْعود) تحتشد في الجزء الشّماليّ الغربيّ . وأُعدّت مهابط الطّائرات في الجهتَين ، واستمرّ الحشد ليوم المواجهة قرابة أسبوع .

في هذه الأثناء كان مخزون المياه الّتي عمل (مَسْعود) على توفيره يتناقص مع الزّمن ، فلقد رُدِمت قنوات الماء المُغذّية القادمة من بحيرة طبريّة وبعض ينابيع الجولان ، ونهر الأردنّ وعدد من روافده . وكان (زَوْبَعة) قد أقام خطًّا من الجنود الأشدّاء على امتداد نهر الأردّن ليحموا الماء من أن يُسرَق أو يُقام عليه . وبدا أنّ الحرب في النّهاية ستكون في السّيطرة على منابع الماء أكثر من الفتك بقوّات الآخر .

مع شمس الصّيف الحارقة ، ومع انتشار صخور الكِلس في طبقات الأرض الشّماليّة بدأ العطش يزداد ، كانت صخور الكلس تعكس أشعّة الشّمس على وجوه الجنود المُعرّضين للشّمس فتحرقها وتزيد من عطش لم يَعُد من الممكن إخفاء آثاره البادية على الوجوه اليابسة . بدأتْ نتائج العطش بالشّكوى والتّذمّر ثمّ انتهتْ إلى الفوضى والهروب الجماعيّ . دبّ الذّعر في قلب (مسعود) وهو يشاهد عبر شاشته العملاقة جنوده يهربون باتّجاه الشّمال بحثًا عن الماء أو تخلّصًا من جحيم المعركة ، فطلبَ من (ويليام) أن يأمر ما تبقّى من سلاح الجوّ الرّابض في جبل (الجرمق) أن يقصفَ الهاربين ، وبالفعل ارتفعتْ في السّماء الشّماليّة دزّينة من الطّائرات ورجمت بالصّواريخ الدّروب الّتي

هرب عبرها الجنود، اشتعلت النّيران في الأشجار، انحفرتْ أخاديدُ عميقة في المنافذ، وتطايرات أشلاء بشريّة عُلّق بعضها في تطايره على الأشجار، وبعضُها على الصّخور، وبعضُها اختلطَ بعجينة الأرض فلم تعد تعرف اللّحم من التّراب.. ودبّ الذّعر في قلوب مَنْ تبقّى على قيد الحياة، ورفعوا أيديهم استسلامًا، لكنّ أوامر (مسعود) كانت تقضي بألاّ يرجع حيٌّ ممّن هرب.

أمعقولٌ أنّ (مسعودًا) يقتل جيشه، أمعقول أنّه يوجّه سلاحه نحو جنوده، ويُطلق جحيمه على حلفائه؟! كلاّ؛ فالعقيدة القتاليّة عند هذا الطّاغية تقضي بأنّه لا يُمكن أن أعيشَ مهزومًا، فأنا إنْ لم أحقّق النّصر فعليّ أن أموت؛ إنّ أيّ خيارٍ ثالثٍ لا يُمكن البتّة طرحهُ هنا في هذه المعادلة.

كانت تلك الضّربة الاستباقيّة الّتي أبادت الهاربين من أتون الجحيم فأعادتْهم إليه من جديد، قد ثبّتتْ أرجُل المتبقّين وإنْ خوفًا وذعرًا وهلعًا؛ ومتى كان هذا الطّاغية يرفع في وجه شعبه وجيشه - الّذين يعدّهم من مُمتلكاته الشّخصيّة - غير سيفِ الذّعر والفزع!!

مضى أسبوع آخر حدثتْ فيه بعضُ المناوشات ببعض القذائف الصّاروخيّة متوسّطة المدى، ذات رؤوس انفجاريّة صغيرة لمحاولة فتح ثقب في الجدار الدّفاعيّ الحصين الّذي أقامه (زَوْبعة) حول منافذ الماء؛ غير أنّ جميع المحاولات باءت بالخيبة؛ وبدأ مخزون الماء الاحتياطيّ عند جيوش الحلفاء ينفد، وصار الجنديّ لا يجد شربةَ ماءٍ واحدة ولو كانت بمقدار غرفَة اليد؛ وبدأ الوَهَن والضّعف يدبّ في الأجساد، وفقد بعضُهم وعيَه في حمأة العطش المستشري، وأصدر (مَسْعود) قرارًا يقضي بشرب دَم الجرحى بعد الإجهاز عليهم وتصفية دمائهم، ووجدَ

الجنود أنفسهم بين خيارَين أحدهما الموت ؛ فاختاروا أن يشربوا دماء زملائهم!!

في الأسبوع الثّالث ، بلغ العطش مُنتهاه ، واستُنفِدَ الاحتياطيّ بأكمله ، وصار الماء وجهةً لا يُمكن الحيدُ عنها ، وكان هذا إيذاناً بارتفاع وتيرة المواجهة البريّة .

(٧٢)
إنَّهُ انْتِصارُ الشّياطين يا أحْمَقُ، وما أنتَ إلاّ أداة

إنّها المُواجهة الأخيرة على ما يبدو ؛ وهنا سيبدأ التّاريخ دورةً جديدة ، ومن هذه الأرض المُباركة قد يطلع فجرٌ جديدٌ على البشريّة ، وقد تغرق مرّةً أخرى في ظلام سرمديّ لا يُدرَى له نهاية!! غير أنّه يُمكن القول إنّ كلّ أصحاب الصّفّين من الفريقين ؛ المؤمنين والكافرين كانوا قد احتشدوا في هذه البقعة ليُحقّق النّهاية في الجولة الأخيرة .

بدأ (رضى) وقوّاته يقصفون جبْهات الأعداء المنظورة أمامهم ، وردّ (مسعود) وحلفاؤه على القذائف ؛ وبدا التّطوّر التّكنولوجيّ في المدفعيّة تميل كفّته لصالح (مسعود) ، رؤوس انشطاريّة متفجّرة لولبيّة عنده ، مقابل رؤوس انشطاريّة متفجّرة عند (رضى) ، الصّفة الأخيرة جعلت القنبلة تحفر بشكل دائريّ الأرضَ حول مجاميع الدّبّابات ، ثمّ تفرّغ الهواء من باطن الحفرة ، ثم تبتلع الآليّة فتغوص في الفراغ كأنّها قطعةُ حديد تغوص في قعْر البحر ، ثمّ تنفجر القنبلة ، فلا يبقى من الآلية فوق سطح الأرض شيء!! الطّابور الأوّل من تشكيلة المدفعيّة في جيش (رضى) قُضِيَ عليه بهذه الطّريقة .

استمرّت القنابل اللّولبيّة تفعل فعلها في ابتلاع الدّبّابات إلى أنْ تحرّكت أسراب الطّائرات الّتي خبأها (زوبعة) ، وجهّزها بالوقود الّذي

يكفي لتحليقها أسبوعًا دون التزوّد ، وبأطنان من القذائف والصواريخ على متن كلّ مُقاتلة . ومن السّهول الممتدّة جنوب (صفد) كسهل حطّين بدت المُقاتلات المحلّقة في السّماء كأنّها أسرابٌ كثيفة من الطيور المهاجرة . وبدأت عمليّة قصف عنيفة ، أدّتْ إلى تدمير التشكيل الأوّل حتّى السّابع من تشكيلات الحُلفاء تِباعًا . وبدا أنّ الكفّة تميل لصالح (زَوْبعة) وأتباعه كما كان يُتابع (مسعود) من خلال ملجئه الحصين ولم تتوقّف الأسراب الّتي ملأ هديرُها فلسطينَ بأكملها ثلاثة أيّام لحظة واحدة ، وفي اليوم الرّابع بدأت بشائر النّصر ، وأرجفَ قلبُ (مسعود) ، واهتزّ كيانه ، واضطربتْ خلايا عقله المُعقّد ، وفكّر بالانسحاب ، فلم تُمهله (أسيار) ولا (بلعام) أن يُكمل تفكيره ، تمثّلا أمامه ، وقالت له (أسيار) :

- إنّك تملك أعظم قوّة في الكون ، بل في تاريخ البشريّة ؛ ففيمَ هذه الأفكار السّوداء .

- أنا أناضل من أجل أن أحقّق نصرًا عجزتْ عنه كلّ أباطرة الكون وقياصرتها .

- إنّكَ تفعل حقًا .

- ولكنْ . . .

- لم أتعوّد أنْ أسمع هذه الكلمة منك .

- فما ترين؟!

- حرّك أساطيلكَ البحريّة ، وإنّي جارٌ لك ؛ سآمُرُ كلّ عفاريت البحار أن تخرج من مخابئها لتُقاتل معك ، وليقل (زوبعة) البائس إنّ مردة البحار العميقة هم من يُطلقون هذه القذائف ؛ نعم سأفعلها . أنا و(بلعام) وكلّ أتباعي من الجنّ أصحاب القوى الخفيّة إلى جانبك .

لم يُمهلها أن تقول أكثر من ذلك ، قام فعانقها ، وضحكَ ضحكةً هستيريّة ، قبل أن يدفعها عنه ؛ ليُصدرَ أوامره إلى الأساطيل البحريّة بالتّحرُّك فورًا .

صَعِدت الغوّاصات إلى أعلى نقطة في المُتوسّط ، ومن شمال (عكّا) راحتْ بوارجُها تُطلق قذائفها باتّجاه الجنوب حيثُ قوّات (زوبعة) و(رضى) ، صُرِعَ أكثر الجيش الّذي كان يحتلّ المُقدّمة ، فتراجعت البقيّة إلى الوراء قليلاً ، لكنّ البوارج لم تُمهل أحدًا ولم ترحم حيًّا ، تواصل القصف ، فسقط المزيد من القتلى ، تحرّكتْ أسراب (زوبعة) باتّجاه الشّرق حيثُ الأساطيل البحرية لتُقاومها فأُمطِرَتْ بوابل من القذائف قضى على سبعين بالمئة من قوامها ، وتراجعت البقيّة .

رقصَ قلبُ (مَسْعود) طربًا لما يَرى ، أمر قوّاته المُتبقّية في قمم جبل (كنعان) بالإغارة إلى شمال طبريّة لاحتلاله من أجل السّيطرة على الماء ، واجهتْهُ قوّات (الأستاذ) في هضبة الجولان لكنّها لم تتمكّن من صدّه ، فيما كانت جيوش الجنوب تبوء بخسائر مُتلاحقة في بضع ساعات ، كانتْ قوّات (مَسعود) تقترب من الماء رويدًا رويدًا ، وتكاد تحتلّ الجزء الشّماليّ منه .

تراجعتْ قوّات (زَوْبعة) و(رضى) من جديد إلى الجنوب ، ولم يتبقَّ تحت سيطرتها من الماء إلاّ الجزء الأخير من نهر الأردنّ الّذي يصبّ في البحر الميّت ، وكأنّ البحر فتح لهم ذراعَي الموت ، واستعدّ لاستقبال بقاياهم المُتراجعة .

طاشَ عقل (مسعود) من الفرحة ، وبدأ يقفز كأرنب ، ويصرخ ككلب أصابه السُّعار لِمَا يرى من توالي انتصاراته ، وفي البَهْو الواسع كانت (آسيار) تحدجه بطرف عينها ، وتبتسم في وجهه ابتسامة

خبيثة، كأنّها تقول له : «إنّه انتصار الشّياطين يا أحمق، وما أنتَ إلاّ أداة» .

تربّعتْ (آسيار) إلى جانب (بلعام) على كرسيّ القيادة، وبدأتْ عمليّة الإبادة الجماعيّة الّتي تنتظر لحظتها منذ زمن :

– انظري، إنّهم يفرّون كالجرذان، ويتراجعون كالدّواب الجرباء . (قال مسعود لآسيار وهو يشير إلى قطاعات جيش زَوْبعة وهي تُولّي وجهها جنوبًا) .

– إنّ هذه الفئران إنْ لم تضع السّمّ في طريقها فسوف تُفسد الحقول الهاربة إليها .

– ماذا تقصدين؟!

– لقد آن أوان السّلاح الجرثوميّ الّذي سيفتك بهم في ساعات ولن يُبقي لهم أثرًا .

– ولكنّنا في دائرة الاستهداف ؛ سوف نقتل أنفسنا معهم .

– كلاّ، عدّل برمجة الجهاز الّذي يحدّد نصف قُطر الهدف، وليكنْ ٢ كم بدلاً من عشرين، فيهلكون هم وكلّ مَنْ معهم .

– فكرةٌ صالحة .

– نفّذْها فورًا .

حلّقت الطّائرات الخاصّة بالسّلاح الجرثوميّ، ومن بعيد من نافذة الطّائرات بدا جيش المؤمنين كأنّه يُوشك على الهلاك وحده دون أيّ عمل قتاليّ خارجيّ . لكنّ وحشيّة القتل الّتي تعشّش في مخيّلة (مسعود) وقرينته وعطشهما إلى الدّماء دفَعاهما إلى ذلك . أُلقيت القنابل الجرثوميّة وبدأت أجساد المؤمنين تذوب، وبعضها يتفسّخ، والبعيد عن مركز الاستهداف يختنق . كانتْ رائحة الموت تفوح في

كلّ مكان ، ومع حركة الهواء بدا أنّ النّجاة من الموت أمنيةٌ تبدو مستحيلة ، فصاح (زَوْبعة) بمن تبقّى :

– إلى الكهف . . إلى الكهف . . . أيّها المؤمنون . . . اتبعوني إلى الكهف .

(٧٣)
حتّى لَوْ كانتْ مَعَهُم
مَلائكةُ السَّماءِ فَسأَقْضِي عَلَيْهِم

إنّه الكهف الّذي ابتناه (زَوْبعة) تحسُّبًا لهذه اللّحظة منذ زمن سحيق. كانت جُدرانه مطليّة بالنّحاس المُذاب، وله منفذٌ واحدٌ على العالَم الخارجيّ مُحكَم الإغلاق يرتفع لعشرة أمتار، لا تنفذ منه ذرّة هواء واحدة. في الشّاشة العملاقة بدت الحيرة على وجه (مَسْعود) للجوء القُطْعان الهاربة إلى هذا الكهف، نظر إلى (آسيار)، وقال بسخرية مُبتذلة:

- حمقى؛ إنّهم يقتلون أنفسهم.
- إنّه كهفٌ صالحٌ للحياة، أُعِدّ لهذا الحالات.
- فلنُدمّره عليهم.
- لن تستطيع.
- لا يوجد في قاموسي: لن أستطيع، سأدمّره يعني سأدمّره، وسأدفنهم داخله أحياء.

أمر (مَسْعود) ما تبقّى من جنود المشاة أن يتّجهوا نحو الكهف بآليّاتهم الثّقيلة، وأوعز إلى أسراب الطّائرات القريبة من محيط المنطقة بالتوجّه إلى الهدف وقصفه. من على الشّاشة العملاقة بدا الجنود المُنقضّون على الكهف كأنّهم قُطعان ذئابٍ نَهِمة تُهاجم فريسةً سَهلة،

وهم يرتشفون كؤوسًا من الماء بعدَ طولِ عهد به . كانت آليّاتهم الثّقيلة المُجتزَرة تصعد الطّرق الضّيّقة المُفضية إلى هناك ، تتقدّمهم الرّجّالة الّذين خفّوا في حركتهم يتسابقون إلى القضاء على مَنْ تبقّى . حينَ وصلتْ طلائعهم إلى مُحيط بابه ، أمطروه بصواريخ محمولة على الأكتاف ، وبقنابل فراغيّة أُلقيتْ من مسافة كافية . لكنّ الباب لم يتحرّك من مكانه ، ولم يبدُ على المحيط أنّه تأثّر بشيء . تراجعت الرّجّالة ، وأفسحت المجال للآليّات الثّقيلة الّتي قذفتْ موجات من القنابل السّابحة إلى الصّيد الثّمين ، لكنّ ذلك أيضًا لم يُفلح . . . في الدّاخل كان (زَوْبعة) وجماعته يسمعون أصوات انفجارات بعيدة لم يسمح لها الباب بأن تبدو على طبيعتها وقوّتها لما له من خصائص فائقة التّطوّر ، إذ كان بمقدوره أن يمتصّ صوت قنبلة انشطاريّة أو فراغيّة فتبدو كأنّها طنين ذبابة ، وكانتْ صفائحه الملساء من الخارج قادرةً على تحمّل قنبلة نوويّة بحجم صخرة كبيرة . وعلى جزئه الدّاخليّ شاشة إلكترونيّة بأرقام سرّيّة ذات احتمالات أُسّيّة لا يعرف أحدٌ برمجتها غير (زَوْبعة) .

لم تُجدِ الآليّات الثّقيلة فتيلاً ، فتراجعتْ مسافة بضعة كيلومترات لتُتيح لسلاح الطّيران أن يقوم بالمهمّة عنها ، فأطلقتْ حُمَمَها ، صعدتْ نيران القذائف الّتي أُلقيتْ إلى الكهف حتّى لامست بطون الطّائرات لكنّها لم تؤثّر فيه شيئًا ؛ لكأنّ قوّة خفيّة كانت تمنع الضّرر أن يلحق بالمكان مهما كانت شدّته ومستوى خطورته . بعد إلقاء آلاف الأطنان من القنابل المتنوّعة على المكان فشل سلاح الطّيران في إحداث أيّ ثغرة قادرة على النّفاذ إلى عُمق الكهف .

نظر (مَسْعود) من جديد إلى (آسيار) ، قال لها :

- حتّى لو كانت معهم ملائكة السّماء فسأقضي عليهم، وستصبح الأرض بكلّ مَنْ فيها وما فيها مُلكًا لي .

- وماذا تنوي أن تفعل؟!

- الجراثيم يا عزيزتي ؛ أليسَ سلاحًا شيطانيًا ، إنّه القادر على أن يُذيب أقوى الصّخور والحديد وأقساها .

- سوف يُجدي إذا كان هناك منفذ من خلال شقوق الباب ولو بمقدار نانو مليمتر .

- سيكون ، وإنْ لم يكنْ فسيقوم السّلاح نفسه بإيجاد هذا المنفذ .

صُبَّ كلُّ ما تبقّى من السّلاح الجرثوميّ على مدخل الكهف ، فَسَخِرَ الباب بكلّ ما أُلقي فوقه ، وكأنّ الّذي أُلقي إنّما هو ماءٌ باردًا!! أخفقتْ كلُّ القُوى المعقودة في يد (مَسْعود) ، وبقي السّلاح الأخير :

- نُحاصرهم ؛ فإذا خرجوا منه نقصفهم .

- وإذا لم يخرجوا؟!

- سنتركهم يموتون داخله جوعًا .

رفعتْ كلّ بقعةٍ في الأرض يديها إلى السّماء ، وجأرتْ بصوتٍ لا يعرفه سواها :

- إنّه لم يبقَ من الصّالحين غيرُ هؤلاء ، فإنْ تهلك فإنّ الشّيطان سيُعبَد من دونك ، فأيّ مصيرٍ ينتظر البشريّة حينئذ؟!! إنّ رحمتكَ أوسع من أن تتركَ عبادك يواجهون حتفهم على يَدِ فُجّار الأرض وفُسّاقها .

(٧٤)
خَلَقَ اللهُ القَلَمَ بَعْدَ العَرْشِ

مرّ اليوم الأوّل عصيبًا ، قضى فيه ما تبقّى من الأطبّاء في معالجة الجرحى ومُواساتهم ، كان الكهف مُجهّزًا بالأسرّة وبالحُقن والمُهدّئات والأدوية والعلاجات المختلفة . وكانتْ فيه مخازن للطّعام وأخرى للماء .

ظلّ بعضُ الجنود يسعلون بسبب ما استقرّ في رئاتهم من الغازات الجرثوميّة طوال ساعات اللّيل حتّى خرجتْ أحشاؤهم قطعًا وقد نزفوها مع الدّم . كلّ محاولات الأطبّاء في تخفيف آثار السّعال المُميت عنهم ذهبتْ أدراجَ الرّياح ، كانت المعدّات الطّبّية مجهّزة لأيّ احتمال أو أيّ إصابة في المعركة ، لكنّه لم يَدُر في خَلَد (زَوْبعة) ولا طاقمه الطّبّي أنّ سلاحًا جرثوميًا سوف يُستخدَم فيها . لم ينمْ أغلب النّاجين في الكهف إمّا لآلامهم الّتي تفوق حدّ الوصف ، وإمّا لأحزانهم على مَنْ فقدوا من أعزّائهم وزملائهم ، وإمّا بسببٍ من الشّعور الثّقيل بالهزيمة الماحقة ، وإمّا بسبب أصوات السّعال الّتي ترجّ موجات الهواء في بهو الكهف العالي . في صبيحة اليوم الثّاني كان أكثر مَنْ عاني من السّعال قد أسلمَ روحه إلى بارئها .

برزتْ مُشكلةٌ جديدةٌ لم يُحسَب لها حسابٌ فيما مضى ؛ كيفَ يُمكن التّخلّص من هذه الجُثث؟! إنّه لو تحلّلتْ فسيقضي عَفَنُها على

كلّ مَنْ في الكهف ممّن أمِلَ في حياة جديدة . ودَفْنُ الجثث خارج الكهف سيعرّضهم للخطر وسيجعلهم في مرمى النّيران ، في النّهاية اقترحوا أن تُحفَر أرض الكهف من الأسفل ، ولأنّه كان مُصفّحًا فإنّه لم يكنْ بمقدور أحدٍ من الموجودين هناك إحداث ثُقب ولو كان بحجم رأس الإبرة مهما بلغتْ قوّته ؛ إلاّ (زَوْبعة) والّذين يُشبهونه من الجنّ ذوي القُدرات الخفيّة المتخفّين بهيئات البشر . فَعَلها إذًا (زَوْبعة) ؛ حَفَر في الأرضِ قبورًا بعدد الموتى في الزّاوية القصيّة مِنَ الكهف ، جيء بجثامينهم مُكفّنةً بأرديتهم ، وصُفّوا بشكلٍ عموديّ في صَفّيْن على امتداد عشرة أمتار ، أَمّ (رِضى) الجموع في الصّلاة عليهم ، ثُمّ وُوروا الثّرى بعد أنْ وُضِعتْ الشّواهد على قبورهم تخليدًا لذكراهم ، قال زَوبعة لرضى :

– لقد صار بإمكان الأعداء الآن مهاجمتنا إذا انتبهوا لذلك . إنّ ذرّات التّراب الّتي انكشفتْ تستطيع أن تُسرّب إلينا الغازات الجرثوميّة السّامّة .

– وماذا يُمكن أن نفعل؟!

– لا شيء ، ننتظر رحمة الله .

أصبحَ الكهفُ سجنَ المؤمنين ، وعالَمهم الوحيد ، وصار مجتمع الكهف مجتمعًا جديدًا عليه أن يبحثَ عن سُبُل تسيير أمور الحياة للأيّام الّتي يقدّر الله لهم أن يَقضُوها هنا قبل أن يأتي الفرج ؛ وعليه فإنّ أمير المجتمع الجديد (زَوْبعة) قام بتوزيع المهمّات على الفِرقَ ووضَع على كلّ فرقة قيّمًا ؛ كان لا بُدّ أن تكون هناك مجموعات للطّبخ ، وأخرى للتّنظيف ، وثالثة لتوزيع الماء ، ورابعة لإعطاء دروس العِلم ، وخامسة . . . وهكذا .

في الشّاشة الإلكترونيّة المنصوبة على باب الكهف من الدّاخل، كانت هناك لاقطة حسّاسة تستطيع أن تنقل ما يجري في الخارج؛ ولكي تتحوّل الشّاشة إلى صورة تنقل المشهد الخارجيّ وجبَ إدخال الأرقام السّريّة الّتي تقود إلى نقل الصّورة، ولم يكنْ من أحدٍ من القاطنين يعرف هذه الأرقام باستثناء (زَوْبعة) واحتفظَ لنفسه بذلك حتّى لا تؤثّر المشاهد على نفسيّات النّاجين فتؤدّي بهم إلى الهَلاك، وكان إذا خلا البَهْو من النّاس وأووا إلى مناماتهم، قامَ فأدخل الأرقام السّريّة فانكشفَ له ما يجري في الخارج.

تخفّف أهل الكهف من كثير من الآلام الّتي أصابتهم في اليوم الأوّل، ومرّ اليوم الثّاني عاديًّا. في اليوم الثّالث رفعَ (زَوْبعة) للأستاذ كرسيّ العلم؛ لم يكنْ أحدٌ من النّاجين يشكّك في أهمّيّة تلقّي هذه الدّروس، كانت تعني حياةً ممتدّةً داخل شرنقة ضيّقة، وفضاءً من الحرّيّة داخل سجن مُحاصَر. اكتشفَ الّذين يسمعون للأستاذ لأوّل مرّة في حياتهم أنّ العلم أهمّ من الطّعام والشّراب؛ وأنّ حاجة المرء لما يملأ العقل أشدّ بكثير من حاجته لما يملأ البَطن، وأدركوا تمامًا ما كانوا يفتقدون في حياتهم من المتع الرّوحيّة الّتي لم تتكشّف لهم من قبلُ كما تكشّفت اليوم على يد هذا الّذي أوتي بحرًا من العلم اللّدنّيّ الإلهيّ.

بمراجعة بسيطة لأوّل الخَلْق، قال الأستاذ في درسه الأوّل: «خلقَ الله القلم بعدَ العَرش، وقبل اللّوح المحفوظ، ثمّ من بعد زمن سحيق لا يعلمه إلاّ الله خلقَ الملائكةَ والجنّ والإنس؛ فانظر فضل القلم على كلّ المخلوقات بما فيها اللّوح، وانظر عظمة مخلوق لا يسبقه في التّقدّم إلاّ العرش؛ إنّما ذلك هو العلم، فمن عَلِمَ وعى، ومَنْ وعى نجا، ومَنْ نجا خُلِّد».

بالعلم هَدأتِ النّفوس، وسَكَنت الخواطر، وَائتلفتِ القلوب، ونسي أهل الكهفَ حياتهم السّابقة وما كان يدور فيها، بل إنّهم لم يسألوا (زوبعة) عمّا يجري في الخارج أو عمّا آلتْ إليه الأمور هناك، وانشغلوا عن حروبهم وعدوّهم المتربّص بهم بما وجدوه من اطمئنان إلى ما يسمعون في نفوسهم، ومضى الأمر كما لو كان الكهفُ الّذي يعيشون فيه هو كوكبَهم الْمُهيّأ ليعمروه ما شاء الله لهم أن يبقوا، بل ليسَ كوكبًا عاديًا؛ إنّه الكوكب الّذي تهفو نحوه القلوب لتعيشَ فيه؛ إذ لا حقدَ ولا بغضاءَ ولا حسد، ولا مناكفة؛ قُسّمت الأمور والأرزاق بالتّساوي بين الخَلْق، ورَضُوا بما آتاهمُ الله فهَنِئوا بالعيش، ولان لهم جانبه.

غيرَ أنّ المخلوقات الّتي رُكّبتْ فيها النّوازع لا يُمكن أن تظلّ في خيريّتها؛ فهل كان في أهل الكهف شياطين وأبالسة يُوسوسون إلى الآخرين فيُضلّونهم؟! أم أنّ شيطان كلّ مخلوق إنّما هو نفسُه الّتي بين جنبَيه تُورده موارد الضّلال والهَلاك، حدثَ ذلك بَعْدَ شَهْرٍ حينَ شَحّ الماء، وجرى تقليل نصيب الفرد إلى النّصف، فبدأت الهمهمات تسري في المجموع، وفي اليوم الخامس من بَعدِ ذلك اختُصر نصيب الفرد من الماء إلى الرّبع فَعلَتِ الأصوات بالشّكوى، وحدث أن صاح بعضُهم مُخاطبًا زَوْبعة: «إنّك تنوي قَتْلَنا جميعًا، سجنْتَنا في هذا الكهف وادّعيتَ أنّه يحمينا، فيما نحن نموت داخله ببطء». كان شُجاعًا بما يكفي لكي يُهيّجَ قومًا آخرينَ معه، فيقول آخر: «أنتَ وحدكَ تملك الرّقم الّذي يفتح الباب وترفض أن تُخرجَنا من هنا أليستْ هذه عبوديّة حقيقيّة». وهتف ثالث: «اجعل الأمر بالخيار؛ مَنْ أراد أن يخرج فليخرُجْ». نصحهم (زَوْبعة) فلم تُجدِ معهم النّصيحة، وحذّرهم من أنّ الحياة مع الجماعة كالموتِ معها خيرٌ من الحياة والموت منفردين، فلم

يُعيروا قوله أيّ اهتمام ، إلى أن رفع رابعٌ صوتَه : «إنّ حياتَنا ليستْ بيدك ، وإنّ قرارنا ليس مرهونًا بإرادتك» . فكانت هذه الكلمةُ الضّربةَ الأخيرة الّتي جعلتْ (زَوْبعة) يُذعِن لقرار هذه الفئة ، وقفَ في وسط الجمع الهائج ، وصاح :

- مَنْ أراد أن يخرج بإرادة حرّة منه ، فليتوجّه إلى الباب .

في غضون دقائق كان هناك ما يقرب من عشرين شخصًا قد توافقوا على ذلك . حذّرهم (زَوْبعة) تحذيرًا أخيرًا ، لكنّ الأذن الّتي لا تريد أن تسمع أنّى لها أن تستجيب . جعلَ ظهره إلى زملائه العشرين ، وقال : «حالما أُدخل الأرقام فسأفتح فرجةً من الباب وأتنحّى بما يُتيح للجسد الخارج أن يعبر» . في ثانيتين كان باب الكهف يئزّ وينفرج انفراجةً بسيطة ؛ هرول الأوّل يبغي الحياة ، ولحقه الثّاني مُسرعًا يريد النّجاة ، والثّالث كذلك ، حتّى إذا أفلتَ من باب الكهف تلقّتهُم الثّلاثة قذيفةٌ صاروخيّة أحالتْهم إلى أشلاء قبل أن يدخل نور الشّمس في عيونهم لحظةَ خروجهم . وبسرعة البرق أعادَ زَوْبعة إدخال الأرقام فأُغلق الباب من جديد ، أسندَ ظهره عليه من الداخل ، وتنهّد تنهيدةً رجّت الكهفَ حُزنًا على مَنْ قضَوا ، وجثا البقيّة ممّن أرادوا الخروج على ركبهم من هَول ما سمعوا وما رأوا ، وراحوا يطلبون من سيّدهم العَفْو .

في اليوم السّادس والثلاثين كشفَ (زَوْبعة) لأهل الكهف أمر الشّاشة الّتي تُطلّ على العالَم الخارجي ، واستطاع أن يوجّه لواقطها لتبثّ ما يجري في الخارج على أحد جدران الكهف العملاقة ، وطلبَ منهم أن يتخيّلوا حجم الجحيم الّذي ينتظر كلّ واحد يفكّر بالخروج ، ورجاهم أن يحتملوا ما قُدّر لهم من حياة في هذا الكهف حتّى تنكشف الغمّة .

(٧٥)
المَوْتُ البَطِيءِ يعَنِي المَوْتَ فِي كُلِّ لحظَةٍ

في اليوم السابع والثلاثين بدأ الطّعام يتناقص ، وصار نصيبُ الفرد من الماء جرعةً واحدةً في اليوم ، إلاّ المرضى أو كبار السّنّ ، ولا يُقدّر ذلك إلاّ (رضى) الّذي عُهِدَ إليه بإدارة ما تبقّى من مورد الماء . غيرَ أنّ الحاجة إلى الطّعام أقلّ بكثيرٍ من الحاجة إلى الماء ، ولأنّ الأكل قد يزيد العطش أحيانًا فقد عزفَ بعضُهم عن الأكل ليحافظَ على القطرات الّتي لا تزال مخزنةً في جسمه من الماء . غيرَ أنّ مخزون الطّعام نَفِد مع عزوف نفرٍ من أهل الكهف عنه في اليوم السّابع .

استمرّ (الأستاذ) يُلقي دروسه ، كانت فرصة الموت تزداد مع كلّ يوم يُلقي فيه درسًا جديدًا ، ولكنْ ما من شكّ أنّ موت المرء عالمًا أفضل بكثيرٍ من موته جاهلاً ، ولذلك جلسَ الطّلبةُ يستمعون إليه وهم يرقبونه من خلال غبَش في مدى الرّؤية سبّبه الجوع الشّديد والعطش الأشدّ ، بدا الأستاذ أكثر تماسُكًا منْ سِواه ، شيءٌ ما من معاني الصّبر الحقيقيّة يعيشُ في أعماقه ويجعله يواجه الواقع بثبات عجيب . كان الدّرس يحكي عن أنّ القيمة المعنويّة للفضيلة تتمثّل في أن تعيشها لا أن تقولها أو تعلمها فحسب ؛ سمّاه يومئذ الإدراك ، وقال : ما معنى أن أحاضرَ في الصّبر وفوائده وأعلمَ ذلك علمَ اليقين ثمّ لا أختبره بنفسي ؛

هناك مسافةٌ شاسعة بين المفهوم وروحه ، إنّه لا معنى للصّبر حتّى لو وقرتْ في ذهنكَ آلافَ الفضائل له وأنتَ لم تعش واحدةً منها على الحقيقة . الآن - بما أنتم عليه - تُدركون معنى الصبر بعد أن تثقفوه ؛ إنّ يومًا طويلاً في العطش على سبيل المثال يقرّبك من روح الصّبر نَجيًا ، ومَنْ أدام مطال الجوع حتّى يراوده الموتُ عن نفسه فقد يُصبحُ هو الصّبرَ ذاته ممثّلاً في فعله . هذا ما عنيتُه أيّها الأفاضل» .

في الخارج ظلّتْ قوّات الحلفاء طَوال هذه الأيّام القاسية تتربّص شرًا بنا ، ولم تكفّ طائراتها عن التحليق طوال الوقت ، إنّه إنْ صدقَ (مَسْعود) فستقضي كُلّنا هنا جوعًا وعطشًا . دخلتْ معادلةٌ جديدةٌ في أذهان كثيرين ممّن هزّتهم الحالة الاستثنائيّة الّتي نعيشُها ؛ عبّرتِ الحالةُ عن نفسها بوضوح : «إذا كان الموت يقف لنا في الطّريقين ؛ هنا أو هُناك فَلْنَختَرْ أسرعه ؛ لماذا يُمارس الموتُ معنا لُعبةَ التّخفّي؟!» . أردفَ عددٌ آخر : «الموتُ البطيء يعني الموت في كلّ لحظة ، لم يعُدْ هناك من فرق كبير بين الموتَين» . هتفَ عددٌ ثالث : «بل إنّ الموت بقذيفة صاروخيّة واحدة يُعدّ موتًا رحيمًا قياسًا لما نحنُ فيه» . وقفَ الأستاذ قبل أن يهتفَ مجموعٌ رابع ليقول بصوت مُشبَع بقدسيّة محسوسة : «إنّ الموتَ شهادة ، ولأنْ يختار لك الله شهاداتٍ مُتتاليات ، خيرٌ لك من أن تختارَ واحدةً بنفسك ، إنّما مَثلُكم كمَثَلِ الّذي اتّكأ على سيفه لكثرة جراحه من أجل أن يقتل نفسه فيرتاح ، ولئن حانتْ مَنيّةُ أحدنا لتأتينّه أرادَ أم لم يُردْ ، وإنّني لآملُ أن تأتيَني بسيفٍ سواي لا بسيفي» .

غير أنّ الموعظة الصّالحة الّتي تَسكُبُ في النّفوس المُتهالكة ماء الحياة فتعيدها إلى الحياة لا تستمرّ في إلقاء الماء ذاته طَوال الوقت ؛ إنّ

مفعولها ليكاد ينتهي بمجرّد أن يولّي القلبُ عنها صفحته بعدَ يوم أو بعض يوم ، فبِمَ يُواجه المرء شبح الموت المُتراءى له في كلّ حينٍ بعدها؟!

في اليوم الثّامن والثلاثين مات أحدُ الّذين لم تُمهلهم أجسامهم بالبقاء طويلاً جرّاء العطش ، ونشأ فقهٌ جديد : «هل نأكل أجسادَ موتانا لنُبقي على رمق الحياة المرتجف في أرواح أحيائنا؟!» . ولأنّه لم يكن من الفطرة أن يُقدمَ الإنسانُ على عملٍ كهذا فإنّ كلّ مَنْ في الكهف أحجم عن أن يفعلها ، ورضي أن يموت على أن يأكل من لحم أخيه. وذهبتْ موعظة (الأستاذ) بجواز ذلك سُدًى . لكنّ الجثّة عمّا قريب ستتحلّل فإمّا أن تؤكل وإمّا أن تُدفَن ؛ فكانَ أن دُفِنتْ . ظلّتْ أنظار المُشرفين على الهَلاك معلّقةً بالجثّة الهامدة وهي تُوارَى الثّرى يرونَ فيها حياتهم الهاربة من بين أيديهم ، حتّى لقد همّ أحدهم أن يُوقف عمليّة الدّفن ، وأن يَعَضَّ بأسنانه على خدّ الجثّة فينهشَ منها ما يُبقي على حياته ؛ كانت هذه هواجسَ واحدٍ من أهل الكهف ، لكنّها في اليوم التّاسع والثلاثين صارتْ هواجس نصف أهل الكهف ، وحينها راودَ بعضَهم خاطرٌ أشدّ بشاعةً هو أن ينبشَ القبر ويستخرج الجثّة منه ، ويبدأ بنهشها من جديد!!!

في اليوم الأربعين كان كلّ مَنْ في الكهف قد استلقى على الأرض شاحبَ الوجه ، ينسحبُ منه خيطُ الحياة ، قد استسلم لما هو آت ، ينتظر غائبًا حاضرًا ، ومفقودًا موجودًا . وقفَ (الأستاذ) وجاهدَ ليفتح يديه على اتّساعهما ، وكأنّه يُرحّب بالموت : «إنّ نفسًا يختار لها الله أن تموتَ صابرةً لهي نفسٌ زكيّة ، فلا يأتينكم الموت ليسرق منكم نيّاتكم الطّيّبة ، موتوا صابرين ولا تموتوا مُنتظرين ، موتوا مُشتاقين إلى الحبيب ولا تموتوا كمن يستعجل القدَر . إنّما الرّوح نفحةٌ نفخَ الله بها

في أجسادنا فقامتْ حيّة ، فما عليه وهو المُنعم الأوّل أن يستردّ ما أعطَى ، فإذا حان أوان انطفاء شُعلتكم ، فليكنْ عزاؤكم أنّكم لقيتم حبيبَكم غير آيسين من رحمته ، مُقرّين بجميل فضله . أفكنتم يومَ نفخ في أجسادكم تلك النّفحة تتعذّبون؟! كلاّ . أفآذاكم بالتقاء العنصرَين حينما قُمتم من صَلْصالكم؟! كلاّ . أفَشعرتم بالألم وهو يمزجها بأجسادكم؟! كلاّ ؛ فإنّه كذلك لن تشعروا بالألم وهو يستعيدُها منكم!!» .

(٧٦)
قُمْ إنّ شيئًا إلهيًا يحدُثُ في الخارج

إنّه اليوم الخمسون، لليالي سوداء طويلة مرّتْ بعد أن أسلَمَ (الأستاذ) وطائفةٌ من أنصاره أرواحهم طواعية وانتقلوا من هذا العالَم الفاني إلى عالَم أرحبَ حيثُ لا وَصبَ ولا نَصب. أجسادٌ تداعت على الأرض مُنهكةً كأنّها وفدتْ من سَفرٍ طويل، قلوب لم يبقَ فيها من طاقة لتضخَ الدّم في العروق فآلت إلى أن تسكُن سكونها المَقدور. تسعةٌ من الحواريّين اختاروا أن يُغادروا هذه الحياة الفانية. كانت الدّنيا يومَها عبارة عن حُلم يُرى في الصّحو الضّبابيّ، وكانت الأجساد آنذاك أشباحًا تتخايَل على جدار الكهف تكاد تهوي، وكانت الأرواح يومَها شُعَلاً شاحبة في فتيل ذابل يكاد ينطفئ.

أصواتٌ عميقةٌ بعيدةٌ، تهدُرُ في الخارج وتصل إلى الأسماع كما لو كانت قادمةً من السّماء. دَمْدَمات ضَخمة تهزّ جَنَبات الباب. أرهفَ (زَوْبعة) سَمْعه ليُدركَ جيّدًا ما الّذي يحدث؟! حدّثَ نفسه: إنّها تُشبه أصوات الطّيور!! ثمّ سرعان ما كذّبها مُستغربًا: إذا كانت أصوات القذائف الهائلة لا تصل إلى ربع هذا الصّوت فكيف تكون هذه أصوات طيور؟! لكنّه قرّر أنْ يعرف ذلك بنفسه. شدَّ (رضى) المُستلقي على الأرض ينتظر اللّحظة بالطّريقة الّتي انتظرها بها (الأستاذ)،

وجذبه لينهض : «قُمْ إنّ شيئًا إلهيًا يحدُثُ في الخارج» . نظر إليه (رضى) وقالتْ له عيناه دون شفتيه : «امنحْني القوّة لأنهض ، أما تراني؟!» . حمله (زَوْبعة) بين يديه ، وتوجّه به إلى الشّاشة الصّغيرة ، لم يشأ في البداية أن يعرضها على الجدار المُقابل لتكون مشاهدتها في استطاعة مَنْ تبقّى على قيد الحياة من أهل الكهف ، فأحبّ أن يتأكّد أوّلاً ممّا يجري خارج هذا الباب . بعد أن عرضت الشّاشة المُصغّرة جانبًا من المشهد ، ذُهل (زَوْبعة) ممّا رأى ، ولم يتمالك نفسه فأسقط (رضى) من يديه على الأرض وراح يهذي كالمجنون . تتابعت الأصوات الدّفينة وعلتْ أكثر ، بلع ما جفّ من ريقه ، واستعاد شيئًا من وعيه المفقود ، وصاح : «رِضى . . انظر ما يحدث يا رِضى . . . انظر ما يحدث . . . !!!» .

كانت السّماء كلّها مُغطّاةً بطيور سوداء في حجم العُقاب ، لم تبقَ فُرجةٌ فيها ولا موضع كفٍّ إلاّ وحجبتْه هذا الطّيور عن أن يُرى . أسرابٌ بأعداد لا يُمكن حصرُها أو التّنبّؤ بعددها ، أو تخيُّل امتدادها . لم يَدْرِ أحدٌ من أهل الأرض يومَها من أينَ جاءت ؛ إنّها جاءتْ وحسبُ ، لكنّ (زَوْبعة) بعد أن استعاد جأشه قال : «إنّها جاءت من السّماء أو من الجحيم ، لا يُمكن أن يكون لها مصدرٌ ثالث ، وعلى أيّ حال إنّها ليستْ من الطّيور الّتي تعيش بين البشر!!» .

كانت تحلّق على ارتفاع منخفض حتّى إنّ قمم الجبال البعيدة لم تظهر لكثرة أعدادها الّتي غطّتْها . كان صوتُها زعيقًا يُشبه الوعيد والتّهديد ، ولها عيون كبيرةٌ تحتلّ نصف رأسها الّذي كان بحجم قبضة اليد ، وفي منقارها العَريض حجارةٌ مشتعلة ؛ كأنّها قُدّتْ من نيازكَ سابحة في الفضاء الرّحيب . بدا مجموع صوتها مُرعبًا إلى الحدّ الّذي

كان بمقدوره أن يخلعَ الأفئدةَ من الصّدور ، ولولا رحمة الله وانتصاص باب الكهف للأصوات لخرّ كلّ مَن فيه صَعِقًا لزعيقٍ أشبه بسلاح ينقب الأجساد قبلَ الآذان .

راحتِ الطّيور ترمي ما في مناقيرها من الحجارة المُلتهبة ، فتسقط بسرعةٍ جنونيّة لا تتناسب مع حجمها ومقدار جاذبيّة الأرضِ لها ؛ لكأنّما هذه الحجارة كانت تُضاعف الجاذبيّة الطّبيعيّة للأرض مثل ضعف ، ولذا كانت الحجارة قذائف من الحديد ، حالّما تصل الأرض تلتصق بالشّيء الّذي تُصيبه وتظلّ تغوص فيه إلى أن تُذيبه كإذابة الشّحم على النّار .

غطّت الحجارة كلّ مليمتر في الأرض ، ما من شيء فوقها ظلّ سليمًا ، كلّ الأحياء الّذين كانوا يتحرّكون فقدوا حياتهم جرّاء الزّعيق ، وإنّما جاءت الحجارة لتذيبَ ما وقع منها على أجسادهم . ما من كائن يتحرّك إلاّ وأصابتْه لعنةُ السّماء . كان منظرًا أعظم من أن يحتمله قلبٌ بشريّ ، ولولا أنّنا نتابعه من هذه الشّاشة الصّغيرة لحدث لنا ما حدث لهم من الموت والرّعب .

يومَها لم ينجُ على وجه الأرض من البشر والشّجر والحيوان أحدٌ إلاّ نحن المُلتجئين في هذا الكهف والمُعتصمين فيه . قُضيَ على الملوك والجبابرة والطّغاة ؛ هَلَك (مسعود) و (ويليام) و(داريوس) وجنودهم أجمعون . ليس هذا فحسب ، بل إنّ كلّ آليّاتهم قد ساحت من شدّة حرارة الحجارة النّيزكيّة وذابت في التّراب ولم تسلم آليّةٌ واحدةٌ من ذلك ؛ لا دبّابة ولا صاروخ ولا قنبلة ولا رشّاش ولا أجهزة تنصّت أو استشعار أو أيّة أجهزة أخرى حسّاسة ، وبد أنّنا نحن النّاجين من كلّ هذا العذاب لم يعد لنا في هذه الحياة إلاّ أجسادنا خالية من كلّ شيء

في مواجهة حياة جديدة لا يعلم إلاّ الله كيف ستبدأ .

ظلّت الطّيور يومًا كاملاً تُلقي بما في مناقيرها من الأهوال ، وتُصدر عيقَها القاتل ثمّ رحلت في آخر اللّيل ، وحلّق آخر طير بجناحيه بعيدًا نحو موطن مجهول ، لكنّها تركتْ وراءها يومًا ثقيلاً كأنّه يوم الفزع الأكبر ، وعندَ الفجر كانت البشريّة تتلخّص فينا نحن أهل الكهف .

في الصّباح نهضَ قائدُ سرب الطّائرات الّذي قاتلَ ضدّ (مَسعود) ببسالة ، ووقف كأنّه يريد أن يقول شيئًا مُهمًا على كلّ مَنْ في الكهف أن يسمعه ، سمحتُ له بالحديث أمام الجمع الّذي نهشه الموت من كلّ مكان : «لقد حَلُمتُ بأنّ طيورًا قدمت من بعيد في مناقيرها الموت ، خلّصتْنا من أعدائنا ، وإنّي مؤمنٌ بأنّ مثل هذا حدث ؛ فأطلب منكَ أن تعرض لنا على الجدار ماذا يدورُ في الخارج ؛ فإنْ كان ما رأيتُ نجونا ، وإنْ لم يكنْ فلنفتح للرّبّ صدورنا لنستقبلَ قضاءه» . ابتسمتُ في وجهه ، وقلتُ لهم جميعًا : «إنّ مثلَ هذا قد حدث فِعلاً وإنّه ليس حُلُمًا ، بل رؤيا حقيقة ، وإنّني سأفتحُ لكم الباب وسنخرج جميعًا إلى الوجه الجديد من كوكب الأرض» .

تراكضْنا كالأطفال الأشقياء إلى الباب ، تدافَعْنا عنده ، وحينَ خرجْنا سترْنا عُيوننا بأيدينا نتّقي ضوء الشّمس السّاطع الّذي هاجمنا بعد طول مكث في الظّلام ، إنّه نور الله القادم من الأعالي ليملأ أفئدتنا بدفء الحياة بعد صقيع الموت . لم نستطعْ أن نستوعبَ المشهدَ في البداية ، حاولنا أن نعرف ما الّذي حدث ولماذا؟! آلاف الأسئلة دارتْ في أذهاننا ، لكنّ تساؤلاً واحدًا ظلّ مُعلّقًا دون سواه : «هل كان الأمر يحتاج إلى تدخُّل إلهيّ ؛ لماذا لم نصنع نحن النّصر بأيدينا!!» . ثمّ ماتت الأسئلة دون أن تجدَ جوابًا أشفى من الّذي قال : «إنّها مَشيئة الله الغلاّبة» .

مرّرنا من بين الجثث المُذابة ، كان الزينك والرصاص والنّحاس يملأ الصّدور والرّؤوس ، ويستقرّ بعضُهُ في العيون ، أجسادٌ بالكامل احترقت أو ذابتْ ، وبعضها ساحتْ عليها منصهرات بندقيّته الّتي يحملها او جزء من دبّابته الّتي كان يركبها ، أو جوانب من طائرته الّتي كان يحلّق بها ـ هل انتهى عهد التّكنولوجيا لتعود البشريّة إلى القرون الأولى؟!!

تابعنا المسير إلى الأمام فبدا لنا في ظلّ شجرة وارفة خيال شخص جالس تحتها يلبسُ رداءً أبيضَ يُولّي لنا ظهرَه ، استغربْنا أن تكون شجرة بهذا الجمال والحيويّة والخُضرة ما زالتْ قائمة ، وفي محيطها أطايب الطّعام والشّراب ، نهضَ الشّخص فإذا هو امرأة في العشرين ، كانت حاملاً على وَشْك الوَضْع ، استغربْنا أكثرَ أن تكون قد نجتْ من هذه الكارثة السّاحقة ، وقفتْ وقوفَ مَنْ لم تَبدُ عليها آلامُ الحَمْل ؛ أشارتْ إلى بطنها لتقول لنا إنّ المولود الّذي في أحشائها يتدافَع للخروج من رَحِمها . طلبَ (زَوْبعة) من الأطبّاء الّذين بَقوا على قيد الحياة أن يُهيّئوا لها سريرًا للعناية بها ، والقيام على توليدها بشكل يسير .

خرجَ الصّوتُ الّذي صاح من تحتها فملأ جَنَبات الكهف الواسعة ، كانَ يبدو أنّهُ صراخ الحياة في وجه الموت ، صراخ الاستمرار الوجوديّ في وجه الفناء . كانتْ فرحتنا بقدوم المولود الجديد تساوي فرحتنا أو أكثر بلحظة الخروج من الكهف ، هل هما خروجان مُتشابهان ، هل خرجنا نحن وهذا المولود من الظّلمات إلى النّور ومن الفناء إلى البقاء؟! تتابعت الصّرخات المُشبّعات بالأمل والتّوق ، وسأل زَوْبعة الأمّ في خضمّ الصّخب الرّائع : «ماذا ستُسمّينها؟!» . أجابتْ كأنّها قد سُئلت هذا السّؤال من قبل : «حياة . . . سأُسمّيها حياة» .

(٧٧)
المَعْرَكَةُ الأَخيرَةُ لَمْ تَأتِ بَعدُ!!

عَصَفَتِ الرّيح ، وزمجرت الآفاق ، وأرعدَتِ السّماء ، واكفهرَّت الغيوم ، ومرّت السّحب كأنّها حتوفٌ ماضيةٌ إلى أقدارها ، وانحجبت الشّمس لتأذن للغيب بأن يَعجَل ، وثقبَ البرد الأنفاس ، وتخلّى الفضاء عن مداه ليمتلئ بالمُثقَلات . صاح (زَوْبعة) بمن ظلّ في السّاحات يستطلع الأرض الّتي غطّتها الجثث في كلّ بِقاعها وانتشر فوقها الدّمار الكامل : «إلى الكهف . . . إلى الكهف . . . إنّ السّماء تريدُ أن تقول شيئًا» . أسرَعْنا باتّجاه الكهفِ مثلَ قططٍ تأوي إلى منازلها ، نحتمي منْ غَضَبٍ قادمٍ .

حينَ دخلنا جميعًا الكَهفَ ، أغلق (زَوْبعة) الباب ، وسارَع بإدخال الأرقام السّرّيّة لتعرض الشّاشة الصّغيرة ما يجري في الخارج على حائط الكهف العملاق . بدا المنظر من جديد مَهولاً ، كانت السّماء تهطلُ كأنّها حبسَت بكاءً لملايين السّنين في أعماقها ثمّ انفجرتْ به مرّة واحدة . . . مطرٌ غزيرٌ صيّبٌ تنهلّ به كلّ سحابةٍ في السّماء ، تعاظَم المطر فشكّل سيولاً هدّارة ، راحت السّيول تجرف في طريقها كلّ شيء ؛ طفت الجثث فوق الماء كأنّها أوراقٌ يابسة فوق قناة سائلة ، ومضت السّيول تحمل الجثث إلى مكانٍ بعيد ، لا ندري إلى أين!! لم

تترك السّيول فوق الأرض ممّا علاها شيء ، بقايا المعدّات العسكريّة والآليّات الحربيّة كُشِطت مع الفيضانات كشطًا . قصر (طوبي) المهدّم كُنستْ حجارته مع السّيول وعَصْفِ الرّيح حتّى لم يبقَ منه ما يدلّ على أنّه كان موجودًا .

من بعيد بدت الجبال تُلبّي نداء المشيئة الإلهيّة ، تدحرجتْ من قممها أشلاء أجساد أو بقايا أسلحة ، كلّ ما على القمم أزيلَ كأنّ قبضة جبّارة هرسَتْها ثمّ رمتْها بعيدًا ، وردمتْ فوقها كلّ شيء ؛ «هل كان هذا غضبًا أم رحمةً ، لا بدّ أنّ ظاهره الغضب وباطنه الرّحمة ؛ إنّها مرحلةٌ جديدةٌ من الحياة تنتظرنا» ؛ (هكذا هتف زَوْبعة في نفسه) .

ظلّت السّماء تبكي على المخلوقات فوق الأرض ليلةً كاملةً ، في صباح اليوم التّالي علمْنا مدى رحمة الله بنا ؛ كانت الأرضُ قد أشرقتْ بنور ربّها ، والسّماء قد كفّتْ عن بُكائها ، والسّحب قد رحلتْ ، فخرجْنا من الكهف نستجلي بدائع الله في فعله . التّراب طريّ ، والأمكنة خلتْ من الجثث ومن الأذى ، كانت كأنّما كُنست بمكنسة كونيّة أزالتْ كلّ خبثٍ يرقدُ فوقها . ها هي الأرض تعود بكرًا صالحةً من جديد ، لكأنّ الله يريدُ أن يقول لنا : «لقد أذهبتُ كلّ سوء وكلّ حزنٍ عنكم ، وها أنذا قد خلّصتُكم من كلّ شرٍّ فابدؤوا عمركم القادم ، ولكنْ حذارِ أن تعودوا فتملؤوها بالأرجاس من جديد» .

حلّقتْ طيورٌ بيضاء في الأعالي ، نظر (رضى) نحوها ، عرفَ من بينها طائره الّذي كان يوقظه لصلاة الفجر في الأعالي . كانت الطّيور تحمل في مناقيرها حبوبًا وتطير في كلّ الاتّجاهات ، ألقتْ بما في تلك المناقير من قمح وشعيرٍ وخيرٍ وبركةٍ لتنبتُ الأرضُ النّظيفة بالزّرع الصّالح للقادمين الجُدد .

أفكان التجاؤنا إلى الكهف رحمةً من الله بنا لكي يُبقي على هذه الطّائفة من المؤمنين ، وهذه الأمّ الشّابة أهي حواؤنا الّتي ستضمن هي وابنتها للنّسل البشريّ ألاّ ينقطع ، لكنْ مَنْ يدري : أفيها من الجنّ المؤمنين شيء ، أفيكون البشر في الأصل فيهم من الجنّ ما فيهم ، فيبدو ذلك حينًا ويختفي أخرى ، فيشتبه فيهم الخير على الشّر ، ويختلطُ فيهم الصّالح بالسّيء؟!!

بعد ستّة أيّام انتشرْنا في الأرض ، وسرنا في مناكبها نبحثُ عن رزقنا ، وعن تحقيق آمالنا ؛ بعضُها كان قديمًا عصيًّا على التّفسير ، وورثناه عن آبائنا وأجدادنا ، وبعضُه كان جديدًا أوحتْ لنا به نُفوسُنا القارّة بين جنبَينا ، وبعضُه علّمته لنا الأرض الطّهور ، ولعلّ هذا النّوع الأخير هو الّذي ظلّ بريئًا من الجريمة عندما سيتكاثر النّاس في المستقبل وتتضارب مصالحهم ، وتتنوّع أهواؤهم ، ثمّ يعودون من جديد ليتقاتلوا على كلّ فانٍ وكلّ تافه!!

لزمتُ (زَوْبعة) ولكنْ لا أدري إلى أيّ مدىً يُمكنني أن أفعل ذلك ، نتشابه في النّيّات لكنّنا نختلف في الأعمار ، ربّما سأفارقه إلى الباقية بعد بضع سنين ؛ مَن يدري!! وقد يعيش بعدي قرونًا قبل أن يلتحقَ بي ، لكنّني مدينٌ له بهذه المعرفة الغامضة ؛ معرفة الحياة ؛ إنّها ليستْ كما عرفناها نحن البشر ؛ مساكين نحن ؛ لقد تأكّدتُ أنّ أكثرنا يدخلها ويخرج منها وهو يجهلها تمام الجهل ولا يدري منها شيئًا .

في مساء أرجوانيّ مُشبّع بعبقِ الأخوّة ، كنّا نقف على إحدى قمم الجليل ، ننظر إلى البعيد نستجلي عظمة الخالق . وضعَ (زَوْبعة) يده على كتفي ليقول :

- المعركة الأخيرةُ لم تأتِ بعدُ!!

- أيّةُ معركة؟!! (سألتُه باستغراب)
- المعركة الّتي لا ظُلمَ بعدَها ، وسيقودها المسيح بنفسه!!
- ولكنّ آليات الحرب كلّها قد دُمّرت ، فهل ستخترع العقول آليّات جديدة؟!
- لا ؛ إنّها ستكون بالخيول وبالسّيوف ، كما كانت في العهد الأوّل .
- وهل سنشهدها؟! أحبّ أن أرى السّيّد المسيح وأن أكون جنديًّا في جيشه .
- سيأتي ذلك اليوم . . . سيأتي بلا شكّ .
- وهل سيطول ذلك يا زوْبعة أم يقصُر؟!
- «إنّما علمُها عند ربّي في كتاب ؛ لا يَضِلّ ربّي ولا ينسى» .

انتهت

د . أيمن العتوم
عمّان ٩/ ٨/ ٢٠١٤م .